تفسير الحداد

كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل

لأبي بكر الحداد اليمني

تحقيق

الدكتور محمد إبراهيم يحيى

أستاذ مساعد تفسير القرآن وعلومه
بالجامعة الأسمرية - زليتن - ليبيا

المجلد الثاني



دار المدار الإسلامي

تفسير الحداد

تفسير الحدّاد

كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل

لأبي بكر الحدّاد اليمني

تحقيق

الدكتور محمّد إبراهيم يحيى
أستاذ تفسير القرآن وعلومه
بالجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية
زليتن - ليبيا

الجزء الثاني

دار المدار الإسلامي

الطبعة الأولى

كانون الثاني/يناير/اي النار 2003 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 4165/ 2001
ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-062-X
دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار المدار الإسلامي

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،
خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 ـ بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb
بيروت ـ لبنان

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498، هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218، فاكس: 4442758 . 21 . 00218، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

سورة آل عمران

قال أبو بكر: سورة آل عمران وهي أربعة عشر ألف وخمسمائة وعشرون حرفاً، وثلاثة آلاف كلمة، وأربعمائة وخمس[1] وثمانون كلمة، ومائتا آية. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من قرأ سورة آل عمران يوم الجمعة صلى اللَّه وملائكته عليه حتى تجب الشمس**»[2]. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: م«**ن قرأ آل عمران أعطي بكل آية منها أماناً على جسر جهنم**». وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**تعلموا البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان وإنهما يأتيان يوم القيامة في صورة ملكين يشفعان لصاحبهما حتى يدخلاه الجنة**»[3]. وفضائلهما أكثر من أن تحصى.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ (1) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ (2) نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ
يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ (3) مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ (4) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي
ٱلسَّمَآءِ (5) هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ
(6) هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا
ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (7)
رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ (8)﴾.

---

(1) في النسخة (ف): وثمانون.

(2) ذكره الهيثمي في: مجمع الزوائد: 2/ 168.

(3) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 6/ 90، فضل قراءة القرآن.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ قال ابن عباس: معناه اللَّه أعلم. ويقال: هو قسم أقسم اللَّه بأنه واحد لا شريك له ولا معبود للخلق سواه. وقد تقدم تفسير الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. قال الربيع بن أنس[1]: أنزلت هذه الآيات في وفد نجران[2] وكانوا ستين راكباً، قدموا على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم[3] وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم وفي الأربعة عشر ثلاثة يؤول أمرهم إليهم: العاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح؛ والثاني اسمه الأيهم صاحب رحلهم؛ وأبو حارثة بن علقمة إمامهم وصاحب مدراسهم[4]، وكان قد درس كتبهم حتى حسن عمله في دينهم. فدخلوا على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في مسجده وقت صلاة العصر وعليهم ثياب الحبرات[5] جبب وأردية. فقاموا فصلوا في مسجد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وتوجهوا إلى ناحية المشرق فقال صلى اللَّه عليه وسلم للعاقب والأيهم: «**أسلما**». فقالا: قد أسلمنا قبلك. فقال: «**كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير**». قالا: إن لم يكن ولداً لله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى عليه السلام. فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو شبه أبيه؟**» قالوا: بلى. قال: «**ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟**» قالوا: بلى. قال: «**ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟**» قالوا: بلى. قال: «**فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟**» قالوا: لا. قال: «**ألستم تعلمون أن اللَّه عز**

---

(1) في النسخة (ف): قال أنس رضي اللَّه عنه.

(2) بلدة كبيرة على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن.

(3) في السنة الثانية من الهجرة قبل عام الوفود الذي اشتهر بسنة تسع من الهجرة.

(4) المدراس ـ بكسر الميم وسكون الدال ـ هو البيت الذي يدرسون فيه كتبهم. ويعني بقوله: صاحب مدراسهم: عالمهم الذي درس الكتب، يفتيهم ويتكلم بالحجة في دينهم.

(5) الحبرات ـ بكسر الحاء وفتح الباء ـ جمع حبرة وهو ضرب موشى من برود اليمن، تصنع من القطن وتوشى. سميت بذلك لأنها تحبر، أي تزين. يقال: حبرت الشيء تحبيراً إذا جملته.

وجل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟» قالوا: بلى. قال: «**فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً غير ما علمه اللَّه؟**» قالوا: لا. قال: «**فإن ربنا صوَّر عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث، ألستم تعلمون ذلك؟**» قالوا: بلى. قال: «**ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ووضعته كما تضع المرأة، ثم غذي كما يغذى الصبي، فكان يطعم ويشرب ويحدث**»، قالوا: بلى. قال: «**فكيف يكون هذا كما زعمتم؟**» فسكتوا فأنزل اللَّه تعالى فيهم أول سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها[1]، فقال عز وجل: ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ أي الدائم الذي لا ند له والذي لا يموت ولا يزول. القائم على كل نفس بما كسبت. وأكثر القراء على فتح الميم من ﴿الٓمٓ ۝١﴾. وللفتح وجهان، أحدهما: أنه لما كانت الميم بعد ياء ساكنة استثقلوا فيها السكون فحركوها إلى الفتح، لأن ذلك أخف نحو: أين وكيف؛ والثاني أنه ألقي عليها فتحة الهمزة من ألف «اللَّه» وهذا جائز في الهجاء وإن كان لا يجوز مثله في الكلام الموصول، من حيث إن حروف الهجاء مبنية على الوقف. ومن قرأ بتسكين الميم فعلى أصل حروف الهجاء أنها مبنية على الوقف والسكون[2].

قوله عز وجل: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ قرأ ابراهيم بن أبي عبلة: نزل عليك الكتاب ـ بتخفيف الزاي ورفع الباء[3]. وقرأ الباقون بالتشديد ونصب الباء، لأن القرآن كان ينزل نجوماً شيئاً بعد شيء والتنزيل مرة بعد مرة.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ لأنهما نزلا دفعة واحدة. ومعنى الآية: نزل عليك يا محمد القرآن بالصدق لإقامة أمر حق.

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي موافقاً لما تقدمه من التوراة والإنجيل وسائر كتب اللَّه تعالى في الدعاء إلى توحيد اللَّه، وبيان أقاصيص

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 83 ـ 84 ـ الطبري في تفسيره: 6/ 154.
(2) المهذب في القراءات العشر وتوجيهها: 1/ 113. وكذا الفراء في معاني القرآن: 1/ 9 ـ والنحاس في إعراب القرآن 1/ 353 ـ 354.
(3) ينظر ابن جني في: المحتسب: 1/ 160. فقد اعتبر محققه هذه القراءة لإبراهيم النخعي.

الأنبياء، والأمر بالعدل والإحسان وسائر ما لا يجري فيه نسخ من بعض الشرائع. وانتصب «مصدقاً» على الحال من «الكتاب».

قوله عز وجل: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ أي أنزل التوراة جملة على موسى، والإنجيل جملة على عيسى من قبل القرآن.

قوله ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي بياناً ونوراً وضياء لمن تبعه. وموضع هدى نصب على الحال.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[1] وأعاد ذكره لبيان أنه يفرق بين الحق والباطل، ومتى اختلفت فوائد الصفات على موصوف واحد لم يكن ذكر الصفة الثانية تكراراً، بل تكون الثانية في حكم المبتدأ لأن لكل صفة فائدة ليست للأخرى، والصفة الأولى تفيد أن من شأنه أن يكتب، والصفة الثانية تفيد أن من شأنه أن يفرق بين الحق والباطل. وقيل إن كل كتاب لله فهو فرقان.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ معناه: إن في كتب اللّه ما يدل على صدق قوله، فمن جحد بآيات اللّه وهي العلامات الهادية إليه الدالة على توحيده فأولئك لهم عذاب شديد، واللّه عزيز أي غالب في أمره لا اشتهاء لأحد في منعه ممن يريد عذابه، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي ذو نقمة ينتقم ممن عصاه، ثم حذرهم عن التلبيس والاستتار بالمعصية فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ أي لا يخفى عليه قول الكفار وعملهم، يحصي كل ما يعملونه فيجازيهم عليه في الآخرة. وفائدة تخصيص الأرض والسماء وإن كان لا يخفى عليه شيء بوجه من الوجوه: أن ذكر الأرض والسماء أكبر في النفس وأهول في الصدر، فذكره على وجه الأهوال إذ كان الغرض به التحذير.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي أرحام الأمهات

---

(1) وذكر التنزيل أولاً، والإنزال ثانياً، لكونه جامعاً بين الوصفين، فإنه أنزل إلى سماء الدنيا جملة، ثم نزل منها على النبي صلى اللّه عليه وسلم مفرقاً منجماً على حسب الحوادث.

كيف يشاء من لون وطول، وقصر وعظم وصغر، وذكورة وأنوثة، وحسناً وقبحاً، وسعيداً وشقياً.

قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي لا مصور ولا خالق إلا هو. ومعنى العزيز: المنيع في سلطانه لا يغالب ولا يمانع. ومعنى الحكيم: المحكم في تدبيره وقضائه في عباده. وأفعال اللّه تعالى كلها شاهدة بأنه الواحد القديم العالم القادر.

قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ قال ابن عباس: معناه: هو الذي أنزل عليك الكتاب، أي القرآن منه آيات واضحات مبينات للحلال والحرام ولم تنسخ من أصل الكتاب الذي أنزل عليك العمل به في الأحكام وهن أما في التوراة والإنجيل والزبور وكل كتاب نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ أي ومنه آيات أخر متشابهات مثل: ﴿الٓمٓصٓ ①﴾[2]. وقيل: معناه يشبه بعضها بعضاً. واختلفوا في المحكم والمتشابه فقال قتادة والربيع والضحاك والسدي: المحكم هو الناسخ الذي يعمل به، والمتشابه هو المنسوخ الذي يؤمن به ولا يعمل به[3]. وعن ابن عباس قال: محكمات القرآن ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وأوامره، والمتشابهات: منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه[4]. وقال مجاهد وعكرمة: المحكم ما فيه الحلال والحرام، وما سوى ذلك متشابه. وقال بعضهم: المحكم هو الذي لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما احتمل وجوهاً. وقال ابن زيد: المحكم ما ذكره اللّه من قصص الأنبياء مثل قصة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام... والمتشابه هو ما اختلف فيه الألفاظ من قصصهم عند التكرار، كما في موضع من قصة نوح: ﴿قُلْنَا

---

(1) سورة الأنعام (6)، الآية: 151.
(2) يراجع: تفسير البغوي، معالم التنزيل: 1/ 426.
(3) يراجع: تفسير الطبري: 6/ 175 ـ 176.
(4) تفسير الطبري: 6/ 175.

ٱحْمِلْ﴾[1]، وفي موضع آخر: ﴿فَٱسْلُكْ﴾[2] وقال تعالى في ذكر العصا: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ﴾[3]، وفي موضع آخر: ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾[4]، ونحو قوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾[5] ونحو: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾[6] ونحو ذلك[7]. وقال بعضهم: المحكم ما عرف العلماء تأويله وفهموا معانيه، والمتشابه ما ليس لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر اللَّه بعلمه نحو: خروج الدجال، ونزول عيسى، وطلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة، وفناء الدنيا.. وقال ابن كيسان: المحكمات حججها واضحة ودلائلها واضحة لا حاجة لمن سمعها إلى طلب معانيها، والمتشابه هو الذي يدرك علمه بالنظر ولا يعرف العوام[8] تفصيل الحق فيه من الباطل. وقال بعضهم: المحكم ما اجتمع على تأويله، والمتشابه ما ليس فيه بيان قاطع. وقال محمد بن الفضل[9]: المحكم هو سورة الإخلاص، لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط[10]، والمتشابه نحو قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾[11] ونحو قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[12] ونحو ذلك مما يحتاج إلى تأويلها في الإبانة عنها. ويقال: المحكم نحو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[13]، والمتشابه نحو قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾[14]، ثم قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا

---

(1) سورة هود (11)، الآية: 40.
(2) سورة المؤمنون (23)، الآية: 27.
(3) سورة طه (20)، الآية: 20.
(4) سورة الشعراء (26)، الآية: 32.
(5) سورة الرحمن (55)، عند رؤوس الآيات.
(6) سورة المرسلات (77)، عند رؤوس الآيات.
(7) يراجع: تفسير الطبري: 6/ 178 وما بعدها.
(8) في النسخة (س): القوم.
(9) أبو عبد اللَّه محمد بن الفضل البلخي: من الرجال العاملين الزاهدين في الدنيا. صحب أحمد ابن خضرويه وغيره. توفي سنة تسع عشرة وثلاثمائة هجرية.
الرسالة القشيرية: 129 ـ حلية الأولياء: 19/ 244.
(10) تفسير القرطبي: 4/ 10.
(11) سورة طه (20)، الآية: 5.
(12) سورة ص (38)، الآية: 75.
(13) سورة السجدة (32)، الآية: 4.
(14) سورة فصلت (41)، الآية: 9.

﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾[1]، ثم قال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾[2] فظن من لا معرفة له أن العدد ثمانية أيام، ولم يعلم أن اليومين الأولين داخلان في الأربعة التي ذكرها اللّه من بعد. وقال الزجاج: المحكم ما اعترف به أهل الشرك مما أخبر اللّه به من إنشاء الخلق، وجعله من الماء كل شيء حي، وما خلق اللّه من الثمار وسخر لهم من الفلك والرياح؛ والمتشابه ما تشابه عليهم من أمر البعث[3]. وقد سمى اللّه تعالى جملة القرآن محكماً فقال: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾[4] فوصفه بالأحكام كله، وسماه كله متشابهاً في آية أخرى فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾[5] أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن والتصديق.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ معناه: فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق والهدى وهم اليهود يتبعون ما اشتبه عليهم من أمر الحروف المقطعة، يحسبون ذلك بحساب الجمل ابتغاء الفتنة، أي طلب الكفر والشرك وابتغاء تأويله في طلب تفسير منتهى ما كتب اللّه لأمة محمد صلى اللّه عليه وسلم من المدة ليرجع الملك إلى اليهود. وما يعلم تفسير ما كتب اللّه لهذه الأمة إلا اللّه. وقال الربيع: إن هذه الآية نزلت في وفد نصارى نجران لما حاجوا النبي صلى اللّه عليه وسلم في المسيح فقالوا: أليس هو كلمة اللّه وروح منه؟ قال: «**بلى**». قالوا: حسبنا. فأنزل اللّه هذه الآية[6]. وقال ابن جريج: الذين في قلوبهم زيغ أي شك، وهم المنافقون. وقال الحسن: هم الخوارج. وقال بعضهم: جميع المبتدعة[7]. أعاذنا اللّه من البدعة. ومعنى الآية: أن النصارى صرفوا كلمة اللّه إلى ما يقولون من قدم عيسى مع اللّه عز وجل وصرفوا قوله: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾[8]

---

(1) سورة فصلت (41)، الآية: 10.
(2) سورة فصلت (41)، الآية: 12.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 376، مع بعض التصرف.
(4) سورة هود (11)، الآية: الأولى.
(5) سورة الزمر (39)، الآية: 23.
(6) يراجع: تفسير الثعلبي، الكشف والبيان: خ، ورقة: 211.
(7) تراجع هذه الأقوال في: معالم التنزيل: 1/ 427 ـ 428.
(8) سورة النساء (4)، الآية: 171.

إلى أنه جزء منه كروح الإنسان. وإنما أراد اللّه تعالى بقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ أن اللّه تعالى إنما صيره بكلمة منه وهي قوله: ﴿كُن﴾ فكان وسماه روحه لأنه خلقه من غير أب، بل أمر جبريل فنفخ في جيب مريم عليها السلام، فهو روح من اللّه تعالى أضافه اللّه إلى نفسه تشريفاً له كبيت اللّه وأرض اللّه. وقيل: سماه روحاً لأنه كان يحيي الموتى، كما سمى القرآن من حيث إن فيه حياة الناس في أمر دينهم، قال اللّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾(1) فصرف أهل الزيغ قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ إلى مذاهبهم الفاسدة طلب الكفر والضلال، ولم يردوا هذا اللفظ إلى ما اشتبه عليهم وشبهوه على أنفسهم إلى الآية المحكمة، وهي قوله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾(2). فعلى هذا يكون ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي ما يعلم تأويل جميع المتشابه حتى يستوعب علم المتشابهات كلها إلا اللّه. واختلف أهل العلم في معنى هذه الآية فقال قوم: الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ واو العطف، يعني أن تأويل المتشابه يعلمه اللّه ويعلمه الراسخون في العلم، وهم مع علمهم يقولون آمنا به. والمعنى: والثابتون في العلم يعلمون تأويل ما نصب اللّه لهم الدلالة عليه من المتشابه، وبعلمهم يقولون ربنا آمنا به. فيروى عن ابن عباس: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ يعلمونه قائلين آمنا به(3). ومنهم من جعل تمام الكلام عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وفي قراءة ابن مسعود: ويقول الراسخون في العلم آمنا به. وهو مروي أيضاً عن ابن عباس. ولا يبعد أن يكون القرآن تأويل استأثر اللّه بعلمه دون خلقه، لأنا لا نعلم مراد اللّه وحكمته في جميع أوامره ونواهيه، غير أنه ألزمنا العمل بما أنزله ولم يطالبنا بما لا سبيل له إلى معرفته، ولم يخف عنا علم ما غاب عنا مثل قيام الساعة وغير ذلك إلا لما فيه من المصلحة لنا، وما هو خير لنا في ديننا ودنيانا وما علمناه فلم يعلمناه إلا لمصلحتنا ونفعنا، فنعترف بصحة جميع ما أنزل اللّه والتصديق بذلك كله ما

---

(1) سورة الشورى (42)، الآية: 52.

(2) سورة آل عمران (3)، الآية: 59.

(3) تفسير الطبري: 6/ 202.

علمناه منه وما لم نعلم. وكان ابن عباس يقول: أنا من الراسخين في العلم. وقرأ مجاهد هذه الآية فقال: أنا ممن يعلم تأويله[1]. وروي عن عكرمة عن ابن عباس قال: كل القرآن أعلم تأويله إلا أربعاً: غسلين، وحناناً، والأواه، والرقيم. وهذا إنما قاله ابن عباس في وقت، ثم علمها بعد ذلك وفسرها. وممن اختار تمام الكلام عند قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ واستأنف الكلام بقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ عائشة وعروة بن الزبير ورواية طاوس عن ابن عباس كذلك أيضاً، واختاره الكسائي والفراء ومحمد بن جرير وقالوا: إن الراسخين لا يعلمون تأويله ولكنهم مؤمنون به[2]. والآية راجعة على هذا التأويل إلى العلم بمدة أجل هذه الأمة، ووقت قيام الساعة وفناء الدنيا، ووقت طلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى، وخروج الدجال وياجوج وماجوج، وعلم الروح ونحوها مما استأثر اللَّه بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه.

قوله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ أخر جمع أخرى ولم ينصرف معدول عن آخر مثل عمر وزفر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ قال بعضهم: علماء أهل الكتاب الذين آمنوا منهم مثل عبد اللَّه بن سلام وأصحابه، ودليله قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾[3] يعني الدارسين علم التوراة. وعن أبي أمامة قال: سئل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: من الراسخون في العلم؟ فقال: «**من بر في يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، وعف بطنه وفرجه فذلك الراسخون في العلم**»[4]. وسئل مالك بن أنس عن تفسير الراسخون في العلم من هم؟ فقال: الراسخ هو العالم العامل بما علم المتبع له[5]. وقيل: الراسخون في العلم المتواضعون لله، والمتذللون في طلب مرضاته لا يتعاظمون على من فوقهم، ولا يحتقرون

---

(1) تفسير الطبري: 6/ 203.
(2) يراجع: الفراء، معاني القرآن: 1/ 191 ـ وتفسير الطبري: 6/ 204.
(3) سورة النساء (4)، الآية: 162.
(4) ذكره الطبري في تفسيره: 6/ 206.
(5) يراجع تفسير البغوي: 1/ 429.

من دونهم. وقال بعضهم: الراسخ في العلم من وجد في علمه[1] أربعة أشياء: التقوى بينه وبين اللّٰه، والتواضع بينه وبين الخلق، والزهد بينه وبين الدنيا، والمجاهدة بينه وبين نفسه.

قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي ويقول الراسخون في العلم ربنا لا تمل قلوبنا عن الحق والهدى كما أزغت قلوب اليهود والنصارى بعد إذ هديتنا، أي لا تزغ قلوبنا بعد إن أرشدتنا ونصرتنا ووفقتنا لدينك الحق.

قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي أعطنا من عندك نعمة، وقيل: لطفاً، أي ثبت قلوبنا على الهدى. واسم الرحمة يقع على كل خير ونعمة. وقيل: معناه وهب لنا من لدنك توفيقاً وتثبيتاً على الإيمان والهدى. وقال الضحاك: معناه وهب لنا تجاوزاً ومغفرة وقيل: هب لنا لزوم خدمتك على شرط السنة.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ أي أنت المعطي. والوهاب: الذي من عادته الإعطاء والهبة. وإنما سمي القلب قلباً لتقلبه، وإنما مثل القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض. وعن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال: «**إن قلب ابن آدم مثل العصفور يتقلب في اليوم سبع مرات**»[2].

قوله تعالى:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (9) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (10) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (11) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (12) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (13)﴾.

---

(1) في النسخة (ف): عمله.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره: خ، ورقة: 212.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ أي يقولون ربنا إنك محيي الناس بأجمعهم بعد الموت لجزاء يوم لا ريب فيه، أي لا شك فيه، يعني يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾ أي لا يخلف اللّه ما وعد من البعث والحساب والميزان والجنة والنار.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾ أراد بالذين كفروا اليهود الذين تقدم ذكرهم. وقيل: أراد بهم نصارى نجران. ويقال: عامة الكفار. ومعنى ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾ أي لا يدفع عنهم كثرة أموالهم وأولادهم شيئاً من عذاب اللّه في الدنيا والآخرة لأنه لا يقبل منهم فداء ولا شفاعة. وسمي المال غناء لأنه يدفع عن مالكه الفقر والنوائب، فأخبر اللّه أن أموال هؤلاء الكفار وأولادهم لا يقيهم من العذاب. قرأ السلمي: يغني عنهم ـ بالياء لتقدم الفعل ودخول الحائل بين الاسم والفعل[1]. وقرأ الحسن: لن تغني ـ بالتاء وسكون الياء[2].

قوله عز وجل: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ أي حطب النار. والوقود ـ بنصب الواو: ما توقد به. وفي هذا بيان أن أهل النار يحترقون في النار احتراق الحطب لا كما يحترق الإنسان بنار الدنيا يسيل الصديد من الإنسان ولا يأخذه كما يأخذ الحطب. ومن قرأ: وقود ـ بضم الواو[3] فهو مصدر وقدت النار وقوداً، كما يقال: ورد وروداً، فيكون المعنى: أولئك هم ذو وقود النار.

قوله عز وجل: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ الآية.. معناه: أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من اللّه شيئاً عند حلول النقمة والعقوبة مثل آل فرعون وكفار الأمم الخالية، أخذناهم وعاقبناهم فلن تغني

---

(1) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 21.
(2) نفس المصدر.
(3) نسب النحاس في: إعراب القرآن: 1/ 358 هذه القراءة إلى: الحسن ومجاهد وطلحة بن مصرف.

عنهم أموالهم ولا أولادهم وقيل: معناه عادة هؤلاء الكفار في الكفر والتكذيب بالحق كعادة آل فرعون وعادة الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود كذبوا بكتبنا ورسلنا فعاقبهم اللّه بكفرهم وشركهم، واللّه شديد العقاب إذا عاقب فعقابة شديد على الدوام والتأبيد، لا كعقوبة أهل الدنيا. والدأب في اللغة: العادة، كذا قال النضر بن شميل والمبرد، فيكون معناه: كعادة آل فرعون. وقال الزجاج: الدأب الاجتهاد، أي كاجتهاد آل فرعون في كفرهم وتظاهرهم على الباطل. يقال: دأب في كذا يدأب دأباً إذا داوم العمل فيه، ثم نقل معناه إلى الشأن والحال والعادة[1]. وعن ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك والسدي معناه: كفعل آل فرعون وصنيعهم في الكفر والتكذيب. يقول: كفرت اليهود بمحمد ككفر فرعون والذين من قبلهم. وقال الربيع والكسائي معناه: كشبه آل فرعون [وقال الأخفش: كأمر آل فرعون وشأنهم[2]. وقال قطرب: كحال آل فرعون][3]. وقال سيبويه: الكاف في «كدأب» في موضع رفع خبر لمبتدأ تقديره: دأبهم كدأب آل فرعون.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢﴾ أي قل يا محمد للذين كفروا ستهزمون وتقتلون وتحشرون بعد الموت إلى جهنم وبئس الفراش. قرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وخلف: بالياء فيهما، والباقون بالتاء. فمن قرأهما بالياء فعلى الإخبار عنهم أنهم يغلبون ويحشرون، ومن قرأهما بالتاء فعلى الخطاب، أي قل لهم إنكم ستغلبون وتحشرون[4]. واختلف المفسرون في هؤلاء الكفار، فقال مقاتل: هم كفار مكة، ومعناه: قل لكفار مكة ستغلبون يوم بدر وتحشرون إلى جهنم في الآخرة. فلما نزلت هذه الآية قال النبي صلى اللّه عليه وسلم للكفار يوم بدر: «**إن اللّه غالبكم وحاشركم إلى جهنم**»[5]. وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن

---

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 380.
(2) الأخفش، معاني القرآن: 1/ 395.
(3) ما بين المعقوفين ساقط من النسخة (ف) من غير بياض.
(4) يراجع: مكي، الكشف، 1/ 535 ـ وتفسير الثعلبي: خ، ورقة: 212.
(5) يراجع: تفسير البغوي: 1/ 432.

المراد بهم يهود المدينة، وذلك أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم لما هزم الكفار يوم بدر قالت اليهود: هذا واللَّه النبي الأمي الذي بشرنا موسى به، وذلك أنا نجده في التوراة بنعته[1] وصفته، وأنه لا ترد له راية، وأرادوا تصديقه واتباعه، فقال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة أخرى. فلما كان يوم أحد وغُلب أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قالوا: واللَّه ما هو به. فغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا، وكان بينهم وبين رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عهد إلى مدة فنقضوا ذلك العهد قبل أجله، وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أبي سفيان بمكة ووافقوهم على أن تكون كلمتهم واحدة، ثم رجعوا إلى المدينة، فأنزل اللَّه هذه الآية[2]. وعن ابن عباس وقتادة أنهما قالا: لما أهلك اللَّه قريشاً يوم بدر، جمع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم اليهود بسوق بني قينقاع فدعاهم إلى الإسلام وحذرهم مثل ما نزل بقريش من الأسقام، فأبوا وقالوا: لسنا كقريش الأغمار الذين لم يعرفوا القتال ولم يمارسوه، لئن حاربتنا لتقاتلن رجالاً وتعرف البأس والشدة. فأنزل اللَّه هذه الآية[3].

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ أي قد كان لكم أيها اليهود عبرة ودلالة على صدق ما أقول لكم في فرقتين التقتا يوم بدر؛ فرقة تقاتل في سبيل اللَّه، أي في طاعة اللَّه وهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً سبعة وسبعون من المهاجرين، ومئتان وستة وثلاثون من الأنصار[4]. وكان صاحب راية رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم والمهاجرين علي رضي اللَّه عنه، وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة، وكان جملة الإبل التي في جيش رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يومئذ سبعين بعيراً، والخيل

---

(1) في النسخة (ف): بعينه.
(2) يراجع: ابن عطية: المحرر الوجيز: 3/ 28 ـ والواحدي، أسباب النزول: 84.
(3) الواحدي، أسباب النزول: 84.
(4) سيرة ابن هشام: 2/ 61 ـ ابن سعد، الطبقات البكرى: 2/ 8.

فرسين، فرس المقداد[1] وفرس مرثد بن أبي مرثد. وقيل فرس علي، وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف، وجميع من استشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً؛ ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي فرقة أخرى كافرة، وهم كفار مكة تسعمائة وخمسون رجلاً مقاتلين، ورئيسهم يومئذ عتبة بن ربيعة، وكانت خيلهم مائة فرس، وكانت حرب بدر أول مشهد شهده رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ من قرأ بالياء فالمعنى: ترى الفئة المؤمنة الفئة الكافرة مثليهم ظاهر العين، أي ظن المسلمون أن المشركين ستمائة ونيف، وأنهم يغلبون المشركين كما وعدهم اللّه بقوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[2] قلل اللّه المسلمين في أعين المشركين، والمشركين في أعين المسلمين حتى اقتتل الفريقان كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾[3] ثم قذف اللّه الرعب في قلوب الكفرة حتى انهزموا بكف من تراب أخذه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فرماه في وجوههم وقال: «**شاهت الوجوه**». ومن قرأ: ترونهم ـ بالتاء فهو خطاب لليهود، يعني ترون كفار مكة والمؤمنين رأي العين. فإن قيل: لم قال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾.. ولم يقل كانت والآية مؤنثة؟ قيل: لأنه ردها إلى البيان، أي قد كان حكم البيان آية فذهب إلى المعنى وترك اللفظ.

قوله عز وجل: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ قرأ أبو رجاء والحسن وشيبة ونافع ويعقوب: بالتاء، والباقون بالياء[4].

---

(1) أبو معبد المقداد بن عمرو الكندي: صحابي من الأبطال، أحد السابقين إلى الإسلام، وأول من قاتل على فرس في سبيل اللّه، شهد بدراً وغيرها من المشاهد مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. توفي سنة ثلاث وثلاثين هجرية.
الطبقات الكبرى: 3/ 119 ـ صفة الصفوة: 1/ 167 ـ حلية الأولياء: 1/ 172.

(2) سورة الأنفال (8)، الآية: 66.

(3) نفس السورة، الآية: 44.

(4) يراجع: مكي، الكشف: 1/ 336 ـ والمهذب في القراءات: 1/ 114.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يقوي ويشدد بقوته من يشاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي إن في غلبة المؤمنين للمشركين مع قلة المؤمنين وشوكة المشركين لعبرة لذوي الأبصار في الدين، أي لذوي بصارة القلوب. ويجوز أن يكون معناه: لعبرة لمن أبصر الجمعين بعينه يومئذ. وفي قوله تعالى: ﴿فِئَةٌ﴾ قراءتان: من قرأها بالرفع فعلى معنى: إحداهما فئة تقاتل، ومن قرأها بالخفض فعلى البدل من فئتين كما قال الشاعر:[1]

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت[2]

قال الله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ (14) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (15) ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (16) ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ (17)﴾.

---

(1) أبو صخر، كثير بن عبد الرحمن الخزاعي، ويعرف باسم حبيبته عزة.

(2) هذا البيت من البحر الطويل، من قصيدته التائية التي مطلعها:

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم انزلا حيث حلت

وهو معطوف على أمنية تمناها في الأبيات السالفة حيث قال:

فليت قلوصي عند عزة قيدت بحبل ضعيف عزّ منها فضلت

وغودر في الحي المقيمين رحلها وكان لها باغ سواي فبلت

وكنت كذي رجلين...

تمنى الشاعر أن تضيع قلوصه فيبقى في حي عزة، فيكون ببقائه في حي عزة كذي رجل صحيحة، ويكون بعدمه لناقته، وضياع قلوصه كذي رجل عليلة.

(يراجع: ديوان الشاعر: 1/ 46 ـ الزجاج، معاني القرآن: 1/ 381 ـ الخزانة: 5/ 211 ـ شواهد المغني: 7/ 38 ـ كتاب سيبويه: 1/ 433 ـ ابن يعيش: 3/ 68).

قوله عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ بين الله بهذه الآية أن ما يبسطه للمشركين من زهرة الدنيا وزينتها هو الذي يمنعهم من تصديق النبي صلى الله عليه وسلم فيما يدعوهم إليه. والمعنى: حسن للناس حب الشهوات: اللذات والمشتهيات من النساء والبنين. بدأ بالنساء لأنهم حبائل الشيطان وأقرب إلى الافتتان، ويحملن الرجال على قطع الأرحام والآباء والأمهات وجمع المال من الحلال والحرام. قوله: ﴿وَٱلۡبَنِينَ﴾ قال صلى الله عليه وسلم: «**هم ثمرة القلوب وقرة الأعين، وإنهم مع ذلك لمجبنة مبخلة**»(1).

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ﴾ القناطير جمع قنطار. واختلفوا فيه فقال الربيع: القنطار هو المال الكثير بعضه على بعض(2). وقال ابن كيسان: هو المال العظيم(3). وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**القنطار اثنا عشر ألف أوقية**»(4). وعن أنس أن القنطار ألف مثقال. وعن معاذ؛ ألف ومائتا أوقية(5). وعن أنس أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ألفا مثقال**». وعن عكرمة: مائة ألف ومائة من ومائة رطل ومثقال ومائة درهم. وقيل: القنطار ما بين السماء والأرض من المال. وقيل: ملء مسك ثور ذهباً وفضة. وقال ابن المسيب وقتادة: ثمانون ألفاً. وعن مجاهد: سبعون ألفاً. وعن الحسن أنه قال: القنطار مثل دية أحدكم وحاصله أن القنطار هو المال الكثير(6). قوله: ﴿ٱلۡمُقَنطَرَةِ﴾ قال قتادة: أي المنضدة بعضها فوق بعض. وقال بعضهم: المقنطرة المدفونة. وقال السدي: المضروبة المنقوشة(7).

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره: خ، ورقة: 214. أي إن الأبناء يجعلون آباءهم يجبنون خوفاً من الموت فيصيب أبناءهم اليتم وآلامه، ويجعلونهم يبخلون فلا ينفقون فيما ينبغي الإنفاق فيه، إيثاراً لهم بالمال.

(2) يراجع: البغوي في معالم التنزيل: 1/ 435.

(3) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 31.

(4) يراجع: تفسير الثعلبي: خ، ورقة: 124.

(5) ذكره القرطبي في تفسيره: 4/ 30.

(6) تراجع هذه الأقوال في تفسير الطبري: 6/ 244 وما بعدها.

(7) ذكره البغوي في تفسيره هذه الأقوال: 1/ 435.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾. سمي الذهب ذهباً لأنه يذهب ولا يبقى، والفضة لأنها تنفض، أي تتفرق.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ الخيل جمع لا واحد له من لفظه، واحده فرس. والمسوَّمة: هي الرواتع، من السوم وهو الرعي. قال اللَّه تعالى: ﴿شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[1]، أو يكون من السيماء وهي العلامة من الأوضاح والغرر التي تكون في الخيل. وقال السدي: المسومة هي الواقفة. وقال مجاهد: الحسان. وقال الأخفش: هي المعلمة. وقال ابن كيسان: البلق[2]. روي عن علي رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**لما أراد اللَّه أن يخلق الخيل قال للريح الجنوب إني خالق منك خلقاً فاجعله عزاً لأوليائي ومذلة لأعدائي وجمالاً لأهل طاعتي. ثم خلق فرساً وقال له: خلقتك وجعلت الخير معقوداً بناصيتك، والغنائم مجموعة على ظهرك، عطفت عليك صاحبك وجعلتك تطير بلا جناح وأنت للطلب وأنت للهرب، وسأجعل على ظهرك رجالاً يسبحونني ويحمدونني ويهللونني ويكبرونني**». كذا في تفسير الثعلبي[3]. وقيل: خلق اللَّه خيلاً بلقاء أعناقها كأعناق البخت، فلما أرسلها اللَّه إلى الأرض واستوت أقدامها صهل فرس منها فقيل له: بوركت من دابة أذل بصهيلك المشركين وأذل به أعناقهم وأملأ به آذانهم وأرعب به قلوبهم. فلما عرض اللَّه على آدم كل شيء قال له: اختر من خلقي ما شئت، فاختار الفرس، فقيل له: اخترت عزك وعز ولدك، ما خلقت خلقاً أعز علي منك ومنه[4]. وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»[5]. وعن أنس قال: لم يكن شيء أحب إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بعد النساء من الخيل[6]. وعن أبي

---

(1) سورة النحل (16)، الآية: 10.
(2) تراجع هذه الأقوال في تفسير القرطبي: 4/ 34.
(3) يراجع الثعلبي في تفسيره: خ، ورقة: 215.
(4) يراجع تفسير القرطبي: 4/ 34.
(5) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 6/ 141، رقم: 2850 ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 13/ 16، باب فضيلة الخيل.
(6) رواه النسائي في سننه: 6/ 181، باب حب الخيل.

ذر قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**ما من فرس عربي إلا يؤذن له عند كل فجر بدعوة فيقول: اللهم من خولتني من بني آدم وجعلتني له فاجعلني أحب أهله وماله إليه**»[1]. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: ا«**ربطوا الخيل وامسحوا بنواصيها، وعليكم بكل كميت أغر محجل أو أشقر أغر محجل أو أدهم أغر محجل**»[2]. وعن أبي هريرة قال: كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يكره الشكال من الخيل[3]، وهو أن يكون له ثلاث قوائم محجلة وأخرى مطلقة، أو تكون الثلاث مطلقة والرابعة محجلة. ولا يكون الشكال إلا في الرجل دون اليد. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**الشؤم في ثلاثة: المرأة والفرس والدار**»[4]. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**الخيل ثلاثة: فرس للرحمن، وفرس للإنسان، وفرس للشيطان، فالذي للرحمن هو ما اتخذ في سبيل اللَّه وقوتل عليه أعداء اللَّه، وأما فرس الإنسان فما استطرق عليه، وأما فرس الشيطان فما روهن عليه أو قومر عليه**»[5].

قوله عز وجل: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ الأنعام جمع النعم، واسم النعم أكثر ما يستعمل في الإبل، وقد يقع على سائر المواشي من البقر والغنم والإبل. والحرث يعني الزرع.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي هذا الذي ذكرت متاع الحياة الدنيا، أي شيء يستمتع به في الدنيا ثم يزول ويفنى.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿14﴾﴾ أي حسن المرجع والمنقلب للمؤمنين وهو الجنة الباقية. ثم بين اللَّه أن ما أعد للمؤمنين في الآخرة خير من هيئة الدنيا فقال عز وجل: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.. الآية، أي قل يا محمد: أخبركم

---

(1) رواه النسائي في سننه: 6/ 186، باب دعوة الخيل.

(2) المصدر: 6/ 181، باب ما يستحب من شبه الخيل.

(3) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 13/ 18، باب ما يكره من صفات الخيل.

(4) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 6/ 149، رقم: 2848، باب ما يذكر من شؤم الفرس ـ وابن ماجه في سننه: 1/ 642، رقم: 1993، باب ما يكره فيه الشؤم.

(5) رواه المنذري في الترغيب والترهيب: 3/ 75، رقم: 1835.

بخير من الذي زين للناس في الدنيا للذين اتقوا الشرك والكبائر والفواحش فلا يشتغلون بالزينة عن طاعة اللّه لهم عند ربهم جنات، أي بساتين تجري من تحت شجرها ومساكنها أنهار الماء والعسل والخمر واللبن خالدين فيها، أي مقيمين دائمين، أي ليست تلك المياه كمياه الدنيا تجري أحياناً وتنقطع أحياناً، بل تكون جارية أبداً.

قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي ولهم نساء مهذبات في الخَلق والخُلق.

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي ولهم مع ذلك رضى اللّه عنهم وهو أعظم النعم. قال اللّه تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي عالم بأعمالهم وثوابهم. واختلفوا في منتهى الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ قال بعضهم منتهاه عند قوله: ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾. وقوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ استئناف كلام. وقال بعضهم: منتهاه ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ استئناف كلام. قرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿رُضوان﴾ بضم الراء في جميع القرآن، وهي لغة قيس عيلان وتميم، وهما لغتان كالعدوان والعِدوان والطِغيان والطغيان. وقرأ عامة القراء ﴿رِضْوَانَ﴾ بكسر الراء[2].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿16﴾﴾ الذين: في موضع خفض رداً على قوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي للمتقين الذين يقولون ربنا إننا صدقنا باللّه وبالرسول فاغفر لنا خطايانا وادفع عنا عذاب النار. ويجوز أن يكون موضع «الذين» رفعاً على معنى هم الذين يقولون ربنا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾، ثم قال في صفتهم مبتدئاً: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾[3].

قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿17﴾﴾.

---

(1) سورة التوبة (9)، الآية: 72.
(2) يراجع: الكشف عن وجوه القراءات: 1/ 337.
(3) سورة التوبة (9)، الآية: 112.

والصابرين في موضع خفض بدلاً من الذين يقولون. وذهب بعضهم إلى أن «الصابرين» نصب بالمدح. ومعنى الآية: الصابرين على طاعة اللَّه وعلى الشدائد والمصائب، وعن ارتكاب النهي، وعلى البأساء والضراء، والصادقين في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم، فإن الصدق قد يقع في الفعل كما يقع في القول. يقال: صدق فلان في القتال وصدق في الجملة، أي حقق. قال قتادة في تفسير «الصادقين»: هو قوم صدقت نياتهم، واستقامت قلوبهم وألسنتهم في السر والعلانية. والقانتين أي القائمين بعبادة اللَّه المطيعين. والمنفقين يعني في طاعة اللَّه[1]. وقوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾. قال قتادة: أراد به المصلين بالأسحار[2]. وقال أنس بن مالك: أراد به السائلين المغفرة بالأسحار[3]. وقال الحسن: انتهت صلاتهم إلى وقت السحر ثم كان بعدها الاستغفار[4]. وعن إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال: سمعت صوتاً في ناحية المسجد يقول: إلهي دعوتني فأجبتك، وأمرتني فأطعتك، وهذا سحر فاغفر لي. فنظرت فإذا هو عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه[5]. روي عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**ثلاثة أصوات يحبهم اللَّه: صوت الديك، وصوت الذي يقرأ القرآن، وصوت المستغفرين بالأسحار**»[6]. وروي أن داود عليه السلام سأل جبريل: أي الليل أفضل؟ فقال: لا أدري، إلا أن العرش يهتز في وقت السحر[7]. وقال سفيان الثوري: إن لله ريحاً يقال لها الصيحة تهب وقت السحر تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار. قال: وبلغنا أنه إذا كان أول الليل نادى مناد: ألا ليقم العابدون، فيقومون فيصلون ما شاء اللَّه. ثم ينادي مناد في شطر الليل: ألا ليقم القانتون، فيقومون كذلك فيصلون، فإذا كان السحر نادى مناد: أين أين المستغفرون؟ فيستغفر أولئك، فإذا طلع الفجر نادى مناد: ألا ليقم

---

(1) ذكره البغوي في معالم التنزيل: 1/ 437.
(2) المصدر نفسه.
(3) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 38.
(4) يراجع: البغوي في معالم التنزيل: 1/ 438.
(5) ذكره الطبري في تفسيره: 6/ 266 ـ وعن ابن جرير بنصه في: تفسير ابن كثير: 2/ 20.
(6) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان، ورقة: 216.
(7) المصدر السابق.

الغافلون فيقومون من فرشهم كالموتى نشروا من قبورهم. وقال لقمان لابنه: يا بني لا يكونن الديك أكيس منك فينادي بالأسحار وأنت نائم[1]. والسحر: هو الوقت الذي قبل طلوع الفجر.

قال اللَّه تعالى:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿18﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿18﴾﴾ روى أنس رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**من قرأ** ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ **عند منامه خلق اللَّه منها سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة**»[2]. وعن سعيد بن جبير قال: كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، لكل حي من أحياء العرب صنم أو صنمان. فلما نزلت هذه الآية أصبحت تلك الأصنام كلها وقد خرت سجداً[3]. وعن ابن مسعود أنه قال: من قرأ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ وقال: وأنا أشهد بما شهد اللَّه به وأستودع اللَّه هذه الشهادة وهي لي وديعة عنده يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول اللَّه عز وجل: عبدي عهد إلي وأنا أحق من وفى بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة[4]. ومعنى الآية: قال محمد بن السائب الكلبي: لما ظهر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بالمدينة وفد عليه حبران من أحبار اليهود من الشام، فقال أحدهما لصاحبه حين أبصر المدينة: ما أشبه هذه المدينة بمدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان. فلما دخلا على النبي صلى اللَّه عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعت فقالا له: أنت محمد؟ قال: «**نعم**». وأنت أحمد؟ قال: «**نعم أنا محمد**

---

(1) تراجع هذه الأقوال في: الكشف والبيان، ورقة: 217.
(2) ذكره الثعلبي في الكشف، ورقة: 217، والقرطبي في تفسيره: 4/ 42.
(3) ينظر: تفسير القرطبي: 4/ 40.
(4) تفسير القرطبي: 4/ 42.

وأحمد». قالا: فإنا نسألك عن شيء فإن حدثتنا به آمنا بك وصدقناك. قال: «**سلاني**». قالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب اللّٰه عز وجل؟ فأنزل اللّٰه على نبيه هذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلى آخرها، فأسلم الرجلان وصدَّقا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم[1]. قرأ أبو نهيك[2] وأبو الشعثاء[3]: شهداء ـ بالمد والرفع على معنى: هم شهداء اللّٰه الذين تقدم ذكرهم[4]. قرأ أبو المهلب[5]: شهداء اللّٰه ـ بالمد والنصب على الحال[6]. وقرأ الآخرون: شهد الله ـ على الفعل، أي قضى اللّٰه. ويقال: أخبر اللّٰه. وقال مجاهد: حكم اللّٰه. قرأ ابن مسعود: شهد اللّٰه أنه لا إله إلا هو. وقرأ ابن عباس: إنه لا إله إلا هو ـ بكسر الألف جعله خبراً مستأنفاً[7]. وقال بعضهم: كسره لأن الشهادة قول، وما بعد القول مكسور على الحكاية، تقديره قال اللّٰه تعالى: إنه لا إله إلا هو. قال المفضل: معنى شهادة اللّٰه الإخبار والإعلام، ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار[8] كقوله: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾[9] أي أقررنا.

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ يعني الأنبياء. وقيل: المهاجرين والأنصار. وقيل علماء مؤمني أهل الكتاب عبد اللّٰه بن سلام وأصحابه. وقال الكلبي والسدي:

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 85 ـ والبغوي، معالم التنزيل: 1/ 438.

(2) أبو نهيك، القاسم بن محمد الأسدي.
الطبقات الكبرى: 6/ 322 رقم: 2482.

(3) أبو الشعثاء، سليم بن الأسود المحاربي، روى عن عبد اللّٰه بن مسعود، وتوفى بالكوفة زمن الحجاج.
الطبقات الكبرى: 6/ 229، رقم: 2123،

(4) الثعلبي في تفسيره، ورقة: 217.

(5) أبو المهلب، محارب بن دثار السدوسي الكوفي القاضي، عرض على أبيه عن عمر بن الخطاب، وروى عن جابر وابن عمر. عرض عليه ابنه مسلمة: أحد شيوخ يعقوب.
غاية النهاية: 2/ 42.

(6) ابن جني، المحتسب: 1/ 155.
في النسخة (ص): على المدح.

(7) تفسير الطبري: 6/ 268.

(8) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان، ورقة: 217.

(9) سورة الأنعام (6)، الآية: 130.

علماء المؤمنين كلهم. فقرن اللّه شهادة العلماء بشهادته، لأن العلم صفته ونعمته العظمى، والعلماء أعلام الإسلام والسابقون إلى دار السلام وسرج الأمكنة وحجج الأزمنة. وعن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**ساعة من عالم متكىء على فراشه وينظر في علمه خير من عبادة العابدين سبعين عاماً**»[1]. وعن أنس رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وذكره لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل الجنة والنار، هو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء يرفع اللّه به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة يقتدى بهم وتقتص آثارهم ويقتدى بأفعالهم وينتهي إلى رأيهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم وفي صلاتهم تستغفر لهم، وكل رطب ويابس يستغفر لهم حتى حيتان البحر وهوامه وسباع الأرض وأنعامها والسماء ونجومها. ألا وإن العلم حياة القلوب عن العمى، ونور الأبصار من الظلماء، يبلغ بالعبد منازل الأحرار ومجالس الملوك والفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام، وبه يعرف الحلال والحرام، وبه توصل الأرحام، ويلهمه اللّه السعداء ويحرمه الأشقياء**»[2].

قوله تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي بالعدل، ونصب «قائماً» على الحال من شهد. وقيل من قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. ويجوز وقوع الحال المؤكدة على الاسم في غير الإشارة، تقول: إنه زيد معروفاً، وهو الحق مصدقاً، فإن قيل: الحال وصف هيئة الفاعل وذلك مما يقبل التغيير، فهل يجوز من اللّه أن يزول عنه قيامه بالقسط؟ قيل: هذا على مذهب الكوفيين لا يلزم، لأنهم يسمونه المنصوب على لفظ القطع، يعنون بالقطع قطع المعرفة إلى لفظ النكرة مثل: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾[3] كان أصله الواصب. وهذا كان أصله القائم، فلما قطعت

---

(1) الثعلبي في الكشف والبيان، ورقة: 218.
(2) بنصه في تفسير الثعلبي، ورقة: 218.
(3) سورة النحل (16)، الآية: 52.

الألف واللام نصب. وأما عند البصريين فالحال حالان: حال يأتي بعد الفعل يجوز عليه التغيير وحال يأتي بعد الاسم لا يجوز عليه التغيير، وهذا من ذلك، وكذلك قوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[1].

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال جعفر الصادق: إنما كرر الشهادة، لأن الأولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم[2]، أي قولوا: (لا إله إلا هو العزيز الحكيم). العزيز: الغالب المنيع. والحكيم: ذو الحكمة في أمره وسلطانه. ومعنى قوله: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ أي قائم بالتدبير، أي تجري أفعاله بالاستقامة.

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿19﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿20﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ يعين الدين المرضي، نظيره: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[3]. والإسلام: هو الدخول في السلم والانقياد والطاعة. وعن قتادة: هو شهادة أن لا إله إلا اللَّه والإقرار بما جاء من عند اللَّه، وهو دين اللَّه الذي شرعه لنفسه، وبعث به رسله، ودل عليه أولياءه، ولا يقبل غيره[4]. وقرأ الكسائي: أن الدين عند اللَّه ـ بالفتح على معنى: شهد اللَّه أنه لا إله إلا هو، وشهد أن الدين عند اللَّه الإسلام[5].

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ

(1) سورة هود (11)، الآية: 72.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 218.
(3) سورة المائدة (5)، الآية: 3.
(4) ذكره الطبري في تفسيره: 6/ 275.
(5) يراجع: الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 338.

﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ أي لم يترك اليهود والنصارى الإسلام ولن يتسموا باليهودية والنصرانية إلا من بعد ما جاءهم العلم في كتبهم حسداً بينهم. روي أن اليهود كانوا يسمون مسلمين، فلما بعث عيسى عليه السلام فسمى أصحابه مسلمين، حسدت اليهود مشاركتهم في الاسم وسموا أنفسهم يهوداً، فكانوا يسمون يهوداً ومسلمين، فغيرت النصارى اسمهم وسموا أنفسهم نصارى. والبغي: هو طلب الاستعلاء بغير حق. وقال بعضهم: معنى الآية: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب في نبوة محمد صلى اللّه عليه وسلم إلا من بعد ما جاءهم بيان نعته وصفته في كتبهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ أي ومن يجحد بمحمد صلى اللّه عليه وسلم والقرآن فإن اللّه سريع المجازاة، سريع التعريف للعامل عمله، لا يحتاج إلى إثبات وتذكير.

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ أي فإن خاصموك يا محمد في الدين فقل انقدت لله وحده بلساني وقلبي وجميع جوارحي. وإنما خص الوجه لأن فيه أكرم جوارح الإنسان وفيه بهاؤه وتعظيمه، فإن خضع وجهه لشيء فقد خضع له سائر جوارحه التي دون الوجه. قال الفراء: معناه أخلصت عملي لله[1]. والوجه: العمل. وقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ في موضع رفع عطفاً على التاء في أسلمت، أي أسلمت ومن اتبعني أسلم أيضاً كما أسلمت. والأصل إثبات الياء في «اتبعني»، لكن حذفت للتخفيف.

قوله عز وجل: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ الذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى، والأميون: مشركو العرب، أي قل لهم أأخلصتم كما أخلصت، فإن أخلصوا فقد اهتدوا من الضلال، وإن تولوا عن الإسلام وقالت النصارى: المسيح ابن اللّه، وقالت اليهود: عزير ابن اللّه فإنما عليك البلاغ بالرسالة.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي عالم بمن يؤمن ومن لا يؤمن، ولا

---

(1) يراجع الفراء في معاني القرآن: 1/ 200.

يفوته شيء من أعمالهم التي يجازيهم بها. قال الكلبي: فلما نزلت هذه الآية ذكر ذلك لهم النبي صلى اللّه عليه وسلم، فقال أهل الكتاب أسلمنا. فقال صلى اللّه عليه وسلم لليهود: «**أتشهدون أن عيسى كلمة اللّه وعبده**»؟ قالوا: معاذ اللّه. وقال للنصارى: «**أتشهدون أن عيسى عبد اللّه ورسوله؟**» قالوا: معاذ اللّه، ولكن ابن اللّه، فذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾، فإن تولوا فإنما عليك البلاغ. واللّه بصير بالعباد، أي بصير بمن يؤمن وبمن لا يؤمن، وبأهل الثواب وبأهل العقاب[1]. فإن قيل: قوله: ومن اتبعني عطف على المضمر في قوله: ﴿أَسۡلَمۡتُ﴾ والعرب لا تعطف الظاهر على المضمر؟ قيل: إنما لا يعطف على المضمر إذا لم يكن بين الكلامين فاصل، أما إذا كان بينهما فاصل جاز. وقوله: ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ لفظه استفهام، ومعناه أمر، أي أسلموا، كقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[2] أي انتهوا.

قال اللّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (22)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21)﴾ أي معناه: إن الذين يجحدون بآيات اللّه وهم اليهود والنصارى، ويقتلون النبيئين بغير حق. قرأ الحسن: ويقتلون ـ بالتشديد فيهما على التكثير[3]. وقرأ حمزة: ويقاتلون[4] الذين يأمرون. وفي إضافة قتل الأنبياء إلى هؤلاء الذين كانوا على عهد النبي صلى اللّه عليه وسلم قولان: أحدهما رضاهم بقتل من سلف منهم

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 219.
(2) سورة المائدة (5)، الآية: 91.
(3) ذكر الثعلبي في تفسيره قراءة الحسن، ورقة: 219.
(4) مكي، الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 338.

النبيئين، نحو قتلهم زكرياء ويحيى، والثاني: أن هؤلاء قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾[1]. وقرأ بعضهم: ويقاتلون النبيئين بغير حق. وعن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: «**رجل قتل نبياً، أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر**». ثم قرأ هذه الآية، ثم قال: «**يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فقتلوهم جميعاً في آخر النهار، من ذلك اليوم فهم الذين ذكر الله في كتابه وأنزل فيهم الآية**»[2].

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أخبرهم بعذاب وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ أي أهل هذه الصفة بطلت حسناتهم فلا يستحقون الثناء عليها في الدنيا، ولا يستحقون الثواب عليها في الآخرة. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي مانعين يمنعونهم العذاب إذا نزل بهم.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿23﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿24﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿25﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿23﴾﴾. قال الكلبي: وذلك أن رجلاً

---

(1) سورة الأنفال (8)، الآية: 30.

(2) ذكره الطبري في تفسيره: 6/ 285 ـ 286 ـ والبغوي في معالم التنزيل: 1/ 442.

وامرأة من أشراف أهل خيبر من اليهود فجرا، وكان في كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما لشرفهما، ورجوا أن يكون لهما عند رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم رخصة في أمرهما في الرجم فيأخذوا به، فرفعوا أمرهما إلى النبي صلى اللّٰه عليه وسلم فحكم عليهما بالرجم، فقال بعضهم: جرت علينا يا محمد. فقال صلى اللّٰه عليه وسلم: «**بيني وبينكم التوراة فمن أعرفكم بها؟**» قالوا: ابن صوريا. فأرسلوا له. فلما قدم قال له رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «**أنت ابن صوريا؟**» قال: نعم. قال: «**أنت أعلم اليهود؟**» قال: كذلك يزعمون. فدعا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم بشيء من التوراة فيه آية الرجم دله على ذلك ابن سلام، فقال لابن صوريا: اقرأ. فلما قرأ أتى على آية الرجم فوضع كفه عليها، ثم قام ابن سلام فقال: يا رسول اللّٰه قد جاوزها ووضع كفه عليها. ثم قام ابن سلام فرفع كفه عنها، وقرأ على رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: المحصن والمحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البينة فيسأل عن البينة فإن كانوا عدولاً رجما، وإن كانت المرأة حبلى يتربص بها حتى تضع ما في بطنها، فأمر رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم برجمهما فرجما[1]، فغضبت اليهود لذلك غضباً شديداً، ورجعوا كفاراً، فذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ معناه: ألم تعلم يا محمد بالذين أعطوا حظاً من التوراة.

قوله: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: هو التوراة دُعِيَ إليها اليهود فأبوا لعلمهم بلزوم الحجة، وأن فيه البشارة بالنبي صلى اللّٰه عليه وسلم[2]. وقال الحسن وقتادة: أراد به القرآن فإنهم دعوا إلى القرآن لموافقته التوراة في أصول الديانة[3]. وعن الضحاك في هذه الآية أن اللّٰه تعالى جعل القرآن لموافقته التوراة حكماً بينهم وبين رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم، فحكم القرآن على اليهود والنصارى بأنهم على غير الهدى فأعرضوا عنه[4]. وقال

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 14/ 88، رقم: 6819، كتاب الحدود ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 11/ 209، باب حد الزنا ـ وذكره البغوي في معالم التنزيل: 1/ 443 ـ 444 ـ والواحدي في أسباب النزول: 85.

(2) ذكره الطبري في تفسيره: 6/ 288.

(3) نفسه: 6/ 289.

(4) البغوي في معالم التنزيل: 1/ 443.

قتادة: هم اليهود دعوا إلى حكم القرآن واتّباع محمد صلى اللّه عليه وسلم فأعرضوا وهم يجدونه مكتوباً عندهم في كتابهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي يعرض جمع كثير منهم عن الداعي وهم معرضون عن العمل بالمدعو إليه. وقيل: معناه ثم يتولى فريق منهم بعد علمهم أنها في التوراة. وإنما ذكر الإعراض بعد التولي لأن الإنسان قد يعرض عن الداعي ويتأمل ما دعاه إليه فينظر أنه حق أو باطل، وهم لم يتأملوا ولم يتفكروا فيما دعوا إليه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي ذلك الإعراض والتكذيب بأنهم قالوا ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي يعنون الأربعين يوماً الذين عبد آباؤهم فيها العجل.

قوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24)﴾ أي غرهم افتراؤهم على اللّه أنه لا يعذبهم إلا أياماً معدودات. ويقال: غرهم افتراؤهم أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي يختالون وكيف يصنعون إذا جمعناهم بعد الموت لجزاء يوم لا شك فيه.

قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي أعطيت كل نفس برة أو فاجرة جزاء ما عملت من خير أو شر تاماً وافياً وهم لا يظلمون، أي لا ينقصون من حسنة ولا يزادون على سيئة. قال الضحاك عن ابن عباس: أول راية ترفع لأهل الموقف ذلك اليوم من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم اللّه على رؤوس الأشهاد، ثم يأمر بهم إلى النار[1].

قال اللّه تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ

(1) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 220 قول الضحاك بنصه.

ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَىَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾ قال علي رضي اللَّه عنه: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**لما أراد اللَّه أن ينزل فاتحة الكتاب، وآية الكرسي، و﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾، و﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ تعلقن بالعرش وقلن تهبطن إلى دار الذنوب وإلى من يعصيك. فقال اللَّه تعالى: وعزتي وجلالي ما من عبد قرأكن في دبر كل صلاة مكتوبة إلا أسكنته حظيرة القدس[1] على ما كان منه، وإلا نظرت إليه كل يوم سبعين نظرة، وإلا قضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة، وأعذته من كل عدو، ونصرته عليه، ولا يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت**»[2]. ومعنى الآية ما قال ابن عباس: لما افتتح النبي صلى اللَّه عليه وسلم مكة ووعد أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم[3]؟! ويقال في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها: إن اليهود قالوا: لا نتبعك فإن النبوة والملك لم يزالا في أسلافنا بني إسرائيل. فأنزل اللَّه هذه الآية، ومعناها: قل يا محمد: يا اللَّه يا مالك الملك. وإنما زيدت الميم لأنها بدل عن «يا» التي هي حرف النداء. ألا ترى أنه لا يجوز في الإخبار إدخال الميم، لا يقال: غفر اللهم لي، كما يقال في النداء: اللهم اغفر لي. ولهذا لا يجوز الجمع بين الميم في آخره والياء في أوله، لأنه لا يجوز الجمع بين العوض والمعوض، وإنما شددت الميم لأنها عوض عن حرفين، فإن النداء حرفان. وهذا اختيار سيبويه[4]. وقال الفراء: معنى قول القائل: اللهم يا اللَّه أمنا بخير، أي اقصد. طرحت حركة الهمزة على الهاء[5].

---

(1) في النسخة (ف): العرش.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 220 ـ والقرطبي في تفسيره: 4/ 52.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 86 ـ القرطبي في تفسيره: 4/ 52.

(4) يراجع: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: 1/ 394.

(5) الفراء، معاني القرآن: 1/ 203.

قوله تعالى: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي مالك كل ملك. وهذه صفة لا يستحقها أحد غير اللَّه. وقيل: معناه مالك أمر الدنيا والآخرة. وقال مجاهد: أراد بالملك هنا النبوة[1]. وقيل: إن هذا لا يصح لأنه قال: وتنزع الملك، واللَّه تعالى لا ينزع النبوة من أحد لأنه لا يختار لأداء الرسالة إلا من يعلم أنه يؤدي الرسالة على الوجه، وأنه لا يغير ولا يبدل لأنه عالم بعواقب الأمور. ومعنى ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ أي تعطي الملك من تشاء أن تعطيه. قال الكلبي: يؤتي الملك من يشاء، يعني محمداً وأصحابه، وينزع الملك ممن يشاء، أي من أبي جهل وأصحابه[2]. وقيل: معناه يؤتي الملك من يشاء، يعني العرب، وينزع الملك ممن يشاء، أي ينزعه ممن يشاء، يعني الروم والعجم وسائر الأمم. وقال بعضهم: معنى تؤتي الملك، أي العافية. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه، وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»[3]. وقيل: هو القناعة. وقال ابن المبارك: دخلت على سفيان الثوري بمكة فوجدته مريضاً شارب دواء وبه غم شديد. فسلمت عليه فقلت: مالك يا أبا عبد اللَّه؟ قال: أنا مريض شارب دواء وبي غم شديد. فقلت: أعندك بصلة؟ قال: نعم. فقلت: ائتني بها، فكسرتها ثم قلت له: شُمّها. فشمها فعطس، عند ذلك قال: الحمد لله رب العالمين. فسكن ما به، فقال: يا ابن المبارك أنت فقيه وطبيب. فقلت: مجرباً يا أبا عبد اللَّه. قال: فلما رأيته سكن ما به فطابت نفسه فقلت: إني أريد أن أسألك حديثاً. قال: سل ما شئت. قلت: أخبرني من الناس؟ قال: الفقهاء. قلت: فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قلت: فمن الأشراف؟ قال: الأتقياء. قلت: فمن السفلة؟ قال: الظلمة. ثم ودعته وخرجت[4]. وقيل: معنى ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: يعني ملك المعرفة كما أتى السحر سحرة فرعون، ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ كما نزع

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 6/ 300.

(2) يراجع: البغوي في معالم التنزيل: 1/ 446.

(3) رواه ابن ماجه في سننه: 2/ 1387، رقم: 4141، باب القناعة ـ والبيهقي في شعب الإيمان: 7/ 294، رقم: 10362.

(4) ينظر: تفسير الثعلبي، ورقة: 222 بنصه مع بعض الاختلاف.

من إبليس وبلعام. وقيل: معنى الملك الجنة، كما أتى المؤمنين. قال اللّه تعالى: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[1] ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ كما نزعته من الكفار. وقيل: أراد بالملك التوفيق والإيمان والطاعة. وقيل: هو قيام الليل. وقال الشبلي: هو الاستغناء بالمكون من الكونين[2].

قوله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ قال عطاء: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ يعني المهاجرين والأنصار، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ يعني فارس والروم[3]. وقيل: تعز من تشاء محمداً وأصحابه حتى دخلوا مكة بعشرة آلاف ظاهرين عليها، وتذل من تشاء أبا جهل وأصحابه حتى حزت رؤوسهم وألقوا في القليب. وقيل: تعز من تشاء بالإيمان والمعرفة، وتذل من تشاء بالكفر والنكرة. وقيل: تعز من تشاء بالطاعة وتذل من تشاء بالمعصية. وقيل: تعز من تشاء بالتوفيق والمعرفة، وتذل من تشاء بالحرمان والخذلان. وقيل: تعز من تشاء بالتمليك والتسديد، وتذل من تشاء بسلب الملك وتسليط العدو عليه. وقيل: تعز من تشاء بقهر النفس ومخالفة الهوى، وتذل من تشاء باتباع الهوى. وقيل: تعز من تشاء بأن تقهر الشيطان، وتذل من تشاء بأن تقهره بالشيطان. وقيل: تعز من تشاء بالطاعة والرضاء، وتذل من تشاء بالحرص والطمع. وقال بعضهم: الحر عبد ما طمع، والعبد حر ما قنع. قال الشافعي رضي اللّه عنه:

ألا يا نفس إن ترضي بقوت ∴ فأنت عزيزة أبداً غنيَّهْ

وقال آخر:

أفادتني القناعة كل عزّ ∴ وهل عزّ أعزّ من القناعه

فصيَّرها لنفسك رأس مال ∴ وصيّر بعدها التقوى بضاعه

وقال بعضهم: معناه تعز من تشاء بالإخلاص، وتذل من تشاء بالرياء. وقيل: تعز من تشاء بالجنة والرؤية، وتذل من تشاء بالنار والحجاب.

---

(1) سورة الإنسان (76)، الآية: 20.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 222.
(3) تفسير البغوي: 1/ 446.

قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي بيدك الخير والشر. فاكتفى بذكر الخير لأنه الأفضل ولأنه إنما قال ذلك على وجه الرغبة. والرغبة إنما تقع في الخير لا في الشر. وفي ذكر أحد الأمرين دليل على الآخر كما قال تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾[1] ولم يذكر البرد، والمعنى: تقيكم الحرّ والبرد. وقيل: معنى الآية: بيدك الخير، أي بيدك النصر والفتح والفيء والغنيمة وغير ذلك من خير الدنيا والآخرة. قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ من الإعطاء والمنع والعز والذل.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أي يدخل من الليل في النهار حتى يصير النهار خمس عشرة ساعة وهو أطول ما يكون، وأقصره تسع ساعات. وتدخل النهار في الليل حتى يصير الليل خمس عشرة ساعة وهو أطول ما يكون، وأقصره تسع ساعات، فما نقص من أجزاء أحدهما دخل في الآخر، وهذا قول أكثر المفسرين[2]. وقال بعضهم: تذهب بالليل وتجيء بالنهار، وتذهب بالنهار وتجيء بالليل.

قوله تعالى: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ قال ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد وابن جبير والسُّدي: معناه يخرج الحيوان من النطفة وهي ميتة، ويخرج النطفة من الحيوان، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة. وقال بعضهم: تخرج النخلة من النواة والنواة من النخلة، وتخرج السنبلة من الحبة والحبة من السنبلة. وقال الحسن: معناه تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والعالم من الجاهل والجاهل من العالم[3]. دليله قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾[4] الآية.. عن الزهري أن النبي صلى اللّه عليه وسلم دخل على بعض نسائه فإذا هو بامرأة حسنة الهيئة فقال: «من هذه؟» قالت: إحدى خالاتك. قال: «**أي خالاتي هذه؟**» قالت: هي خالدة بنت

---

(1) سورة النحل (16)، الآية: 81.
(2) تفسير الطبري: 6/ 302.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 1/ 447.
(4) سورة الأنعام (6)، الآية: 122.

الأسود بن عبد يغوث[1]. فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**سبحان الذي يخرج الحي من الميت**». وكانت امرأة صالحة، وكان مات أبوها كافراً[2]. وقال أهل الإشارة: معناه يخرج الحكمة من قلب الفاجر حتى لا تسكن فيه والسقطة من قلب العارف.

قوله تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿27﴾﴾ أي بغير تقدير. وقد تقدم تفسير ذلك.

قال اللّه تعالى:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿28﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿29﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿30﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبد اللّه بن أبي وأصحابه المنافقين كانوا مع إظهارهم الإيمان يتولون اليهود ويأتونهم بأخبار المؤمنين، ويرجون أن يكون لهم الظفر على المؤمنين فأنزل اللّه هذه الآية ينهى المؤمنين عن مثل فعلهم وينهى المنافقين أيضاً، أي إن كنتم مؤمنين فلا تتخذوا الكفار أولياء من دون

---

(1) خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث خالة النبي صلى اللّه عليه وسلم، لأنها خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف، وأم الرسول صلى اللّه عليه وسلم: أمنة بنت وهب بن عبد مناف. أما الأسود: والد خالدة فهو أحد المستهزئين، حتى جبريل عليه السلام ظهره والرسول ينظر ويقول: خالي! خالي. فقال جبريل: دعه منك. فمات الأسود كافراً. أما خالدة فإنها أسلمت وبايعت وتزوجها عبد اللّه بن الأرقم.
الاستيعاب: 4/ 1816 ـ الطبقات الكبرى: 8/ 248 ـ أعلام النساء: 1/ 315.

(2) ذكره الطبري في تفسيره: 6/ 308.

المؤمنين[1]. وقال الضحاك عن ابن عباس: نزلت في عبادة بن الصامت، وكان بدرياً نقيباً، وكان له حلفاء من اليهود. فلما خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم الأحزاب قال عبادة: يا رسول اللّه إن معي خمسمائة رجل من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو. فأنزل اللّه هذه الآية[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي من يواليهم في نقل الأخبار إليهم وإظهارهم على عورة المسلمين فليس من دين اللّه في شيء. وقال السدي: فليس في الولاية في شيء، فقد برىء اللّه منهم. كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[3] يعني أن ولي الكافر راض بكفره، والرضى بالكفر كفر. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**أنا بريء من كل مسلم مع مشرك**».

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي إلا أن يحصل المؤمن في أيدي الكفار يخاف على نفسه فيداهنهم فيرضيهم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان فهو مرخص له في ذلك، كما روي أن مسيلمة الكذاب لعنه اللّه أخذ رجلين من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول اللّه؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول اللّه؟ قال نعم. قال للآخر: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: إنّي أصمّ. فأعاد عليه السؤال ثلاثاً فأجاب في كل مرة بهذا الجواب، فضرب مسيلمة عنقه، فبلغ ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال: «**أما المقتول فمضى على صدقه ويقينه فهنيئاً له، وأما الآخر فقبل رخصة اللّه فلا تبعة عليه**»[4]. فمعنى الآية: إلا أن تخافوا منهم مخافة. قرأ الحسن والضحاك ومجاهد: تقية. وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة. وقرأ الباقون بالتفخيم. وكل ذلك لغات فيها ومعناها واحد[5].

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 88 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 223.

(2) يراجع المصدران السابقان.

(3) سورة المائدة (5)، الآية: 51.

(4) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 224.

(5) يراجع: المهذب في القراءات: 1/ 117 ـ والمحرر الوجيز، لابن عطية: 3/ 54 ـ 55.

قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ أي يخوِّفكم عقوبته وبطشه على موالاة الكفار وارتكاب المنهي عنه. وقال الزجاج: معناه يحذركم اللّه إياه. وخاطب اللّه العباد على قدر علمهم وعقلهم. ومعنى قوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾[1] أي تعلم حقيقة ما عندي ولا أعلم حقيقة ما عندك[2].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ زيادة في الإبعاد وتذكير بالمعاد، أي إن فعلتم ما نهيتكم عنه فمرجعكم إلي.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ أي معناه: قل إن تسروا ما في قلوبكم من التكذيب بالنبي صلى اللّه عليه وسلم والعداوة للمؤمنين والمودة للكفار، أو تظهروه بالشتم والطعن والحرب يعلمه اللّه تعالى، فيجازيكم عليه وإنما ذكر الصدر مكان القلب لأنه مشتمل على القلب.

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من عمل أهل السموات والأرض، فلا يغرنكم الإخفاء فإن الإخفاء والإبداء عنده سواء.

قوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أي على جزاء عمل السر والعلانية قادر.

قوله عز وجل: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ نصب «يوم» بنزع الخافض، لأن أول هذه الآية منصرف إلى قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ كأنه قال: ويحذركم اللّه نفسه في يوم تجد. وقيل: بإضمار فعل، أي اذكروا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، أي حاضراً مكتوباً في ديوانهم لا تقصير فيه. قرأ عبيد بن عمير[3]: محضراً ـ بكسر الضاد، يعني أن عمله يحضره الجنة[4].

---

(1) سورة المائدة (5)، الآية: 116.

(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 397.

(3) في النسخة (ف): عبيدة بن عمر.

(4) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 224.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ أي والذي عملت من سوء تتمنى أن يكون بينها وبين ذلك أجل طويل بعد ما بين المشرق والمغرب ليته لم يعمل. جعل بعضهم «ما» جزاء في موضع النصب وأعمل فيه الوجود، أي وتجد عملها، وجعله بعضهم جزاء مستأنفاً.

قوله عز وجل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي رحيم بالمؤمنين خاصة. هكذا قال ابن عباس. وقيل: إن أول هذه الآية عدل، وأوسطها تهديد وتخويف، وآخرها رأفة ورحمة[1].

قال اللَّه تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ (32)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾. لما نزلت الآيات المتقدمة قالت اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وإنما يقول اللَّه مثل هذه الآيات في أعدائه. وأرادوا بقولهم أحباؤه: نحبه ويحبنا. فأنزل اللَّه هذه الآية[2]. والمحبة في الحقيقة هي الإرادة، وهو أن تريد نفع غيرك فتبلغ مراده في نفعك إياه. وأما العشق فهو إفراط المحبة في هذا المعنى. وأما محبة الطعام والملاذ فهو شهوة وتوقان النفس. فأما محبة العباد لله عز وجل فاللَّه تستحيل عليه المنافع، فلا يصح أن يراد بمحبته هذه الطريقة، لكن يراد بها إعظامه وإجلاله وطاعته ومحبة رسله وأوليائه، ومحبة اللَّه إياهم إثابته إياهم على طاعاتهم وإنعامه عليهم وثناؤه عليهم ومغفرته لهم. ومعنى الآية: إن كنتم تحبون طاعة اللَّه والرضاء بشرائعه فاتبعوني[3] على ديني يزدكم اللَّه حباً ويغفر لكم ذنوبكم في اليهودية، واللَّه غفور رحيم. وروى الضحاك عن ابن عباس قال:

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 224.
(2) يراجع: الواحدي، أسباب النزول: 89 ـ وتفسير البغوي: 1/ 451.
(3) في النسخة (ف): فاتبعني.

وقف النبي صلى اللَّه عليه وسلم على قريش وهم في المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام، وجعلوا في آذانها الشنوف[1] وهم يسجدون لها، فقال: يا معشر قريش واللَّه لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم. فقالت قريش: إنما نعبد هذه حباً لله ليقربونا إلى اللَّه زلفى. فأنزل اللَّه هذه الآية[2]، أي قل لهم يا محمد إن كنتم تحبون اللَّه فاتبعوني يحببكم اللَّه، فأنا رسول اللَّه إليكم وحجته عليكم، وأنا أولى بالتعظيم من أصنامكم. فلما نزلت هذه الآية عرضها عليهم فلم يقبلوا. وقيل: لما نزلت هذه الآية عرضها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على اليهود، فقال عبد اللَّه بن أبي بن سلول: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة اللَّه، ويأمرنا أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى[3]. فأنزل اللَّه تعالى قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾أي فإن لم يفعلوا ما تدعوهم إليه من اتباعك وطاعة أمرك فإن اللَّه لا يحب الكافرين، أي لا يغفر لهم ولا يثني عليهم.

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قال أبو بكر:

قال ابن عباس: قالت اليهود: نحن أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ونحن

---

(1) الشنوف، جمع مفرده شنف: وهو القرط.
(2) يراجع: الواحدي، أسباب النزول: 89 ـ وتفسير البغوي: 1/ 451.
(3) يراجع: البغوي في المصدر السابق.

على دينهم. فأنزل اللّه قوله عز وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ معناه: أن اللّه اصطفاهم بالإسلام على عالمي زمانهم لاتباعهم أوامره، وأنتم على غير الإسلام. وأن آدم لا ينفع أولاده المشركين، كذلك سائر الأنبياء عليهم السلام لا ينفعونهم، وصفوة اللّه هم الذين لا دنس فيهم بوجه من الوجوه، لا في الاعتقاد ولا في الفعل[1]. والاصطفاء هو الاختيار، والصفوة: هو الخالص من كل شيء. فمعناه: اصطفى آدم، أي اختاره واستخلصه. واختلفوا في آل عمران في هذه الآية؛ قيل: أراد بهم موسى وهارون عليهما السلام. وقيل: أراد مريم عليها السلام.

قوله عز وجل: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ انتصب على البدل، وقيل على التكرار، أي واصطفى ذرية بعضها من بعض ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لقولهم عليم بهم وبمجازاتهم.

قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ قال أبو عبيدة: «إذ» زائدة في الكلام وكذلك في سائر الآي[2]. وقال جماعة من النحويين: معناه واذكر إذ قالت. وكان اسم امرأة عمران: حنة[3] وهي أم مريم، وكان لها ابنتان، إحداهما: إيشاع. وعمران بن ماثان بينه وبين عمران أبي موسى ألف وثمانمائة سنة[4].

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ أي أوجبت لك ما في بطني أن أجعله عتيقاً لخدمة البيت المقدس. وكانوا يحررون أولادهم، أي يعتقونهم من أسباب الدنيا يجعلون الولد خالصاً لله، لا يستعملونه في منافعهم، ولم يكونوا يحررون إلا الذكران، وكان المحررون سكان بيت اللّه يتعهدونه

---

(1) يراجع: تفسير الثعلبي: ورقة 225.

(2) يراجع: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: 1/ 90.

(3) حنة ـ بالحاء المهملة والنون ـ :ابنة فاقوذ بن قبيل. وزوجها: عمران بن ياشهم بن أمون بن منشا بن حزقيا بن أحزيق بن يوشم بن عزاريا بن أمصيا بن ياوش بن أحزيهو بن يارم بن بهفاشاط بن أسابر بن أبيا بن رحبعم بن سليمان بن داود.
ينظر: تاريخ الطبري: 2/ 13.

(4) في النسخة (س): وثلاثمائة.

ويكنسونه، فإذا بلغوا خيروا فإن أحبوا أقاموا في البيت، وإن أحبوا ذهبوا. و«محرراً» نصب على الحال.

قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ أي تقبل مني نذري ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائي ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيتي وإخلاصي.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وذلك أنها كانت تظن وقت النذر أن ما في بطنها ذكر، فلما ولدت أنثى توهمت أن لا تقبل منها فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وكان هذا القول منها على جهة الاعتذار، لأن سعي الأنثى أضعف وعقلها أنقص. وكانوا لا يحررون النساء لخدمة البيت لما يلحقهن من الحيض والنفاس.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ هو من قول المرأة، يعني: ليس الذكر كالأنثى في خدمة البيت، لأن الأنثى عورة فلا تصلح لما يصلح له الذكر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ أي خادم الرب بلغتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي إني أمنعها وولدها بك إن كان لها ولد من الشيطان المرجوم وهو المطرود من رحمة الله. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ما من مولود إلا والشيطان يطعنه في جنبه حين يولد فيستهل صارخاً من الشيطان إلا مريم وابنها عليهما السلام**(1)، **واقرؤوا إن شئتم**: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾» قرأ علي والنخعي وابن عامر: وضعت ـ بضم التاء(2).

قوله عز وجل: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي استجاب الله دعاء حنة. وقيل: نذرها. وجعل مريم صوامة قوامة رباها الله تربية حسنة.

قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾أي ضمها للقيام بأمرها. قال صلى الله عليه

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 9/ 75، رقم: 4548، كتاب التفسير ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 15/ 120، باب فضائل عيسى عليه السلام.
(2) يراجع: مكي، الكشف: 1/ 340 ـ وتفسير الثعلبي ورقة: 226.

وسلم: أنا وكافل اليتيم كهاتين. وأشار بأصبعيه[1]. وكان عمران قد مات وحنة حاملة بمريم. قرأ الحسن ومجاهد وابن كثير وشيبة ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر: وكفلها، مخفّفاً. وزكرياء في موضع رفع، أي ضمها إلى نفسه. وتصديق هذه القراءة قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾[2]. وروي عن ابن كثير: وكفلها زكرياء ـ بكسر الفاء، أي ضمها. وقرأ الباقون: وكفلها ـ بالتشديد وزكرياء ـ بالنصب، أي ضمنها اللَّه زكرياء فضمها إليه بالقرعة. وفي مصحف أبي: وأكفلها ـ بالألف. وكان زكرياء وعمران تزوجا أختين، فكانت إيشاع بنت فاقوذ أخت حنة عند زكرياء، وكانت حنة بنت فاقوذ أم مريم عند عمران. قال المفسرون: فلما وضعت حنة مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد فوضعتها عند الأحبار أبناء هارون عليه السلام وهم يلون بيت المقدس كما يلي الحجبة الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة. فتنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت إمامهم، فقال لهم زكرياء عليه السلام: أنا أحق بها لأن خالتها عندي. فقالت له الأحبار: لا تفعل فإنها لو تركت لأحق الناس بها لتركت لأمها، ولكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه. فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين رجلاً إلى نهر جار. قال السدي: هو نهر الأردن. وقيل: نهر سلوان. وقالوا: نطرح أقلامنا فيه، فمن صعد قلمه فهو أحق بها، ومن سفل قلمه ورسا فلا شيء له. فمضوا بالأقلام التي يكتبون بها كتاب اللَّه تعالى فألقوها في الماء فارتفع قلم زكرياء فوق الماء وانحدرت أقلامهم فرست. قال السدي: ثبت قلم زكرياء وقام فوق الماء كأنه في طين وجرت أقلامهم فسهمهم زكرياء. فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾، فضمها زكرياء إلى نفسه وبنى لها بيتاً واسترضع لها. وقال ابن إسحاق[3]: ضمها إلى

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 10/ 551، رقم: 5304، كتاب الطلاق ـ وأبو داود في سننه: عون المعبود: 14/ 60، رقم: 5128.

(2) سورة آل عمران (3)، الآية: 44.

(3) أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار المدني من أقدم مؤرخي العرب من أهل المدينة ومن أحسن الناس سياقاً للأخبار من مؤلفاته «السيرة النبوية» هذبها ابن هشام وكتاب الخلفاء توفي سنة إحدى وخمسين ومائة هـ ـ تاريخ بغداد 1: 214 تذكرة الحفاظ 1: 172 ـ البخاري التاريخ الكبير: 401.

خالتها أم يحيى عليه السلام، حتى إذا شبت وبلغت مبلغ النساء بنى لها محراباً في المسجد وجعل بابه في وسطه لا يرقى إليها إلا بسلم مثل باب الكعبة، ولا يصعد غيره إليها، وكان زكرياء يأتيها بطعامها وشرابها كل يوم، وكان إذا دخل عليها وجد عندها رزقاً، أي فاكهة في غير حينها؛ فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، فيقول لها: من أين لك هذا فإنه لا يدخل عليك أحد غيري؟ قالت: هو من عند اللّه، أي من قطف الجنة أتاني به جبريل عليه السلام. وقال الحسن: كان يجد عندها قوتها ولم ترضع ثدياً قط، وكان يأتيها رزقها من الجنة فيقول لها زكرياء: أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند اللّه. قال الحسن: تكلمت وهي صغيرة في المهد(1). والمحراب في اللغة: هو الموضع العالي المقدم الشريف، ومن ذلك سمي محراب المسجد لأنه موضع محاربة الشيطان. وقيل: المحراب هو المسجد نفسه. وكانت مساجدهم تسمى المحاريب، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾(2).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قد تقدم تفسيره.

قال اللّه تعالى:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿38﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿39﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿40﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿41﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿38﴾﴾. عندما رأى زكرياء أمر اللّه في مريم طمع أن الذي يأتي

---

(1) يراجع: تفسير البغوي: 1/ 457.
(2) سورة ص (38)، الآية: 21.

مريم بالفاكهة في الشتاء يصلح له عقر زوجته فدعا عند ذلك وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي ولداً صالحاً. والذرية يكون واحداً وجمعاً، ذكراً وأنثى، وهو هاهنا واحد يدل عليه قوله: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ ولم يقل: أولياء، وإنما أنث طيبة لأنه على لفظ ذرية، كما قال الشاعر[1]:

أبوك خليفة ولدته أخرى ∴ وأنت خليفة ذاك الكمال[2]

فأنث ولدته، لتأنيث الخليفة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي سامع الدعاء ومجيبه، وقولهم: سمع اللّه لمن حمده، أي أجابه، وأنشد[3]:

دعوت اللّه حتى خفت أن لا ∴ يكون اللّه يسمع ما أقول[4]

قوله عز وجل: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ قرأ الأعمش وحمزة والكسائي وخلف: فناداه[5]، وإذا تقدم الفعل فأنت فيه بالخيار إن شئت أنثت، وإن شئت ذكرت. ومعنى الآية: فناداه جبريل عليه السلام وهو قائم يصلي في المسجد بأن اللّه يبشرك بولد اسمه يحيى. والمراد بالملائكة هنا جبريل وحده، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾[6] يعني جبريل وحده، وقوله في النحل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾[7] يعني جبريل وحده، بالروح أي بالوحي، يدل عليه قراءة ابن مسعود: فناداه جبريل وهو قائم

---

(1) لم ينسب هذا البيت في المظان التي اطلعت عليها وهو من البحر الوافر.

(2) ورد غير منسوب في اللسان: (خلف) ـ والعمدة، لابن رشيق: 2/ 280 ـ ومعاني القرآن، للفراء: 1/ 208 ـ والمحرر الوجيز، لابن عطية: 3/ 70.

(3) شمير بن الحارث الضبي، وهو شاعر مجيد اشتهر بحبه للخيل ووصفه لها.

(4) هذا البيت من جملة أبيات قالها شمير يذكر فيها حبه للخيل، ورغبته أن يرزقه اللّه بشيء منها. انظر: شرح الرضى على الكافية: 2/ 382 ـ الخزانة: 2/ 363 ـ اللسان: (سمع). وبعده:

ليحملني على فرس فإني ∴ ضعيف المشي للآذي حمول

(5) يراجع: مكي، الكشف: 1/ 342 ـ والمهذب في القراءات العشر: 1/ 120.

(6) سورة آل عمران (3)، الآية: 42.

(7) سورة النحل (16)، الآية: 2.

يصلي في المحراب[1]. قرأ ابن عامر والأعمش وحمزة: إن اللَّه ـ بكسر الألف على إضمار القول تقديره: فنادته الملائكة فقالت: إن اللَّه، لأن النداء قول. وقرأ الباقون بالفتح لوقوع النداء عليه، كأنه قال: فنادته الملائكة بأن اللَّه[2]. وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي: يبشرك ـ بفتح الياء وجزم الباء. وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الباء وتشديد وكسرها[3].

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ انتصب على الحال. وقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني عيسى عليه السلام، يعني أن يحيى مصدقاً بعيسى، وكان يحيى أول من صدق بعيسى وشهد أنه كلمة اللَّه وروحه، وكان يحيى أكبر من عيسى بثلاث سنين، وقيل ستة أشهر، واختلفوا في تسمية يحيى بهذا الاسم؛ فقال ابن عباس: لأن اللَّه تعالى أحيا به عقر أمه[4]؛ وقال قتادة: لأن اللَّه أحيا قلبه بالإيمان[5]؛ وقيل: بالنبوة؛ وقيل: إن اللَّه تعالى أحيا قلبه بالطاعة حتى لم يعص ولم يهم بمعصية. قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**ما من أحد يلقاه اللَّه عز وجل إلا وقد هم بخطيئة أو عملها إلا يحيى بن زكرياء فإنه لم يهم بها ولم يعملها**»[6]. وقال بعضهم: سمي بذلك لأنه استشهد، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون. قال النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «**من هوان الدنيا على اللَّه عز وجل أن يحيى[7] قتلته امرأة**». وقتل يحيى قبل رفع عيسى عليه السلام[8].

قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾. إنما سمي عيسى كلمة، لأن اللَّه تعالى قال له: كن من غير أب فكان، فوقع عليه اسم الكلمة.

قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾. السيد في اللغة وفي الحقيقة: من تلزم

---

(1) ذكر ابن عطية في تفسيره: المحرر الوجيز: 3/ 71 قراءة ابن مسعود.
(2) يراجع: مكي، الكشف: 1/ 343 ـ وتفسير الثعلبي، ورقة: 229.
(3) يراجع: مكي، الكشف، 1/ 343.
(4) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 229.
(5) يراجع: تفسير الطبري: 6/ 370.
(6) ذكره الطبري في تفسيره: 6/ 377.
(7) في النسخة (ف): عيسى.
(8) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 229.

طاعته ويجب على الناس الاقتداء به في العلم والحلم والعبادة والتقى. وقال الضحاك: السيد الحسن الخلق. وقال ابن جبير: السيد الذي يطيع ربه عز وجل. وقال ابن المسيب: السيد الفقيه العالم. وقال سفيان: هو الذي لا يحسد. وقال عكرمة: هو الذي لا يغضب. قال ذو النون: الحسود لا يسود[1]. وقال الخليل: سيداً، أي مطاعاً[2]. وقيل السيد القانع بما قسم الله له. وقيل: هو الراضي بقضاء الله. وقيل: المتوكل على الله. وقال أبو يزيد البسطامي[3]: السيد هو الذي قد عظمت همته ونبل قدره أن يحدث نفسه بدار الدنيا[4]. وقيل: هو السخي. قال صلى الله عليه وسلم: «**من سيدكم يا بني سلمة؟**» قالوا: جد بن قيس، إلا أنه بخيل. قال: «**أي داء أدوأ من البخل؟! بل سيدكم عمرو بن الجموح**»[5].

قوله تعالى: ﴿وَحَصُورًا﴾ الحصور: هو الذي لا يأتي النساء. وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وابن جبير وقتادة وعطاء والسدي والحسن، يعني أنه يحصر نفسه عن الشهوات. وقال ابن المسيب والضحاك: هو العنين الذي ما له ذكر قوي[6]. ودليل هذا التأويل ما روى أبو هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**كل ابن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحيى بن زكرياء، فإنه كان سيداً وحصوراً ونبيئاً من الصالحين**».

ثم أهوى النبي صلى الله عليه وسلم إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال: «**فكان ذكره مثل هذه القذاة**»[7]. وقال المبرد: الحصور الذي لا يدخل في

---

(1) تراجع هذه الأقوال (في السيد) في: تفسير الطبري: 6/ 375 ـ 376 ـ وتفسير الثعلبي، ورقة: 230.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 230.

(3) أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي: من رجال التصوف المشهورين كان أتباعه يعرفون بالطيفورية أو البسطامية. توفي سنة إحدى وستين ومائتين هجرية.
طبقات الصوفية: 67 ـ الرسالة القشيرية: 1/ 88 ـ حلية الأولياء: 10/ 33.

(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 230.

(5) البغوي في معالم التنزيل: 1/ 461.

(6) تراجع هذه الأقوال في: تفسير الطبري: 6/ 378 ـ 380.

(7) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 230 ـ وابن كثير في تفسيره: 2/ 35.

اللعب والعبث والأباطيل. وقد يسمى كاتم السر حصوراً، والذي لا يدخل مع الناس في المسير حصوراً لامتناعه عن ذلك. وأصله من الحصر وهو الحبس، يقال: حصرت الرجل عن حاجته إذا حبسته، وحصر في قراءته إذا امتنع من القراءة فلم يقدر عليها، ومنه إحصار العدو، قال اللَّه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾[1] أي محبساً. وسمي الحصير حصيراً لأنه أدخل بعضه في بعض بالنسج وحبس بعضه على بعض. وأولى ما قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَصُورًا﴾ أنه هو الذي لا يأتي النساء يحبس نفسه عن ذلك اختياراً، فهذا التأويل أولى من تأويل بعضهم أنه لا شهوة له، لما في هذا من إضافة عيب العنة إليه.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ (40)﴾ معناه: قال زكرياء لجبريل حين سمع البشارة: يا سيدي كيف يكون لي غلام وقد أدركني الهرم وامرأتي باتت عاقراً لا تلد؟ قال له جبريل: مثل ذلك يفعل اللَّه ما يشاء وأي الذي شاءه. وقال بعضهم: أراد زكرياء بالرب اللَّه عز وجل، أي قال: يا رب كيف يكون لي غلام؟ قال الكلبي: كان زكرياء يوم بشِّر بالولد ابن تسعين سنة. وقيل: ابن تسع وتسعين سنة[2]. فذلك قوله تعالى حاكياً عنه: ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ أي عقيم لا تلد. يقال: رجل عاقر وامرأة عاقر وقد عقر ـ بضم القاف، يعقر عقراً، ويقال: تكلم فلان حتى عقر ـ بكسر القاف، إذا بقي لا يقدر على الكلام، وإنما حذف الهاء من عاقر لاختصاص الإناث بهذه الصفة كما يقال: امرأة مرضع. قوله تعالى حاكياً عن زكرياء: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ هذا من المقلوب، أي وقد بلغت الكبر وشخت فإن قيل: هل يجوز أن يقول الإنسان: بلغنا البلد، كما تقول: بلغت البلد؟ قيل: لا يجوز بخلاف قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ بمعنى: بلغت الكبر. والفرق بينهما أن الكبر طالب للإنسان لإيتائه عليه بحدوثه فيه، والإنسان

---

(1) سورة الإسراء (17)، الآية: 8.

(2) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 230.
في النسخة (س): ثلاث وتسعين.

كالطالب للكبر لبلوغه إياه بمرور السنين والأعوام عليه. وأما البلد فلا يكون طالباً للإنسان كما يكون الإنسان طالباً للبلد. فإن قيل: كيف قال زكرياء: أنى يكون لي غلام؟ فاستبعد أن يعطيه اللّه ولداً على كبر السن من امرأة عاقر بعدما بشرته الملائكة بذلك؟ قيل: لم يكن هذا القول منه على جهة الاستبعاد، ولكن من شأن من بشر بما يتمناه أن يحمله فرط سروره به على الزيادة في الاستكشاف والاستثبات. كما يقول الإنسان إذا رأى شيئاً من الأمور العظيمة: كيف كان هذا؟ على جهة الاستعظام لقدرة اللّه تعالى لا لشك في القدرة. وقيل: معناه على أي حال يكون الولد؟ أيردني اللّه وامرأتي إلى الشباب؟ أم على هذه الحالة؟ وقيل: معناه أيرزقني اللّه الولد من امرأتي هذه؟ أو من امرأة غيرها شابة؟ فقيل له: كذلك يفعل اللّه ما يشاء. [أي كما أنت عليه يفعل اللّه الذي يشاء. وروي أن جبريل حرك سعفة يابسة فأثمرت السعفة، ثم قال جبريل: كذلك يفعل اللّه ما يشاء][1] أي كإثمار السعفة اليابسة يفعل اللّه ما يشاء.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي قال زكرياء: يا رب اجعل لي علامة إذا حملت امرأتي عرفت ذلك منها. أراد بهذا القول تعجيل السرور قبل ظهور الولد بالولادة. قال: علامة ذلك أن لا تطيق الكلام مع أحد من الناس ثلاثة أيام من غير خرس إلا رمزاً، أي إلا إشارة بالعينين والحاجبين واليدين. وقيل: الرمز تحريك الشفتين باللفظ من غير إبانة صوت، فذلك علامة حدوث حبل امرأتك.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿41﴾﴾ أي اذكر ربك كثيراً في هذه الأيام الثلاثة وسبح بالعشي والإبكار[2]، أي صل غدواً وعشياً كما كنت تصلي من قبل. يقال: فرغت من سبحتي، أي من صلاتي. وسميت الصلاة

---

(1) ما بين المعقوفين ساقط في النسخة (ف) من غير ترك بياض.

(2) العشي: ما بين زوال الشمس إلى الغروب.
الإبكار: ما بين صلاة الفجر إلى الضحى.

تسبيحاً لما فيها من التوحيد والتحميد والتنزيه من كل شيء، وقيل: أراد بالتسبيح التسبيح المعروف فيما بين الناس. وقرأ الأعمش: رمزاً ـ بفتح الميم[1] مصدراً مثل طلباً.

قال اللّه تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ (42) يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (43) ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44) إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (45)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ (42)﴾ معطوف على: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾. والمراد بالملائكة جبريل عليه السلام على ما تقدم. ومعنى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي اختارك لطاعته وعبادته وطهرك من الكفر بالإيمان والطاعات. وهكذا كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2] أراد طهارة الإيمان والطاعات. وقيل: معناه وطهرك من الأدناس كلها من الحيض والنفاس وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي اختارك على نساء عالمي زمانك ولولادة[3] عيسى من غير أب. وقيل: معنى الآية: وطهرك من مسيس الرجال. فإن قيل: كيف يجوز ظهور الملائكة لمريم وذلك معجزة. لا يجوز ظهورها على غير نبي، ومريم لم تكن نبياً؟ قيل: فإنها وإن لم تكن نبياً فإن ذلك كان في وقت زكرياء عليه السلام. ويجوز ظهور المعجزات في زمن الأنبياء عليهم السلام لغيرهم، ويكون ذلك معجزة لهم وقيل: كان ذلك إيماء

---

(1) يراجع: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات: 1/ 161.
(2) سورة الأحزاب (33)، الآية: 33.
(3) في النسخة (ف): بولادة.

لنبوة عيسى كما كانت الشهب وتظليل الغمام وكلام الذئب إيماء لنبوة نبينا صلى الله عليه وسلم.

قوله عز وجل: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي أخلصي لعبادة ربك. وقيل: أديمي الطاعة لربك. وقيل: أطيلي القيام في الصلاة. وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي صلّي مع الجماعة في بيت المقدس، لأنها كانت تخدم المسجد. وفي الآية دليل على أن الواو لا توجب الترتيب، لأن الركوع مقدم على السجود في المعنى. وقد تقدم السجود في هذه الآية في اللفظ.

قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ أي ما قصصنا عليك يا محمد من أمر زكرياء ويحيى ومريم وعيسى، ومن أخبار ما غاب عنك نرسل جبريل به إليك. وما كنت عندهم يا محمد إذ يطرحون أقلامهم في النهر أيهم يضم مريم للقيام بأمرها، وما كنت عندهم إذ يختصمون في أمرها للتربية.

قوله عز وجل: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ أي اعلم واذكر إذ قالت الملائكة، يعني جبريل، يا مريم إن اللَّه يبشرك بكلمة منه، يعني عيسى عليه السلام. سماه كلمة لأنه كان بكلمة من اللَّه تعالى ألقاها إلى مريم ولم يكن بوالد.

قوله تعالى: ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ﴾ إنما ذكر بلفظ التذكير، لأن معنى الكلمة الولد، فلذلك لم يقل اسمها. واختلفوا في تسميته مسيحاً، قال ابن عباس: المسيح الممسوح بالبركة، فالمسيح فعيل بمعنى مفعول(1). وقال بعضهم: سمي مسيحاً بمعنى الماسح، كان يمسح ذوي العلل فيبرؤون(2). وقيل: لأنه كان يمسح الأرض مسحاً ولا يستقر، أي يسبح فيها. وقيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن. وقيل: مسحه جبريل بجناحه من الشيطان حتى لم يكن

---

(1) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 231.
(2) يراجع: البغوي في معالم التنزيل: 1/ 466.

للشيطان عليه سبيل[1]. وقال الكلبي: المسيح الملك الذي لا حاجة له إلى أحد من المخلوقين. وروي عن عيسى عليه السلام أنه كان يقول: الشمس ضيائي والقمر سراجي. ويقول: البرية طعامي، أبيت حيث يدركني الليل، ليس لي ولد يموت، ولا دار تخرب، ولا مال يسرق، أصبح ولا غداء لي، وأمسي ولا عشاء لي وأنا من أغنى الناس.

قوله عز وجل: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي ذا قدر ومنزلة في الدنيا عند أهلها وفي الآخرة عند ربه. والوجيه: الذي لا يرد قوله ولا مسألته.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿45﴾﴾ إلى ثواب الله في جنة عدن، وهي الدرجة العليا. والمقرب إلى الله لقربه إلى ثوابه.

قال الله تعالى:

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿46﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿47﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿48﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿49﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿50﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿51﴾﴾.

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾ أي في مضجع الرضاع. قال مجاهد: قالت مريم: كنت إذا خلوت أنا وعيسى حدثته وحدثني فإذا شغلني إنسان يسبح في بطني وأنا أسمع[2].

قوله: ﴿وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ويكلم الناس بعدما دخل في السن،

---

(1) يراجع: تفسير الطبري: 4/ 89.
(2) يراجع تفسير البغوي: 1/ 466.

يعني قبل أن يرفع إلى السماء. وقال الحسن: وكهلاً، أي بعد نزوله من السماء[1].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي من المرسلين. وقال الكلبي: أراد بالمهد الحجر. روي أنهم قالوا لها: يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً فكلمهم وهو في حجرها فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿30﴾﴾[2]. الآية.. وكان يومئذ ابن أربعين يوماً. فإن قيل: الكلام في حال كونه في المهد مما يحسن تعجب الناس منه، وأما الكلام في الكهولة فليس بعجب، فكيف ذكره اللَّه؟ قيل: في ذكر الكلام في الكهولة بشارة لمريم في أن عيسى يعيش إلى وقت الكهولة. وقيل: تكلم في المهد ببراءة أمه مما رماها به اليهود، ويكلم في الكهولة بإبطال ما ادعاه النصارى من كونه إلهاً، لأنه كان طفلاً ثم صار كهلاً، ومن يكون بهذه الصفة لا يكون إلهاً. والكهل في اللغة: ما جاوز الشباب ولم يبلغ حد الشيخوخة. يقال: اكتهل النبات إذا قوي واشتد. وقيل: الكهل هو الذي يكون ابن أربع وثلاثين سنة[3].

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي لم يصبني رجل بالنكاح ولا بالسفاح. وكان هذا القول منها على جهة الاستعظام لقدرة اللَّه لا على وجه الاستبعاد كما تقدم ذكره.

قال اللَّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي يكون لك ولد من غير بشر.

قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿47﴾﴾ أي إذا أراد شيئاً أو حكم بتكوين شيء فإنما يقول: فيكون كما أراده اللَّه، وهذا إخبار عن سرعة كون مراد اللَّه عز وجل، لأنه لا يكون في وهم العباد شيء أسرع من كن، وإنما ذكره بلفظ الأمر لأنه أدل على القدرة. ونصب بعض القراء «فيكون» على جواب الأمر بالفاء، ورفعه الباقون على إضمار هو، أي فهو يكون.

---

(1) يراجع تفسير الطبري: 6/ 419.
(2) سورة مريم (19)، الآية: 30.
(3) يراجع النحاس، إعراب القرآن: 1/ 378.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قرأ نافع ومجاهد والحسن وعاصم: بالياء لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. وقال المبرد: ردوه على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ وقرأه الباقون بالنون على التعظيم[1] ورداً على قوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[2]. قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الخط، وقيل: الزبور وغيره من الكتب سوى التوراة والإنجيل. قوله تعالى: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي الفقه وهو فهم المعاني.

قوله تعالى: ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿48﴾﴾ قيل علمه اللّه التوراة وهو في بطن أمه، والإنجيل بعد خروجه.

قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي ويجعله بعد ثلاثين سنة رسولاً إلى بني إسرائيل.

قوله تعالى: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم﴾ بعلامة من ربكم لنبوتي. وقيل: ورسولاً عطفاً على وجيهاً. وكان أول أنبياء بني إسرائيل يوسف عليه السلام، وآخرهم عيسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ قرأ نافع: إني ـ بالكسر على الاستثناء وإضمار القول، وقرأ الباقون بالفتح[3]. ومعنى الآية: إني أقدر لكم من الطين صورة كهيئة الطير فأنفخ في الطين كنفخ النائم فيصير طيراً يطير بين السماء والأرض بأمر اللّه عز وجل وقرىء: طائراً، إلا أن هذا أحسن، لأن الطائر يراد به الحال. قرأ الزهري وأبو جعفر: كهيئة الطير ـ بالتشديد وقرأ الآخرون بالهمز[4]. والهيئة: الصورة المهيأة، من قولهم: هيأت الشيء إذا أصلحته. وقرأ أبو جعفر: كهيئة الطائر بالألف.

وقوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ قرأ عامة القراء: طيراً ـ على الجمع، لأنه

---

(1) يراجع: الكشف عن وجوه القراءات: 1/ 344 ـ وإعراب القرآن للنحاس: 1/ 378.
(2) سورة آل عمران (3)، الآية: 44.
(3) الكشف نفسه.
(4) يراجع: المهذب في القراءات العشر: 1/ 122 ـ وتفسير ابن عطية: 3/ 94.

يخلق طيراً كثيراً. وقرأ أهل المدينة: طائراً ـ بالألف على الواحد،[1] ذهبوا إلى نوع واحد من الطير لأنه لم يخلق إلا الخفاش، وإنما خص الخفاش لأنه أكمل الطير خلقاً ليكون أبلغ في القدرة، لأن لها ثدياً وأسناناً، وهي تحيض، وهي تطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط، ولأنه يطير بغير ريش ويلد ولا يبيض روي أنهم ما قالوا لعيسى اخلق لنا خفاشاً إلا متعنتين له لأجل مخالفته الطيور بهذه الأشياء التي ذكرناها، فلما قالوا له اخلق لنا خفاشا، أخذ طيناً ونفخ فيه فإذا هو خفاش يطير بين السماء والأرض، فقالوا هذا سحر، فقال: أنا أبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن اللَّه، فقالوا: إن إبراء الأكمه والأبرص يفعله أطباؤنا. فذهبوا إلى جالينوس وأخبروه بذلك فقال: إن الذي ولد أعمى لا يبصر بالعلاج، والأبرص الذي لو غرز لا يخرج منه الدم لا يبرأ بالعلاج، وإن كان يحيي الموتى فهو نبي. فجاؤوا بأكمه وأبرص فمسح عليهما فبرئا فقالوا: هذا سحر، فإن كنت صادقاً فأحيِ الموتى. فأحيا أربعة من الموتى ألعازر وكان صديقاً له، فأرسلت أخته إلى عيسى إن أخاك ألعازر مات، فأتاه وكان بينهما مسيرة ثلاثة أيام، فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد دفن منذ ثلاثة أيام، فقام على قبره وقال: اللهم رب السماوات السبع والأرضين السبع أحي ألعازر. فقام ألعازر من قبره وودكه يقطر، فخرج وبقي مدة طويلة وولد له، وأحيا ابن العجوز مر به وهو على سريره يحمل على أعناق الرجال إلى المقابر فدعا اللَّه تعالى أن يحييه، فجلس على سريره ونزل عن أعناق القوم، ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقي مدة وولد له. وأحيا ابنة العاشر بعد موتها بليلة، فعاشت مدة وولدت فقالوا: إنك تحيي من كان موته قريباً ولعلهم لم يموتوا، فأحي لنا سام بن نوح. فقال: دلوني على قبره. فدلوه، فدعا اللَّه تعالى أن يحييه فخرج من قبره، فقال له عيسى عليه السلام: من أنت؟ قال: سام بن نوح. قال: ومن أنا؟ قال: عيسى روح اللَّه وكلمته. قال: كيف شبت يا سام ولم يكن في زمانك شيب؟ قال: سمعت صوتاً يقول: أجب روح اللَّه، فظننت أن القيامة قد قامت فشاب رأسي

---

(1) يراجع: الكشف: 1/ 345 ـ والمهذب: 1/ 122.

من هول ذلك اليوم. وكان سام بن نوح قد عاش خمسمائة سنة ومات وهو شاب، فقال له عيسى عليه السلام: يا سام أتحب أن أسأل اللَّه لك حتى تعيش معنا؟ قال: لا. قال: ولم؟ قال: لأن مرارة الموت في حلقي لم تذهب من حلقي إلى الآن. وكان له من يوم مات أكثر من أربعة آلاف سنة. ثم مات مكانه[1]. فآمن بعيسى بعضهم وكذبه بعضهم وقالوا: هذا سحر، فأخبرنا بما أكلنا وادخرنا فكان يقول: يا فلان أنت أكلت كذا وادخرت كذا، وأنت يا فلان أكلت كذا وادخرت كذا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي بما تأكلونه وما تدخرونه في بيوتكم حتى تأكلونه.

قوله تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾. واختلفوا في الأكمه، قال مجاهد والضحاك: هو الذي يبصر بالنهار دون الليل، وقال ابن عباس وقتادة: هو الذي ولد أعمى ولم يبصر شيئاً قط. وقال الحسن والسدي: هو العمى المعروف[2]. والأبرص هو الذي به وضح. وقال وهب: ربما اجتمع على عيسى من المرضى في اليوم الواحد خمسون ألفاً من أطاق منهم أن يبلغه بلغه ومن لم يطق أتاه عيسى يمشي إليه. وإنما كان يداويهم بالدعاء على شرط الإيمان[3]. قال الكلبي: كان عيسى يحيي الموتى بيا حي يا قيوم.

قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي أخبركم بما تأكلون غدوة وعشية، وما ترفعون من غداء إلى العشاء ومن عشاء إلى الغداء. وقرأ مجاهد: وما تذخرون ـ بذال معجمة ساكنة وفتح الخاء[4]. قال السدي: كان عيسى إذا كان في الصبيان مع المعلم يحدث الصبيان بما يصنع آباؤهم، ويقول للصبي: انطلق فقد أكل أهلك كذا وهم يأكلون الساعة كذا. فينطلق الصبي إلى أهله وهو يبكي ويطلب منهم ذلك الشيء حتى يعطوه إياه، فيقولون له: من أخبرك بهذا؟ فيقول: عيسى. فحبسوا أولادهم عنه وقالوا: لا تلعبوا مع

---

(1) يراجع: تفسير البغوي: 1/ 469 ـ 470 ـ وتفسير ابن عطية: 3/ 96.
(2) تراجع هذه الأقوال في الأكمه في: تفسير الطبري: 6/ 428 ـ 429.
(3) يراجع: تفسير البغوي: 1/ 469.
(4) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 232.

هذا الساحر. فجمعوهم في بيت فجاء عيسى يطلبهم فقالوا له: ليسوا هنا. قال: فما في هذا البيت؟ قالوا: خنازير. قال عيسى: كذلك يكونون إن شاء اللَّه. ففتحوا عليهم فإذا هم خنازير بأجمعهم، فهموا بعيسى أن يقتلوه، فلما خافت عليه أمه حملته على حمار لها وخرجت هاربة إلى مصر[1].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي فيما قلت لكم لعلامة في نبوتي إن كنتم مصدقين باللَّه عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي آمنت بالتوراة وأحكامها وصدقتها. وقيل عني بالتصديق أي في التوراة البشارة بي، فإذا خرجت فقد صدقت ذلك. ولا يجوز أن يكون «ومصدقاً» عطفاً على «ورسولاً»، لأنه لو كان كذلك لقال: مصدقاً لما بين يديه.

قوله تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي لأرخص لكم بعض الذي حرم عليكم، لأنه كان في التوراة أشياء محرمة حلل عيسى بعضها وهو العمل في يوم السبت وشحوم البقر والغنم وسائر ما حرم عليهم بظلمهم. وقيل: معناه ولأحلّ لكم كل الذي حرم عليكم أحباركم إلا ما حرمه أنبياؤكم. ويكون البعض يعني الكل، واستدل صاحب هذا القول بقول لبيد[2]:

تـرَّاك أمـكـنـة إذا لـم أرضـهـا ∴ أو يعتلق بعض النفوس حمامها[3]

قال: قيل معناه: كل النفوس. وقال الزجاج: لا يجوز أن يكون البعض عبارة عن الكل، لأن بعض الشيء جزء منه. قال: ومعنى قول لبيد: «أو يعتلق

---

(1) يراجع: تفسير البغوي، معالم التنزيل: 1/ 470 قول السدي بنصه.

(2) لبيد بن ربيعة العامري: أحد أصحاب المعلقات. تقدمت ترجمته.

(3) هذا البيت من البحر الكامل، من شعر لبيد من معلقته الشهيرة التي قال في مطلعها:

عفت الديار محلها فمقامها ∴ بمنى تأبد غولها فرجامها

بدأ الشاعر قصيدته بالغزل والتشبيب بحبيبته نوار وعفاء ديارها ودروس أطلالها على عادة شعراء العرب، ثم بعد ذلك انتقل إلى الفخر بنفسه ومغامراته فقال: إني تارك الأماكن التي لم ترضها نفسي إلى تلبية ما أرغبه وتتمناه نفسي وترتاح إليه، إلا أن يمنعني الموت من ذلك. (ينظر: الزوزني، شرح المعلقات السبع: 96 ـ الديوان: 311 ـ مجالس ثعلب: 2/ 436).

نفسي حمامها» لأن نفسه بعض النفوس[1]. وقرأ النخعي: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي صار حراماً[2].

قوله عز وجل: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي لم أحل لكم شيئاً مما حرم عليكم من غير برهان، بل أنبئكم بعلامة نبوتي.

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي اتقوا اللَّه فيما أمركم ونهاكم وأطيعوني فيما أبينه لكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي قال لهم عيسى: إنه خالقي وخالقكم فوحدوه ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه طريق في الدين لا عوج فيه، من سلكه أداه إلى الحق. قال اللَّه تعالى:

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52) رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (53) وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ (54) إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (56) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (57)﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ أي لما وجد عيسى، وقيل: لما علم منهم الكفر والقصد إلى قتله قال: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي من أعواني مع اللَّه؟ وقيل: معناه من أنصاري إلى سبيل اللَّه؟ وقيل: من أنصاري لله؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي قال المخلصون في النصرة والتصديق نحن أعوان دين اللَّه المؤمنون. آمنا باللَّه، أي صدقنا بتوحيد اللَّه واشهدنا

---

(1) يراجع: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 415.
(2) حرم ـ مثل كرم ـ أي صار حراماً.
(يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 96).

عيسى بأنا مسلمون. والإحساس: هو العلم من جهة الحاسة. واختلف المفسرون في الحواريين، قال بعضهم: هم المخلصون الخواص كما قال صلى اللّه عليه وسلم: «**إن لكل نبي حوارياً، وحواريي الزبير**»[1]، أي هو من خواص أمتي. وكان الحواريون لعيسى اثني عشر رجلاً من أصحابه، فكان العشرة من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم وسموا الحواريين من الحور، وهو الخلوص. يقال: عين حوراء: إذا اشتد بياض بياضها وخلص، واشتد سواد سوادها وخلص. ويقال: دقيق حواري: الذي لم يبق منه إلا لبابه. وقال بعضهم: هم المخلصون، سموا حواريين من الحور وهو البياض، إلا أنهم اختلفوا في بياضهم، قيل: كانوا قصارين يبيضون الثياب، فمر بهم عيسى عليه السلام فقال: ألا أدلكم على تطهير أنفع من هذا؟ قالوا: نعم. قال: تعالوا حتى نطهر أنفسنا من الذنوب. فبايعوه على ذلك. وقيل: كانوا بيض الثياب. وقيل: كانوا بيض القلوب من الفساد. وقال بعضهم: كانوا صيادين، قال لهم عيسى عليه السلام: ألا أدلكم على اصطياد أنفع من هذا؟ قالوا: بلى. قال: تعالوا حتى نصطاد أنفسنا من شرك إبليس. فبايعوه. كأنهم ذهبوا في هذا إلى اشتقاقه من الحور الذي هو الرجوع، ومنه سمي المحور لأنه راجع إلى المكان الذي زال منه. وقيل: لأنه بدورانه ينصقل حتى يبيض. والمحور: عود الجبار، وقيل: المحور: الذي تدور عليه البكرة وربما كان من حديد. وأما ما روي في الحديث: «**نعوذ باللّه من الحور بعد الكور**»، فمعناه: من الرجوع والخروج من الجماعة بعد أن كنا فيها. يقال: كار عمامته إذا لفها على رأسه، وحارها إذا نقضها. قال مصعب: لما اتبع الحواريون عيسى عليه السلام، وهم اثنا عشر رجلاً، وكانوا إذا جاعوا قالوا: يا روح اللّه جعنا. فيضرب بيده الأرض سهلاً كان أو جبلاً فيخرج لكل إنسان رغيفين فيأكلهما، فإذا عطشوا قالوا يا روح اللّه عطشنا. فيضرب بيده إلى الأرض فيخرج الماء فيشربون فقالوا: يا روح من أفضل منا إذا شئنا أطعمتنا وإذا شئنا أسقيتنا وآمنا بك واتبعناك؟ قال: أفضل

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 1/ 444، رقم: 3719، مناقب الزبير بن العوام ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 15/ 188، باب فضائل طلحة والزبير.

منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه. قال: فصاروا يغسلون الثياب بالكراء[1]. وقال ابن المبارك: سموا حواريين لأنه كان يرى بين أعينهم أثر العبادة ونورها وحسنها. وقال النضر بن شميل: الحواري: خاصة الرجل الذي يستعين به فيما ينوبه. وعن قتادة قال: الحواري: الوزير[2]. قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿53﴾﴾ أي قالوا ربنا آمنا بما أنزلت في كتابك يعني الإنجيل على عيسى عليه السلام واتبعنا عيسى فاكتبنا مع الشاهدين، أي مع المصدقين لأنبيائك الذين شهدوا بصدق الأنبياء من قبلنا. وقال عطاء: معناه: فاكتبنا مع الشاهدين، أي مع النبيين. وقال ابن عباس: معناه: مع محمد وأمته[3].

قوله عز وجل: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿54﴾﴾ يعني مكر الكفار الذين لم يؤمنوا بقصدهم قتل عيسى عليه السلام. والمكر: هو الاحتيال في تدبير الشر. قوله تعالى: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أي جازاهم اللَّه على ما تقدم أن الجزاء على المكر يسمى مكراً كما في الاعتداء والسيئة والاستهزاء. قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي هو أفضل الصانعين حين جازى الكفار على صنيعهم وخلص الممكور به، وذلك أن عيسى عليه السلام بعد إخراج قومه إياه وأمه من بين أظهرهم، عاد إليهم مع الحواريين ودعاهم إلى الإسلام فهمُّوا بقتله وتواطؤوا عليه، وذلك مكرهم. فلما أحس أنهم أجمعوا على قتله هرب منهم إلى بيت فدخله فرفعه جبريل من الكوة إلى السماء، فقال ملك اليهود واسمه يهوذا لرجل خبيث منهم يقال له طيطانوس: ادخل عليه البيت فاقتله. فدخل فألقى اللَّه عليه شبه عيسى عليه السلام، فلما لم يجد عيسى خرج فرأوه على شبه عيسى فظنوا أنه عيسى فقتلوه وصلبوه ثم قالوا: وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه بدن صاحبنا. فإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى، وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا، فوقع بينهم قتال فقتل بعضهم بعضاً[4]. وقال وهب: لما طرقوا عيسى

---

(1) يراجع: تفسير البغوي: 1/ 473.
(2) نفس المصدر.
(3) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 234.
(4) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 99.

في بعض الليل، ونصبوا له خشبة ليقتلوه، أظلمت عليهم الأرض فصلبوا رجلاً منهم يقال له يهوذا فظنوا أنه عيسى عليه السلام، وهو الذي دلهم عليه وذلك أن عيسى جمع الحواريين تلك الليلة ثم قال: ليمكرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعني بدراهم يسيرة. فخرجوا وتفرقوا، وكانت اليهود تطلبه فأتى أحد الحواريين إلى اليهود وقال لهم: ما تجعلون لمن يدلكم على عيسى؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً فأخذها ودلهم عليه، فألقى اللَّه عليه شبه عيسى، فلما دخل البيت ورفع عيسى ألقى اللَّه شبه عيسى على الذي دلهم عليه، فقتلوه وصلبوه. فروي أنه لما أخذوه ليقتلوه قال لهم: أنا الذي دللتكم عليه. فلم يقبلوا منه ولم يلتفتوا إليه، وصلبوه وهم يظنونه عيسى[(1)]. قال أهل التواريخ: حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وولدت عيسى لمضي خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل، وأوحى اللَّه إليه على رأس ثلاثين سنة، ورفعه اللَّه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين[(2)]. والمكر هو السعي بالفساد في ستر ومفاجأة، وأصله من قول العرب: مكر الليل وأمكر: إذا أظلم، والمكر من المخلوقين الخب والخديعة والحيلة[(3)]، وهو من اللَّه استدراجه العباد. قال اللَّه تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(4)]. قال ابن عباس: كلما أحدثوا خطيئة تجددت لهم نعمة. وقال الزجاج: مكر اللَّه مجازاتهم على مكرهم. فسمى اللَّه الجزاء باسم الابتداء[(5)]، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[(6)]، وقوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[(7)]، وقال عمرو بن كلثوم[(8)]:

---

(1) يراجع: تفسير البغوي: 1/ 475.
(2) يراجع: تفسير البغوي: 0/ 476.
(3) في النسخة (ف): والغيلة.
(4) سورة الأعراف (7)، الآية: 182. وسورة القلم 68 الآية: 44.
(5) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 419.
(6) سورة البقرة (2)، الآية: 15.
(7) سورة النساء (4)، الآية: 142.
(8) أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، معجب بنفسه، تجول في بلاد العرب، وقال الشعر في أكثر أغراضه، وهو من أصحاب المعلقات، وله ديوان مطبوع. توفي حوالى سنة أربعين قبل الهجرة.

ألا لا يجهلن أحد علينا ∴ فنجهل فوق جهل الجاهلينا[1]

وسأل رجل جنيداً: كيف رضي اللّه المكر لنفسه وقد عاب به غيره؟ قال: لا أدري، ولكن أنشدني فلان:

فديتك قد جبلت على هواك ∴ فنفسي لا تنازعني سواكا

أحبك لا ببعضي بل بكلي ∴ وإن لم يبق حبك لي حراكا

ويقبح من سواك الفعل عندي ∴ وتفعله فيحسن منك ذاكا

فقال الرجل: أسألك عن آية في كتاب اللّه تعالى وتجيبني بشعر فلان. فقال: ويحك! قد أجبتك إن كنت تعقل. ومكر اللّه لهم خاصة في هذه الآية إلقاؤه الشبه على صاحبهم الذي أراد قتل عيسى عليه السلام. كذا في تفسير الثعلبي[2].

قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ﴾. أول هذه الآية متصل بقوله: ﴿خَيْرُ الْمَٰكِرِينَ﴾. وقيل: معناه: واذكر إذ قال اللّه يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي. قال الضحاك: كسا اللّه عيسى الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فصار في الملائكة. واختلف المفسرون في معنى التوفي في هذه الآية، فقال الحسن والكلبي وابن جريج: معناه قابضك ورافعك من الدنيا من غير موت فعلى هذا القول للتوفي ثلاثة تأويلات: أحدها: أني رافعك إلي وافياً لم ينالوا منك شيئاً، من قولهم: توفيت كذا، أي أخذته تاماً، والآخر معناه: متسلمك، من قولهم: تسلمته. وقال الحسن: معناه

= الشعر والشعراء: 157 ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: 2/ 103 بطرس، أدباء العرب: 1/ 152.

(1) هذا البيت من شعر عمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة التي مطلعها:
ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا
(ينظر: الزوزني، شرح المعلقات: 136 ـ البكري، سمط اللآلىء: 1/ 580 ـ شواهد الكشاف: 4/ 551).

(2) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 234.

إني منيمك ورافعك إلي من قومك، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾[1] أي ينيمكم، لأن النوم أخو الموت. وروي عن ابن عباس أن معنى الآية: مميتك، يدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[2]. وعلى هذا القول تأويلان، أحدهما قال وهب بن منبه: توفاه اللَّه ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه إليه[3]، والآخر قال الضحاك: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً معناه: إني رافعك ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء[4]. قال الشاعر:[5]:

ألا يا نخلة من ذات عرق ∴ عليك ورحمة اللَّه السلام[6]

أي عليك السلام ورحمة اللَّه. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي**[7]**، وإنه نازل على أمتي وخليفتي فيهم، فإذا رأيتموه فاعرفوه وإنه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الشعر، كأن شعره يقطر وإن لم يصبه بلل، يدق الصليب ويقتل الخنزير ويقاتل الناس على الإسلام، ويهلك اللَّه في زمانه الدجال، ويقع أمنه في الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم،**

---

(1) سورة الأنعام (6)، الآية: 60.

(2) سورة السجدة (32)، الآية: 11.

(3) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 100.

(4) نفس المرجع السابق.

(5) الأحوص: عبد اللَّه بن محمد بن عاصم الأنصاري: شاعر إسلامي مقدم عند أكثر الرواة لسلاسة كلامه، وصحة معانيه، ورقة أشعاره، وعذوبة ألفاظه، وجودة شعره في الغزل والفخر والمدح. توفي سنة خمس ومائة هجرية.
الشعر والشعراء: 424 ـ الخزانة: 2/ 16 ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: 1/ 196.

(6) هذا البيت من البحر الوافر من شعر الأحوص، ومن مليح الكناية فيه الكناية بالنخلة عن المرأة، لأن الشعراء نهوا عن ذكر النساء في أشعارهم. وذات عرق: موضع بالحجاز، وهو ميقات أهل العراق للإحرام بالحج والعمرة. (شعر الأحوص الأنصاري: 190 ـ شرح أبيات المغني: 6/ 102 ـ خزانة الأدب: 2/ 192 ـ أمالي ابن الشجري: 1/ 180).

(7) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 7/ 149، رقم 3443، كتاب أحاديث الأنبياء ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 15/ 119 ـ وأبو داود في سننه: عون المعبود: 12/ 432، رقم: 4650، باب في التخيير بين الأنبياء.

ويلعب الصبيان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً، ويلبث في الأرض أربعين سنة». وفي رواية كعب: أربعاً وعشرين سنة ثم يتزوج ويولد له ثم يموت ويصلي عليه المسلمون ويدفن في بيت النبي صلى اللّٰه عليه وسلم[1]. وقيل للحسين بن الفضل: هل تجد نزول عيسى من السماء في القرآن؟ قال: نعم، قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ وهو لم يكتهل في الدنيا، وإنما رفع وهو شاب، وإنما معناه: وكهلاً بعد نزوله من السماء[2]. وعن ابن عباس قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «**كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في أخرها والمهدي من أهل بيتي في وسطها**»[3]. وقال ابن عمر: رأينا النبي صلى اللّٰه عليه وسلم يبتسم في الطواف، فقيل له في ذلك فقال: «**استقبلني عيسى في الطواف ومعه ملكان**»[4].

قوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي مخرجك من بين أظهرهم ومنجيك منهم فإنهم كانوا أرجاساً. وكان تطهير عيسى منهم إزالتهم عنه برفعه، لأن التطهير إزالة الأنجاس عن الثوب والبدن.

قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ أي إلى السماء. إلى كرامتي كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ أي إلى حيث أمرني ربي.

قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ معناه: جاعل الذين آمنوا بك فوق الذين كذبوا بك، أي فوقهم في العز والغلبة، لا ترى يهودياً حيث كان إلا أذل من النصراني. قالوا: وهذا يدل على أنه لا يكون لليهود ملك كما هو للنصارى. وقيل: أراد بقوله: ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فوقهم بالحجة والبرهان. قال ابن عباس والربيع وقتادة والشعبي ومقاتل والكلبي: المراد بالذين اتبعوا عيسى أمة محمد صلى اللّٰه عليه وسلم الذين

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك: 2/ 495، من طريق عفان، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ـ وأحمد في مسنده: 2/ 406، رقم: 9259.

(2) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 235.

(3) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 235.

(4) نفسه.

صدقوه فيما قال. فوالله ما اتبعه من دعاه رباً، تعالى الله عز وجل وتقدس أن يكون له ولد. قال الضحاك: يعني الحواريين[1].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي مرجع الكفار والمؤمنين فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون من أمر الدين وأمر عيسى عليه السلام.

قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي أعاقبهم عقوبة شديدة في الدنيا بالقتل والسبي والجزية، وفي الآخرة بالنار ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي مانعين يمنعونهم من عذاب الله.

قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ قرأ الحسن وحفص: فيوفيهم ـ بالياء[2]. وأما الذين صدقوا وعملوا الصالحات نكمل لهم ثواب أعمالهم بالطاعة ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي لا يرحمهم ولا يغفر لهم.

قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ أي ما

---

(1) هذه الأقوال بنصها في: تفسير البغوي: 1/ 477 ـ 478.
(2) يراجع: الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 345 ـ والبغوي في تفسيره: 1/ 477 ـ 478.

جرى من القصص أنزله اللَّه عليك يا محمد فيتلوه عليك جبريل بأمرنا. وإنما أضاف التلاوة إلى نفسه لأنه حصل بأمره.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي من علامات نبوتك وما فيه عبرة لمن اعتبر. وقوله: ﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي من القرآن ذي الحكمة بالتأليف والنظم وسماه حكيماً لأنه بما فيه من الحكمة كأنه ينطق بالحكمة. ويقال معنى: الحكيم المحكم، وهو فعيل بمعنى مفعول.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿59﴾﴾ قال ابن عباس: وذلك أن وفد نصارى نجران السيد والعاقب وغيرهما من علمائهم جاؤوا إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال لهم النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «**أسلموا**». فقالوا: أسلمنا قبلك. فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**يمنعكم من الإسلام ثلاث: أكلكم الخنزير، وعبادتكم الصليب، وقولكم لله عز وجل ولد**». فقالوا له: ما لك تشتم صاحبنا؟ قال: «**وما أقول؟**» قالوا: تقول إنه عبد اللَّه. قال: «**أجل، هو عبد اللَّه ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول**»[1]. فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فأنزل الله عز وجل[2]: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾، أي صفة خلق عيسى بلا أب كصفة خلق آدم من تراب من غير أب ولا أم، ثم قال لآدم كن فكان. وأراد اللَّه تعالى بهذه الآية أن كون الولد من غير أب ليس بأعجب من كون الإنسان بغير أب وأم، وقد خلق اللَّه آدم من غير أب وأم. وفي هذه الآية دلالة على صحة القياس لأنه لو لم يصح لم يكن اللَّه يجيب به، وفيها دليل على جواز قياس الشيء بالشي من وجه دون وجه، لأن اللَّه تعالى إنما شبه عيسى بآدم في كونه من غير أب لا في كونه من غير أم ولا في خلقه من التراب، فإن قيل: هلا قال اللَّه تعالى كن فكان؟ وإن آدم قد انقضى كونه وقد أخبر عنه بالمستقبل؟ قيل: إن الفعل الماضي منقطع

---

(1) العذراء البتول: البكر المنقطعة عن الرجال التي لا شهوة لها فيهم. وقيل: هي المنقطعة عن الدنيا إلى اللَّه تعالى.

(2) يراجع: الواحدي، أسباب النزول: 89، وتفسير البغوي: 1/ 479.

والمضارع متصل، ومن ذلك يقال ما روي عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه فعل كذا، فإنه لا يقتضي التكرار. وما روي أنه كان يفعل كذا فإنه على التكرار دون الانقطاع، ثم فعل اللّه ينبني على المهلة ويحث على التدريج. ألا ترى أنه تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، وكذلك تدب الحياة في آدم على التدريج، وكذلك أمر عيسى على التدريج كان يبدأ شيئاً فشيئاً، فأخبر اللّه عز وجل عن ذلك بفعل دائم.

قوله عز وجل: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿60﴾﴾ قال الفراء: رفع خبر مبتدأ محذوف تقديره هو الحق أو ذلك الحق[1]. وقيل: تقديره الذي أنبأك به هو الحق والصدق في أمر عيسى فلا تكن من الممترين، أي من الشاكين. فالخطاب للنبي صلى اللّه عليه وسلم، والمراد به أمته، لأن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يكن شاكاً في أمر عيسى عليه السلام قط، وهذا كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[2]. وقال بعضهم معناه: لا تكن أيها السامع لهذا النبأ من الشاكين.

قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي فمن خاصمك وجادلك يا محمد في أمر عيسى من بعدما جاءك من البيان بأنه عبد اللّه ورسوله ولم يكن ابن اللّه ولا شريكه ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ يا معشر النصارى ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ لنخرج إلى فضاء من الأرض ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نلتعن. والبهلة: اللعنة، يقال: بهله اللّه أي لعنه اللّه وباعده. ويقال: معنى نبتهل: نجتهد ونتضرع في الدعاء على الكاذب. ثم فسر الابتهال فقال تعالى: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي نقول لعنة اللّه على الكاذبين في أمر عيسى. قرأ الحسن وابن واقد[3] وأبو السمال العدوي: تعالوا

---

(1) الفراء، معاني القرآن: 1/ 220.

(2) سورة الطلاق (65)، الآية الأولى.

(3) عبد الرحمن بن عبد اللّه بن واقد: مقرىء مشهور، أخذ القراءة عرضاً عن حمزة بن القاسم الأحول وغيره. وروى عنه القراءة ابنه أبو شبيل عبيد اللّه شيخ ابن مجاهد وأحمد بن فرج المفسر. غاية النهاية: 1/ 381.
في النسخة (ف): أبو واقد، وأبو السماك.

- بضم اللام. وقرأ الباقون بفتح اللام[1]، والأصل فيه: تعاليوا، لأنه تفاعلوا من العلو فاستثقلت الضمة على الياء فسكنت ثم حذفت وبقيت اللام على فتحها. ومن ضم فإنه نقل حركة الياء المحذوفة إلى اللام. قال الفراء: معنى تعالى: ارتفع. فلما قرأ رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم هذه الآية على نصارى نجران وقال لهم: «**إن اللّٰه أمرني أن أباهلكم**». لم يقبلوا، قالوا له: يا أبا القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك فنعلمك. فرجعوا وخلا بعضهم ببعض، وقال السيد للعاقب: قد واللّٰه علمت أن الرجل نبي مرسل، ولئن لاعنتموه يا معشر النصارى ليتأصلنكم، وما لاعن نبي قوماً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإن أنتم أبيتم إلا إلف دينكم فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم. فأتوا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم من الغد وقد خرج بنفر من أهله محتضناً للحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي على أثرهم وعليّ بعدها وهو يقول لهم: إذا أنا دعوت فأمِّنوا. فقال واحد من النصارى: واللّٰه إني لأرى وجوهاً لو سألوا اللّٰه أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على الأرض نصراني إلى يوم القيامة. فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك ونتركك على دينك ونثبت على ديننا. فقال صلى اللّٰه عليه وسلم: «**فإن أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم**». فأبوا، فقال: «**إني أنابذكم**». فقالوا: ما لنا بحرب العرب من طاقة ولكنا نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدي إليك كل عام ألفي حلة: ألف في صفر وألف في رجب. فصالحهم رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم على ذلك وقال لهم: «**وإن كان كيد باليمن أعنتمونا بثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً، والمسلمون ضامنون لحاجتي يردونها عليكم**». وكتب لهم كتاب الأمان والصلح[2]: بسم اللّٰه الرحمن الرحيم. هذا ما كتب محمد رسول اللّٰه لنجران في كل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق فاضل عليهم وترك ذلك كله على ألفي حلة، في كل صفر ألف حلة وفي كل رجب ألف حلة، ثمن كل حلة أوقية، وما زاد من

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين: 1/ 282.

(2) تفسير البغوي: 1/ 481،

الحلل على الأواق فبحسابها وما نقص من درع أو خيل أو ركاب فبحسابه، وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن. ولنجران وحاشيتها جوار اللّه تعالى وذمة محمد على أنفسهم وأموالهم وكل ما تحت أيديهم من قليل وكثير لا يغير ما كانوا عليه ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا يحشرون من بلادهم ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش. ومن سأل منهم حقاً فله النصف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل الربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة لا يؤخذ منهم رجل بطلب آخر لهم جوار اللّه وذمة رسوله أبداً حتى يأتي اللّه بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم. شهد الشهود أبو سفيان[1] بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف وغيرهم[2]. ثم بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم معهم معاذ بن جبل ليقضي بالحق فيما بينهم، ورجعوا إلى بلادهم، فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**لو باهلوني لاضطرم الوادي عليهم ناراً ولم يبق نصراني ولا نصرانية إلى يوم القيامة**». وفي بعض الروايات أنه قال: «**لو التعنوا لهلكوا كلهم حتى العصافير في سقوفهم**». وفي بعض الروايات أنه قال إن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: «**والذي نفسي بيده إن العذاب تدلى على أهل نجران. ولو تلاعنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم الوادي عليهم ناراً. ولاستأصل اللّه نجران وأهله حتى الطير والشجر وما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا**»[3]. فدل هذا الخبر على أن امتناعهم عن المباهلة لم يكن إلا لعلمهم أن الحق مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ولو لم يعلموا ذلك لباهلوا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ أي هذا الذي أوحينا إليك من الحجج والآيات لهو الخبر الحق بأن عيسى لم يكن اللّه ولا ولده ولا شريكه. والقصص هو الخبر، أي الذي يتلو بعضه بعضاً.

قوله ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي ما إله إلا اللّه الواحد بلا ولد ولا شريك.

---

(1) في النسخة (ف): أبو سليمان.
(2) يراجع: ابن كثير، البداية والنهاية: 5/ 55.
(3) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 237.

ودخول «من» في قوله ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ لتوكيد النفي في جميع ما ادعاه المشركون أنهم آلهة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي العزيز بالنقمة لمن لا يؤمن به. ذو الحكمة في خلق عيسى عليه السلام من غير أب، وفي أمره أن لا تعبدوا إلا اللَّه.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿63﴾﴾ أي فإن أعرضوا عما أتيت من البيان فإن اللَّه عليم بالمفسدين الذين يعبدون غير اللَّه ويدعون الناس إلى عبادة غير اللَّه يجازيهم على ذلك، ثم دعاهم إلى التوحيد فقال:

قال اللَّه تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿64﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿65﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿66﴾﴾.

قال الفقيه أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي قل لهم يا محمد يا أهل الكتاب هلموا إلى كلمة عدل بيننا وبينكم. وفي «سواء» ثلاث لغات: سَواء وسُوى وسِوى، ولا يمد فيها إلا المفتوح. قال اللَّه تعالى: ﴿مَكَانًا سُوًى ﴿58﴾﴾[1]، ثم فسر الكلمة فقال تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أحداً من المخلوقين. وموضع «أن» رفع على إضمار هي، وقيل موضعها نصب بنزع الخافض، وقيل موضعها خفض بدلاً من الكلمة، أي تعالوا إلى أن لا نعبد إلا اللَّه.

---

(1) سورة طه (20)، الآية: 58.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي نرجع إلى معبودنا وهو اللَّه تعالى عز وجل ولا شريك له، وأن عيسى بشر، كما أننا بشر فلا نتخذوه رباً. وسمى اللَّه هذه الثلاثة الألفاظ كلمة لأن معناها يرجع إلى شيء واحد وهي كلمة العدل: لا إله إلا اللَّه. وقال بعض المفسرين: معنى ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كما فعلت اليهود والنصارى، فإنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللَّه، أي أطاعوهم في معصية اللَّه وقال عكرمة: هو سجود بعضهم لبعض[1]، وقيل: معناه لا نطيع أحداً في المعاصي. وفي الخبر: من أطاع مخلوقاً في معصية اللَّه فكأنما سجد سجدة لغير اللَّه[2].

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿64﴾﴾ أي فإن أبوا التوحيد فقولوا أنتم اشهدوا بأنا مِقرُّون بالتوحيد مستسلمون لما أتتنا به الأنبياء صلوات اللَّه عليهم من اللَّه تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ قال الكلبي: وذلك أن اليهود والنصارى اجتمعوا في بيت مدرسة اليهود وكل فريق يقول: إن إبراهيم منا وعلى ديننا. فأتاهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقالوا: اقض بيننا أينا أولى بإبراهيم ودينه؟ فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**كلا الفريقين منكم بريء من إبراهيم ودينه، إن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وأنا على دينه فاتبعوا دينه الإسلام**». فأنزل اللَّه هذه الآية[3]، ومعناها: يا أيها اليهود والنصارى لم تخاصمون في إبراهيم ودينه وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون؟ أي أفليس لكم ذهن الإنسانية فتعلمون أن اليهودية ملة محرفة عن شريعة موسى، وأن اليهود سموا بهذا الاسم لأنهم من ولد يهودا، والنصرانية محرفة عن شريعة عيسى عليه السلام، وسموا نصارى لأنهم من قرية بالشام تسمى ناصرة. ويقال: معناه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

---

(1) يراجع: تفسير البغوي: 1/ 483.
(2) رواه ابن ماجه في سننه: 2/ 956، رقم: 2864، باب وصية الإمام.
(3) القرطبي في تفسيره: 4/ 107.

فتنظرون أنه ليس في التوراة والإنجيل أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً أو نصرانياً.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي إبراهيم عليه السلام بزمان طويل، وكان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبين موسى وعيسى ألفا سنة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ دحوض حجتكم وبطلان قولكم.

قوله عز وجل: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾ ها أنتم يا هؤلاء يا معشر اليهود والنصارى خاصمتم فيما لكم به علم من نعت محمد صلى اللّٰه عليه وسلم وصفته في كتابكم، فلم تخاصمون فيما ليس لكم به علم؟ وهو أمر إبراهيم عليه السلام، واللّٰه يعلم دين إبراهيم وشأنه وأنتم لا تعلمون. والهاء في «ها أنتم» تنبيه، وأنتم للمخاطبين، وهؤلاء إشارة إليهم كأنه يقول: انتبهوا أنتم الذين حاججتم. قرأ أهل المدينة والبصرة بغير همز ولا مد إلا بقدر خروج الألف الساكنة. وقرأ أهل مكة مهموزاً مقصوراً على وزن هعنتم. وقرأ أهل الكوفة وابن عامر بالمد والهمز. وقرأ الباقون بالمد دون الهمز[1].

قال اللّٰه تعالى:

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿67﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿68﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿69﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿70﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿71﴾﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ هذا تكذيب من اللّٰه لفريقين في قولهم إن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً.

---

(1) تراجع هذه القراءات في: الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 346 ـ 347.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ أي مائلاً عن اليهودية والنصرانية، مخلصاً مستسلماً لأمر اللَّه عز وجل ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ على دينهم. والحنيف: هو المائل عن كل دين سوى الإسلام. يشبه بالأحنف الذي يكون صدور قدميه مائلة من الخلقة وقيل: الحنيف يوحد ويحج ويضحي ويختتن ويستقبل القبلة وهو أسهل الأديان وأحبها إلى اللَّه. وأصله: أكرم الخلق على اللَّه.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال ابن عباس والكلبي: وذلك أن رؤساء اليهود قالوا للنبي صلى اللَّه عليه وسلم: يا محمد لقد علمت أنا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك فإنه كان يهودياً، وما لك إلا الحسد لنا. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية[1]. ومعناها: أن أحق الناس بموالاة إبراهيم للذين اتبعوه في دينه وزمانه ولم يغيروا ولم يبدلوا. وهذا النبي يعني محمداً صلى اللَّه عليه وسلم والذين آمنوا يعني أصحابه هم الذين اتبعوه.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي في النصر والمعونة.

قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ يعني كعب بن الأشرف وأصحابه دعوا أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم معاذاً، وحذيفة وعمار بن ياسر إلى دينهم اليهودية. وقد مضت قصتهم في سورة البقرة، ومعناه: تمنت جماعة من أهل الكتاب أن يهلكوكم بإدخالكم في الضلال، وما يرجع وبال إضلالهم إلا على أنفسهم وما يشعرون، أي وما يعلمون أن وبال ذلك يعود عليهم. وقيل: ما يعلمون أن اللَّه يطلع نبيه صلى اللَّه عليه وسلم على فعلهم[2].

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿70﴾﴾ أي لم تجحدون بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم والقرآن وأنتم تعلمون في كتابكم أنه نبي مرسل، يعني أن نعته مذكور في التوراة والإنجيل والأصل في ﴿لِمَ

---

(1) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 109.
(2) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 110.

تَكۡفُرُونَ﴾ أي شيء تكفرون، حذفت الألف للتخفيف وفتحت الميم دليلاً على سقوط الألف، وعلى هذا لم تقولون؟ وفبم تبشرون؟ وعم يتساءلون؟

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (71)﴾ معناه: لم يخلطون الإسلام باليهودية والنصرانية. وقيل: إنهم أقروا ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم وكتموا بعضه. وقيل معناه: لم تغطون الحق بباطلكم. وتغطيتهم الحق بالباطل تحريفهم للتوراة والإنجيل وتأويلهم على غير وجهه.

قوله تعالى: ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ يعني صفة النبي صلى الله عليه وسلم كتموها وهم يعلمون أنه رسول الله ودينه حق. قرأ ابن جماز[(1)]: تلبسون ـ بالتشديد. وقرأ عبيد بن عمير: لم تلبسوا ـ بغير نون، ولا وجه له[(2)].

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (72) وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ (73) يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (74)﴾.

قال الفقيه أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ قال مجاهد ومقاتل والكلبي: هذا في شأن القبلة، لما صرفت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فقال كعب بن الأشرف لأصحابه: آمنوا بالذي أنزل على محمد في شأن الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم اكفروا

---

(1) في النسخة (س): أبو مخلد، وكذا في النسخة (ف).
أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جماز الزهري المدني: مقرىء جليل ضابط، عرض على أبي جعفر وشيبة، ثم عرض على نافع، وأقرأ بحرف جعفر ونافع، عرض عليه إسماعيل بن جعفر وقتيبة بن مهران. توفي سنة سبعين ومائة هجرية.
غاية النهاية: 1/ 315.

(2) ذكر قراءتي ابن جماز وابن عمير الثعلبي في تفسيره، ورقة: 239.

بالكعبة آخر النهار، وارجعوا إلى قبلتكم صخرة بيت المقدس لعلهم يرجعون، أي لعلهم يقولون، هؤلاء أصحاب كتاب هم أعلم منا فربما يرجعون إلى قبلتنا. فحذر اللَّه نبيه صلى اللَّه عليه وسلم مكر هؤلاء القوم وأطلعه على سرهم[1]. وقال بعضهم: إن علماء اليهود قالوا فيما بينهم: كنا نخبر أصحابنا بأشياء قد أتى بها محمد صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه، فإن نحن كفرنا بها كلها اتهمنا أصحابنا، ولكن نؤمن ببعض ونكفر ببعض لنوهمهم أنا نصدقه فيما نصدقه ونريهم أنا نكذبه فيما ليس عندنا[2]. ويقال: إنهم أتوا النبي صلى اللَّه عليه وسلم في صدر النهار فقالوا: إنك أنت الذي أخبرنا التوراة أنك مبعوث، ولكن أنظرنا إلى العشي لننظر في أمرنا. فلما كان العشي أتوا الأنصار فقالوا لهم: كنا أعلمناكم أن محمداً هو النبي الذي هو مكتوب في التوراة، إلا أنا نظرنا في التوراة فإذا هو من ولد هارون عليه السلام، ومحمد صلى اللَّه عليه وسلم من ولد إسماعيل بن إبراهيم، فليس هو النبي الذي هو عندنا. وإنما فعلوا ذلك لعل من آمن به منهم يرجع، لأن هذا يكون أقرب عندهم إلى تشكيك المسلمين[3]. ووجه الشيء أوله، ويقال لأول الثوب وجه الثوب، وسمي وجه النهار أوله لأنه أحسنه.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ حكاية قول كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا لليهود: لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم اليهودية، وصلى إلى قبلتكم نحو بيت المقدس.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ قال بعضهم: هذا الكلام معترض بين كلامي اليهود، ويجوز دخول العارض بين الكلامين إذا احتيج إليه كما دخل على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾[4] ثم عاد إلى أول الكلام فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾،

---

(1) يراجع: الواحدي في أسباب النزول: 94.
(2) نفس المصدر.
(3) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 111.
(4) سورة الكهف (18)، الآية: 30.

وكذا قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ عارض ثم عاد إلى كلام اليهود فقال تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ أي قالوا: لا تصدقوا أن يعطى أحد من الكتاب والعلم مثل ما أعطيتم، أو يحاجوكم عند ربكم إلا من كان مثلكم على دين اليهودية. قل لهم يا محمد إن الهدى هدى اللّه وإن الفضل بيد اللّه فلا تنكروا أن يؤتيه غيركم. وقال بعضهم: ليس في الآية تقديم وتأخير، ومعناه: قالت اليهود لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، قل يا محمد إن الهدى هدى اللّه فلا تجحدوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو أن يحاجكم أحد عند ربكم ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي النبوة والكتاب والهدى بقدرة اللّه يعطيه من يشاء ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل والقدرة عليم بمن هو من أهل الفضل. وقيل: معنى الآية ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي ملتكم، ولا تؤمنوا إلا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من العلم والحكمة والكتاب والحجة والمن والسلوى وفلق البحر وغيرها من الكرامات، ولا تؤمنوا إلا أن يجادلوكم عند ربكم لأنكم أصح ديناً منهم، وهذا قول مجاهد[1]. وقال ابن جريج: معناه أن اليهود قالت لسفلتهم: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، فأي فضل يكون لكم عليهم حيث علموا ما علمتم وحينئذ يحاجونكم عند ربكم فيقولون عرفتم أن ديننا حق فلا تصدقوهم لئلا يعلموا مثل ما علمتم فلا يحاجوكم عند ربكم[2]. ويجوز أن يكون «إلا» على هذا القول مضمرة كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾[3] ويكون تقديره: ولا تأمنوا إلا لمن تبع دينكم لئلا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم لئلا يحاجوكم به عند ربكم. وقرأ الحسن والأعمش: إن ـ بكسر الألف. وجه هذه القراءة أن هذا من قول اللّه عز وجل بلا اعتراض. وأن يكون كلام اليهود منتهياً عند قوله ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾. ومعنى الآية: قل يا محمد إن الهدى هدى اللّه أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا أمة محمد أو يحاجوكم، بمعنى إلا أن يحاجوكم أي يجادلوكم اليهود بالباطل فيقولون نحن أفضل منكم[4].

---

(1) يراجع: تفسير البغوي: 1/ 490.
(2) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 113.
(3) سورة النساء (4)، الآية: 176.
(4) تراجع هذه القراءة في: تفسير البغوي: 1/ 490 ـ 491.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكُمْۗ﴾ أي عند فعل ربكم ذلك. وتكون «لا» على هذا القول بمعنى الجحد والنفي، أي لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم وما أعطي أحد مثل ما أعطيتم يا أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم من الدين والحجة حتى يجادلوكم عند ربكم. وقرأ ابن كثير: أن يؤتى أحد ـ بالمد، وحينئذ في الكلام اختصار تقديره: أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم يا معشر اليهود من الكتاب تحسدونهم ولا تؤمنون به[1]. وهذا قول قتادة والربيع، قالا هذا من قول اللّه عز وجل: قل يا محمد إن الهدى هدى اللّه لما أنزل اللّه كتاباً مثل كتابكم ونبياً مثل نبيكم حسدتموه وكفرتم به[2]. ويحتمل أن يكون تمام الخبر عن اليهود عند قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ إلى آخر الآية من كلام اللّه عز وجل. وذلك أن اللّه تعالى قال مثبتاً لقلوب المؤمنين لئلا يشكوا عند تلبيس اليهود في دينهم، ولا تصدقوا يا معشر المؤمنين إلا لمن تبع دينكم، ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الدين والفضل، ولا تصدقوا أن يحاجوكم في دينكم عند ربكم أو يعتدون عليكم، فإن الهدى هدى اللّه، وأن الفضل بيد اللّه يؤتيه من يشاء. فتكون الآية كلها خطاباً من اللّه للمؤمنين عند تلبيس اليهود عليهم لئلا يزالوا أو يرتابوا، يدل عليه قول الضحاك أن اليهود قالوا: إنا نحاج عند ربنا من خالفنا في ديننا. فبين اللّه أنهم هم المدحضون المغلوبون، وأن المؤمنين هم الغالبون. وقال أهل الإشارة في هذه الآية: لا تعاشروا إلا من يوافقكم على أحوالكم وطريقكم، فإن من لا يوافقكم لا يرافقكم.

قوله عز وجل: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾ أي يختص بدينه الإسلام من يشاء. وقيل: يختص بالنبوة من يشاء ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ على ما اختصه بالإسلام أو النبوة.

قال اللّه تعالى:

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا

---

(1) يراجع: مكي، الكشف عن وجوه القراءات: 1/ 347.

(2) يراجع قول قتادة والربيع في: تفسير البغوي: 1/ 491.

يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (75) بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ (76) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (77) وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (78)﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ﴾. في الآية دليل وبيان أن أهل الكتاب فيهم أمانة وفيهم خيانة، فمنهم من إن تأمنه بملء مسك ثور ذهباً يؤده إليك بلا عناء ولا تعب، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك وهو فنحاص بن عازوراء اليهودي، أودعه رجل من قريش ديناراً فخانه. وفي بعض التفاسير أن الذي يؤدي الأمانة في هذه الآية هم النصارى، والذين لا يؤدونها هم اليهود. وقرأ الأشهب العقيلي: تيمنه بقنطار ـ بكسر التاء[1]، وهي لغة بكر وتميم. وفي حرف ابن مسعود: مالك لا تيمنا. وعلى قراءة العامة: تامنه ـ بالألف.

وقوله تعالى: ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ فيه خمس قراءات: فقرأها كلها أبو عمرو وعاصم والأعمش وحمزة ساكنة الهاء؛ وقرأ أبو جعفر ويعقوب مختلسة مكسورة مشبعة؛ وقرأ سلام مضمومة مختلسة؛ وقرأ الزهري مضمومة مشبعة؛ وقرأ الآخرون مكسورة مشبعة[2].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وطلحة

---

(1) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 115.
(2) يراجع: مكي في: الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 349 ـ والمهذب في القراءات العشر: 1/ 127 ـ وتفسير القرطبي: 4/ 115 ـ 116.

بكسر الدال[1]. معنى الآية ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾: أي ملحاً، كذا قال ابن عباس. وقال مجاهد: إلا ما دمت عليه ملازماً. وقال ابن جبير: مرابطاً. وقال الضحاك: مواظباً. وقال قتادة: معناه إلا ما دمت عليه قائماً تقتضيه[2]. وقال السدي: قائماً على رأسه، فإن سألته إياه حين دفعته إليه رده عليك، وإن أخرته أنكر وذهب به ذلك إلى الاستحلال والخيانة[3]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي في مال العرب، نظيره قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[4] والسبيل: هو الإثم والحرج، دليله قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[5] وذلك أن اليهود قالوا: لا حرج علينا في حبس أموال العرب قد أحلها اللَّه لنا، لأنهم ليسوا على ديننا. وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم في دينهم. وقال الكلبي: قالت اليهود: إن الأموال كلها لنا، وما كان في أيدي العرب منها فهو لنا، وإنما ظلمونا وغصبونا عليها ولا سبيل علينا في أخذنا إياها منهم. فأكذبهم اللَّه تعالى بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ولما نزلت هذه الآية قال النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «**كذب أعداء اللَّه، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر**»[6].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي ذلك الاستحلال والخيانة منهم بقولهم: ليس علينا في مال العرب والذين لا كتاب لهم حجة ولا مأثم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي يقولون لم يجعل لهم علينا في كتابنا حرمة كحرمتنا، وهم يعلمون أن اللَّه قد أنزل عليهم في كتابهم الوفاء وأداء الأمانة لمن ائتمنهم وخالطهم.

---

(1) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 241.
(2) في النسخة (ف): بقبضه.
(3) تراجع هذه الأقوال في: تفسير البغوي: 1/ 492.
(4) سورة الجمعة (62)، الآية: 2.
(5) سورة التوبة (9)، الآية: 91.
(6) ذكره الطبري في تفسيره: 6/ 522.

قوله عز وجل: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿76﴾﴾ أي ليس الأمر كما يزعمون، لكن من أتم عهد اللّه الذي عاهده اللّه تعالى في التوراة وأبقى ظلم الناس في ترك الوفاء ونقض العهد، فإن اللّه يحب المتقين لنقض العهد وترك الوفاء. قال صلى اللّه عليه وسلم: «**ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صلى وصام: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[(1)]. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**من اؤتمن على أمانة فأداها ولو شاء لم يؤدها زوجه اللّه من الحور العين ما شاء**».

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية فيما كان بين امرىء القيس وعبدان بن الأسوع في الخصومة في أرض غلبه عليها امرؤ القيس، فاستحلفه عبدان فهم بالحلف، فنزلت هذه الآية فامتنع أن يحلف وأقر لعبدان بحقه ودفعه إليه، فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**لك عليها الجنة**»[(2)]. وقيل: نزلت هذه الآية في اليهود لكتمانهم نعت محمد صلى اللّه عليه وسلم[(3)]. ومعنى الآية: إن الذين يختارون على عهد رسول اللّه عرضاً يسيراً من الدنيا أولئك لا نصيب لهم في الآخرة، ولا يكلمهم اللّه بكلام خير ولا رحمة. وقيل: لا يسمعهم كلامه كما يكلم أولياءه بغير شفتين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي لا يرحمهم ولا يعطف عليهم ولا ينيلهم خيراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يثني عليهم خيراً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لهم مع هذه الأحوال عذاب مؤلم، أي موجع. روي عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**من اقتطع شيئاً من مال مسلم بيمينه فقد أوجب اللّه له النار وحرم عليه الجنة**». قال رجل: وإن كان يسيراً؟ قال: «**وإن كان قضيباً من**

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 6/ 27، رقم: 2749، كتاب الوصايا ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 2/ 46.

(2) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 242.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 96.

أراك»[1]. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**أكبر الكبائر الإشراك باللّه، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس**»[2]. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**إياكم واليمين الفاجرة فإنها تدع الدار بلاقع من أهلها**». وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**اليمين الفاجرة تعقم الرحم وهي منفقة للسلعة ممحقة للكسب**»[3].

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾. روي أن جماعة من اليهود أولي فاقة وفقر قدموا المدينة من الشام ليسلموا، فلقيهم كعب بن الأشرف فقال لهم: أتعلمون أن محمداً نبي؟ قالوا: نعم، وما تعلمه أنت؟ قال: لا. قالوا: فإنا نشهد أنه عبد اللّه ورسوله. فقال كعب بن الأشرف: لقد منعكم اللّه خيراً كثيراً، كنت أريد أن أميركم وأكرم عيالكم فحرمكم اللّه. فقالوا: رويدك حتى نلقاه. فانطلقوا وكتبوا صفة سوى صفته ونعتاً سوى نعته، ثم انتهوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فكلموه وسألوه، ثم رجعوا إلى كعب فقالوا: كنا نرى أنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فإذا هو ليس بالنعت الذي نعت لنا، وجدنا نعته مخالفاً للذي عندنا. وأخرجوا الذي كتبوه، فنظر إليه كعب ففرح وأخذ إقرارهم وخطوطهم، ثم بعث إلى كل واحد منهم ثمانية قمص من الكرباس[4] وخمسة أصوع من الشعير، فنزلت الآية[5]، ومعناها: وإن من أهل الكتاب طائفة يحرفون الكتاب ثم يقرؤون ما حرفوه لينظر المسلمون أن ذلك من التوراة وما هو منها. ويقولون هو من عند اللّه نزل، وما هو من عند اللّه، ويقولون على اللّه الكذب بادعائهم أن ذلك المحرف من التوراة، وهم يعلمون أنهم يكذبون. ولي اللسان: هو العدول عن الصدق والصواب.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 2: 157، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 779، رقم: 3224.

(2) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 14/ 264، رقم: 6920.

(3) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 9/ 184، رقم: 3319، باب في كراهة اليمين في البيع.

(4) الكرباس: القطن.

(5) تفسير الثعلبي، ورقة: 243 ـ الواحدي، أسباب النزول: 96.

قال الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿79﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿80﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿81﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿82﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وذلك أنه لما كثرت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم إلى الإسلام وقامت عليهم الحجج، قالوا إن هذا الرجل يريد أن نتبعه ونعبده كما سأل عيسى[1] من قومه حتى عبدوه. فكذبهم الله عز وجل بهذه الآية، ومعناها: ما كان لبشر من الأنبياء مثل عيسى وعزير وغيرهما أن يعطيه الله الكتاب وعلم الحلال والحرام والنبوءة ثم يقول للناس ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يجتمع [في] أحد النبوة والقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله، وليس هذا على وجه النهي، ولكنه على وجه التنزيه لله عز وجل، لأنه لا يختار نبياً يقول مثل هذا القول للناس. ويجوز أن يكون هذا على وجه تعظيم الأنبياء صلوات الله عليهم. وقال الضحاك ومقاتل معناه: ما كان لبشر، يعني عيسى عليه السلام أن يؤتيه الله الكتاب، أي الإنجيل نزلت في نصارى نجران[2]. وقال ابن عباس وعطاء: ما كان لبشر يعني محمداً صلى الله عليه وسلم أن يؤتيه الله الكتاب، يعني القرآن، وذلك أن أبا رافع القرظي اليهودي والرئيس من نصارى نجران قالوا: يا محمد نريد أن نعبدك ونتخذك رباً. فقال صلى الله عليه وسلم: «**معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غير**

---

(1) في النسخة (ف): موسى.
(2) يراجع: الواحدي، أسباب النزول: 96، وتفسير الثعلبي، ورقة: 243.

اللَّه، ما بذلك بعثني اللَّه عز وجل، ولا بذلك أمرني». فأنزل اللَّه هذه الآية[1]. والبشر: جمع بني آدم لا واحد له من لفظه كالقوم والجيش، ويوضع موضع الواحد والجمع.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ يعني الفهم والعلم. وقيل: الأحكام عن اللَّه.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، ولكن يقول: كونوا ربانيين، أي علماء عاملين. وقيل: فقهاء معلمين. قال مرة بن شرحبيل[2]: كان علقمة من الربانيين الذين يعلمون الناس القرآن[3]. وعن سعيد بن جبير معناه: حكماء أتقياء. وقيل: متعبدين مخلصين. وقيل: علماء نصحاء لله عز وجل في خلقه. وقيل: الرباني هو العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي، والعارف بأنباء الأمة وما كان وما يكون. وقال علي رضي اللَّه عنه: هو الذي يرب علمه بعمله، أي يصلح علمه بعمله، وقال ابن الحنفية يوم مات ابن عباس: مات رباني هذه الأمة[4].

قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ معناه: بما أنتم تعلمون، كقوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾[5] و﴿نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[6] أي من هو في المهد صبياً.

قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قرأ السلمي وسعيد بن جبير والضحاك وابن عامر والكوفيون: بما كنتم تعلمون ـ بالتشديد، من التعليم. وقرأ الباقون بالتخفيف من العلم. قال أبو عمرو: وتصديق هذه القراءة ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ ولم يقل: يدرسون. وقرأ الحسن: بما كنتم تعلمون ـ بفتح التاء والعين وتشديد

---

(1) يراجع: الواحدي، أسباب النزول: 96، وتفسير الثعلبي، ورقة: 6/ 539.

(2) مرة بن شرحبيل الهمداني: تابعي ثقة، وهو مرة الخير ومرة الطيب. روى عن عمر وعلي وعبد اللّه بن مسعود.
الطبقات الكبرى: 6/ 171.

(3) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة 243.

(4) تراجع هذه الأقوال في معنى الربانيين في: تفسير الثعلبي، ورقة: 243 ـ وتفسير القرطبي: 4/ 122.

(5) سورة مريم (19)، الآية: 8.

(6) سورة مريم (19)، الآية: 29.

اللام، على معنى: تتعلمون. وقرأ أبو حيوة: تدرسون ـ بالتشديد. وقرأ ابن جبير: تدرسون ـ بالتشديد. وقرأ الباقون بصورة التعلم. وقرأ الباقون: تدرسون، من الدرس[1]. وعن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**ما من مؤمن ذكر ولا أنثى حر ولا مملوك إلا ولله عز وجل عليه حق واجب أن يتعلم من القرآن ويتفقه فيه**». ثم تلا هذه الآية[2]: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ وإنما قيل للفقهاء ربانيون لأنهم يربون العلم، أي يقومون به. وزيدت الألف والنون للمبالغة، كما يقال لرجل ذي لحية: لحياني، ولذي الجمة: جماني. وعن ثعلب أنه قال: يقال: رجل ربيورباني، أي عالم عامل معلم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿80﴾﴾. قرأ الحسن وعاصم وحمزة وابن عامر: ولا يأمركم ـ بنصب الراء عطفاً على ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ مردوداً على البشر. وقرأ الباقون بالرفع[3] والاستئناف والانقطاع من الكلام الأول، واختلفوا فيه على هذه القراءة، فقال الزجاج معناه: ولا يأمركم اللَّه[4]. وقال ابن جريج وجماعة: ولا يأمركم محمد صلى اللَّه عليه وسلم. وقيل: لا يأمركم البشر أن تتخذوا الملائكة والنبيئين أرباباً كفعل قريش وخزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات اللَّه، واليهود والنصارى حيث قالوا: المسيح وعزير ابن اللَّه[5].

قوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار، أي اللَّه عز وجل يبعث النبي صلى اللَّه عليه وسلم ليدعو الناس إلى الإسلام، فكيف يدعو إلى الكفر بعد أن كانت فطرتكم على الإسلام. ويقال: بعد أن كنتم مقرين بالتوحيد.

---

(1) تراجع هذه القراءات في: الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 351 ـ وتفسير الثعلبي، ورقة: 244.
(2) ذكره القرطبي في تفسيره: 4/ 122.
(3) يراجع: الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 350 ـ وتفسير ابن عطية: 3/ 141.
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 436.
(5) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 244 ـ وتفسير القرطبي: 4/ 123 ـ 124.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾. قرأ سعيد بن جبير: لمَّا ـ بتشديد الميم. وقرأ حمزة ـ لما ـ بكسر اللام والتخفيف. وقرأ الباقون بالفتح والتخفيف[1]. فمن فتح وخفف فهي لام الابتداء دخلت على «ما» كقول القائل: لزيد أفضل من عمرو. و«ما» اسم موصول والذي بعده صلة وجوابه: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ وإن شئت جعلت خبر «ما» من كتاب، وتكون «من» زائدة معناه: لما أتيناكم كتاباً وحكمة، ثم ابتدأ فقال: ثم جاءكم رسول، بمعنى يجيئكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به، اللام لام القسم تقديره: والله لتؤمنن به، فأكده في أول الكلام بلام التأكيد، وفي آخر الكلام بلام القسم كأنه استحلفهم: والله لتؤمنن به. وأخذ الميثاق في معنى التحليف، لأن الحلف وثيقة وموضع «ما» في قوله «لما» نصب بقوله: آتيناكم، كأنه قال: للذي آتيتكموه من كتاب. وقال الزجاج: هذه لام التحقيق دخلت على «ما» الجزاء، ومعناه: لمهما أتيتكم، ودخول اللام في الشرط والجواب للتأكيد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[2]، وكما تقول: لئن جئتني لأكرمنك[3]. ومن قرأ «لما» بالكسر والتخفيف فهي لام الإضافة دخلت على «ما» التي هي بمعنى الذي، ومعناه: الذي أتيتكم، يعني الذي أخذ ميثاق النبيئين لأجل الذي أتيناهم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم.

قوله تعالى: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ قرأ نافع بالألف والنون على التعظيم، لأن عظيم الشأن قد يعبر عن نفسه بلفظ الجمع. وقرأ الآخرون: لما آتيتكم[4]. واختلف المفسرون في معنى هذه الآية: فقال قوم: إنما أخذ الميثاق على الأنبياء عليهم السلام أن يصدق بعضهم بعضاً، ويأمر بعضهم بالإيمان ببعض، فذلك معنى النصرة بالتصديق، وهذا قول ابن جبير وطاوس وقتادة والحسن

---

(1) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 244 ـ ومكي، الكشف: 1/ 351 ـ 352.

(2) سورة الإسراء (17)، الآية: 86.

(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 436 ـ 437.

(4) يراجع: مكي، الكشف: 351 ـ 352.

والسدي يدل عليه ظاهر الآية[1]. قال علي رضي اللّه عنه: لم يبعث اللّه نبياً إلا أخذ عليه العهد ليؤمنن بمحمد وأمته، وأخذ العهد على قومه ليؤمنن به ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه[2]. وقال بعضهم: إنما أخذ الميثاق على أهل الكتاب، وهو قول مجاهد والربيع قالا: ألا ترى إلى قوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ﴾ إنما كان محمد مبعوثاً إلى أهل الكتاب دون النبيين[3]. وقال بعضهم: إنما أخذ العهد على النبيين وأممهم، واكتفى بذكر الأنبياء عن ذكر الأمم، لأن أخذ الميثاق على المتبوع دلالة على أخذه على الاتباع، وهذا قول ابن عباس[4]، وهو أولى بالصواب.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيٓ﴾ أي قال تعالى لأنبيائه: أأقررتم بما أمرتكم به على ما كان قلت لكم وقبلتم على ذلكم عهدي. ومعنى أخذتم، أي قبلتم، نظيره قوله تعالى: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾[5] أي فاقبلوه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[6] أي لا يقبل، وقوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[7] أي يقبلها. والإصر في اللغة: الثقل، لكن يراد به العهد لما فيه من الثقل. وقال بعضهم: لفظ الأخذ يحتمل وجهين أحدهما قبلتم على ذلكم عهدي، والثاني أخذتم العهد بذلك على أممكم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾ أي قالت الأنبياء صلوات اللّه عليهم: أقررنا بالعهد. قال اللّه تعالى: ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ أي يشهد بعضكم على بعض بذلك واشهدوا على أتباعكم. وقيل: معنى فاشهدوا: أي بينوا لمن يكون بعدكم، لأن الشاهد هو الذي يصحح دعوى المدعي. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ

---

(1) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 244.
(2) نفس المصدر.
(3) نفس المصدر.
(4) نفس المصدر.
(5) سورة المائدة (5)، الآية: 41.
(6) سورة البقرة (2)، الآية: 48.
(7) سورة التوبة (9)، الآية: 104.

﴿ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ أي أنا من الشاهدين عليكم وعلى أممكم. وقيل معنى فاشهدوا أي قال اللَّه للملائكة فاشهدوا على إقرارهم وشهادة اللَّه للنبيين تبيينه أمر نبوتهم بالمعجزات.

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿83﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿84﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿85﴾﴾.

قال الفقيه أبو بكر الحداد: قوله عز وجل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿83﴾﴾. قرأ أبو عمرو: يبغون ـ بالياء، وترجعون ـ بالتاء. قال: لأن الثاني عام والأول خاص ففرق بينهما لافتراقهما في المعنى. وقرأ الحسن ويعقوب وسلام وحفص: يبغون ـ بالياء ـ ويرجعون ـ بالياء أيضاً. وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب[1]. ومعنى الآية: وبعد هذه الوثائق الجارية بينهم وبين اللَّه تعالى في أمر النبي صلى اللَّه عليه وسلم يطلبون ديناً سوى ما عهده اللَّه إليهم. قال ابن عباس: وذلك أنه لما قال لهم النبي صلى اللَّه عليه وسلم حين اختلفوا في دين إبراهيم عليه السلام، كل فرقة قد زعمت أنها أولى بدينه، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم**». فغضبوا وقالوا: واللَّه ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك. فأنزل اللَّه هذه الآية[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي له أخلص وخضع. قال الكلبي: أما أهل السموات ومن ولد في الإسلام من أهل الأرض أسلموا طائعين، ومن أبى قوتل حتى يدخل في الإسلام كرها، يجاء بهم أسارى في السلاسل ويكرهون على الإسلام. وفي الخبر عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**عجب ربكم من قوم يقادون إلى الجنة**

---

(1) يراجع: مكي، الكشف: 1/ 353 ـ وتفسير الثعلبي، ورقة: 245.
(2) يراجع: الواحدي، أسباب النزول: 97، وتفسير البغوي: 1/ 502.

بالسلاسل»[1]. وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إلى جزائه ترجعون في الآخرة فبادروا إلى دينه ولا تطلبوا غير ذلك. وقيل: معنى ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أقروا له بالإلهية كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[2] وقال الزجاج: معناه أن كلهم خضعوا لله من جهة ما فطرهم الله عليه[3]. قال الضحاك: هذا حين أخذ منه الميثاق وأقر به. وقال الكلبي: معناه الذي أسلم طوعاً أو الذي ولد في الإسلام، وبالذي أسلم كرهاً يعني الذي أجبر على الإسلام ممن يسبون فيؤمر بهم في السلاسل فيكرهون على الإسلام. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**كل الملائكة أطاعوا في السماء والأنصار في الأرض**»[4]. «**لا تسبوا أصحابي فإنهم أسلموا من خوف اللّه وأسلم الناس من خوف السيف**»[5]. وقال الحسن: الطوع لأهل السموات خاصة. وأهل الأرض منهم من أسلم طوعاً ومنهم من أسلم كرهاً. وقرأ الأعمش: كرهاً ـ بضم الكاف. وأما انتصاب «طوعاً وكرهاً» فلأنهما مصدران وضعا موضع الحال كما يقال: جئت ركضاً وعدواً، أي راكضاً وماشياً بسرعة، كأنه قال: وله أسلم من في السماوات والأرض طائعين وكارهين. وعن ابن عباس أنه قال: إذا استصعبت دابة أحدكم أو كانت شموساً فليقرأ في أذنها هذه الآية: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ إلى آخرها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ الآية خطاب للنبي صلى اللّه عليه وسلم وأمر له أن يقول عن نفسه وعن أمته آمنا باللّه.

قوله عز وجل: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي من الرسل، لا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم كما فعلت اليهود، بل نؤمن بهم جميعاً.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 6/ 253، رقم: 3010، باب الأسارى في السلاسل.
(2) سورة الزخرف (43)، الآية: 87.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 438.
(4) ذكره القرطبي في تفسيره: 4(128.
(5) نفس المصدر.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون لله في التوحيد والطاعة.

قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات إلى قوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ في عشرة رهط ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، منهم طعمة بن أبيرق ووحوح[1] بن الأسلت، والحارث بن سويد[2] وغيرهم، وندم الحارث وأرسل إلى أخيه الجلاس بن سويد[3] المسلم: إني قد ندمت على ما صنعت، فسل لي رسول الله هل لي من توبة وإلا أذهب في الأرض. فأنزل الله هذه الآيات[4]، ومعناها: ومن يطلب ديناً غير دين الإسلام فلن يقبل منه ما أقام عليه، أي لن يثاب ولن يثنى عليه. ويقال: معناه لن يقبل من المرتد إلا الإسلام أو السيف، ولن يقر على الكفر بالجزية. فإن هذه الآية نزلت في المرتدين.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي من المغبونين، حيث ترك منزله في الجنة واختار منزله في النار.

قال الله تعالى:

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿86﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿87﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿88﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿89﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(1) وحوح بن الأسلت الأوسي الأنصاري. ذكر ابن عبد البر أن لوحوح صحبة، وشهد الخندق وما بعدها من المشاهد.
الاستيعاب: 4/ 1866.

(2) الحارث بن سويد المخزومي: ارتد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما نزل فيه القرآن وعلم بذلك رجع فأسلم وحسن إسلامه.
الاستيعاب: 1/ 300.

(3) الجلاس بن سويد بن الصامت الأنصاري: صحابي جليل تخلف عن غزوة تبوك ثم تاب وحسنت توبته.
الاستيعاب: 1/ 264.

(4) الواحدي، أسباب النزول: 98.

بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿90﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿91﴾﴾.

قال الفقيه أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ الآية.. أي كيف يهديهم اللّه وقد كفروا بعد أن آمنوا وبعد أن شهدوا أن الرسول حق، يعني أن محمداً صلى اللّه عليه وسلم حق ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي دلالات صدقه ونبوته، فكيف يستحقون هداية اللّه.

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ عطف على قوله: ﴿إِيمَٰنِهِمْ﴾ دون قوله: ﴿كَفَرُوا۟﴾، وقد يعطف الفعل على المصدر كما يقال: أعجبني ضرب زيد وإن غضب. وتقدير الآية: بعد أن آمنوا وبعد أن شهدوا أن الرسول حق.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يرشد المشركين من لم يكن أهلاً لذلك. فإن قيل: ظاهر الآية يقتضي أن من كفر بعد إسلامه لا يهديه اللّه، وأن الظالمين لا يهديهم اللّه، وكثير من المرتدين أسلموا ومن الظالمين تابوا؟ قيل معناه: لا يهديهم اللّه ما داموا مقيمين على كفرهم، فإذا جاهدوا وقصدوا الرجوع إلى الحق وفقهم اللّه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1]. وقيل: معناه كيف يرحمهم اللّه وينجيهم من العقوبة.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ أي عذابه واللعنة من اللّه الإبعاد، وأما لعنة الملائكة والناس فدعاؤهم على الكفار بأن يبعدهم اللّه من رحمته. فإن قيل: كيف قال اللّه: والملائكة والناس أجمعين ومن الناس من يوالي الكافر ويوافقه ولا يلعنه؟ قيل: إنهم في الآخرة يلعن بعضهم بعضاً.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقيمين فيها، أي في اللعنة، وقيل: في العذاب لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يؤجلون حين ينزل بهم.

---

(1) سورة العنكبوت (29)، الآية: 69.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ استثناء من قول اللَّه عز وجل: ﴿عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾ ومنهم إلا الذين تابوا من الكفر والشرك بعد ارتدادهم. وأصلحوا، أي لم يكتفوا بمجرد الإيمان. ويقال: أصلحوا أعمالهم بالتوبة. وقيل: أصلحوا من أفسدوه من الناس ممن تبعهم. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي متجاوز عنهم رحيم بهم بعد التوبة. قال ابن عباس: لما نزلت للحارث بن سويد الرخصة في التوبة، أرسل أخوه الجلاس إليه أن اللَّه عز وجل قد فرض عليكم التوبة، فارجع إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم واعتذر إليه. فرجع وتاب، وقبل ذلك النبي صلى اللَّه عليه وسلم منه، فابتغى ذلك أصحابه الذين بمكة فقالوا: نتربص بمحمد ريب المنون، فإن بدا لنا الرجعة إليه ذهبنا كما ذهب الحارث فيقبل توبتنا. فأنزل اللَّه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ أي إن الذين كفروا باللَّه وبالرسول بعد تصديقهم ثم ازدادوا كفراً بقولهم: «نقيم بمكة ما بدا لنا» لن يقبل توبتهم وأولئك هم الضالون عن الإسلام. وفي هذه الآية دليل على أن هؤلاء لم يكونوا محققين التوبة لأنه قال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾. وكانت هذه الآية خاصة في قوم علم اللَّه أنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت. ومات طعمة كافراً. ولو كانوا محققين التوبة قبل المعاينة لقبلت توبتهم. ويجوز أن يكون معنى ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾: أي التوبة التي يتوبونها عند الموت.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾. قال الحسن وقتادة وعطاء: نزلت هذه الآية[1] في اليهود كفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم وكتبهم، ثم ازدادوا كفراً بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم والقرآن.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي: إن الذين كفروا وماتوا على كفرهم لو كان لأحدهم في الآخرة ملء الأرض ذهباً فافتدى به لن يقبل منه. كما روي أنه يقال للكافر يوم القيامة: لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدى به من

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 98 ـ تفسير الطبري: 6/ 578 ـ تفسير ابن عطية: 3/ 154.

العذاب؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد سئلت ما هو أيسر عليك من هذا فلم تفعل. وقوله: ﴿ذَهَبًا﴾ نصب على التفسير في قول الفراء[1]. ومعنى التفسير: أن يكون الكلام تاماً وهو مبهم كقوله: عندي عشرون، فالعدد معلوم والمعدود مبهم، فإذا قلت: عشرون درهماً ذكرت العدد، وكذلك إذا قلت: هو أحسن الناس فقد أخبرت عن حسنه، ولم تبين في أي شيء، فإذا قلت: وجهاً أو فعلاً بينته ونصبت على التفسير، وإنما نصبته لأنه ليس له ما يخفضه ولا ما يرفعه، فلما خلا من هذين نصب، لأن النصب أخف الحركات فجعل لكل ما لا عامل له. وقال الكسائي: نصب على إضمار «من» أي من ذهب، كقوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾[2] أي من صيام. وقد يقال: نصب على التمييز، والتمييز ثلاثة أوجه: تمييز جملة مبهمة، كما في قوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[3]؛ وتمييز عدد مبهم، كقولك: عشرون درهماً؛ وتمييز مقدار مبهم، كما يقال: عندي ملء زق عسلاً. وأما دخول الواو في قوله: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ فقال بعضهم: هي زائدة[4]. وقال الزجاج: ليست بزائدة وإنما هي لتعميم النفي لوجوه القبول، ولو لم يكن واو لأوهم الكلام، لأن ذلك لا يقبل في الافتداء ويقبل على غير وجه الافتداء[5].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي أهل هذه الصفة لهم عذاب وجيع في الآخرة وما لهم من ناصرين، أي من مانع يمنعهم من العذاب.

قال اللّه تعالى:

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿92﴾

---

(1) الفراء، معاني القرآن: 1/ 225.
(2) سورة المائدة (5)، الآية: 95.
(3) سورة الكهف (18)، الآية: 34.
(4) الفراء، معاني القرآن: 1/ 226.
(5) الزجاج، معاني القرآن: 1/ 441.

كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ
ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (93) فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ
مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (94) قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (95)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ قال ابن عباس: معناه لن تنالوا الجنة[1]. وقال عطية[2]: لن تنالوا الطاعة. وقال أبو روق: معناه لن تنالوا الخير. وقال مقاتل: لن تنالوا التقوى. وقال الحسن: لن تكونوا أبراراً حتى تتصدقوا بما تحبون من الأموال، أي من كرائم أموالكم وأحبها إليكم، طيبة بها أنفسكم، صغيرة بها أعينكم[3]. قال مجاهد والكلبي: هذه الآية منسوخة بآية الزكاة[4]. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: أراد بهذه الآية: حتى تخرجوا زكاة أموالكم. وقال عطاء: معناه لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء تأملون الغنى وتخشون الفقر. ويقال: معناه لن تبلغوا حقيقة التوكل والتقوى حتى تخرجوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم. وذهب أكثر المفسرين إلى أن المقصود من هذه الآية الحث على صدقة النفل والفرض ما بلغ وجوه القرب، لأن قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ يدل على المبالغة فيه. روي عن عبد اللَّه بن عمر أنه اشترى جارية كان يهواها، فلما ملكها أعتقها ولم يصب منها[5]. فقيل له في ذلك فقال: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾. وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشتري أعدال السكر فيتصدق بها، فقيل له في ذلك هلا تصدقت بثمنه؟ فقال: لأن السكر أحب إلي فأردت أن

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 246.
(2) عطية العوفي: تقدمت ترجمته.
في النسخة (س): عطاء. وكذا في النسخة (ف).
(3) تراجع هذه الأقوال في: تفسير الثعلبي، ورقة: 246.
(4) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 133.
(5) ذكره البغوي في تفسيره: 1/ 507.

أنفق مما أحب[1]. وروي أن سائلاً وقف على باب الربيع بن خثيم فقال: أطعموه سكراً. فقيل له: ما يصنع هذا بالسكر، هلا تطعمه خبزاً أنفع له؟ قال: ويحكم أطعموه سكراً فإن الربيع يحب السكر. ووقف سائل أيضاً على باب الربيع في ليلة باردة، فخرج إليه فرآه كأنه مقرور فقال: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾، فنزع برنساً فأعطاه إياه[2].

قوله عز وجل: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي ما تتصدقوا من مال فإن اللّه به وبنياتكم عليم يجزيكم على ذلك في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۗ﴾. قال ابن عباس: معناه كل الطعام الحلال اليوم وهو ما سوى الميتة والدم ولحم الخنزير كان حلالاً لبني يعقوب عليه السلام من قبل أن تنزل التوراة على موسى عليه السلام، إلا الطعام الذي حرمه يعقوب على نفسه وهو لحم الإبل وألبانها، وذلك أن يعقوب عليه السلام كان يمشي إلى بيت المقدس فلقيه ملك من الملائكة وهو خلف الأثقال، فظن يعقوب أنه لص فعالجه ليصارعه، فكانا كذلك حتى أضاء الفجر فغمز الملك فخذ يعقوب فهاج به عرق النسا[3]. فصعد الملك إلى السماء وجاء يعقوب يعرج حتى لحق الاثقال، وكان يبيت الليل ساهراً من وجعه وينصب لنهاره، فأقسم لئن شفاه اللّه ليحرمن أحب الطعام والشراب على نفسه فشفاه اللّه من ذلك فحرم أحب الطعام والشراب إليه، وذلك لحوم الإبل وألبانها. ثم استن ولده بسنته[4]، فذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۗ﴾. فلما نزلت هذه الآية قال النبي صلى اللّه عليه وسلم لليهود: «**ما الذي حرم إسرائيل على نفسه؟**» قالوا: كل شيء نحرمه اليوم على أنفسنا، فإنه كان محرماً على نوح عليه السلام فهلم جراً حتى انتهى إلينا، وأنت يا

---

(1) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 133.
(2) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 247.
(3) عرق النسا ـ بالفتح مقصور ـ عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ ثم يمر حتى يبلغ الكعب.
(4) ذكره القرطبي في تفسيره: 4/ 134.

محمد وأصحابك تستحلونه. وادعوا أن ذلك مسطور في التوراة. وقال الكلبي: كان هذا حين قال النبي صلى اللّه عليه وسلم: «**أنا على ملة إبراهيم عليه السلام**». وقالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نحله**». فقالت اليهود: كل شيء أصبحنا اليوم نحرمه فإنه كان حراماً على إبراهيم ونوح وهلم جراً حتى انتهى إلينا. فأنزل اللّه تعالى تكذيباً لهم[1]: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وذلك أن اليهود لما قال لهم النبي صلى اللّه عليه وسلم: «**ما الذي حرم إسرائيل على نفسه؟**» قالوا: كل شيء نحرمه اليوم على أنفسنا. قال اللّه تعالى للنبي صلى اللّه عليه وسلم: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ أي فاقرؤوها هل تجدون فيها تحريم كل ذي ظفر وتحريم شحوم البقر والغنم وغير ذلك مما حرم اللّه عليكم من الطيبات بعد نزول التوراة بظلمكم وبغيكم؟ كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[2] فأبوا أن يأتوا بالتوراة خوفاً من الفضيحة، لعلمهم بصدق النبي صلى اللّه عليه وسلم، فأنزل اللّه قوله عز وجل: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿94﴾﴾ أي من اختلق على اللّه الكذب بأن يقول[3] عليه ما لم ينزله في كتاب من بعد ذلك. يقول اللّه بعد قيام الحجة عليهم: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي قل لهم يا محمد: صدق اللّه في أن كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، فاتبعوا ملة إبراهيم في استباحة لحوم الإبل وألبانها، وافعلوا ما كان يفعله من الصلاة إلى الكعبة، وحج البيت. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي لم يكن إبراهيم على دين المشركين، ولم يفعل كما فعله اليهود في ادعائهم أن

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 247 ـ الواحدي، أسباب النزول: 98.
(2) سورة النساء (4)، الآية: 160.
(3) في النسخة (ف): ينزل.

عزير ابن اللَّه، ولا كما تقوله النصارى أن المسيح ابن اللَّه. وهذه الآيات حجة على اليهود في إنكارهم نسخ الشريعة.

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿96﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿97﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿98﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿99﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿96﴾﴾. قال مجاهد: تناظر المسلمون واليهود، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنها مهاجر الأنبياء، وهي الأرض المقدسة. وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل. فأنزل اللَّه تعالى[1]: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾. وقرأ ابن السميقع: وضع ـ بفتح الواو والضاد[2]، يعني وضعه اللَّه ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿96﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وليس ذلك ببيت المقدس، وكتب على الناس حج البيت وليس ذلك ببيت المقدس. واختلفوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ قال بعضهم: هو أول بيت وضع على وجه الماء عند خلق اللَّه تعالى السموات والأرض، خلقه اللَّه تعالى قبل الأرض بألفي عام، وكان ربوة بيضاء على الماء ودحيت الأرض من تحته، وهذا قول ابن عمر ومجاهد وقتادة والسدي[3]. وقيل: معناه هو أول بيت بناه آدم في الأرض. قاله ابن عباس. وقال الضحاك: معناه أول بيت وضع فيه البركة واختير من الفردوس الأعلى[4]. وقيل: هو أول بيت جعل قبلة للمسلمين. وعن

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 99 ـ تفسير البغوي: 1/ 509.

(2) ذكر هذه القراءة الثعلبي في تفسيره، ورقة: 248.

(3) ذكره الطبري في تفسيره: 7/ 20 ـ 21.

(4) يراجع: الثعلبي في تفسيره، ورقة: 249.

أبي ذر قال: سئل النبي صلى اللّٰه عليه وسلم عن أول بيت وضع للناس. فقال: «**المسجد الحرام، ثم بيت المقدس**». فقيل له: كم بينهما؟ فقال: «**أربعون عاماً**»[1]. وقال الحسن: معناه أن أول بيت وضع لعبادة الناس على وجه الأرض الكعبة، بناها إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾[2] الآية.. وأما بناء بيت المقدس فقد كان بعد الكعبة بدهر طويل، بناه سليمان بن داود عليهما السلام. قال الكلبي: كان آدم عليه السلام حين أخرج من الجنة بنى الكعبة وطاف بها، فلما كان في زمن طوفان نوح عليه السلام رفعها اللّٰه إلى السماء السادسة بحيال موضع الكعبة وهي البيت المعمور يقال له الضراح: يدخله كل يوم سبعون ألف ملك[3]. وروي أن اللّٰه تعالى أنزل الكعبة من السماء وهي من ياقوتة حمراء وكانت الملائكة تحجها قبل آدم، فلما كثرت الخطايا رفعها اللّٰه تعالى. وعن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال: «**إن الكعبة كانت حشفة على وجه الماء فدحيت الأرض من تحتها الحشفة**» مثل الصخرة متواضعة.

قوله تعالى: ﴿بِبَكَّةَ﴾ قال الضحاك: هي مكة، والعرب تعاقب بين الباء والميم فتقول: ضربة لازب وضربة لازم. وقال ابن شهاب: بكة: المسجد والبيت، ومكة الحرم كله. ومثله قال آخرون سمي المسجد بكة، لأن البك هو الرجم في اللغة يقال: بكه إذا رجمه. وسمي المسجد بكة لأن الناس يتباكون فيه، أي يزدحمون للطواف[4]. وقال أبو عبيد: بكة اسم لبطن مكة، ومكة لما بقي. وقال عبد اللّٰه بن الزبير: سميت البلد بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة، ما قصدها جبار إلا قصمه اللّٰه كأصحاب الفيل وغيرهم. وسميت مكة لاجتذابها الناس من كل أفق. امتك الفصيل ما في ضرع الناقة إذا قضى عليه فلم يدع شيئاً منه[5]. قال ابن عباس رضي اللّٰه عنهما: ما أعلم على وجه الأرض بلدة

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 2/ 3، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ وأحمد في مسنده: 5/ 166، عن محمد بن جعفر.

(2) سورة الحج (22)، الآية: 26.

(3) يراجع: تفسير الطبري: 7/ 21. ذكر هذا القول عن قتادة.

(4) تفسير الطبري: 7/ 24 ـ 25.

(5) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 138.

الحسنة فيها بمائة ألف إلا مكة، ولا درهم يتصدق به يكتب له بألف درهم إلا مكة، وما أعلم على وجه الأرض بلدة فيها شراب الأبرار ومصلى الأخيار إلا مكة، وما أعلم على وجه الأرض بلدة إذا دعا الرجل فيها بدعاء أمن الملائكة على دعائه إلا مكة، ولا أعلم على وجه الأرض بلدة يموت فيها الميت فيكون تكفيراً لخطاياه إلا مكة، وما أعلم على وجه الأرض بلدة صدر إليها جميع النبيين والمرسلين إلا مكة، وما أعلم على وجه الأرض بلدة تنزل فيها كل يوم من روح الجنة ورائحتها ما ينزل إلا مكة، والركعة الواحدة فيها بمائة ألف ركعة[1].

قوله تعالى: ﴿مُبَارَكًا﴾ نصب على الحال، أي الذي استقر لمكة. والبركة: ثبوت الخير. وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي قبلة للمؤمنين. وقيل: بيان ودلالة للعالمين على الله بإهلاك من قصده من الجبابرة، وباستئناس الطير فيه بالناس، وبأن لا يعلوه طائر إعظاماً له، وبإمحاق ما يرمي فيه من الجمار في كل سنة، فلولا أن ما يقبل منها يرفع، كما قال ابن عباس، وإلا كان قد اجتمع هناك من الحجارة مثل الجبال. ويجوز أن يكون المراد بالهدى أنه طريق الجنة.

قوله عز وجل: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي فيه علامات واضحات وهن ما تقدم ذكره ومقام إبراهيم أيضاً. والآية في مقام إبراهيم أن قدميه دخلتا في حجر صلد بقدرة الله تعالى صار الحجر كالطين حتى صاخت قدماه، ثم عاد الحجر صلداً ليكون دلالة على صدق نبوته عليه السلام. قرأ ابن عباس: فيه آية بينة ـ على الواحد، وأراد مقام إبراهيم وحده. وقرأ الباقون: آيات بينات بالجمع أرادوا مقام إبراهيم والحجر الأسود والحطيم وزمزم والمشاعر كلها[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ قال الحسن: أعطف الله تعالى قلوب العرب في الجاهلية على أن من لاذ بالحرم وإن كان جانياً لا يهاج فيه وذلك

---

(1) يراجع: قول ابن عباس في تفسير الثعلبي، ورقة: 249.
(2) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 139 ـ وتفسير الطبري: 7/ 26 ـ 28.

بدعاء إبراهيم عليه السلام، حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ وكان في الجاهلية من دخله أمن من القتل ولم يزده الإسلام إلا شدة. وقيل: إن أول من عاذ بالحرم الحيتان الصغار من الكبار في الطوفان. وقيل: من دخله عام عمرة القضاء مع النبي صلى اللَّه عليه وسلم كان آمناً[1]، بيانه قوله تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[2] قال أهل المعاني: صورة الآية خبر ومعناها أمر تقديرها: ومن دخله فأمنوه، كقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾[3] أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا. وقيل: معناه ومن دخله لقضاء النسك معظماً لله تعالى عارفاً بحقوقه متقرباً إلى اللَّه تعالى، كان آمناً يوم القيامة. وقال الضحاك: معناه من حجه فدخله كان آمناً من الذنوب التي اكتسبها قبل ذلك. وقال جعفر الصادق: من دخله على الصفاء كما دخله الأنبياء والأولياء كان آمناً من عذابه[4]. قال أبو النجم القرشي: كنت أطوف بالبيت فقلت: يا سيدي قد قلت: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ من أي شيء؟ فسمعت قائلاً من ورائي يقول: آمناً من النار. فالتفت فلم أر شيئاً[5]. يدل على هذا ما روى أنس بن مالك رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**من مات في أحد الحرمين بعثه اللَّه عز وجل يوم القيامة من الآمنين**»[6]. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة: وهما مقبرتا مكة والمدينة**». وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي عام، وتقربت منه الجنة مسيرة مائتي عام**». كذا في تفسير الثعلبي[7]. وقال وهب بن منبه: مكتوب في التوراة أن اللَّه عز وجل يبعث سبعمائة ألف من الملائكة المقربين إلى البيت عند كل واحد منهم سلسلة من ذهب، فيقول لهم: اذهبوا

---

(1) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 149.
(2) سورة الفتح (48)، الآية: 27.
(3) سورة البقرة (2)، الآية: 197.
(4) يراجع: تفسير القرطبي: 4/140.
(5) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 250.
(6) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 3/ 489، رقم: 4153.
(7) تفسير الثعلبي، ورقة: 250.

إلى البيت الحرام فزينوه بتلك السلاسل وقودوه إلى المحشر. فيأتوا به بسبعمائة ألف سلسلة من ذهب، ثم يقودونه وملك ينادي: يا كعبة اللَّه سيري. فتقول: لست بسائرة حتى أعطى سؤالي. فينادي ملك من جو السماء: سلي. فتقول: يا رب شفعني في جيراني الذين دفنوا حولي من المؤمنين. فيقول: قد أعطيتك سؤلك. فيحشر موتى مكة من قبورهم بيض الوجوه كلهم محرمون، فيجمعون حول الكعبة ثم يلبون، ثم تقول الملائكة: سيري يا كعبة اللَّه. فتقول: لست بسائرة حتى أعطى سؤالي. فينادي ملك من جو السماء: سلي. فتقول: يا رب عبادك المؤمنين الذين وفدوا إليَّ من كل فج عميق شعثاً غبراً قد تركوا الأهل والأولاد والأحباب وخرجوا شوقاً زائرين مسلمين طائعين حتى قضوا مناسكهم كما أمرتهم، فأسألك أن تؤمنهم من الفزع الأكبر وتشفعني فيهم وتجمعهم حولي. فينادي مناد: إن منهم من ارتكب الذنوب بعد ذلك وأصر على الكبائر حتى وجبت له النار. فتقول الكعبة: إنما أسألك الشفاعة لأهل الذنوب العظام. فيقول اللَّه تعالى: قد شفعتك فيهم وأعطيتك سؤلك. ثم ينادي مناد: ألا من زار الكعبة فليعتزل من بين الناس. فيعتزلون فيجمعهم اللَّه حول البيت الحرام بيض الوجوه آمنين من النار، يطوفون ويلبون. ثم ينادي ملك من جو السماء: ألا يا كعبة اللَّه سيري. فتقول الكعبة: لبيك اللهم لبيك والخير في يديك لبيك لا شريك لك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. ثم يشيعونها إلى المحشر[1].

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ قال عكرمة: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ قالت اليهود: نحن مسلمون. فأمروا أن يحجوا إن كانوا مسلمين[2]. واللام في قوله «لله» لام الإيجاب والإلزام، أي لله فرض واجب على الناس حج البيت. قرأ أبو جعفر والأعمش وحمزة والكسائي وخلف وحفص: حج ـ بكسر الحاء هذا الحرف وحده خاصة. وقرأ ابن أبي إسحاق جميع ما في القرآن بالكسر، وهي لغة

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 250.
(2) تفسير الطبري: 7/ 50.

نجد. وقرا الباقون بالفتح في كل القرآن[1]، وهي لغة أهل الحجاز، وهما لغتان فصيحتان بمعنى واحد. وقال بعضهم: هو بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم.

قوله عز وجل: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدل من الناس، وهو بدل البعض من الكل. قال عبد اللّٰه بن عمر: سئل رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم عن الاستطاعة في هذه الآية؟ فقال: «**السبيل: الزاد والراحلة**»[2]. ومثله عن ابن مسعود وابن عباس وعائشة وجابر بن عبد اللّٰه وأنس بن مالك رضي اللّٰه عنهم أجمعين.

قوله عز وجل: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معناه من أنكر فريضة الحج فلم يره واجباً فإن اللّٰه غني عمن حج ومن لم يحج، أي لم يتعبد الناس بالعبادات لحاجته إليها، وإنما تعبدهم بها لعلمه بمصالحهم فيها. وقد روي أنه لما نزل فرض الحج جمع رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم مع المسلمين اليهود والنصارى ومشركي العرب، فقال صلى اللّٰه عليه وسلم: «**إن اللّٰه قد فرض عليكم الحج فحجوا**». فلم يقبله إلا المسلمون، فأنزل[3] اللّٰه تعالى ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وأما ما روي عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال: «**من أدرك حجة الإسلام فلم يحج فلم تمنعه حاجة ظاهرة ولا إمام ظالم ولا مرض حابس حتى يموت على ذلك فليمت على أي حال شاء يهودياً أو نصرانياً**»[4] [فهو على طريق التهديد والتخويف. لا يكون المؤمن يهودياً ولا نصرانياً][5] ولا يجوز الحكم بكفره بأخبار الآحاد. وتأويل الخبر أنه لم ير الحج فرضاً عليه وقد وجد الاستطاعة. وعن عمر رضي اللّٰه عنه قال: قال

---

(1) يراجع: المهذب: 1/ 131 ـ والكشف: 1/ 353.
(2) رواه الترمذي في سننه العارضة؛ 4/ 28، باب ما جاء في إيجاب الحج بالزاد والراحلة ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 211، باب ما يوجب الحج.
(3) تفسير الطبري: 7/ 49.
(4) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 3/ 430، رقم: 3979.
ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 253 ـ والبغوي في تفسيره: 1/ 514 عن أبي أمامة.
(5) ما بين المعقوفين ساقط من النسخة (ف).

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: معنى ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي ومن كفر باللّه واليوم الآخر. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**من مات ولم يحج لم يقبل اللّه له يوم القيامة عملاً**».

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿98﴾﴾ أي قل يا محمد لليهود والنصارى لم تكفرون بالحج ومحمد والقرآن؟ واللّه عالم بما تعلمون. وإنما قال في هذا الموضع: قل يا أهل الكتاب، وقال من قبل: يا أهل الكتاب إنه تعالى خاطبهم أولاً على جهة التلطف في استدعائهم إلى الإيمان، ثم أعرض عن خطابهم إذلالاً لهم وأمر غيره بمخاطبتهم.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ نزل في قوم من اليهود كانوا يدعون عماراً وأصحابه إلى اليهودية، وكانوا يسعون في إحياء الصراعات التي كانت بين الأوس والخزرج في الجاهلية، وكانت قد ماتت في الإسلام. ومعنى الآية: قل يا محمد لهم أتصرفون من آمن عن دين اللّه وعن الطريق التي هي الموصلة إلى رضى اللّه من الإسلام والحج وغير ذلك تبغونها عوجاً، أي تطلبون لها ميلاً؟ قال أبو عبيدة: العوج ـ بالكسر: في الدين والقول والعمل، والعوج ـ بالفتح: في الجدار والحائط والعصى[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي وأنتم شهداء بتقديم البشارة بمحمد صلى اللّه عليه وسلم في كتبكم. وقيل: معناه وأنتم عقلاء، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿37﴾﴾[2].

قوله عز وجل: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد لهم على الكفر، أي لا يخفى على اللّه شيء مما تعملون من الجحد والكتمان.

---

(1) مجاز القرآن: 1/ 98.
(2) سورة ق (50)، الآية: 37.

قال اللّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ
كَٰفِرِينَ (100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ
فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (101) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (102) وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ (100)﴾. قال زيد بن أسلم: إن شاس بن قيس اليهودي، وكان شيخاً كبيراً عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم، مر على نفر من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال: واللّه ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار. فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا قالوا فيه من الأشعار. وكان بعاث يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحي أحدهما من الأوس والآخر من الخزرج وتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم واللّه رددناها جذعة الآن. وغضب الفريقان جميعاً وقالا: موعدكم الحرة. فخرجوا إليها بالسلاح، وانضمت الأوس إلى الأوسي والخزرج إلى الخزرجي، فبلغ ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فخرج بمن معه من المهاجرين إليهم فقال: «**يا معشر المسلمين أتدعون إلى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم اللّه بالإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم**». فعرفوا أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضاً، ثم رجعوا مع

رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم سامعين مطيعين. فأنزل اللَّه عز وجل هذه الآية[1]، ومعناها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يعني الأوس والخزرج ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني شاسا وأصحابه إن تطيعوهم في إحياء الضغائن التي كانت بينكم بالعصبية وحمية الجاهلية يردوكم إلى الشرك والكفر بعد تصديقكم بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم والقرآن. قال جابر بن عبد اللَّه: ما كان من طالع أكرم إلينا من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فما رأيت يوماً قط أقبح أولاً ولا أحسن آخراً من ذلك اليوم[2].

قوله عز وجل: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ هذا على طريق التعجب والاستبعاد أن يقع منهم الكفر مع معرفتهم بدلالات اللَّه، أي كيف تكفرون وأنتم يتلى عليكم القرآن ومعكم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يبين لكم الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي من يستمسك بدينه وطاعته ويمتنع به من غيره فقد أرشد إلى طريق قائم يرضاه اللَّه وهو الإسلام والعصمة والمنع، فكل مانع شيئاً فهو عاصم. قال الفرزدق:

أنا ابن العاصمين بني تميم ∴ إذا ما أعظم الحدثان نابا[3]

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿102﴾﴾ معناه: يا أيّها الذين صدقوا بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم والقرآن، أطيعوا اللَّه حق طاعته واثبتوا على الإسلام حتى لا يدرككم الموت إلا وأنتم مسلمون. قال الكلبي: حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر[4]. وقال ابن عباس: هو أن لا يعصى طرفة عين. وقال مجاهد: معناه جاهدوا في اللَّه حق جهاده ولا تأخذكم في اللَّه لومة لائم،

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 99 ـ والبغوي، معالم التنزيل: 1/ 515.
(2) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 155 (بتصرف).
(3) هذا البيت من شعر الفرزدق، وهو مطلع بائيته في الفخر، تتكون من تسعة وستين بيتاً. (ديوانه: 1/ 99 ـ النقائض: 451).
(4) يراجع: تفسير البغوي: 1/ 518.

وقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وأبنائكم[1]. فلما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول اللّٰه من يقوى على تقوى اللّٰه حق تقاته؟ وشق ذلك عليهم، فأنزل اللّٰه تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[2] فصار ابتداء هذه الآية منسوخاً به، وإلى هذا ذهب قتادة ومقاتل وجماعة من المفسرين. قال مقاتل: وليس في آل عمران من المنسوخ إلا هذه الآية. وقال بعضهم: لا يجوز أن يكلف اللّٰه عباده ما لا يطيقونه[3]. وليست هذه الآية منسوخة وإنما معناها: اتقوا اللّٰه فيما يحق عليكم أن تتقوه فيه، وهو ما يفسره اللّٰه تعالى في كتابه في مواضع شتى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي مؤمنون، وقيل مخلصون مفوضون أمركم إلى اللّٰه. وقال الفضيل: محسنون الظن باللّٰه[4]. وعن أنس رضي اللّٰه عنه قال: لا يتقي اللّٰهَ عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه[5].

قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ الآية.. قال مقاتل: كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهلية وقتال، حتى هاجر رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم إلى المدينة فأصلح بينهم، فافتخر بعد ذلك رجلان: ثعلبة بن غنم الأوسي وأسعد[6] بن زرارة الخزرجي. فقال الأوسي: منا خزيمة[7] ذو الشهادتين، ومنا حنظلة[8] غسلته الملائكة، ومنا عاصم بن

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 254.
(2) سورة التغابن (64)، الآية: 16.
(3) تفسير القرطبي: 4/ 157 ـ تفسير الطبري: 7/ 68 ـ 69.
(4) تفسير البغوي: 1/ 518.
(5) المصدر نفسه.
(6) في النسخة (ف): سعد.
(7) أبو عمارة. خزيمة بن ثابت الأنصاري: يعرف بذي الشهادتين، فقد جعل الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين. شهد بدراً وما بعدها من المشاهد، وتوفي سنة سبع هجرية.
الاستيعاب: 2/ 448.
(8) حنظلة بن أبي عامر الراهب الأنصاري الأوسي: استشهد يوم أحد، جنباً فغسلته الملائكة.
الاستيعاب: 1/ 380.

ثابت[1] حميّ الدبر، ومنا سعد بن معاذ الذي اهتز العرش لموته ورضي بحكمه في بني قريظة. وقال الخزرجي: منا أربعة أحكموا القرآن: أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد[2]، ومنا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم. فجرى الحديث بينهم فغضبوا، فقال الخزرجي: أما واللَّه لو تأخر الإسلام قليلاً وقدوم النبي صلى اللَّه عليه وسلم لقتلنا سادتكم واستعبدنا أبناءكم ونكحنا نساءكم بغير مهر. فقال الأوسي: قد كان واللَّه الإسلام متأخراً كثيراً فهلا فعلتم ذلك حين ضربناكم حتى أدخلناكم البيوت. وتكاثرا وتشاتما حتى تناديا واقتتلا حتى اجتمع الأوس والخزرج ومعهم السلاح. فبلغ ذلك رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فخرج إليهم في أناس من المهاجرين وقد نهض بعضهم إلى بعض. قال جابر: فما كان طالع يومئذ أكرم علينا من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فأومأ إلينا بيده فكففنا ووقف بيننا فقرأ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾. فألقى الفريقان السلاح وأطفأوا الحرب، فلم يكن في الأرض شخص أحب إليهم من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بعد نزول هذه الآية، ومشى بعضهم إلى بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعانق بعضهم بعضاً يبكون، فما رأيت باكياً أكثر من يومئذ.

قوله تعالى: ﴿بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾ أي تمسكوا بدين اللَّه. وقيل: بالجماعة. وقال مجاهد وعطاء: بعهد اللَّه. وقال قتادة والسدي والضحاك: معناه واعتصموا بالقرآن. وقال علي رضي اللَّه عنه: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم:

---

(1) أبو سليمان، عاصم بن ثابت الأنصاري الأوسي: صحابي من السابقين الأولين من الأنصار. شهد بدراً وأحداً مع الرسول صلى اللَّه عليه وسلم، واستشهد يوم الرجيع سنة أربع هجرية. الأعلام: 3/ 348.

(2) أبو زيد: ثابت بن زيد بن قيس الخزرجي الأنصاري. شهد غزوة أحد مع النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن حفظاً في عهد النبي صلى اللَّه عليه وسلم. نزل البصرة ثم قدم المدينة في خلافة عمر فمات بها، فوقف عمر على قبره وقال: رحمك اللَّه أبا زيد لقد دفن اليوم أعظم أهل الأرض إمامة. الطبقات الكبرى: 7/ 20 ـ غاية النهاية: 1/ 305.

«**كتاب اللَّه هو الحبل المتين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم**». وقال ابن مسعود رضي اللَّه عنه: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**إن هذا القرآن هو حبل اللَّه المتين، وهو النور المبين، والشفاء النافع، وعصمة من تمسك به، ونجاة من تبعه**». وقال مقاتل: معنى الآية: واعتصموا بأمر اللَّه وطاعته. وقال أبو العالية: بإخلاص التوحيد لله تعالى. وقال ابن زيد: بالإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ أي تناصروا في دين اللَّه ولا تتفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستتفرق على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة**». فقيل: يا رسول اللَّه وما هذه الفرقة الواحدة؟ فقبض يده وقال: «**الجماعة**»[1]. ثم قرأ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**إن اللَّه تعالى رضي لكم ثلاثاً وكره لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل اللَّه جميعاً ولا تفرقوا، واسمعوا وأطيعوا لمن ولاه اللَّه أمركم. وكره لكم: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**»[2].

قوله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي احفظوا نعمة اللَّه عليكم إذ كنتم أعداء في الجاهلية يقتل بعضكم بعضاً، فجمع اللَّه بين قلوبكم بالإسلام، المحرم للأنفس والأموال إلا بحقها، فصرتم بنعمة اللَّه إخواناً في الدين. قال محمد بن إسحاق: قيل: كان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم، فوقعت بينهم عداوة بسبب سمير وحاطب وذلك أن سمير بن زيد أحد بني عمرو بن عوف قتل خليطاً لمالك بن العجلان[3] الخزرجي يقال له حاطب بن الحارث، فوقع

---

(1) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 12/ 340، رقم: 4572 ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 1322، رقم: 3993 ـ وذكره الطبري في تفسيره: 7/ 74، رقم: 7577.

(2) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 12/ 10، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة.

(3) مالك بن العجلان الخزرجي: سيد الخزرج والأوس في زمانه بالمدينة (يثرب) في الجاهلية. اشتهر بحربه مع بني عمرو بن عوف وما كان بعدها في خبر طويل أورده صاحب الأغاني، وكان شاعراً له في هذه الحرب قصيدة أولها:

إن سميراً أرى عشيرته ... قد حدبوا دونه وقد أنفوا

الأعلام، للزركلي: 5/ 263 ـ الأغاني: 3/ 18 ـ 40 (طبعة الدار) ـ جمهرة أشعار العرب: 122.

الحرب بين القبيلتين فتطاولت بينهم تلك العداوة مائة وعشرين سنة لم يسمع بقوم كان بينهم من العداوة والحرب مثل ما كان بينهم، واتصلت تلك العداوة إلى أن أطفأ اللَّه ذلك بالإسلام وألف بينهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم[1]، وذلك أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لما بعث وظهر بمكة آمن به الأوس والخزرج وهم بالمدينة، فلما هاجر إليهم النبي صلى اللَّه عليه وسلم وقعت الألفة بينهم وزالت العداوة من قلوبهم وقد كادوا يتفانون، وكان سبب ألفتهم ما روي أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم خرج في الموسم وهو بمكة يعرض نفسه على قبائل العرب، فبينما هو عند العقبة إذ لقي رهطاً من الخزرج أراد اللَّه بهم خيراً وهم ستة نفر: أسعد بن زرارة، وعوف بن عفراء[2]، ورافع بن مالك[3]، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر[4]، وجابر بن عبد اللَّه. فقال لهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**من أنتم؟**» فقالوا: نفر من الخزرج. فقال: «**أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟**» قالوا: بلى. فجلسوا فدعاهم إلى اللَّه، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، وكان معهم بالمدينة يهود أهل كتاب ذكروا لهم أن نبياً الآن مبعوث قد دنا زمانه، فلما كلمهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ودعاهم إلى اللَّه تعالى قال بعضهم لبعض: هذا واللَّه النبي الذي ذكره اليهود فلا يسبقنكم إليه أحد. فأجابوه وصدقوه وأسلموا وقالوا: يا رسول اللَّه إن معنا قوماً بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى اللَّه أن يجمع كلمتهم بك، فأقدم إليهم وادعهم إلى أمرك فإن يجمعهم اللَّه عليك فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد أسلموا، فلما وصلوا المدينة ذكروا لهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام

---

(1) سيرة ابن هشام: 1/ 287 ـ ابن كثير، البداية والنهاية: 3/ 148 ـ 149.

(2) عوف بن الحارث بن رفاعة، وأمه عفراء: أول من أسلم من الأنصار بمكة، وشهد العقبتين، وشهد بدراً واستشهد فيها سنة اثنتين هـ. الطبقات الكبرى: 3/ 374.

(3) أبو مالك، رافع بن مالك بن العجلان: كان يعرف في الجاهلية من الكملة (والكامل: هو الذي يحسن الكتابة والرمي والعوم). وكان رافع ممن شهد العقبة واستشهد في أحد. الطبقات الكبرى: 3/ 466 ـ 467.

(4) عقبة بن عامر بن نابىء بن زيد بن حرام، وأمه فكيهة بنت سكن. كان من الستة الذين أسلموا بمكة من الأنصار. شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع الرسول صلى اللَّه عليه وسلم، واستشهد يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة هجرية. الطبقات الكبرى: 3/ 428.

حتى فشا بينهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. حتى إذا كان العام المقبل وافى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى الموسم منهم اثني عشر رجلاً: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا عفراء[1]، وعقبة بن عامر، وقطبة، ورافع بن مالك، وذكوان بن عبد قيس[2]، وعبادة بن الصامت[3]، وزيد بن ثعلبة، وعباس بن عبادة[4]، فهؤلاء الخزرجيون وأبو الهيثم بن التَّيِّهان[5] وعويم بن ساعدة[6] من الأوس، فاجتمعوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالعقبة وهي العقبة الأولى، فبايعوه على ألا يشركوا باللّه شيئاً، فإن وفيتم فلكم الجنة، وكان ذلك قبل أن يفرض الجهاد. فلما رجعوا إلى المدينة بعث معهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مصعب بن عمير بن

---

(1) معاذ بن الحارث بن رفاعة بن الحارث، وأمه عفراء بنت عبيد بن ثعلبة النجارية، وهو أول من أسلم من الأنصار بمكة، وشهد العقبة وغيرها من المشاهد مع رسول الله صلى اللّه عليه وسلم وتوفي في خلافة علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه.
الطبقات الكبرى: 3/ 373.

(2) أبو سبع، ذكوان بن عبد قيس بن خلدة، وهو من أول من أسلم من الأنصار بمكة وشهد العقبتين وبدراً وأحداً، واستشهد يوم أحد في شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة.
الطبقات الكبرى: 3/ 444.

(3) أبو الوليد عبادة بن الصامت الخزرجي صحابي جليل شهد العقبة وكان أحد النقباء كما شهد بدراً وسائر المشاهد. روى عنه جماعة من الصحابة والتابعين. ولي قضاء فلسطين وتوفي بالرملة سنة أربع وثلاثين هجرية.
الاستيعاب 2: 807 الطبقات الكبرى: 7: 387 ـ الأعلام: 3: 258.

(4) عباس بن عبادة بن نضلة، شهد العقبة وأقام بمكة حتى هجر منها، فكان يقال له: مهاجري أنصاري. استشهد يوم أحد.
الطبقات الكبرى: 3/ 416 ـ البداية والنهاية: 3/ 167.

(5) أبو الهيثم، مالك بن التَّيِّهان الأوسي، وأمه ليلى بنت عتيك، كان أبو الهيثم ممن أسلم مع الأنصار بمكة وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع الرسول صلى اللّه عليه وسلم. بعثه الرسول صلى اللّه عليه وسلم إلى أهل خيبر فخرص عليهم التمر. توفي في خلافة عمر بن الخطاب.
الطبقات الكبرى: 3/ 341.

(6) أبو عبد الرحمن عويم بن ساعدة بن عائش بن قيس الأوسي: كان ممن أسلم من الأنصار بمكة وشهد العقبتين، وآخى الرسول صلى اللّه عليه وسلم بينه وبين عمر بن الخطاب. وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب وهو ابن خمس أو ست وستين سنة.
الطبقات الكبرى: 3/ 349.

هاشم[1] وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين. فكان مصعب يسمى بالمدينة المقرىء، وكان نزوله في بيت أسعد بن زرارة، وقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير[2]: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا فسفها ضعفاءنا وأخرجوهم فإن أسعد ابن خالتي ولولا ذلك لكفيتك. وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدي قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشركاً، فأخذ أسيد حربته وأقبل إلى أسعد ومصعب وهما جالسان في حائط فلما راه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق اللَّه فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلمه. فلما وقف عليهما أسيد شتمهما وقال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا، اعتزلا إن كان لكما في السلامة حاجة. قال مصعب: اجلس واسمع فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كففنا عنك ما تكره. قال: أنصفت. ثم ركز حربته وجلس عندهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، قالا: فواللَّه لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، ثم قال: ما أحسن هذا وأجلَّه. كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا: اغتسل وطهر ثوبك، ثم اشهد شهادة الحق: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه، ثم تصلي ركعتين. فقام واغتسل وطهر ثوبه وقال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أن محمداً رسول اللَّه، ثم ركع ركعتين ثم قال: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف أحد من قومه، يعني سعد بن معاذ وسأرسله إليكما. ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم. فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف باللَّه لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وصل إليهم قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً وقد نهيتهما. فقال: تفعل، وحدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن

---

(1) أبو محمد مصعب بن عمير بن هاشم القرشي: صحابي جليل هاجر إلى الحبشة وشهد بدراً واستشهد في أحد.
الاستيعاب: 4/ 1474 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 116.

(2) أبو يحيى، أسيد بن الحضير الأوسي: صحابي جليل، كان مقدماً في الجاهلية والإسلام، شهد العقبة الثانية مع قومه، وكان أحد النقباء، كما شهد أحداً وغيرها من المشاهد مع النبي صلى اللَّه عليه وسلم. توفي سنة عشرين هجرية بالمدينة.
الاستيعاب: 1/ 53 ـ الإصابة: 1/ 49 ـ أسد الغابة: 1/ 111 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 603.

زرارة ليقتلوه لما عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك[1]. فقام سعد مغضباً مبادراً للذي ذكره، فأخذ الحربة منه ثم قال: واللَّه ما أراك عنيت شيئاً. ومضى إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما فعل ذلك ليستمع منهما، فوقف عليهما متبسماً ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، تغشانا في ديارنا بما نكره. فقال له مصعب: اقعد واسمع فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره. فركز حربته وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. قالا: فعرفنا واللَّه في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به، ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالوا: تغتسل وتطهر ثوبك وتشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه، وتصلي ركعتين. فقام واغتسل وغسل ثوبه وتشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه، وصلى ركعتين، ثم أخذ حربته ومضى إلى ديار قومه ومعه أسيد بن حضير الأوسي، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تجدون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا باللَّه ورسوله. قال: فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[2]. ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج معه من الأنصار من المسلمين سبعون رجلاً مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق، وهي بيعة العقبة الثانية. قال كعب بن مالك: فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا فيها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ومعنا عبد اللَّه بن عمرو بن حرام[3] أبو جابر اخترناه وكنا نكتم عن المشركين من قومنا إيماننا، فكاتمناه وقلنا: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وإنا نرغب لك فيما نرغب لأنفسنا. ودعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فشهد

---

(1) البداية والنهاية: 3/ 152.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية: 3/ 153.

(3) أبو جابر عبد اللَّه بن عمرو بن حرام: شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وكان أحد النقباء، وشهد بدراً وأحداً مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، واستشهد يوم أحد. الطبقات الكبرى: 3/ 423.

معنا العقبة وكان نقيباً، فبتنا تلك الليلة مع قومنا في رجالنا حتى إذا مضت ثلاث ليال خرجنا لميعاد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، نتسلل مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن سبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب من نساء بني النجار[1]، وأسماء بنت عمرو بن عدي من نساء بني سلمة، فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فجاء رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ومعه عمه العباس وهو يومئذ مشرك، إلا أنه أحب أن يحضر مع ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول من تكلم العباس فقال: يا معشر الخزرج، وكانت العرب تسمي الأوس والخزرج باسم الخزرج، اعلموا أن محمداً منا حيث قد علمتم هو في عز من قومه ومنعة في بلده، وأراه قد أبى إلا اللحوق بكم والانقطاع إليكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة. قال: فقلنا: قد سمعنا قولك، فتكلم يا رسول اللَّه وخذ لنفسك وربك ما شئت. فتكلم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وتلا القرآن، ودعا إلى اللَّه ورغب في الإسلام فقال: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم**». قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع منه أبناءنا، بايعنا يا رسول اللَّه فنحن أهل الحرب ونحن أهل الحلقة ورثناها صاغراً عن كابر. ثم قال أبو الهيثم بن التيهان: يا رسول اللَّه إن بيننا وبين الناس عهوداً ونحن قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك اللَّه أن ترجع إلى قومك وتدعنا. فتبسم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وقال: «**الدم الدم، والهدم الهدم، أنتم مني وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم. ثم قال: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً كفلاء على قومهم بما فيهم ككفالة الحواريين لعيسى عليه السلام**». فأخرجوا اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فلما اجتمعوا لبيعة رسول اللَّه صلى

---

(1) أم عمارة، نسيبة بنت كعب بن عوف الأنصارية: صحابية اشتهرت بالشجاعة، أسلمت مع الأنصار وشهدت العقبة وأحداً والحديبية وخيبر وعمرة القضاء وحنيناً، وسمعت من الرسول صلى اللَّه عليه وسلم فروت عنه. توفيت سنة ثلاث عشرة هجرية.
الطبقات الكبرى: 8/ 301 ـ صفة الصفوة: 2/ 34، الأعلام: 8/ 19.

اللَّه عليه وسلم قال العباس بن عبادة الأنصاري: يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون؟ إنما تبايعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم بالأخذ وأشرافكم بالقتل سلمتموه. فمن الآن فهو واللَّه إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعاكم إليه على نهك الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو واللَّه خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا بذلك يا رسول اللَّه إن نحن وفينا؟ قال: «**لكم الجنة**». قالوا: ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه، فأول من ضرب على يده البراء بن معرور، ثم بايع القوم واحداً بعد واحد[1]. قال: فلما بايعنا صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته أحياء كثيرة، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**هذا عدو اللَّه شيطان العقبة**». ثم قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**امضوا إلى رحالكم**». فقال العباس بن عبادة: والذي بعثك بالحق نبياً لئن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا. فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**لم أومر بذلك، ارجعوا إلى رحالكم**». قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا فلما أصبحنا عدت علينا جلة قريش فقالوا لنا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم صاحبنا لتستخرجوا ابن أخينا من بين أظهرنا، بايعتموه على حربنا، وإنه واللَّه ما حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. فانبعث هناك من مشركي قومنا يحلفون لهم باللَّه ما كان من هذا شيء، وما علمنا. وصدقوا لأنهم لم يعلموا على بيعتنا، فجعل بعضنا ينظر إلى بعض، ثم انصرف الأنصار إلى المدينة وقد شددوا العقد، فلما قدموا ظهر الإسلام بها[2]، وبلغ ذلك قريشاً فآذوا أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال عليه السلام لأصحابه: «**إن اللَّه قد جعل لكم إخواناً ومنزلاً وداراً تأمنون فيها**». فأمرهم بالهجرة إلى المدينة واللحوق بإخوانهم من الأنصار. فأول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي[3] ثم عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت

---

(1) البداية والنهاية: 3/ 162.
(2) ابن كثير، البداية والنهاية: 3/ 164.
(3) أبو سلمة، عبد اللَّه بن عبد الأسد بن هلال المخزومي، وأمه برة بنت عبد المطلب، أسلم أبو سلمة قبل أن يدخل الرسول صلى اللَّه عليه وسلم دار الأرقم، وهاجر إلى الحبشة ثم المدينة، وشهد بدراً وأحداً. توفي سنة ثلاث من الهجرة.
الطبقات الكبرى: 3/ 180.

أبي خثيمة ثم عبد اللّه بن جحش، ثم تتابع أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أرسالاً إلى المدينة، فأقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمكة ينتظر أن يؤذن له في الهجرة إلى أن أذن له، فقدم المدينة فجمع اللّه أهل المدينة أوسها وخزرجها بالإسلام. وأصلح ذات بينهم برسوله، ورفع عنهم العداوة القديمة وألف بينهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ أي بالإسلام ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ أي فصرتم، ونظيره: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1] ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾[2] ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾[3].

قوله تعالى: ﴿بِنِعْمَتِهِۦٓ﴾ أي بدين الإسلام.

وقوله: ﴿إِخْوَٰنًا﴾ أي في الدين والولاية، نظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[4]. قال صلى اللّه عليه وسلم: ل«ا **تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تنابزوا ولا تناجشوا وكونوا عباد اللّه إخواناً**[5]». «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله. التقوى هاهنا** ـ وأشار بيده إلى صدره ـ **حسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»[6].

قوله عز وجل: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي كنتم في الجاهلية على طريق هوة من النار، أي كنتم أشرفتم على النار وكدتم تقعون فيها، لو أدرككم الموت على الكفر فأنقذكم اللّه منها، أي خلصكم من النار والحفرة بالنبي صلى اللّه عليه وسلم والإيمان.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي مثل هذا البيان الذي

---

(1) سورة المائدة (5)، الآية: 30.
(2) نفس سورة، الآية: 31.
(3) سورة الكهف (18)، الآية: 41.
(4) سورة الحجرات (49)، الآية: 10.
(5) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 16/ 120، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر ـ وأبو داود في سننه: عون المعبود: 13/ 255 رقم: 4889 ـ والبيهقي في شعب الإيمان: 5/ 263، رقم: 6603.
(6) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 16/ 120، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره.

تلي عليكم يبين الله لكم الدلالات والحجج في الأوامر والنواهي لكي تهتدوا من الضلالة وتكونوا على رجاء الهداية.

قال الله تعالى:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (108) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي لتكن منكم جماعة يدعون إلى الصلح والإحسان، ويأمرون بالتوحيد واتباع محمد صلى الله عليه وسلم وسائر الطاعات الواجبة، وينهون عن المنكر والشرك وسائر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)﴾ أي الناجون من السخط والعذاب. وإنما قال: ولتكن منكم، ولم يقل: وليكن جميعكم، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين. ويجوز أن يكون المراد بالأمة في هذه الآية العلماء الذين يحسنون ما يدعون إليه. وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى: ولتكونوا كلكم، لكن «من» هاهنا دخلت للتوكيد وتخصيص المخاطبين من سائر الأجناس، كما في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾[1] أي فاجتنبوا الأوثان فإنها رجس، لا أن المراد: فاجتنبوا بعض الأوثان دون بعض. واللام في «ولتكن» لام الأمر.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ أي إلى الإسلام ثم النهي عن المنكر على

---

(1) سورة الحج (22)، الآية: 30.

مراتب: أولها الوعظ والتخويف، فإن زال بذلك لم يجز للناهي أن يتعدى عنه إلى ما فوقه؛ ثم بالأيدي والنعال، ثم بالسوط؛ ثم بالسلاح والقتال، لأن المقصود زوال المنكر، فأما إذا كان الناهي عن المنكر خائفاً على نفسه فقد قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»(1). وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة اللَّه في أرضه وخليفة رسوله صلى اللَّه عليه وسلم وخليفة كتابه**». وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله، وانهوا عن المنكر وإن لم تنهوا عنه كله**»(2). قال علي رضي اللَّه عنه: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشنآن الفاسقين(3). وقال أبو الدرداء: لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر، وليسلطن اللَّه عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تنصرون وتستغفرون فلا يغفر لكم(4). وقال حذيفة: يأتي على الناس زمان لأن يكون فيها جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر(5). وقال الثوري: إذا كان الرجل محبوباً في جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه مداهن(6).

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي ولا تكونوا كاليهود والنصارى الذين اختلفوا فيما بينهم وصاروا فرقاً وشيعاً من بعد ما جاءهم الكتاب في أمر محمد صلى اللَّه عليه وسلم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على تفرقهم واختلافهم. وقال بعضهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ قال هم المبتدعة من هذه الأمة، ثم بين اللَّه تعالى وقت العذاب

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 2/ 21، باب وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ والترمذي في سننه، العارضة: 9/ 18، ما جاء في تغيير المنكر.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 6/ 89، رقم: 7570، باب، في الأمر بالمعروف.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 259.

(4) نفس المصدر.

(5) نفس المصدر.

(6) تفسير الثعلبي، ورقة: 259.

العظيم الذي يصيبهم فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ معناه: وأولئك لهم عذاب عظيم.

قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وهم يوم القيامة، وانتصب على الظرف، أي في يوم. وقرأ يحيى بن وثاب: تبيض وتسود ـ بكسر التاء على لغة تميم[1]. وقرأ الزهري: تبياض وتسواد[2]. ومعنى الآية: تبيض وجوه المخلصين لله بالتوحيد، أي تشرق فتصير كالثلج بياضاً والشمس ضياء، وتسود وجوه الكفار والمنافقين من الحزن حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون. وعن ابن عباس قال: معناه تبيض وجوه أهل العلم والسنة، وتسود وجوه أهل البدعة. وقال بعضهم: ابيضاض الوجوه: إشراقها واستبشارها وسرورها بعملها وثواب اللّه تعالى، واسودادها: حزنها وكآبتها وكسوفها بعملها وبعقابها.

قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ جوابه محذوف، أي يقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم، قيل: هم قوم من أهل الكتاب كانوا مصدقين بأنبيائهم مصدقين بمحمد صلى اللّه عليه وسلم قبل أن يبعث، فلما بعث كفروا به، فذلك قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. وقيل: هو كل من كفر بعد إيمانه باللّه يوم الميثاق حين أخرجوا من صلب آدم عليه السلام. وقيل: هم الخوارج وأهل البدع كلها. وقيل: هم أهل الردة.

قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107)﴾ وهم المؤمنون الذين ابيضت وجوههم في الآخرة ففي جنة اللّه تعالى صاروا إليها برحمته وهم فيها مقيمون دائمون. وفي الآية بيان أن الجنة لا تنال إلا برحمة اللّه وإن اجتهد المجتهد في طاعته.

قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي هذه حجج اللّه ينزل بها جبريل فيقرؤها عليك بالصدق ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي للجن والأنس.

---

(1) تفسير القرطبي: 4/ 167.
(2) نفس المصدر.

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿109﴾﴾ معناه: جميع ما في السموات والأرض من الخلق عبيد اللّه ومخلوقه فلا يريد ظلمهم، فإن من بلغ غناه هذا المبلغ لا يحتاج إلى الظلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي عواقب الأمور في الآخرة.

قال اللّه تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿110﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿111﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿112﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ خطاب لأصحاب محمد صلى اللّه عليه وسلم وهو يعم سائر أمته[1]. قال الحسن: نحن آخر الأمم وأكرمها على اللّه تعالى. وقيل: معنى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي كنتم في اللوح المحفوظ. وقيل: كنتم مذ كنتم. وقيل: الكاف زائدة أي أنتم خير أمة[2]. وقوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بالتوحيد واتباع الشريعة، وتنهون عن المنكر أي عن الشرك والظلم. وقوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي توحدون اللّه تعالى بالإيمان برسوله صلى اللّه عليه وسلم، لأن من كفر بالنبي صلى اللّه عليه وسلم لم يوحد اللّه تعالى. ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ أي لو صدق اليهود والنصارى مع إيمانهم باللّه تعالى بإيمانهم بنبيه صلى اللّه عليه وسلم لكان خيراً لهم من الإقامة على دينهم. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم

---

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 456.

(2) تفسير القرطبي: 4/ 170.

أنه قال: «**أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على اللَّه عز وجل**»[1]. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**أهل الجنة مائة وعشرون صنفاً ثمانون منها من هذه الأمة**». وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**إن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمتي**». وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**أمتي أمة مرحومة إذا كان يوم القيامة أعطي كل رجل من هذه الأمة رجلاً من الكفار فيقال: هذا فداؤك من النار**». وقيل لعيسى عليه السلام: يا روح اللَّه، هل بعد هذه الأمة أمة؟ قال: نعم، أمة أحمد صلى اللَّه عليه وسلم علماء حكماء أبرار أتقياء كأنهم من العفة أنبياء يرضون من اللَّه باليسير من الرزق رضي اللَّه تعالى منهم باليسير من العمل، يدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا اللَّه[2].

قوله عز وجل: ﴿مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ يعني من أهل الكتاب منهم المؤمنون: عبد اللَّه بن سلام وأصحابه وسائر من أسلم من أهل الكتاب، وأكثرهم الفاسقون، أي الكافرون الخارجون عن أمر اللَّه وهم الذين لم يسلموا منهم.

قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾ أي لن يصلوا إلى ضرركم أيها المسلمون إلا أن يؤذوكم بألسنتهم بقولهم عزير ابن اللَّه والمسيح ابن اللَّه، وثالث ثلاثة، والبهت والتحريف. وقال مقاتل: إن رؤساء اليهود كعب بن الأشرف وأبو رافع وأبو ياسر وابن صوريا وغيرهم عمدوا إلى مؤمنيهم عبد اللَّه بن سلام وأصحابه فآذوهم لإسلامهم، فأنزل[3] اللَّه عز وجل: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾ أي باللسان، يعني وعيداً وطغياناً بألسنتهم ودعاء إلى ضلالة وكفر، وكلمة كفر يسمعونها منهم فيتأذون بها.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَۖ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي يعطوكم الأدبار منهزمين ثم لا ينصرون، يعني لا يمنعكم أحد من سبيكم إياهم وقتلكم نفوسهم. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ جواب الشرط إلا أنه استئناف لأجل

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك: 4/ 84، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 261.

(3) الواحدي، أسباب النزول. 101 ـ تفسير القرطبي: 4/ 174.

رؤوس الآي لأنها على النون، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿36﴾﴾[1] وتقديره: ثم هم لا ينصرون. وقال في موضع آخر: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾[2] إذ لم يكن على رأس الآية. قال الشاعر:

ألم تسأل الربع القديم فينطق

أي فهو ينطق[3].

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ معناه: جعلت عليهم مذلة القتل والسبي أينما وجدوا أخذوا. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي إلا أن يعتصموا بعهد اللَّه وهو الإسلام. وقوله: ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي عهد وإيمان وعقد ذمة المسلمين عليهم يؤدون إليهم الخراج ليؤمنوهم. وفي الآية اختصار تقديره: إلا أن يعتصموا بحبل من اللَّه. ﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ انصرفوا بغضب استوجبوه من اللَّه عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أي جعل عليهم خزي الفقر والبؤس حتى صاروا من الذلة إلى ما لا يبلغه أهل ملة بعد وإن كانوا ذوي عز ويسار ومنعة، فيرى الرجل منهم عليه البؤس والمسكنة وإنه لغني، ولم يبق لليهود فتحة في موضع من المواضع.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي ذلك الذل والغضب عليهم من اللَّه بكفرهم بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم والقرآن ورضاهم بقتل آبائهم الأنبياء بغير حق وغضبهم ومجاوزتهم الحد.

قال اللَّه تعالى:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿113﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿114﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

---

(1) سورة المرسلات (77)، الآية: 36.
(2) سورة فاطر (35)، الآية: 36.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 261.

بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿115﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا
وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿116﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿117﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿113﴾﴾. قال ابن عباس: لما أسلم عبد اللَّه بن سلام وثعلبة بن سعية وأسيد بن عبيد ومن أسلم من اليهود، قالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم. ثم قالوا لهم: قد خسرتم حين استبدلتم بدينكم دين غيركم، فأنزل اللَّه هذه الآية[1]. وقيل: لما ذكر اللَّه في الآيات المتقدمة من آمن من أهل الكتاب ومن لم يؤمن قال عز وجل: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ أي ليس الفريقان سواء، وهذا وقف تام، [ثم] استؤنف قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ أي عادلة مستقيمة مهتدية. وقال الأخفش: معناه ذو أمة قائمة وطريقة دائمة. قال: والأمة: الطريقة[2]. ومعنى قوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ يعني يقرؤون القرآن في ساعات الليل ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي وهم يصلون، لأن القراءة لا تكون في السجود. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[3] أي يصلون، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[4] أي صلوا. إنما ذكرت الصلاة باسم السجود لأن السجود نهاية ما فيها من التواضع. قال ابن مسعود رضي اللَّه عنه: أراد به صلاة العتمة. وقيل أراد به ما بين المغرب والعشاء[5]. واختلف النحاة في واحد الآناء، قال بعضهم: إني مثل معي وأمعاء. وقال بعضهم: إني مثل نحي وأنحاء[6]. وقال بعض

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 101 ـ تفسير الطبري: 7/ 120.
(2) الأخفش، معاني القرآن: 1/ 419.
(3) سورة الأعراف (7)، الآية: 206.
(4) سورة الفرقان (25)، الآية: 60.
(5) الواحدي، أسباب النزول: 102 ـ تفسير الطبري: 7/ 128 ـ 129.
(6) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 459.

المفسرين: في الآية اختصار وحذف تقديره: من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى اكتفاء بذكر أحد الفريقين. وهذا فعل مجموع مقدم كقولهم: أكلوني البراغيث وذهبوا أصحابك. وقال آخرون: تمام الكلام عند قوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ يعني المؤمنين والفاسقين، لأن ذكر الفريقين قد جرى في قوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ثم وصف الفاسقين فقال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ الآية... ووصف المؤمنين فقال: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾[1] الآية..

قوله عز وجل: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ قال ابن عباس: لما أسلم عبد اللَّه بن سلام ومن معه قالت اليهود: ما آمن بمحمد إلا شرارنا. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية. إلا أنها وإن نزلت فيهم فمن حق كل مسلم أن يكون على هذه الصفة. ومعنى الآية: يصدقون باللَّه وبالبعث بعد الموت. ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي باتباع محمد صلى اللَّه عليه وسلم، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي عن اتباع الجبت والطاغوت ومخالفة النبي صلى اللَّه عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي يبادرون إلى الطاعات والأعمال الخالصة، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي من المؤمنين المخلصين وهم: أبو بكر وعمر وسائر الصحابة.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي فلن تجحدوه، يعني تجزون به وتثابون عليه. قرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وحفص وخلف: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ ـ بالياء فيها إخباراً من الأمة القائمة. وقيل: راجع إلى قوله: ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقرأ الباقون بالتاء فيها على الخطاب[2]، كقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي عالم بأعمالهم وثواب أعمالهم.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ معناه: إن الذين جحدوا بمحمد والقرآن لن تغني أموالهم ولا أولادهم

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 101 ـ 102.
(2) مكي، الكشف: 1/ 354 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 263.

من عذاب اللَّه شيئاً ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي مقيمون دائمون.

قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ﴾ معناه: مثل ما ينفق اليهود في اليهودية على رؤسائهم وعلمائهم وما ينفق أهل الأوثان على أصنامهم في تظاهرهم على النبي صلى اللَّه عليه وسلم وإهلاكهم مال أنفسهم كمثل ريح فيها برد شديد. ويقال الصر: صوت لهب النار التي تحرق الزرع. وقيل: الصر ريح فيها صوت ونار.

قوله تعالى: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ أي زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية ومنع حق اللَّه عليهم فأهلكته، أي أحرقته الريح فلم ينتفعوا منه بشيء في الدنيا، كذلك من ينفق في غير طاعة اللَّه لا ينتفع بنفقة في الآخرة كما لا ينتفع صاحب هذا الزرع بزرعه في الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي بإهلاك زرعهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمنع حق اللَّه فيه وكفرهم ومعصيتهم.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (118) هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (119) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ نزلت هذه الآية في الأنصار كانوا قد ظاهروا اليهود حتى صار كأن بينهم نسباً، وكانوا يواصلونهم ويعاطفونهم حتى كان الرجل من الأنصار يتزوج

فيهم فيختارهم على قومه، فلما جاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالإسلام وآمن الأنصار أبغضتهم اليهود، وكان الأنصار يخالطونهم ويشاورونهم كما كانوا يفعلون من قبل الإسلام للرضاعة والمصاهرة التي كانت بينهم، فنهى اللّه تعالى الأنصار بهذه الآية وما بعدها[1]، ومعناها: لا تتخذوا دخلاء من غيركم، يعني اليهود. وبطانة الرجل: خاصته وأهل سره الذين يستبطنون أمره. سموا بذلك على جهة التشبيه ببطانة الثوب التي تلي جلد الإنسان. وحرف «من» في قوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ للتبيين، أي لا تتخذوا الذين هم أسافل وأراذل بطانة.

قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ لا يبقون غاية ولا يتركون الجهد في إلقائكم في الفساد. يقال: ما ألوت في الحاجة جهداً، أي ما قصرت. ونصب «خبالا» على المفعول الثاني لأنه يتعدى إلى مفعولين، وإن شئت على المصدر. وإن شئت بنزع الخافض: أي بالخبال. والخبال: الفساد، ومثله الخبل أيضاً. يقال: رجل خبل الرأي، أي فاسد الرأي، وبفلان خبل، أي جنون. وقال مجاهد: نزلت في قوم مؤمنين كانوا يصافحون المنافقين ويخالطونهم فنهاهم اللّه تعالى عن ذلك[2].

قوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي تمنوا ألمكم وضركم وهلاككم، والعنت في اللغة: المشقة، يقال: أكمة عنوت، أي طويلة شاقة المسلك. وقرأ عبد اللّه[3]: قد بدا البغضاء ـ بالتذكير، لتقدم الفعل، ولأن معنى البغضاء البغض.

قوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي ظهرت العداوة من ألسنتهم بالشتم والطعن ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي وما يضمرون في قلوبهم من القتل لو ظفروا بكم أعظم مما أظهروا لكم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي أخبرناكم بما أخفوا وأبدوا بالدلالات والعلامات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ العدو من الولي.

قوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي أنتم يا هؤلاء المؤمنين

---

(1) تفسير الطبري: 7/ 141،
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 263 ـ الواحدي، أسباب النزول: 162.
(3) وقرأ عبد اللّه بن مسعود... الخ. تفسير القرطبي: 4/ 181.

تحبون اليهود الذين نهيتكم عن مباطنتهم للأسباب التي بينكم من المصاهرة والرضاع والقرابة والجوار، ولا يحبونكم لما بينكم من مخالفة الدين. هذا قول أكثر المفسرين. وقال بعضهم: معناه تحبونهم، أي تريدون لهم الإسلام وهو خير الأشياء، ولا يحبونكم لأنهم يدعونكم إلى الكفر وهو الهلاك.

قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي تؤمنون بالتوراة والإنجيل وسائر كتب اللَّه تعالى، ولا يؤمنون هم بذلك كله، يعني لا يؤمنون بكتابكم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ يعني منافقي أهل الكتاب قالوا آمنا بمحمد أنه رسول صادق فيما يقول. ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ فيما بينهم ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾ أي أطراف الأصابع من الحنق عليكم لما يرون من ائتلافكم واجتماعكم وصلاح ذات بينكم، وهذا مثل ضربه اللَّه تعالى لشدة عداوة اليهود للمؤمنين. وواحد الأنامل أَنملة وأُنملة ـ بفتح الميم وضمها.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾ ليس على طريق الإيجاب لأنه لو كان على طريق الإيجاب لما تواكلهم، لكن معناه: تموتون بغيظكم ولا تبلغوا أمانيكم من قهر محمد صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عالم بما في القلوب من البغض والعداوة وغير ذلك. وفي الحديث عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**لا تستضيئوا بنار المشركين**»[1]، أي لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم.

قوله عز وجل: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ﴾ قرأ السلمي بالياء[2]. ومعنى الآية: إن تصبكم أيها المؤمنون حسنة بظهوركم على عدوكم وغلبتكم لهم والغنيمة والخصب تسؤهم تلك الحسنة، أي تحزنهم، يعني اليهود، وإن تصبكم محنة من جهة أعدائكم أو نكبة أو حدث يعجبوا بها.

---

(1) رواه النسائي في سننه: 8/ 176، باب قول النبي صلى اللَّه عليه وسلم: لا تنقشوا على خواتمكم عربياً.
(2) تفسير القرطبي: 4/ 183.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي وإن تصبروا على أذى اليهود والمنافقين وتتقوا معصية اللَّه تعالى وتخافوا ربكم، لا يضركم كيدهم شيئاً، أي لا يضركم احتيالهم لإيقاعكم في الهلاك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي أحاط بعلمه وقدرته بأعمالهم. قرأ أبو عمرو وابن كثير ونافع: يضركم ـ بكسر الضاد والتخفيف، وهو جزم على جواب الجزاء[1]. وقرأ الضحاك: لا يضركم ـ بضم الضاد وجزم الراء من ضار يضور[2]. وذكر الفراء عن الكسائي أنه سمع بعض أهل العالية يقول: لا ينفعني ذلك ولا يضورني[3]. وقرأ الباقون بضم الضاد وتشديد الراء من ضر يضر ضراً. وفي رفع يضركم وجهان: أحدهما أنه أراد الجزم وأصله يضرركم، فأدغمت الراء في الراء ونقلت ضمة الراء الأولى إلى الضاد، وضمة الراء الأخيرة اتباعاً لأقرب الحركات إليها وهي الضاد طلباً للمشاكلة، والوجه الثاني أن يكون «لا» بمعنى ليس ويضمر الفاء فيه تقديره: وإن تصبروا فليس يضركم. والضير والضر بمعنى واحد. قال اللَّه تعالى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ﴾[4] وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾[5].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي عالم. قرأ الأعمش بالتاء. وقرأ الباقون بالياء[6].

قال اللَّه تعالى:

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿121﴾ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿122﴾ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿123﴾ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿124﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ

---

(1) الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 355.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 264.
(3) الفراء، معاني القرآن: 1/ 232.
(4) سورة الشعراء (26)، الآية: 50.
(5) سورة الإسراء (17)، الآية: 67.
(6) تفسير الثعلبي، ورقة: 264.

وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿125﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿126﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿127﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ قال مجاهد والكلبي: غدا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من منزل عائشة يمشي على رجليه إلى أحد، فصف أصحابه للقتال كما يصفهم للصلاة، وذلك أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء. فلما سمع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بنزولهم استشار أصحابه، فقال أكثرهم: يا رسول اللَّه أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فإن أقاموا هناك أقاموا في شر مجلس، وإن دخلوا إلينا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم فرجعوا كما جاؤوا. فأعجب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم هذا الرأي[1]. وقال بعض الصحابة: يا رسول اللَّه اخرج بنا إلى هذه الأكلب لا يرون أنا جبنا منهم وضعفنا. وأتاه النعمان[2] بن مالك الأنصاري فقال: يا رسول اللَّه لا تحرمني الجنة، فو الذي بعثك بالحق لأدخلن الجنة. فقال له: «**بم؟**» قال: بأني أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأني لا أفر من الزحف. فقال: «**صدقت**». فقتل يومئذ شهيداً فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**رأيت في منامي أن في ذبابة سيفي ثلماً[3] فأولتها هزيمة، ورأيت أني أدخل يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فكرهت الخروج إليهم، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم فإن أقاموا أقاموا على شر مقام،**

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 265،

(2) النعمان بن مالك بن ثعلبة بن دعد الخزرجي الأنصاري: شهد بدراً وأحداً واستشهد يومئذ. الطبقات الكبرى: 3/ 414.

(3) ذباب السيف: طرفه المتطرف الذي يضرب به.
والثلم: هو الكسر في طرفه.

وإن دخلوا المدينة قاتلناهم فيها»، وكان صلى اللّه عليه وسلم يعجبه أن يدخلوا المدينة فيقاتلوا في الأزقة، فقال رجل من المسلمين ممن فاتهم يوم بدر وأراد اللّه لهم الشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا يا رسول اللّه. فكره الخروج إليهم وأمر بتبوئة المقاعد للقتال إلى أن يوافيهم المشركون. والمقاعد هن المواطن والأماكن. فلم يزالوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يحثونه على لقائهم حتى دخل بيته فلبس لأمته(1) وعزم على الخروج، فندم المسلمون وقالوا: بئسما صنعنا، نشير على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والوحي يأتيه. فقاموا واعتذروا وقالوا: اصنع ما رأيت يا رسول اللّه. فقال: «**لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل**». وكان قد أقام المشركون بأحد يوم الأربعاء والخميس، فخرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم الجمعة بعدما صلى بأصحابه الجمعة، فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت من النصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة، وكان من أمر حرب أحد ما كان(2)، فذلك قوله عز جل: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ﴾ أي واذكر إذ غدوت من عند أهلك من المدينة تهيئ للمؤمنين مواضع الحرب لقتال المشركين يوم أحد. وقال الحسن: نزلت هذه الآية في يوم الأحزاب وكل موضع منهما قريب من المدينة.

قوله عز وجل: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ أي أن تجبنا وتضعفا ويتخلفا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهم بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس، وكانوا جناحي العسكر، وذلك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خرج إلى أحد في ألف رجل، وقيل في تسعمائة وخمسين رجلاً وقد وعد أصحابه بالنصر والفتح إن صبروا، فلما بلغوا إلى بعض الطريق اعتزل عبد اللّه بن أبي بن سلول بثلث الناس ورجع بهم فرجع في ثلاثمائة

---

(1) اللأمة ـ مهموزة ـ: الدرع، وقيل السلاح. ولأمة الحرب: أداته. وقد يترك الهمز تخفيفاً. (ابن الأثير، النهاية، باب اللام مع الهمزة).

(2) تفسير الطبري: 7/ 162 ـ 163.

وقال: علام نقتل أولادنا وأنفسنا. فتبعهم أبو جابر السلمي وقال: أنشدكم اللَّه في نبيكم وأنفسكم. فقال عبد اللَّه: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم. وهمت بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف معه فعصمهم اللَّه تعالى ولم ينصرفوا ومضوا مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وثبت اللَّه قلوبهما فلم يرجعا، فذكرهم اللَّه تعالى عظيم نعمته[1]، ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي حافظهما وناصرهما. وقرأ ابن مسعود: وليهم، لأن الطائفة جمع[2]، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[3] ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في أمورهم. وقال جابر بن عبد اللَّه: واللَّه ما يسرنا أنا لم نهم بالذي هممنا به، ولقد أخبرنا اللَّه تعالى أنه ولينا[4].

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ بدر: اسم موضع بين مكة والمدينة وهو من بلاد غفار. وكان وقعة بدر أول قتال قاتله رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بنفسه. وجملة مغازي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ستة وعشرون غزوة، وكان غزوة بدر الكبرى أولهن، قاتل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في أحد عشر غزوة، وهن: بدر الكبرى، وأحد، والخندق، وبني قريظة، وغزوة بني المصطلق، وغزوة بني لحيان، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف، وتبوك. فأما بدر الكبرى فكانت يوم الجمعة السابع عشر من رمضان سنة اثنتين على رأس تسعة عشر شهراً من هجرة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وغزوة أحد في شوال سنة ثلاث، والخندق وبني قريظة في شوال سنة أربع، وبنو المصطلق وبنو لحيان في شعبان سنة خمس، وخيبر سنة ست، والفتح في رمضان سنة ثمان، وحنين والطائف في شوال سنة ثمان. فأول غزوة غزاها بنفسه وقاتل فيها هي بدر الكبرى وآخرها تبوك. وكانت سراياه ستاً وثلاثين

---

(1) البغوي في تفسيره: 1/ 541.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 266.
(3) سورة الحج (22)، الآية: 19.
(4) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 9/ 92، رقم: 4558، كتاب التفسير.

سرية[1]. ومعنى الآية: ولقد نصركم اللّه ببدر وأنتم قليل في العدد، وذلك أن المسلمين كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً: كان المهاجرون منهم سبعة وسبعين، ومن الأنصار مائتان وستة وثلاثون، وكان علي رضي اللّه عنه صاحب راية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وسعد بن عبادة صاحب راية الأنصار، وكان عدد الكفار تسعمائة ونيفاً.

قوله عز وجل: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي أطيعوه فيما يأمركم به لتقوموا بشكر النعم التي أنعمها عليكم.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤﴾ وذلك أن أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كانوا يوم أحد بعد انصراف عبد اللّه بن أبي بن سلول بثلث الناس سبعمائة، وكان المشركون ثلاثة آلاف، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ من السماء، قرأ الحسن ومجاهد وابن عامر: منزَّلين ـ بالتشديد. وقرأ الباقون بالتخفيف[2].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ يعني قوله: بلى تصديق لوعد اللّه تعالى وقول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: إن تصبروا لعدوكم مع نبيكم وتتقوا مخالفته ويأتوكم أهل مكة من وجههم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، أي معلمين بالصوف الأبيض، وقيل بالأحمر في نواصي الخيل وأذنابها، أي ينزلهم اللّه من السماء معلمين بهذه العلامة. ويجوز أن يكون معنى مسوَّمين مرسلين، من الإسامة وهي الإرسال. ومن قرأ مسومين ـ بكسر

(1) البداية والنهاية: 3/ 241 ـ طبقات ابن سعد: 2/ 3.
اصطلح كتاب السيرة على أن الموقعة إذا حضرها الرسول صلى اللّه عليه وسلم تسمى «غزوة»، وإذا لم يحضرها يقال لها «سرية» إن كانت من اثنين فأكثر، وإن كان واحداً يقال له «بعث»، وربما سموا بعض السرايا غزوة كما في «مؤتة» حيث قالوا: «غزوة مؤتة» وكما في سرية «الرجيع» حيث قالوا: «غزوة الرجيع» والسرية في الأصل: الطائفة من الجيش تخرج منه ثم تعود إليه خرجت ليلاً أو نهاراً.

(2) مكي، الكشف: 1/ 355 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 267.

الواو، فلأنهم سوموا خيولهم. وقد روي عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال لأصحابه يوم بدر: «**تسوّموا فإن الملائكة قد تسومت بالصوف الأبيض في قلانسهم ومغافرهم**»(1). وقال قتادة: كان على الملائكة يوم بدر سيما القتال وكانوا على خيل بلق(2). وقال ابن عباس: كانت يوم بدر سيما الملائكة تمائم بيض طرحوها على أكتافهم(3). قال: ولم يصبر المؤمنون يوم أحد للقتال إلا قليل منهم ولو صبروا لنزلت عليهم الملائكة وأتاهم ما وعدهم اللّه، ولكنهم لم يصبروا فلم تنزل عليهم الملائكة. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: مسومين ـ بكسر الواو. وقرأ الباقون بالفتح(4).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي وما جعل اللّه إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم ولتطمئن قلوبكم به فلا تراع من كثرة عدوكم وقلة عددكم حتى تثبتوا لأعدائكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي وإن أمدكم بالملائكة وقوى قلوبكم فليس النصر لكثرة العدد وقلته ولكنه من عند اللّه العزيز الحكيم، أي المنيع في سلطانه الحكيم في أمره. وفي الآية أن الإنسان لا يستغني في حال من الأحوال عن اللّه تعالى وإن كثر عدده واجتمع ماله. قال ابن عباس: إن الملائكة لم يباشروا القتال إلا يوم بدر، وأما سوى ذلك فإنها تحضر الصف وتكثر ولا تقاتل(5). وقال بعض المفسرين: إن الملائكة لا تقاتل أصلاً ولم يبعثوا إلا للبشارة، إذ لو بعثوا للقتال لكان ملك واحد يكفيهم كما فعل جبريل عليه السلام بقوم لوط. وقال بعضهم: إن الملائكة كانت تقاتل وكانت علامة ضربهم اشتعال النار في موضع ضربهم واللّه أعلم.

قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ معناه: ليقتل ويستأصل

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 268.
(2) المصدر نفسه.
(3) نفسه.
(4) مكي، الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 355.
(5) ذكره الطبري في تفسيره: 7/ 175.

جماعة من الذين كفروا فينقصهم بذلك أو يهزمهم فينقلبوا خائبين، أي فيرجعون منقطعين عن آمالهم. والكبت هو الوهن في القلب يصرع المرء على وجهه لأجله ونظم الآية: ولقد نصركم اللَّه ببدر ليقطع طرفاً من الذين كفروا، أي لكي يهلك طائفة من الذين كفروا. وقال السدي: معناه يهدم ركناً من أركان المشركين بالقتل والأسر، فقتل من سادتهم يوم بدر سبعون وأسر سبعون[1].

قوله تعالى: ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ أي لم ينالوا شيئاً مما كانوا يرجون من الظفر بكم. وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ قال الكلبي: أو يهزمهم. وقال النضر بن شميل: يغيظهم. وقال السدي: يلعنهم[2].

وقال أبو عبيدة: يهلكهم[3]. وقرىء في الشاذ: أو يكبدهم[4]، يقال كبده إذا رماه فأصاب كبده. والمكبود: المتلهف.

قال اللَّه تعالى:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿128﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿129﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿130﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿131﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿132﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ وذلك أنه لما شج النبي صلى اللَّه عليه وسلم يوم أحد وكسرت رباعيته وقتل سبعون من أصحابه، جعل يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: «**كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم**» همَّ أن يلعنهم ويلعن الذين انصرفوا مع عبد اللَّه بن أبي بن سلول، فأنزل اللَّه هذه الآية ينهاه فيها

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 268.
(2) تراجع هذه الأقوال في: تفسير البغوي: 1/ 545.
(3) مجاز القرآن، لأبي عبيدة: 1/ 103.
(4) نسب القرطبي في تفسيره: 4/ 198 هذه القراءة لأبي مجلز، لاحق بن حميد.

عن اللعن وبيَّن أن فلاحهم ليس إليه، وأنه ليس له من الأمر شيء إلا أن يبلغ الرسالة ويجاهد حتى يظهر الدين[1]. وقال عكرمة وقتادة: أدمى رجل من هذيل يقال له: عبد اللَّه بن قمية وجه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يوم أحد، فدعا عليه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فسلط اللَّه عليه تيساً فنطحه حتى قتله[2] وشج عتبة بن أبي وقاص رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فكسر رباعيته، فدعا عليه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال: «**اللهم لا تحول عليه الحول حتى يموت كافراً**». قال: فما حال عليه الحول حتى مات كافراً، فأنزل اللَّه هذه الآية[3]. وقال الكلبي: لما شج رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يوم أحد وأصيبت رباعيته، هم أن يلعن المشركين ويدعو عليهم، فأنزل اللَّه هذه الآية لعلمه أن كثيراً منهم سيتوبون، يدل عليه ما روى أنس قال: لما كان يوم أحد شج رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في قرن حاجبه وكسرت رباعيته وجرح في وجهه، فجعل يمسح الدم عن وجهه وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول: «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم؟**» فأنزل اللَّه هذه الآية[4]. وقال سعيد بن المسيب: لما قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**اشتد غضب اللَّه على من أدمى وجه نبيه**» وعلت عالية من قريش على الجبل فقال عليه السلام: «**لا ينبغي لهم أن يعلونا**». فأقبل عمر رضي اللَّه عنه ورهط من الأنصار حتى أهبطوهم من الجبل[5]. ونهض رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى صخرة ليعلوها وقد ظاهر بين درعين فلم يستطع، فجلس تحته طلحة فنهض حتى استوى عليها فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**أوجب طلحة**». ووقفت هند والنسوة اللائي معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يجدعن الآذان والأنوف حتى اتخذت هند من ذلك قلائد وأعطتها وحشي وبقرت عن

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 103.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 268.
(3) تفسير الطبري: 7/ 198 ـ 199.
(4) الواحدي، أسباب النزول: 104 ـ تفسير الطبري: 7/ 197.
(5) تفسير الثعلبي، ورقة: 268.

كبد حمزة[1] رضي اللّه عنه فلاكتها فلم تستطع فلفظتها، ثم علت صخرة مشرفة فصرخت ثم قالت:

نحن جزيناكم بيوم بدر ∴ والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان عن عتبة لي من صبر ∴ ولا أخي وعمه وبكري

شفيت نفسي وقضيت نذري ∴ شفيت وحشي غليل صدري

فلما رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمسلمون ما نزل بأصحابهم من جدع الآذان والأنوف وقطع المذاكير قالوا: لئن أدالنا اللّه فيهم لنفعلن بهم مثل ما فعلوا ولنمثلن مثلة لم يفعلها أحد قط، فأنزل اللّه هذه الآية. وقال عطاء: أقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعد أحد يدعو على بطن من هذيل يقال لهم بني لحيان، وعلى بطن من سليم يقال لهم رعل وذكوان وكان يقول: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**». فقحطوا حتى أكلوا أولادهم وأكلوا الميتة والعظام المحرقة، ثم أنزل اللّه هذه الآية[2]. وعن سالم قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام**[3]**، اللهم العن صفوان بن أمية**»[4]. فأنزل اللّه تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فأسلموا وحسن إسلامهم[5]. ومعنى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي ليس إليك من الأمر بهواك شيء.

---

(1) أبو عمارة حمزة بن عبد المطلب أحد صناديد قريش في الجاهلية والإسلام اعتز المسلمون بإسلامه، هاجر إلى المدينة، وشهد بدراً فأبلى فيها بلاء حسناً واستشهد في أحد ـ الاستيعاب: 1/ 369 الطبقات الكبرى: 3: 8.

(2) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 9/ 92، رقم: 4560، كتاب التفسير.

(3) أبو عبد الرحمن، الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي: كان من سادات قريش، يجيد الشعر، أسلم عام الفتح، فكان من المؤلفة قلوبهم، وحسن إسلامه. توفي بالشام سنة ثماني عشرة هـ.
الاستيعاب: 1/ 301 ـ الإصابة: 1/ 293.

(4) أبو وهب، صفوان بن أمية الجمحي: صحابي جواد، من أشراف قريش، أسلم عام الفتح فكان من المؤلفة قلوبهم. توفي بمكة سنة اثنتين وأربعين هجرية.
الاستيعاب: 2/ 718 ـ الطبقات الكبرى: 5/ 449 ـ تهذيب التهذيب: 4/ 424.

(5) تفسير الطبري: 7/ 200.

وقد يكون اللام بمعنى «إلى» كقوله تعالى: ﴿مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾[1]، وقوله: ﴿ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾[2] ونحوه. وقال بعضهم: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ اعتراض بين الكلام، وتقدير الآية: ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون. ليس لك من الأمر شيء - وهذا وجه حسن. وقال بعضهم: «أو» بمعنى «حتى» وقال بعضهم: تنصب بإضمار «أن» تقديره: أو أن يتوب عليهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي له جميع ما فيهم من الخلائق كلهم عباد اللَّه، وفي ملكه يغفر لمن يشاء الذنب الكبير[3] إذا تاب ويعذب من يشاء على الذنب الصغير إذا أصر على ذلك، واللَّه غفور رحيم في قبول توبتهم وتأخير العذاب عنهم. وإنما ختم اللَّه هذه القصة بالمغفرة والرحمة. لأنه وإن كان على التعذيب قادراً، لكن الغالب على أمره وما يريد بخلقه الرحمة والمغفرة.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أهل الطائف، كانت بنو المغيرة يربون لهم، فإذا حل الأجل وعجزوا عن ذلك زادوا في المال وازدادوا في الأجل، فنهاهم اللَّه عن ذلك[4]. ومعنى مضاعفة؛ هو أن الرجل إذا كان له على آخر مال فإذا حل الأجل طلبه به فيعجز عنه فيقول المطلوب: أخِّر عني وأزيدك في مالك. فيفعلان ذلك، فنهاهم اللَّه عنه. ومعنى أضعافاً: لا تأكلوا أضعاف ما آتيتموه، أي لا تأخذوا إلا المثل. ومعنى مضاعفة: لا تضعفوا المال بالزيادة في الأجل.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي اتقوا اللَّه في الربا ولا تستحلوه لكي تنجوا من العذاب في الآخرة. ثم صارت هذه الآية عامة في

(1) سورة آل عمران (3)، الآية: 193.
(2) سورة الأعراف (7)، الآية: 43.
(3) في النسخة (ف): الكثير.
(4) تفسير الطبري: 7/ 204.

جميع الناس. وإنما أعاد اللّه تعالى تحريم الربا بعد ما ذكره في سورة البقرة لتأكيد التحريم بتصريح النهي. ويجوز أن يكون المراد في سورة البقرة ربا النسيئة، وهذا ربا الفضل.

قوله عز وجل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿131﴾﴾ أي اخشوا النار في أكل الربا التي خلقت للكافرين باللّه عز وجل وبتحريم الربا. فإن قيل: إذا كانت النار معدة للكافرين، فكيف يعذب بها غير الكافرين؟ قيل: فائدة تخصيص الكافرين بالذكر لأنهم العمدة في إعداد النار لهم، وقد يدخلها غير الكافرين على طريق التبع كما قال تعالى في الجنة: أعدت للمتقين، وإن كان الأطفال والمجانين يدخلونها تبعاً للمتقين. وقيل: معناه واتقوا النار في استحلال الربا فإن من استحله فهو كافر.

قوله عز وجل: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿132﴾﴾ أي أطيعوا اللّه ورسوله في تحريم الربا لكي ترحموا فلا تعذبوا.

قال اللّه تعالى:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ
﴿133﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿134﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ
لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿135﴾
أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ
أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿136﴾ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿137﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ معناه: بادروا إلى ما يوجب لكم مغفرة من ربكم وهو التوبة. وقال ابن عباس: الإسلام. وقال أبو العالية: معناه سارعوا إلى الهجرة. وقال علي رضي اللّه عنه: إلى أداء الفرائض. وقال عثمان بن عفان رضي اللّه عنه: إلى الإخلاص. وقال أنس:

إلى التكبيرة الأولى. وقال سعيد بن جبير: إلى أداء الطاعة. وقال الضحاك: إلى الجهاد. وقال عكرمة: إلى التوبة. وقال الوراق: إلى امتراء الأوامر والانتهاء عن الزواجر. قال سهل بن عبد اللَّه: إلى السنة. وقال بعضهم: إلى الصلوات الخمس. وقال بعضهم: إلى الجمعة والجماعات[1]. وقرأ نافع وابن عامر: سارعوا ـ بحذف الواو على سبيل الابتداء لا على العطف[2].

قوله عز وجل: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ قال ابن عباس: الجنان أربع: جنة عدن وهي العليا، وجنة المأوى، وجنة الفردوس، وجنة النعيم. ثم في كل جنة منها جنات عدد نجوم السماء وقطر المطر، كل جنة في العرض والسعة لو ألصقت السماوات السبع والأرضون السبع بعضهن ببعض لكانت الجنة الواحدة أعرض منها[3]. وإنما خص العرض على المبالغة. لأن طول كل شيء في الأغلب أكبر من عرضه، تقول: هذه صفة عرضها فكيف طولها يدل عليه قول الزهري: إنما وصف عرضها، فأما طولها فلا يعلمه إلا اللَّه تعالى[4]. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾[5] فوصف البطانة بأحسن ما يعلم من الزينة، إذ معلوم أن الظواهر تكون أحسن وأنفس من البطائن. وقال بعض المفسرين: ليس المراد بهذه الآية التقدير، لكن المراد بها أوسع كل شيء رأيتموه حتى قال إسماعيل السدي: لو كسرت السموات والأرض وصرن خردلاً كان بكل خردلة لله تعالى جنة عرضها السموات والأرض.

قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي خلقت للمتقين الشرك والمعاصي. فإن قيل: إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ قيل: إن اللَّه خلق الجنة عالية والنار سافلة، والشيئان إذا كان أحدهما عالياً والآخر سافلاً لا

---

(1) تراجع هذه الأقوال في: تفسير الثعلبي، ورقة: 269 ـ وتفسير البغوي: 1/ 547.
(2) يراجع: مكي، الكشف عن وجوه القراءات: 1/ 356.
(3) تفسير القرطبي: 4/ 204.
(4) تفسير البغوي: 1/ 548.
(5) سورة الرحمن (55)، الآية: 54.

يجتمعان، لأنهما يوجدان في مكانين متغايرين. وروي أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سئل عن[1] هذا السؤال. فقال: «**سبحان اللّه؛ إذا جاء النهار أين يكون الليل**[2]؟»

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أول هذه الآية نعت للمتقين، ومعناها: الذين يتصدقون في حال العسر واليسر والشدة والرخاء، يعني أنهم ينفقون على الدوام لا يمنعهم قلة الحال ولا كثرته عن الإنفاق. فأول ما ذكر اللّه من أخلاق المتقين الموجبة لهم الجنة السخاء. قال صلى اللّه عليه وسلم: «**الجنة دار الأسخياء**»[3]. و«**السخي قريب من اللَّه قريب من الجنة بعيد من النار، والبخيل بعيد من اللّه قريب من النار، والجاهل السخي أحب إلى اللّه من العالم البخيل**»[4].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ أي الكاظمين غيظهم عن إمضائه، يردون غيظهم في أجوافهم ويصبرون. والكظم: الحبس والشدة. كظمت القربة إذا ملأتها ثم سددت رأسها على الامتلاء. والغيظ: هو انتقاض الطبع بما يكرهه. ولهذا لا يجوز الغيظ على اللّه وإن كان يجوز عليه الغضب، لأن الغضب هو إرادة العقاب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ معناه: الذين يعفون عن المذنبين من الأحرار والمملوكين. وقال الكلبي: عن المملوكين. وقد روي عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**من كظم غيظاً وهو يقدر على أن ينفذه فلم ينفذه زوجه اللّه من الحور العين حيث شاء**[5]. **وما عفا رجل عن مظلمة قط إلا زاده اللّه بها عزاً، ولا نقصت صدقة مالاً قط فتصدقوا، ولا فتح رجل على نفسه باب**

---

(1) سأله هرقل عن طريق كتاب بعثه إليه مع التنوخي: رجل نصراني قدم على الرسول صلى اللّه عليه وسلم في تبوك: (البداية والنهاية: 5/ 15 ـ 16).

(2) رواه أحمد في المسند: 3/ 441، رقم: 15719. طبعة الحلبي.

(3) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 270 عن عائشة رضي اللّه عنها.

(4) رواه البغوي في تفسيره: 1/ 548 ـ 549، بسنده عن أبي هريرة رضي اللّه عنه.

(5) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 13/ 135، رقم: 4756، باب في كظم الغيظ ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 1400، رقم: 4186، باب الحلم.

مسئلة إلا فتح اللَّه عليه باب فقر. وأعظم الناس عفواً من عفا عن قدرة».

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي شيء على المحسنين إلى الناس ويرضى عملهم. قال عيسى عليه السلام: ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، ذاك مكافأة، وإنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك. وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن أبا بكر رضي اللَّه عنه كان مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في مجلس فجاء رجل فكان يشتم أبا بكر وهو ساكت، والنبي صلى اللَّه عليه وسلم يبتسم، ثم رد أبو بكر على الرجل بعض الذي قال، فغضب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول اللَّه يشتمني وأنت تبتسم، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت؟! قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**إنك حين كنت ساكتاً كان معك ملك يرد عنك فلما تكلمت وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد في مقعد فيه الشيطان**»[1]. وعن أنس رضي اللَّه عنه: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**رأيت قصوراً مشرفة على الجنة فقلت: يا جبريل لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس واللَّه يحب المحسنين**»[2].

قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ متصل بقوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾. قال ابن مسعود رضي اللَّه عنه: قال المسلمون: يا رسول اللَّه كانت بنو إسرائيل أكرم على اللَّه منا، كان أحدهم إذا أذنب أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على بابه: اجدع أنفك، اجدع أذنك، افعل كذا، افعل كذا... فسكت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. فأنزل اللَّه هذه الآية، فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**ألا أخبركم بخير من ذلك**». وقرأ عليهم هذه الآيات[3]. وقال عطاء: نزلت في أبي مقبل التمار أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمراً فقال: إن التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه فهل لك فيه؟ قالت: نعم. فذهب بها إلى بيته وضمها وقبلها، فقالت له: اتق

---

(1) رواه أبو داود في سننه: 3/ 239، رقم: 4875، باب في الانتصار.
(2) رواه الثعلبي في تفسيره، ورقة: 271 بإسناده عن أنس رضي اللَّه عنه.
(3) الواحدي، أسباب النزول: 105 ـ تفسير الطبري: 7/ 219.

اللَّه سبحانه. فتركها وندم على ذلك، فأتى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فذكر له ذلك فنزلت هذه الآية[1]. وقال ابن عباس ومقاتل والكلبي: آخى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بين رجلين أحدهما من الأنصار والآخر من ثقيف، فخرج الثقفي في غزاة مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم واستخلف الأنصاري على أهله، فاشترى لهم لحماً ذات يوم، فلما أرادت المرأة أن تأخذه منه دخل على أثرها فدخلت بيتاً فتبعها فأنفته بيدها فقبل ظاهر كفها ثم ندم واستحى فقالت له: واللَّه ما حفظت غيبة أخيك، ولا واللَّه تنال حاجتك. فخرج الأنصاري ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه يسيح في الجبال ويتعبد، فلما رجع المسلمون من غزاتهم لم ير الثقفي أخاه فسأل امرأته فقالت: لا كثّر اللَّه في الإخوان مثله. وأخبرته بفعله، فخرج الثقفي في طلبه، فسأل عنه الرعاة في الجبال والفيافي حتى دل عليه فوافقه ساجداً وهو يقول: رب ذنبي، رب ذنبي، فقال: يا فلان قم فانطلق إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لعل اللَّه يجعل لك مخرجاً. فأقبل معه حتى قدم المدينة فسأل أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقالوا: لا توبة لك، أما تعلم أن اللَّه تعالى يغار للغازي في سبيله ما لا يغار لليتيم؟ فقام على باب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وقال: يا رسول اللَّه المذنب المذنب. فقال له مثل ما قال الصحابة، فخرج يسيح في الجبال لا يمر على حجر ولا مدر ولا سهلة حارة إلا تجرد وتمرغ فيها، حتى كان ذات يوم عند العصر نزل جبريل عليه السلام بتوبته بهذه الآية[2]، ومعناها: والذين إذا فعلوا فاحشة كبيرة أو ظلموا أنفسهم بفعل الصغيرة مثل النظر واللمس والغمز والتقبيل، ذكروا مقامهم بين يدي اللَّه وعقابه. وقيل: معناه ذكروا اسم اللَّه فقالوا: ربنا ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا. وقال السدي: قوله: ﴿فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ يعني الزنا[3]. وقوله: ﴿أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ قال الكلبي: يعني ما دون الزنا مثل القبلة واللمس والنظر فيما لا يحل. وقيل: ﴿فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ أي فعلوا الكبائر، وقوله: ﴿أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ يعني الصغائر.

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 105 ـ تفسير القرطبي: 4/ 209.
(2) الواحدي، أسباب النزول: 105 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 271.
(3) تفسير الطبري: 7/ 218.

وقيل: فعلوا فاحشة فعلاً أو ظلموا أنفسهم قولاً[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي ليس أحد يقدر على غفران الذنوب إلا اللَّه.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ معناه: ولم يقيموا على ما فعلوا من المعصية، فإن الاستغفار باللسان بغير ندامة القلب توبة الكذابين. قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون أنها معصية، فإنهم إذا لم يعلموا أنها خطيئة كان إثماً موضوعاً عنهم مثل أن يتزوج أمه من الرضاعة أو أخته من الرضاعة وهو لا يعلم أو يشتري جارية فيطأها ثم تستحق الجارية كان إثم ذلك موضوعاً عنه. وقيل: معناه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن لهم رباً يغفر الذنوب قال قتادة: إياكم والإصرار فإنما هلك المصرُّون لا تنهاهم مخافة اللَّه عن حرام حرمه اللَّه، ولا يتوبون من ذنب أصابوه حتى أتاهم الموت وهم على ذلك[2]. وقال السدي: الإصرار السكوت وترك الاستغفار[3]. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة**»[4]. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار**»[5]. وأصل الإصرار: الثبات على الشيء. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: يقول اللَّه تعالى: «**من علم أني ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالي**».

قوله عز وجل: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي أهل هذه الصفة ثوابهم ستر من ربهم لذنوبهم وحط العقاب عنهم وبساتين تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار مقيمين دائمين فيها، ونعم أجر التائبين في التوبة، فوضع عنهم ما كان مكتوباً على بني إسرائيل، فإنه كان إذا أذنب أحدهم ترى توبته مكتوبة على بابه: اجدع

---

(1) تراجع هذه الأقوال في: تفسير البغوي: 1/ 550.
(2) تفسير الطبري: 7/ 223 بنصه.
(3) تفسير البغوي: 1/ 551.
(4) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي بكر الصديق: 1/ 439، رقم: 642، فصل في إدامة ذكر اللَّه ـ وذكره الطبري في تفسيره: 7/ 225 بإسناده عن أبي بكر الصديق رضي اللَّه عنه.
(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 5/ 456، رقم: 7268.

أنفك، اجدع أذنك.. فوضع ذلك عن هذه الأمة واكتفى منهم بالندم والاستغفار.

قوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿136﴾﴾ أي ثواب المطيعين. قيل: أوحى اللّه إلى موسى عليه السلام: ما أقل حياء من يطمع في جنتي بغير عمل؟ يا موسى كيف أجود برحمتي على من بخل بطاعتي؟[1] وقال شهر بن حوشب: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب[2].

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿137﴾﴾ معناه: قد مضت من قبلكم سنن وهي الطرائق في الخير والشر. وقيل: معناه قد مضت من قبلكم سنن بإهلاك المكذبين لرسلنا، فسافروا في الأرض فانظروا كيف صار آخر المكذبين بالرسل والكتب؟ أي اتعظوا بالآثار التي بقيت منهم في الأرض مثل ديار قوم لوط وعاد وغيرهم؟

قال اللّه تعالى:

﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿138﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿139﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿140﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿141﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿142﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿143﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿138﴾﴾ أي هذا القرآن بيان للناس من الضلالة وهدي من العمى ونهي للمتقين عن الفواحش. والبيان: كل ما يظهر به المعنى للمتقين. والهدى: بيان طريق الرشد دون طريق الغي. والموعظة: ما تدعو إلى فعل الحسنة من ترغيب وترهيب.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 272.

(2) المصدر السابق نفسه.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ هذا عائد إلى ما تقدم ذكره من حديث حرب أحد، معناه: لا تضعفوا ولا تجبنوا يا أصحاب محمد عن قتال عدوكم لما نالكم يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة. وكان قتل يومئذ خمسة من المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وعبد اللَّه بن جحش ابن عمة النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وعثمان بن شماس[1]، وسعد مولى عتبة، ومن الأنصار سبعون رجلاً. قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي في الجنة. وقيل: وأنتم الغالبون في العاقبة، أي تكون لكم العاقبة بالنصر والظفر.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين بوعد اللَّه بالنصر.

قوله عز وجل: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي إن يمسسكم قرح يوم أحد فقد مس القوم قرح مثله يوم بدر، وذلك أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه كانوا قتلوا يوم بدر من المشركين سبعين رجلاً وأسروا سبعين، وقتل يوم أحد من أصحاب النبي صلى اللَّه عليه وسلم خمسة وسبعون وجرح سبعون. وقرأ محمد بن السميقع: قرح ـ بفتح القاف والراء على المصدر. وقرأ الأعمش وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بضم القاف فيهما، وهي قراءة ابن مسعود. وقرأ الباقون بفتح القاف، وهي قراءة عائشة رضي اللَّه عنها، وهما لغتان مثل: الجُهْد والجَهَد. وقال بعضهم: القرح ـ بفتح القاف: الجراحات، واحدتها قرحة، والقرح ـ بالضم: وجع الجراحة، يقال: قرح الرجل إذا وجع[2].

قوله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي تارة لهم وتارة عليهم، أديل المسلمون على المشركين يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين، وأديل المشركون يوم أحد حتى جرحوا سبعين وقتلوا خمسة وسبعين. قال أنس بن مالك رضي اللَّه عنه: أتى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بعلي رضي

---

(1) عثمان بن شماس بن شريد الهرمي: سمي شماس لوضاءته. هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة. آخى الرسول صلى اللَّه عليه وسلم بينه وبين حنظلة بن أبي عامر. شهد بدراً واستشهد في أحد وهو ابن أربع وثلاثين سنة.
الطبقات الكبرى: 3/ 185.

(2) مكي، الكشف: 1/ 356 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 273.

اللّه عنه وعليه يومئذ نيف وستون جراحة من طعنة وضربة ورمية فجعل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يمسحها بيده وهي تلتئم بإذن اللّه فكأنها لم تكن[1].

قوله عز وجل: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بين اللّه عز وجل المعنى الذي لأجله يداول الأيام بين المؤمنين والكفار فقال: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معناه: ليرى من يقيم على الإيمان ممن لا يقيم، فيظهر المؤمن المخلص والذي في قلبه مرض وقال الزجاج: معناه ليعلم اللّه علم مشاهدة بعدما كان علمه علم الغيب، لأن العلم الذي علمه اللّه قبل وقوع الشيء لا تجب به المجازاة ما لم يقع[2]. وأما الواو في قوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾ واو العطف على خبر محذوف تقديره: وتلك الأيام نداولها بين الناس بضروب من التقدير، وليعلم اللّه المؤمنين متميزين من المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾ أي يكرمكم بالشهادة. وقال بعضهم: معناه ويجعلكم شهداء على الناس على معاصيهم لإجلالكم وتعظيمكم. ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يفعل ذلك لحب الظالمين، فإنه لا يحب الظالمين. وفي هذا بيان أن اللّه لا ينصر الكفار على المسلمين، إذ النصرة تدل على المحبة، واللّه لا يحب الكفار ولكن قد ينصر المسلمين في بعض الأوقات على الكفار وفي بعض الأوقات يكل المسلمين إلى حولهم وقوتهم لذنب كان حصل منهم. وإنما جعل اللّه الدنيا منقلبة لئلا يطمئن المسلمون إليها لتقلّبها، ولكنهم يسعون للآخرة التي يكون نعيمها إلى الأبد.

قوله عز وجل: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾ ومعناه: وليطهر الذين آمنوا من ذنوبهم. ويقال: محصت الشيء أمحصه محصاً إذا أخلصته من العيب. ومحص الحبل يمحص محصاً إذا خلصته من العيب، أي إذا ذهب عنه الوبر لكد العمل فصار أملس.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 272.

(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 470 ـ 471،

قوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يفنيهم ويهلكم وينغصهم[1]، لأنهم مجترئون للحرب مرة أخرى فيستأصلهم، وهذا تأويل مداولة الأيام.

قوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿142﴾﴾ معناه: أظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة؟ ولما يعلم اللَّه جهاد المجاهدين ولا صبر الصابرين واقعاً منكم مشاهدة؟ وهذا استفهام بمعنى الإنكار لظنهم وحسبانهم. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ أي ولم يعلم اللَّه. يقول الرجل: لما يفعل معناه: لم يفعل. انضم إليه حرف «ما». وقرأ الحسن: ويعلم الصابرين ـ بالكسر، عطفاً على قوله: ولما يعلم[2]. وأما قراءة النصب فهو نصب على الصرف، يعني على معنى صرف آخر الكلام عن أوله على تقدير: وأن يعلم الصابرين، وهو قول الكوفيين. وأما البصريون فيسمونه نصباً على الجمع. قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ∴ عار عليك إذا فعلت عظيم[3]

أي لا يكن منك النهي عن خلق مع إتيانك مثله. ويقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، أي لا يكن[4] منك الجمع بينهما.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿143﴾﴾. قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما. وذلك أنه لما أخبرهم اللَّه على لسان نبيه صلى اللَّه عليه وسلم ما فعل بشهدائهم يوم بدر من الكرامة والثواب في الجنة، رغبوا في ذلك وقال: اللهم أرنا قتالاً لعلنا نستشهد به فنلحق بإخواننا في الجنة. فأراهم اللَّه يوم أحد فلم يثبتوا مع النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وانهزموا إلا من شاء اللَّه منهم ممن ثبت مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فقتل بعضهم وجرح بعضهم، فأنزل اللَّه هذه الآية ومعناها: ولقد كنتم تتمنّون الموت بعد وقعة بدر من قبل أن تنظروا إليه يوم أحد، فقد رأيتموه

---

(1) في النسخة (س): ويبغضهم.
(2) راجع الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: 1/ 472، فقد ذكر قراءة الحسن وتوجيهها.
(3) تقدم تخريجه.
(4) في النسخة (ف): لا يكون.

وأنتم تنظرون إلى السيوف فيها الموت، وهذا تعيير لهم لفشلهم عند الحرب مع صدق رغبتهم في الشهادة. ومعنى ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي رأيتم أسبابه[1]،

قال الله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿144﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿145﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿146﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿147﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿148﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ الآية.. قال المفسرون: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد حتى نزل بالشعب من أحد في سبعمائة رجل، وأمَّر عبد الله بن جبير بن عمرو بن عوف[2] على الرماة وهم خمسون رجلاً وقال: أقيموا بأصل الجبل وانضحوا عنا بالنبل لا نؤتى من خلفنا، وإن كان لنا أو علينا فلا تبرحوا من مكانكم فإنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم[3]. فجاءت قريش وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد[4] وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي

---

(1) تفسير الطبري: 7/ 250 ـ تفسير القرطبي: 4/ 220 ـ 221.

(2) عبد الله بن جبير الأنصاري: شهد العقبة مع السبعين من الأنصار كما شهد بدراً وأحداً، واستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم على الرماة في غزوة أحد. استشهد فيها في شوال سنة ثلاث.
الاستيعاب: 3/ 877 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 475 ـ الأعلام: 3/ 76.

(3) السيرة النبوية، لابن هشام: 3/ 65.

(4) أبو سليمان، خالد بن الوليد المخزومي: سيف الله المسلول والفاتح الكبير، والصحابي الجليل، كان يتولى قيادة الخيل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. توفي بحمص سنة إحدى وعشرين. الاستيعاب: 2/ 427 ـ الطبقات الكبرى: 7/ 394 ـ صفة الصفوة: 1/ 650.

جهل[1] ومعهم النساء يضربن بالدفوف ويقلن الأشعار، وكانت هند[2] تقول:

نحن بنات طارق ∴ نمشي على النمارق

إن تقبلوا نعانق ∴ أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق[3]

فحمل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه على المشركين وقتل علي رضي اللَّه عنه طلحة بن أبي طلحة[4] وهو يحمل لواء المشركين فهزموهم. قال الزبير: فرأيت هنداً وصواحباتها هاربات مصعدات في الجبل[5]. فلما نظرت الرماة إلى القوم قد انكشفوا، ورأوا أصحاب النبي صلى اللَّه عليه وسلم ينتهبون الغنيمة، أقبلوا يريدون النهب واختلفوا فيما بينهم، فقال بعضهم: لا نترك أمر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. وقال بعضهم: ما بقي في الأمر شيء. ثم انطلق عامتهم ولحقوا بالعسكر. فلما رأى خالد بن الوليد قلة الرماة واشتغال المسلمين بالغنيمة صاح في المشركين، ثم حمل على أصحاب النبي صلى اللَّه عليه وسلم من خلفهم فهزموهم وقتلوهم، ورمى عبد اللَّه بن قميئة الحارثي

---

(1) عكرمة بن أبي جهل المخزومي: من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم يوم فتح مكة وحسن إسلامه، فشهد الوقائع، وولي الأعمال لأبي بكر الصديق، ونهي عن سب أبي جهل من أجل عكرمة. توفي سنة ثلاث عشرة هجرية.
الاستيعاب: 3/ 1082 ـ الطبقات الكبرى: 5/ 444 ـ الأعلام: 4/ 244.

(2) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وأمها: صفية بنت أمية بن حارثة. تزوجت هند حفص بن المغيرة فولدت له، ثم تزوجت أبا سفيان بن حرب فولدت له. أسلمت هند عام الفتح وبايعت الرسول صلى اللَّه عليه وسلم.
الاستيعاب: 3/ 409 ـ أسد الغابة: 5/ 562 ـ الطبقات الكبرى: 8/ 187.

(3) هذا الرجز قالته هند بنت طارق الإيادية في حرب الفرس لإياد وتمثلت به هند بنت عتبة.
ـ النمارق، جمع نمرقة: وهي الوسادة الصغيرة.
ـ الوامق: المحب.
ـ اللسان: نمرق ـ سيرة ابن هشام: 3/ 68 ـ شرح نهج البلاغة: 4/ 235.

(4) السيرة النبوية، ابن هشام: 3/ 127.

(5) نفس المصدر: 3/ 77.

رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه في وجهه وأنفه، وتفرق عنه أصحابه صلى اللَّه عليه وسلم، وكان مصعب بن عمير يذب عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقتل فظن قاتله أنه قتل النبي صلى اللَّه عليه وسلم فنادى: قتلت محمداً. وأقبل عبد اللَّه بن قميئة يريد قتل النبي صلى اللَّه عليه وسلم وقال: إني قتلت محمداً، وصرخ إبليس لعنه اللَّه: ألا إن محمداً قد قتل. وانكفأ الناس عنه، فجعل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يدعو الناس: «**إليّ عباد اللَّه، إليّ عباد اللَّه**». فاجتمع إليه ثلاثون رجلاً فحموه وكشفوا المشركين عنه، وأصيبت يد طلحة بن عبيد اللَّه فشلَّت وبها كان يقي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وأصيبت عين[1] قتادة بن النعمان[2] رضي اللَّه عنه حتى وقعت على وجنته فردها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مكانها فعادت كأحسن ما كانت. فلما انصرف رسول اللَّه أدركه أبي بن خلف الجمحي وهو يقول: لا نجوت إن نجا. فقال القوم: ألا يعطف عليه رجل منا يا رسول اللَّه. فقال: «**دعوه**». حتى إذا دنا منه تناول رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه وخدشه خدشة فتدهده عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور وهو يقول: قتلني محمد. واحتمله أصحابه وقالوا: ليس عليك بأس. فقال: لو كانت هذه الطعنة لربيعة ومضر لقتلهم، أليس قال: أقتلك فلو بزق علي بعد تلك المقالة قتلني، فلم يلبث إلا يوماً حتى مات في الطريق. وكان أبي قد قال للنبي صلى اللَّه عليه وسلم قبل هذا: عندي فرس أعلفها كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليها؟ فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**أنا أقتلك إن شاء اللَّه**». فأصدق اللَّه قيل نبيه محمد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وفشا في الناس أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قتل، فقال بعض المسلمين: ليت لنا رسولاً إلى عبد اللَّه بن أبي فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان

---

(1) في النسخة (ف): عيني.

(2) أبو عمر، قتادة بن النعمان بن ظفر الأنصاري: شهد العقبة مع السبعين، وكان من الرماة المعدودين، وشهد بدراً وأحداً، وأصيبت عينه يوم أحد وشهد الخندق والمشاهد كلها. توفي سنة ثلاث وعشرين من الهجرة بالمدينة.
الاستيعاب: 3/ 1274 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 452.

وبعض الصحابة جلسوا وألقوا بأيديهم، وقال ناس من أهل النفاق: إن كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول. فقال أنس بن النضر[1] عم أنس بن مالك: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد حي لم يقتل وهو اللَّه عز وجل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول اللَّه عليه وسلم، فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء القوم، يعني المسلمين وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المنافقون. ثم حمل سيفه فقاتل حتى قتل. ثم إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم انطلق إلى الصخرة وهو يدعو الناس، فأول من عرف رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم كعب بن مالك، قال: عرفت عينيه تحت المغفر تزهران[2] فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. فأشار إلي أن اسكت. فانحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على الفرار فقالوا: يا رسول اللَّه أتانا الخبر بأنك قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين[3]. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أكرم اللَّه محمداً صلى اللَّه عليه وسلم بهذا الاسم اشتقه من اسمه المحمود فسماه محمداً وأحمد، وفيه يقول حسان:

ألم تر أن اللَّه أرسل عبده ∴ ببرهانه واللَّه أعلى وأمجد[4]

وشقّ له من اسمه ليجله ∴ فذو العرش محمود وهذا محمد

نبي أتانا بعد يأس وفترة ∴ من الدين والأوثان في الأرض تعبد

---

(1) أنس بن النضر بن ضمضم الأنصاري عم أنس بن مالك، غاب عن غزوة بدر فاعتذر للرسول صلى اللَّه عليه وسلم وقال: واللَّه لئن شهدت قتالاً لأرين اللَّه ما أصنع. فلما كان يوم أحد أبلى بلاء حسناً واستشهد في ذلك اليوم، وجد في جسمه بضعاً وثمانين ضربة.
الاستيعاب: 1/ 108 ـ الطبقات الكبرى: 7/ 12.

(2) تزهران: تضيئان.

(3) سيرة ابن هشام: 3/ 83 ـ الواحدي، أسباب النزول: 106.

(4) قال شاعر الرسول صلى اللَّه عليه وسلم حسان بن ثابت هذه الأبيات من البحر الطويل في مدح الرسول صلى اللَّه عليه وسلم. قال شارح الديوان: البيت: «وشق له من اسمه ليجله..» البيت ليس من قول حسان وإنما هو من قول أبي طالب، ضمنه حسان بن ثابت شعره. (ينظر: ديوان حسان: 47، حرف الدال ـ وشرح ديوان حسان: 131).

فأرسله نوراً منيراً وهادياً ∴ يلوح كما لاح الصقيل المهند

وروي عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**إذا سميتم محمداً فأكرموه ووسعوا له في المجلس ولا تقبحوا له وجهاً، وما من قوم كانت لهم مشورة فحضر معهم من اسمه أحمد أو محمد فأدخلوه في مشورتهم إلا خار اللَّه له، وما من مائدة وضعت فحضرها من اسمه محمد أو أحمد إلا قدس اللَّه في كل يوم ذلك المنزل مرتين**».

قوله عز وجل: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ﴾ معناه: أفإن مات على فراشه أو قتل في طاعة اللَّه رجعتم إلى دينكم الأول الكفر، وقلتم لو كان نبياً لما قتل.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ أي من رجع إلى دينه الشرك فلن ينقص من ملك اللَّه شيئاً ومن سلطانه شيئاً، وإنما يضر نفسه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ أي المجاهدين. وإنما سمى الارتداد انقلاباً على العقب، لأن الردة رجوع إلى أقبح الأديان، كما أن الانقلاب على العقب القهقرى أقبح ما يكون من المشي. وسمى المطيع شاكراً لأن الطاعات كلها شكر لله عز وجل. قال أبو هريرة رضي اللَّه عنه: لما توفي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قام عمر رضي اللَّه عنه وقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مات، وإن رسول اللَّه لم يمت، واللَّه ليرجعن رسول اللَّه فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات. فأقبل أبو بكر رضي اللَّه عنه حين بلغه الخبر فدخل على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في بيت عائشة رضي اللَّه عنها، ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ميت مسجى ببرده، فكشف عن وجهه، ثم انكب عليه، فقبله وقال: بأبي وأمي أنت يا رسول اللَّه أما الموتة التي كتبها اللَّه عليك فقد ذقتها. ثم رد الثوب على وجهه وخرج، فإذا هو بعمر يكلم الناس، فقال له: على رسلك يا عمر انصت. فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر رضي اللَّه عنه لا ينصت، أقبل على الناس فحمد اللَّه وأثنى عليه وقال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حي لا يموت. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا

﴿مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ الآية.. قال عمر: ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها إلا عقرت حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد مات[1].

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ قال الأخفش: اللام في «لنفس» منقولة تقديره: وما كان نفس لتموت إلا بأمر اللّه كتب اللّه عز وجل كتاباً مؤجلاً، أي إلى أجل رزقه وعمره وكل نفس لها أجل تبلغه ورزق تسبق فيه، لا يقدر أحد على تقديمه وتأخيره. وفي هذا تحريض للمؤمنين على القتال، أي لا تتركوا الجهاد خشية الموت والقتل فإنهم لم يملكوا قتلكم وانتصب قوله «كتاباً مؤجلاً» على المصدر كقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾[2] و﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[3] و﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾[4] و﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[5].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ يعني من يرد بعمله وطاعته المدحة والرياء لا يحرم حظه المقسوم له في الدنيا من غير أن يكون له حظ في الآخرة، يعني نؤته من الدنيا ما نشاء ومما قدرنا له. نزل ذلك في الذين تركوا المركز يوم أحد طلباً للغنيمة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي من يرد بعمله الآخرة نعطه منها مع ما يقسم له في الدنيا من الرزق. نزل في الذين ثبتوا مع أميرهم عبد اللّه بن جبير حتى قتلوا.

قوله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي المطيعين يجزيهم الجنة في الآخرة: وقرأ الأعمش: وسيجزي الشاكرين ـ بالياء، يعني اللّه عز وجل[6].

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: 4/ 222 ـ 223.

(2) سورة النساء (4) الآية: 122 ـ وسورة يونس (10) الآية: 4 ـ وسورة لقمان (31) الآية: 9.

(3) سورة الكهف (18)، الآية: 82 ـ وسورة القصص (28). الآية: 46 ـ وسورة الدخان (44) الآية: 6.

(4) سورة النمل (27)، الآية: 88.

(5) سورة النساء (4)، الآية: 24.

(6) تفسير الثعلبي، ورقة: 276.

قوله عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ قرأ الحسن وأبو جعفر: وكاين مقصوراً من غير همز ولا تشديد حيث وقع. وقرأ مجاهد، وابن كثير ممدوداً مهموزاً خفيفاً على وزن فاعل. وقرأ الباقون مشدداً مهموزاً على وزن كعين، وكلها لغات صحيحة بمعنى واحد[1]، ومعناه: وكم من نبيء قتل معه جماعات كثيرة ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ أي فتروا فيما بينهم ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ في طاعة الله ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ أي وما جبنوا عن قتال عدوهم وما خضعوا لعدوهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ على قتال عدوهم لدين الإسلام. قرأ ابن كثير ونافع، وأبو عمرو: قتل معه[2]. لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ ويستحيل وصفهم بقلة الوهن بعدما قتلوا. وأما تأويل قتل فله ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون القتل واقعاً على النبي وحده وحينئذ يكون تمام الكلام عند قوله: قتل، ويكون هناك إضمار تقديره: ومعه ربيون كثير؛ والثاني: أن يكون القتل بالنبي ومن معه من الربيين، ويكون معناه: بعض من كان معه. تقول العرب: قتلنا بني تميم، وإنما قتل بعضهم. وقوله: ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ راجع إلى الباقين، والثالث: أن يكون القتل بالربيين لا غير. وقوله تعالى: ﴿رِبِّيُّونَ﴾ قرأ ابن مسعود والحسن وعكرمة: ربيون ـ بضم الراء. وقرأ الباقون بالكسر وهي اللغة الفاشية، وهي جمع الربة، وهي الفرقة. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: جموع كثيرة. قال ابن مسعود: الربيون الألوف. وقال الضحاك: الربة الواحدة ألف. وقال الكلبي: الربة الواحدة: عشرة آلاف. وقال الحسن: الربيون هم الفقهاء العلماء الصبر[3]. وقال ابن زيد[4]: الربانيون: الولاة، والربيون: الرعية. وقال بعضهم: الربانيون الذين يعبدون الرب كما ينسب البصريون إلى البصرة. وقيل: الربيون المنيبون إلى الله[5].

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 357 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 276.
(2) يراجع المصدران السابقان.
(3) في النسخة (ف): الصبراء.
(4) في النسخة (س): أبو زيد.
(5) تراجع هذه الأقوال في: تفسير القرطبي: 4/ 230.

أَمۡرِنَا﴾ حكاية قول الربيين، أي ما كان قولهم عند قتالهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا الصغائر والكبائر. والإسراف في اللغة: مجاوزة الحد بارتكاب الذنوب العظام.

قوله تعالى: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ أي ثبتها للقتال بتقوية قلوبنا ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي أعنا عليهم بإلقاء الرعب في قلوبهم، أي هلا قلتم أيها المؤمنون كما قال الربيون، وهلا قاتلتم كما قاتلوا. قرأ الأعمش: وما كان قولهم ـ بالرفع على أنه اسم كان والخبر ما بعد إلا. وقرأ الباقون بالنصب على خبر كان والاسم ما بعد إلا[(1)]. كما في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾[(2)] و﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾[(3)] ونحوها.

قوله عز وجل: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ أي أعطاهم اللَّه النصر والغنيمة والثناء الحسن في الدنيا والجنة في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي المجاهدين. وفي الآية دلالة أنه قد يجوز اجتماع الدنيا والآخرة. وعن علي رضي اللَّه عنه أنه قال: من عمل لدنياه أضر بآخرته، ومن عمل لآخرته أضر بدنياه، وقد يجمعهما اللَّه تعالى لأقوام[(4)].

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ (149) بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ (150) سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ (151) وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (152) إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 276.

(2) سورة النمل (27)، الآية: 56 وسورة العنكبوت (29)، الآية: 24 ـ 29.

(3) سورة الجاثية (45)، الآية: 25.

(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 277.

عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿153﴾

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني اليهود والنصارى فيما يقولون لكم: إن محمداً صلى اللّه عليه وسلم لو كان حقاً لما ظهر عليه المشركون، ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾، أي إلى دين الشرك ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿149﴾﴾ فتصرفوا مغبونين إلى دينكم الأول ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ﴾ أي وليكم وناصركم وهو خير المانعين من الكفار، لأن أحداً لا يقدر أن ينصر كنصره، ولا أن يدفع كدفاعه. وقرىء في الشواذ: بل اللّه ـ بالنصب(1) على معنى: بل أطيعوا اللّه.

قوله عز وجل: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ﴾. قال السدي: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين نحو مكة، فلما بلغوا بعض الطريق ندموا وقالوا: بئسما صنعنا قتلناهم حتى لم يبق منهم إلا اليسير ثم تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم. فلما عزموا على ذلك ألقى اللّه الرعب في قلوبهم حتى رجعوا عما هموا به. وستأتي هذه القصة بتمامها إن شاء اللّه تعالى، فأنزل اللّه هذه الآية(2). قرأ أيوب: سيلقي ـ بالياء، يعني اللّه تعالى لقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ﴾. وقرأ الباقون بالنون(3) على التعظيم: سنقذف في قلوب الذين كفروا الخوف. وثقل الرعب ابن عامر والكسائي، وخففه الآخرون(4)،

وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي بإشراكهم باللّه ما لم ينزل به كتاباً فيه عذر وحجة لهم. وقيل: معنى قوله: سلطاناً، أي حجة وبياناً وبرهاناً.

قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿151﴾﴾ أي ومصيرهم في

---

(1) تفسير القرطبي: 4/ 232.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 106 ـ 107 ـ تفسير الطبري: 7/ 280.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 277.

(4) مكي، الكشف: 1/ 360.

الآخرة النار وبؤس مقام الظالمين النار في الآخرة. وروي في الخبر أن أبا سفيان صعد الجبل يوم أحد، فقال صلى اللّه عليه وسلم: إنه ليس لهم أن يعلونا. فمكث أبو سفيان ساعة ثم قال: أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ أين محمد؟ فقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: هذا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وهذا أبو بكر، وها أنا عمر بن الخطاب. فقال أبو سفيان: نشدتك اللّه يا ابن الخطاب أمحمد في الأحياء؟ قال: أي واللّه يسمع كلامك. فقال: أين الموعد، أين نتحارب بعد هذا؟ فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: «**قل ببدر الصغرى**». وكانت وقعة بدر الصغرى بعد أحد بسنة. فخرج النبي صلى اللّه عليه وسلم ببدر الصغرى على الموعد ورعب المشركون ولم يتجاسروا على الحضور. وروي أن أبا سفيان ركب الجبل يوم أحد فقال: أعل هبل. فقال عمر رضي اللّه عنه: بل اللّه أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: يوم بيوم وإن الأيام دول والحرب سجال. فقال عمر: لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار[1].

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ وذلك أنه لما رجع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة وقد أصابهم ما أصابهم، قال أناس منهم: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا اللّه النصر؟ فأنزل اللّه هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾[2] أي الذي وعد بالنصر والظفر يوم أحد، وهو قوله: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ الآية.. وقول النبي صلى اللّه عليه وسلم للرماة: «**لا تبرحوا من مكانكم**». وكان صلى اللّه عليه وسلم قد جعل أحداً خلف ظهره واستقبل المدينة، وأقام الرماة مما يلي خيل المشركين، وأمَّر عليهم عبد اللّه بن جبير الأنصاري وقال لهم: «**احموا ظهورنا، وإن رأيتمونا قد غشينا فلا تشركونا وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا**». وأقبل المشركون وأخذوا في القتال، فجعل الرماة يترشقون خيل المشركين بالنبل والمسلمون يضربونهم بالسيف حتى ولوا هاربين وانكشفوا مهزومين، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم

---

(1) سيرة ابن هشام: 3/ 93 ـ 94.
(2) الواحدي، أسباب النزول: 107.

﴿بِإِذۡنِهِۦٓۖ﴾ أي تقتلونهم قتلاً ذريعاً شديداً في أول الحرب بأمره وعلمه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ أي إلى أن فشلتم. جعلوا «حتى» بمعنى «إلى» فحينئذ لا جواب له. وقيل: حتى بمعنى: فلما، وفي الكلام تقديم وتأخير، والواو في قوله: ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ مقحمة، تقديره: حتى إذا تنازعتم في الأمر وعصيتم فشلتم، أي جبنتم وضعفتم. وكان تنازعهم أن الرماة لما انهزم المشركون وقع المسلمون في الغنائم قالوا: قد انهزم القوم وأمنا. وقال بعضهم: لا تتجاوزوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فثبت عبد الله بن جبير في نفر يسير من أصحابه دون العشرة، وقيل ثمانية، وانطلق الباقون ينتهبون. فلما نظر خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل إلى ذلك حملوا على الرماة من قبل ذلك الشعب في مائتين وخمسين فارساً من المشركين. وكان خالد يومئذ مشركاً، فقتل عبد الله بن جبير ومن بقي معه من الرماة، وأقبلوا على المسلمين من خلفهم، وتفرق المسلمون، وانتفضت صفوفهم واختلطوا، وحمل عليهم المشركون حملة رجل واحد فصار المسلمون من بين قتيل وجريح ومنهزم ومدهوس، ونادى إبليس: ألا إن محمداً قد قتل. فذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي لما اختلفتم في الأمر الذي أمركم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الثبات على المركز، وعصيتم الرسول من بعد ما أراكم ما تحبون من النصر على عدوكم والظفر والغنيمة. قال بعض المفسرين: جواب ﴿إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾ ههنا مقدر كأنه قال: إذا فشلتم وتنازعتم امتحنتم بما رأيتم من القتل والبلاء.

قوله عز وجل: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ يعني من الرماة من يريد الحياة، وهم الذين تركوا المركز ولم يثبتوا فيه ووقعوا في الغنائم، ومنكم من يريد الآخرة يعني الذين ثبتوا في المركز مع عبد الله بن جبير وباقي الرماة حتى قتلوا. قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما شعرنا أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد[1].

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 277.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي صرفكم اللَّه عن المشركين بالهزيمة ليبتليكم. قيل: المراد بالصرف في هذا الموضع رفع النصر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أي لم يعاقبكم عند ذلك فلم تقتلوا جميعاً. وقال الكلبي: تجاوز عنكم فلم يؤاخذكم بذنبكم. ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ذو مَنٍّ عليهم بالعفو والتجاوز.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ لأن عفوه عنهم لا بد أن يتعلق بذنب منهم، وذلك الذنب ما بيّنه بقوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي ولقد عفا عنكم ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أي إذ تبعدون هرباً في الأرض بالهزيمة. والإصعاد: السير في مستوى الأرض، وقرأ الحسن وقتادة: تصعدون ـ بفتح التاء والعين[1]. قال أبو حاتم: يقال: صعدت إذا مضيت حيال وجهك، وصعدت إذا رقيت على جبل وغيره. والإصعاد: السير في مستوى الأرض وبطون الأودية والشعاب. والصعود: الارتفاع على الجبل والسطوح والسلالم والدرج. وكلا القراءتين صواب. وقد كان منهم يومئذ صاعد ومصعد، أي صاعد إلى الجبل ومصعد هارب على وجهه، والرسول يدعوهم: «**إليّ معشر المسلمين، ويا أصحاب البقرة وآل عمران، أنا رسول اللَّه**». فلم يلتفت إليه أحد منهم حتى أتوا على الجبل. ويحتمل أنهم ذهبوا في بطن الوادي أولاً، ثم صعدوا في الجبل. فلا تنافي حينئذ بين القراءتين. قوله: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي لا تعرجون ولا تقيمون على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، ولا يقيم بعضكم على بعض، ولا يلتفت بعضكم إلى بعض. وقرأ الحسن: ولا تلون ـ بواو واحدة كما يقال: استحيت واستحييت[2]. قال الكلبي: يعني بقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ النبي صلى اللَّه عليه وسلم[3].

---

(1) تفسير القرطبي: 4/ 239.
(2) نفس المصدر.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 278.

قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ يعني من خلفكم وذلك أنه لما انهزم المسلمون لم يبق مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلا ثلاثة عشر رجلاً: خمسة من المهاجرين: أبو بكر وعلي وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبد اللّه وسعد، وثمانية من الأنصار.

قوله عز وجل: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ﴾ أي جزاكم غما متصلاً بغم، فأحد الغمين الهزيمة وقتل أصحابهم، والثاني إشراف خالد من فم الشعب مع خيل المشركين. وقيل: الغم الأول: هو القتل والجراح، والثاني: سماعهم بالنبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قتل، فأتاهم الغم الأول بقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي إذا أتى لكم غم النبي صلى اللّه عليه وسلم فسيتم له كل غم من فوت الغنيمة والهزيمة. وقيل: معناه من ترادفت عليه الغموم واعتاد ذلك يقلّ حزنه وتأسفه على ما يفوته من الدنيا. وقال الزجاج: معنى قوله ﴿غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ أي جزاكم غماً بغم بما غممتم به النبي صلى اللّه عليه وسلم بمفارقة المكان الذي أمركم بحفظه. وقال الحسن: يعني هذا الغم بغم المشركين يوم بدر. ويقال: لكيلا تحزنوا على ما فاتكم متصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ﴾، وقيل: معناه: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ يعني الغنيمة والفتح ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ﴾ «ما» في موضع خفض أي ولا على ما أصابكم من القتل والهزيمة. وقال بعضهم: «لا» زائدة معناه: لكي تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم عقوبة لكم في خلافكم وترككم المركز.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي عالم بأعمالكم من اغتمام المسلمين وشماتة المنافقين.

قال اللّه تعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ

مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿154﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ
مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿155﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْۖ﴾ الآية.. وذلك أنه لما افترق الفريقان، بعث رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم علياً كرم اللَّه وجهه في أثر المشركين وقال له: «**انظر إن هم اجتنبوا الخيل وركبوا الإبل فهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة**». فخرج علي رضي اللَّه عنه على أثرهم فإذا هم ركبوا الإبل وقادوا الخيل. فرجع علي رضي اللَّه عنه وأخبر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وقال: سمعتهم يقولون: إنا قد اجتمعنا لنتحارب ثانياً. فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**كذبوا فإنهم أرادوا الانصراف إلى مكة**». فكان كما قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وأمن المسلمون وألقى اللَّه عليهم النوم؛ فما بقي منهم رجل إلا وقد ضرب ذقنه صدره إلا معتب بن قشير وأصحابه الذين كانوا يشكون في أمر النبي صلى اللَّه عليه وسلم لما علم اللَّه من باطنهم خلاف ما علم من باطن المؤمنين منعهم ما أعطى المؤمنين، فترددوا في الخوف على أنفسهم وسوء الظن بربهم بسوء من نصره، وشكوا في سابق وعده وصادق عهده[1]. ومعنى الآية: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ الذي كنتم فيه (أمنة) وقوله: ﴿نُّعَاسًا﴾ بدل من أمنة، أي منكم أمناً تنامون معه، لأن الخائف لا ينام. ومن هذا قال ابن مسعود رضي اللَّه عنه: النعاس في الصلاة من الشيطان وفي القتال من الرحمن.

قوله تعالى: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْۖ﴾ قرأ الأعمش وحمزة والكسائي وخلف: تغشى ـ بالتاء، ردوه إلى الأمنة. وقرأ الباقون بالياء. ردوه إلى النعاس[2]، لأن النعاس يليه الفعل، فالتذكير أولى به مما يعد منه، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ

---

(1) تفسير القرطبي: 4/ 242.
(2) الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 360.

﴿نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾[1] يقرأ يمنى بالياء والتاء. والمراد بالطائفة التي غشيهم النعاس: أهل الصدق واليقين. قال أبو طلحة رضي اللَّه عنه: رفعت رأسي يوم أحد فجعلت ما أرى أحداً من الناس إلا وهو يميد تحت جحفته من النعاس. قال أبو طلحة: وكنت ممن أنزل عليه النعاس يومئذ، وكان السيف يسقط من يدي ثم آخذه ثم يسقط من يدي ثم آخذه من النوم[2]. والمراد بقوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ المنافقون: معتب بن قشير وأصحابه أحزنتهم أنفسهم وحملتهم على الهم[3]. يقال لكل من خاف وحزن في غير موضع الحزن والخوف أهمته نفسه.

قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ يعني هذه الطائفة التي أهمتهم أنفسهم يظنون باللَّه أن لا ينصر محمداً صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه. وقيل: ظنوا أن محمداً قد قتل. وقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي كظن أهل الجاهلية والشرك. وقيل: كظنهم في الجاهلية ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ أي ما لنا من الأمر شيء. لفظه استفهام ومعناه جحد، يعنون النصر. وقيل: معناه هل نطمع أن يكون لنا من الظفر والدولة؟ وقيل: معناه: لو كان الأمر إلينا ما خرجنا، ولكن أخرجنا للقتال مكرهين. قل لهم يا محمد إن النصر والظفر والدولة كل ذلك لله عز وجل. من نصب «كله» جعله توكيداً للأمر، ومن رفعه جعله خبر إن. قرأ أبو عمرو ويعقوب: كله ـ بالرفع على الابتداء وخبره لله، وهذا المبتدأ وخبره خبر لان. وقرأ الباقون بالنصب[4]. وروى الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ يعني التكذيب بالقدر، لأنهم تكلموا بالقدر فقال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ يعني القدر خيره وشره من اللَّه، وهو قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ وذلك أن المنافقين قال بعضهم لبعض: لو كان لنا عقول ما خرجنا مع محمد لقتال أهل مكة، ولما قتل رؤساؤنا. فقال اللَّه تعالى: ﴿قُل لَّوْ

---

(1) سورة القيامة (75)، الآية: 37.
(2) تفسير البغوي: 1/ 568.
(3) في النسخة (ف): الغم.
(4) الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 361.

كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي لخرج الذين قضى عليهم القتل إلى مصارعهم.

وقوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ هؤلاء المنافقون يسرون ويضمرون في قلوبهم ما لا يظهرون لك بألسنتهم يقولون سراً لو كان من النصر والدولة شيء، وكان دين محمد حقاً ما قتل أصحابنا ههنا في جبل أحد. قيل معناه: لو لم يخرجنا رؤساؤنا إلى الحرب ما قتلنا.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ أي قل للمنافقين لو تخلفتم أنتم في بيوتكم لخرج الذين كتب عليهم القتل إلى مصارعهم ومواضع قتلهم لا محالة لنفوذ قضاء اللّه تعالى. ويقال معناه: لو كنتم في بيوتكم لما أخطأكم ما كتب عليكم. وقيل معناه: لو كنتم أيها المنافقون في بيوتكم لبرز الذين فرض عليهم القتال وهم المؤمنون المخلصون إلى مواضع القتال صابرين محتسبين. وقرأ ابن أبي عبلة: لبرز ـ بضم الباء وتشديد الراء. وقرأ قتادة: القتال.

قوله عز وجل: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي وليختبر اللّه ويظهر ما في قلوبكم بأعمالكم، لأنه علمه غيباً فيعلمه مشاهدة. ومعنى ليمحص ما في قلوبكم: أي يبين ما في قلوبكم فيذهب نفاق من شاء منكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بما في القلوب من خير أو شر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي إن الذين انهزموا منكم يا معشر المؤمنين يوم التقى الجمعان: جمع المسلمين وجمع المشركين إنما استزلهم الشيطان عن أماكنهم ببعض ما كسبوا، وهو مفارقة المكان الذي أمرهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بحفظه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ حين لم يستأصلهم. ويقال في معنى هذه الآية: إنهم لم يفروا على جهة المعاندة والفرار من الزحف، ولكن أذكرهم الشيطان خطاياهم التي كانت منهم فكرهوا لقاء اللّه إلا على حالة يرضونها، ولذلك عفا اللّه عنهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي متجاوز لذنوبهم لم يعجل بالعقوبة

عليهم. وروي أن رجلاً من الخوارج أتى عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهما فسأله عن عثمان رضي اللَّه عنه إن كان شهد بدراً، قال: لا. قال: أشهد بيعة الرضوان؟ قال: لا. قال: أفكان من الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان؟ قال: نعم. فولى الرجل يهتز فرحاً، فلما علم ابن عمر ببغضه لعثمان قال له ارجع فرجع فقال له: أما تخلفه يوم بدر فإن النبي صلى اللَّه عليه وسلم خلفه على ابنته رقية[1] يقوم عليها كانت مريضة فتوفيت يوم بدر، فكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه في الغزو وعثمان رضي اللَّه عنه في تكفين ابنة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ودفنها والصلاة عليها، فلما رجع النبي صلى اللَّه عليه وسلم جعل أجره كأجرهم وسهمه كسهمهم. أما بيعة الرضوان فقد بايع له رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بيده اليسرى على اليمنى وقال: «**هذه عن عثمان**» ويسار رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم خير من يمين عثمان رضي اللَّه عنه. وأما الذين تولوا يوم التقى الجمعان فقد عفا اللَّه عنهم واللَّه غفور رحيم، فاجهد على جهدك. فقام الرجل حزنان ناكساً رأسه[2].

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿156﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿157﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿158﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿159﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

---

(1) رقية بنت محمد صلى اللَّه عليه وسلم ولدت بمكة ونشأت بها وتزوجت «عتبة بن أبي لهب» ولما ظهر الإسلام أسلمت ثم فارقها زوجها فتزوجها «عثمان».
ـ الاستيعاب: 4: 1839 ـ الطبقات الكبرى: 8: 36.

(2) تفسير القرطبي: 4: 245.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ﴾ معناه: يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كمنافقي أهل الكتاب: عبد اللّه بن أبي وأصحابه، قالوا لأخوانهم في النفاق إذا ساروا في الأرض تجاراً مسافرين أو كانوا في الغزو فقتلوا: لو كانوا عندنا ما ماتوا في سفرهم وما قتلوا في الغزو. وغزى جمع غاز مثل: راكع وركع، وقد يجمع غاز على غزاة، مثل: قاض وقضاة.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ﴾ أي ليجعل اللّه ما ظنوا حزناً يتردد في أجوافهم، ثم أخبر اللّه تعالى أن الموت والحياة إليه لا يقدمان لسفر ولا يؤخران لحضر، فقال اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ حذرهم عن التخلف عن الجهاد خشية الموت والقتل، لأن الإحياء والإماتة إلى اللّه تعالى في السفر والحضر وحال القتال وغير حال القتال.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿156﴾﴾ ترغيب في الطاعة وتحذير عن المعصية. قرأ ابن كثير والأعمش والحسن وحمزة والكسائي وخلف: بالياء. والباقون بالتاء[(1)].

قوله عز وجل: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿157﴾﴾ معناه: ولو قتلتم في طاعة اللّه أو متم فيها لمغفرة من اللّه ورحمة منه خير مما تجمعون من الأموال وإنما قال هكذا وإن كان هو معلوماً، لأن من الناس من آثر الدنيا على الجهاد وخشية القتل. قرأ حفص: يجمعون ـ بالياء على الخير: خير لكم أيها المؤمنون مما يجمع المنافقون في الدنيا. وقرأ نافع وأكثر أهل الكوفة: متم ـ بكسر الميم من مات يمات. وقرأ الباقون بضمها من مات يموت[(2)].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿158﴾﴾ معناه: لئن متم على

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 361 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 279.

(2) يراجع مكي في المصدر السابق.

فرشكم أو قتلتم في الغزو فإلى اللَّه ترجعون في الآخرة كيف ما دارت القصة فإن مصيركم إلى اللَّه ولأن تصيروا إلى اللَّه بالقتل الذي تستحقون عليه العوض خير من أن تصيروا إليه بالموت الذي لا تستحقون عليه العوض. قال علي رضي اللَّه عنه:

فإن تكن الأبدان للموت أنشئت ∴ فقتل امرىء بالسيف في اللَّه أفضل

والللام في «لئن» لام القسم، ويصلح أن يكون للابتداء والتأكيد. واللام في «لمغفرة» جواب القسم، ويصلح أن تكون مؤكدة لجواب الشرط.

قوله عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ﴾ أي فبرحمة عظيمة من اللَّه لنت لهم حتى صار لينك لهم سبباً لدخولهم في الدين، لأنه صلى اللَّه عليه وسلم أتاهم بالحجج والبراهين مع لين وخلق عظيم، ولهذا قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**إنما أنا لكم مثل الوالد لولده**». و«ما» في قوله: ﴿فَبِمَا﴾ زائدة لا يمنع الباء من عملها مثل قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾[1]. وقال بعضهم: يحتمل أن تكون «ما» استفهامية للتعجب تقديره: فبأي رحمة من اللَّه سهلت لهم أخلاقك وكثرة احتمالك فلم تغضب عليهم فيما كان منهم يوم أحد.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ أي لو كنت يا محمد خشناً في القول سيئ الخلق قاسي القلب لتفرقوا من حولك فلم تر منهم أحداً، ولكن اللَّه جعلك سهلاً سمحاً طلقاً لطيفاً ليناً باراً رحيماً.

قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي فاعف عنهم ما أتوه يوم أحد وتجاوز عنهم في الهزيمة[2] التي تكون بينك وبينهم، وكانوا عصوا النبي صلى اللَّه عليه وسلم في ترك المركز وترك الاجابة لدعوته: ارجعوا ارجعوا. فندب اللَّه تعالى النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلى العفو عنهم، قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي في الذنب الذي يكون منهم حتى أشفعك فيهم.

قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ﴾ أي إذا أردت أن تعمل عملاً مما لم يكن

---

(1) سورة المائدة (5)، الآية: 13.
(2) في النسخة (ف): الجريمة.

عندك فيه وحي فشاورهم فيه واعمل بمشورتهم وتدبيرهم وكان صلى اللّه عليه وسلم مستغنياً عن مشورتهم، فإنه كان أرشدهم وأكملهم رأياً، لكن اللّه إنما أمره بالمشاورة لتقتدي به الأمة وليكون فيه تطييب لنفوس المؤمنين ورفع لأقدارهم وثناء عليهم. قال مقاتل وقتادة: كانت سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم، فأمر اللّه النبي صلى اللّه عليه وسلم بمشاورتهم في الأمر فإنه أطيب لأنفسهم، فإذا شاورهم عرفوا إكرامه لهم[1].

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي إذا عزمت على شيء فثق باللّه وفوض إليه أمرك لا تتكل على مشورتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ على اللّه. واختلف العلماء في معنى التوكل، فقال سهل بن عبد اللّه: أول مقام التوكل: أن يكون العبد بين يدي اللّه تعالى كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء، لا تكون له حركة ولا تدبير. والمتوكل لا يسأل ولا يرد ولا يحبس[2]. وقال إبراهيم الخواص[3]: التوكل إسقاط الخوف مما سوى اللّه[4]. وقال بعضهم: المتوكل الذي إذا أعطي شكر، وإذا منع صبر، وأن يكون المنع والإعطاء عنده سواء، والمنع مع الشكر أحب إليه لعلمه باختيار ذلك. وقال ذو النون: التوكل انقطاع المطامع مما سوى اللّه. وقال: هو معرفة معطي أرزاق الخلائق. ولا يصح لأحد التوكل حتى تكون السماء عنده كالصفر، والأرض كالحديد، لا ينزل من السماء مطر ولا يخرج من الأرض نبات، ويعلم أن اللّه لا ينسىء له ما ضمن من رزق بين هذين. وقال بعضهم: حسبك من التوكل أن لا تطلب لنفسك ناصراً غير اللّه [ولا لرزقك خازناً غيره، ولا لعملك شاهداً

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 280.

(2) المصدر نفسه، ورقة: 281.

(3) أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص: صوفي من أقران الجنيد. ولد ومات في الري. والخواص: بائع الخوص. قال البغدادي: له مصنفات قيمة. توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين.
طبقات الصوفية: 284 ـ طبقات الشعراني: 1/ 83 ـ تاريخ بغداد: 6/ 7 ـ الرسالة القشيرية: 1/ 147.

(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 281.

غيره. وقال الجنيد: التوكل[(1)] أن تقبل بالكلية على ربك، وتعرض عمن دونه. وقال الثوري: أن تفني تدبيرك في تدبيره، وترضى بالله وكيلاً ومدبراً. وقال بعضهم: هو السكون عن الحركات اعتماداً على خالق الأرض والسموات. وقيل لحاتم الأصم: على ما بنيت أمرك هذا من التوكل؟ قال: على أربع خصال: علمت أن رزقي ليس بآكله غيري فلست أشتغل به، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره، وعلمت أني بعين الله في كل حال فأنا أستحيي منه[(2)].

قال الله تعالى:

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿160﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿161﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿162﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿163﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿164﴾ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿165﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ معناه: إن يمنعكم الله عز وجل من عدوكم فلا غالب لكم من عدوكم، ولا غالب لكم من العدو مثل يوم بدر، ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ بأن يكلكم إلى أنفسكم ويرفع نصره عنكم كيوم أحد ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ من بعد خذلانه إياكم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في النصر.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ وذلك أنهم لما اتهموا رسول الله

(1) ما بين المعقوفين ساقط من النسخة (ف) من غير ترك بياض.
(2) الثعلبي في المصدر السابق.

صلى اللَّه عليه وسلم في الغنائم يوم أحد حين وقعوا في عسكر المشركين يأخذون الغنائم، فظنوا أن من أخذ شيئاً فهو له، وأن النبي صلى اللَّه عليه وسلم لا يقسم لهم كما لم يقسم يوم بدر، ولهذا ترك الرماة المركز ووقعوا في الغنائم. وعن ابن عباس وابن جبير أنهما قالا: نزلت هذه الآية في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض الناس: لعل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أخذها. فأنزل اللَّه هذه الآية[1]، ومعناها: ما كان لنبي أن يخون أصحابه فيستأثر بشيء من الغنيمة. وهذا على قراءة من قرأ بفتح الياء وضم الغين وهي قراءة مجاهد وابن كثير وأبي عمرو وعاصم. وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الغين[2]. ومعناها: ما كان لنبي أن ينسب إلى الغلول ولا يخونه أصحابه. وقيل: معناه ما كان لنبي أن يخان. وقيل: معناه: ليس من حق النبي أن يستر عنه شيء من الغنائم ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي من يخن يأت بما خان يوم القيامة. قال الكلبي: يمثل له ذلك الشيء في النار ثم يكلف أن ينزل إليه فيخرجه، فإذا بلغ به موضعه وقع في أسفل جهنم فيكلف أن ينزل إليه، فلا يزال ذلك دأبه ما شاء اللَّه. والغلول في اللغة: أخذ الشيء في الخفية. وعن عبادة بن الصامت قال: صلى بنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى جنب بعير من المغنم ثم تناول وبرة من سنام البعير وقال: «**يا أيها الناس إن هذه من غنائمكم فأدوا الخيط والمخيط وما دون ذلك وما فوق ذلك فإن الغلول غال يغل أهله ونار وشنار يوم القيامة**». وسئل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: هل أحد أحق بالغنيمة من أحد؟ فقال: «**لا ولا السهم الذي تستخرجه من جسدك لست أحق به من أخيك المسلم**». وروي أن رجلاً من الصحابة توفي يوم خيبر فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**صلوا على صاحبكم**». فتغيرت وجوه الناس لذلك، فقال: إنه غلَّ في سبيل اللَّه. ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خرزاً من خرز اليهود لا يساوي درهمين[3]. وروي أن رسول اللَّه صلى اللَّه

---

(1) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 11/ 5، رقم: 3952، كتاب الحروف والقراءات ـ ويراجع الواحدي في أسباب النزول: 107 ـ وتفسير القرطبي: 4/ 254.

(2) مكي، الكشف: 1/ 363 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 282.

(3) رواه النسائي في سننه: 4/ 52، باب الصلاة على من غل.

عليه وسلم أهدي له عبد أسود يقال له مدغم، فبينما هو ذات يوم يحط رحل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إذ جاءه سهم فقتله، فقال الناس: هنيئاً له الجنة. فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر لم تضمها المقاسم لتشتعل عليه ناراً**»[1]. وروي عن عمر رضي اللَّه عنه عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**إذا وجدتم الرجل قد غل فأحرقوا متاعه واضربوه**»[2]. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأبي بكر وعمر: «**أحرقوا متاع الغال واضربوه وامنعوه سهمه**»[3].

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي جزاء ما عملت من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد في سيئاتهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استفهام بمعنى تقرير حال الفريقين، يقول: ليس من اتبع رضوان اللَّه، أي من ترك الغلول وأخذ الحلال من الغنيمة كمن استوجب سخط اللَّه بأخذ الغلول والحرام؟ وقيل: معنى الآية: أفمن اتبع رضوان اللَّه بالجهاد في سبيل اللَّه كمن باء بسخط من اللَّه بالفرار من الجهاد؟

وقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ راجع إلى من باء بسخط من اللَّه وبئس النار المصير.

قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ معناه: أن الذين يبتغون رضوان اللَّه ذوو درجات رفيعة والآخرون ذوو دركات خسيسة فإن لأحد الفريقين درجات في الجنة والآخر درجات في النار. والمعنى: أن من اتبع رضوان اللَّه ومن باء بسخط من اللَّه مختلفو المنازل عند اللَّه؛ فلمن اتبع رضوان اللَّه الكرامة والثواب العظيم؛ ولمن باء بسخط من اللَّه المهانة والعذاب الأليم. وقال

---

(1) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 283.
(2) ذكره البغوي بسنده في تفسيره: 1/ 576.
(3) البغوي في المصدر السابق.

بعضهم: هذه الآية خاصة في المؤمنين، أي هم طبقات بعضهم أرفع من بعض في الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ أي عالم بمن يغل وبمن لا يغل.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي لقد أنعم اللَّه على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم وهو النبي صلى اللَّه عليه وسلم، بعثه اللَّه من العرب معروف النسب، عرفوه بالصدق والأمانة، وكان يسمى الأمين قبل الوحي. ويقال: بعثه اللَّه من بني آدم ولم يبعثه من الملائكة لأنه إذا كان من جنسهم كان تعلمهم منه أسهل. وقرىء في الشواذ: من أنفسهم ـ بنصب الفاء، أي من أشرافهم، لأن العرب أفضل من غيرهم وقريش أفضل العرب[1].

قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي يقرأ عليهم القرآن بما فيه من أقاصيص الأمم السالفة وهو أمي لم يقرأ الكتب.

وقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من الشرك والذنوب ويأخذ منهم الزكاة التي يطهرهم بها.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي القرآن والفقه وإن كانوا من قبل أن يأتيهم محمد صلى اللَّه عليه وسلم لفي ضلال مبين عن الهدى. والخطاب بين.

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ أي لما أصابتكم مصيبة يوم أحد قد أصبتم مثليها يوم بدر، أي قتلتم يوم بدر سبعين وأسرتم سبعين، وقتل منكم يوم أحد سبعون ولم يؤسر منكم أحد.

قوله تعالى: ﴿مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا﴾ أي قلتم من أين أصابنا هذا القتل

---

(1) ولعل وجه الامتنان على هذه القراءة أنه لما كان من أشرفهم، كانوا أطوع له وأقرب إلى تصديقه. (تفسير القرطبي: 4/ 263).

والهزيمة ونحن مسلمون ورسول اللّه عليه وسلم فينا والوحي ينزل علينا وهم مشركون. قل يا محمد: هو من عند أنفسكم لمخالفتكم أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالخروج عن المدينة، وقد كان أمركم بالمقام فيها ليدخل عليكم الكفار فتقتلوهم في أزقتها. وقيل: إنما أصابكم هذا من عند قومكم بمعصية الرماة بتركهم ما أمرهم به النبي صلى اللّه عليه وسلم. إن اللّه على كل شيء من النصر وغير ذلك قادر.

قال اللّه تعالى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿166﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ
وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ
لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا
يَكۡتُمُونَ ﴿167﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ
ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿168﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ
رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿169﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ
خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿170﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ ما معناه: ما أصابكم يا معشر المسلمين يوم أحد يوم التقى جيش المسلمين وجيش المشركين من القتل والجرح والهزيمة فبعلم اللّه وقضائه وإرادته. ويقال: أراد بالإذن: التخلية بين المؤمنين والكفار وإلا فاللّه لا يأذن بالمعصية.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي ليرى المؤمنين. وقيل: لتعلموا أنتم أن اللّه قد علم نفاقهم وأنتم لم تكونوا تعلمون ذلك. والمعنى: ليرى اللّه إيمان المؤمنين بثبوتهم على ما نالهم، ويرى المنافقين بفشلهم فيه وقلة صبرهم على ما ينزل بهم في ذات اللّه تعالى.

قوله عز وجل: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾. وذلك أن عبد اللّه بن أبي وأصحابه لما رجعوا إلى المدينة قبل القتال قال لهم عبد اللّه بن جبير: تعالوا إلى أحد وقاتلوا في طاعة اللّه وادفعوا على أنفسكم وحريمكم

وأهليكم. فقال المنافقون: لا يكون قتال اليوم، ولو نعلم أنه يكون قتال لكنا معكم.

قال اللَّه تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي كانوا قبل هذا القول عند المؤمنين أقرب إلى الإيمان بظاهر حالهم حتى هتكوا سترهم وأظهروا ميلهم إلى الكفر، فصاروا في ذلك اليوم أقرب إلى الكفر.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ كناية عن كذبهم في قولهم: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ أي بما يخفون من الشرك.

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ معناه: الذين قالوا لإخوانهم من المنافقين بالمدينة وقعدوا هم بأنفسهم عن الجهاد: لو أطاعنا المسلمون الذين خرجوا للقتال ما قتلوا في الغزو. وقل لهم يا محمد: ادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين في مقالتكم لو لم تخرجوا إلى القتال ما قتلوا. قال الفقيه أبو الليث[1]: سمعت بعض المفسرين يقول: لما نزلت هذه الآية مات يومئذ سبعون نفساً من المنافقين[2].

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿169﴾ فَرِحِينَ﴾. قال ابن عباس وابن مسعود وجابر رضي اللَّه عنهم: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل اللَّه أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب تحت العرش. فلما رأوا طيب منقلبهم ومطعمهم ومشربهم وما أعد اللَّه لهم من الكرامة قالوا: يا ليت إخواننا علموا ما أعد اللَّه لنا من**

---

(1) أبو الليث، نصر بن محمد السمرقندي: الفقيه المعروف بإمام الهدى، الإمام الكبير، صاحب الأقوال المفيدة والتصانيف المشهورة. تفقه على أبي جعفر الهندواني. له تفسير القرآن العظيم في أربع مجلدات. توفي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة.
الداودي، طبقات المفسرين: 2/ 346 ـ الفوائد البهية: 220.

(2) تفسير القرطبي: 4/ 267.

الكرامة وما نحن فيه من النعيم، فلم يتكلوا عند اللقاء ولم يجبنوا في الحرب. قال اللَّه: أنا أبلغهم عنكم. فأنزل اللَّه هذه الآية»[1]. وقال جابر بن عبد اللَّه الأنصاري: قتل أبي يوم أحد وترك إلي ثلاث بنات، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «ألا أبشرك يا جابر؟». قلت: بلى يا رسول اللَّه. قال: «إن أباك حين قتل أحياه اللَّه فكلمه كفاحاً[2] فقال: يا عبد اللَّه اسألني ما شئت. قال: أسألك أن تعيدني إلى الدنيا فأقتل فيها ثانياً. قال: يا عبد اللَّه إني قضيت ألا أعيد إلى الدنيا خلقة قبضتها. قال: يا رب فمن يبلغ قومي ما أنا فيه من الكرامة؟ قال اللَّه: أنا. فأنزل اللَّه هذه الآية»[3]. ومعنى الآية: ولا تظن يا محمد الشهداء المقتولين في طاعة اللَّه أمواتاً ـ نصب على المفعول الثاني، لأن الحسبان يتعدى إلى مفعولين ـ بل هم أحياء عند ربهم يرزقون التحف. سماهم أحياء لأنهم يأكلون ويتمتعون ويرزقون كالأحياء. وقيل: سماهم أحياء لأنه يكتب لهم في كل سنة ثواب غزوة، ويشركون في فضل كل جهاد إلى يوم القيامة. وقيل: لأن أرواحهم تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة كأرواح الأحياء. وقيل: لأن الشهيد لا يبلى في الأرض ولا يتغير في القبر. ويقال: أربعة لا تبلى أجسادهم: الأنبياء، والعلماء، والشهداء، وحملة القرآن. وعن عبد اللَّه بن عبد الرحمن أنه بلغه أن عمرو بن الجموح، وعبد اللَّه بن عمرو بن حرام الأنصاري كانا قد أخرب السيل قبرهما وكانا في قبر واحد ممن استشهد يوم أحد، وكان قبرهما مما يلي السيل فوجدا في قبرهما لم يتغيرا كأنما ماتا بالأمس. وكان بين أحد وبين خراب السيل ست وأربعون سنة[4]. وقيل: سموا

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك: 2/ 297 من طريق عثمان بن أبي شيبة ـ والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 8/ 361، رقم: 4098، تفسير سورة آل عمران ـ ويراجع: الواحدي في أسباب النزول: 108 ـ 109 ـ وتفسير القرطبي: 4/ 268.

(2) كفاحاً ـ بكسر الكاف ـ: أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول.

(3) الواحدي والقرطبي في المصدرين السابقين.

(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 286.

أحياء لأنهم لا يغسلون كما يغسل الأحياء. قال صلى اللّه عليه وسلم: «**زملوهم بدمائهم وكلومهم فإنهم يحشرون يوم القيامة بدمائهم: اللون لون الدم، والريح ريح المسك**»(1). قرأ الحسن وابن عامر: قتلوا ـ بالتشديد(2).

قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي من رزقه وثوابه، وانتصب على الحال. وقرأ ابن السميقع: فارحين، وهما لغتان كالفره والفاره، والطمع والطامع، والحذر والحاذر(3).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي يطلبون السرور بقدوم من لم يقدم عليهم من إخوانهم يقولون: ليت إخواننا قتلوا كما قتلنا فينالون من الكرامة والثواب كما نلنا. قال السدي: يؤتى الشهيد بكتاب فيه من يقدم عليه من إخوانه وأهله فيقال: يقدم عليك فلان يوم كذا، ويقدم عليك فلان يوم كذا.. فيبشر بذلك كما يبشر الإنسان بقدوم غائب فيتعجل السرور به قبل قدومه. وأصل الاستبشار من البشرة، لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر السرور في بشرة وجهه. ومعنى الآية: يستبشرون بأن لا خوف عليهم على إخوانهم الذين يأتونهم من بعدهم وأنهم لا يحزنون في الآخرة.

قال اللّه تعالى:

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿171﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿172﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿173﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿174﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿175﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ

---

(1) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 8/ 307 ـ والنسائي في سننه: 4/ 64، باب مواراة الشهيد في دمه.
(2) يراجع: مكي، الكشف: 1/ 364 ـ وتفسير الثعلبي، ورقة: 286.
(3) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 275.

ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿176﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿177﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي محبة وكرامة، ويستبشرون أن اللَّه لا يضيع ثواب الموحدين.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ الكسائي والفراء: وإن اللَّه ـ بالكسر على الاستئناف[1]، ودليله قراءة ابن مسعود رضي اللَّه عنه: واللَّه لا يضيع أجر المؤمنين. وفي الحديث عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**ما يجد الشهيد من القتل في سبيل اللَّه إلا كما يجد أحدكم من القرصة**»[2]. وفي حديث آخر: «**عضة النمل أشد على الشهيد من مس السلاح**». وفي حديث آخر: «**إن الطعنة والضربة على الشهيد مثل شربة الماء البارد**».

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ يجوز أن يكون أول هذه الآية في موضع الخفض على النعت للمؤمنين، والأحسن أن يكون في موضع الرفع على الابتداء وخبره: للذين أحسنوا. ومعنى الآية: الذين أجابوا اللَّه بالطاعة والرسول بالخروج إلى بدر الصغرى من بعد ما أصابهم الجراح ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي وافوا الميعاد ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ سخط اللَّه ومعصيته ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي ثواب وافر في الجنة. قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما: وذلك أنهم تواعدوا يوم أحد أن يجتمعوا ببدر الصغرى في العام القابل، فلما حضر الأجل ندم المشركون، فلقي أبو سفيان نعيم بن مسعود، وكان يخرج إلى المدينة للتجارة، فقال: إذا أتيت المدينة فخوفهم كيلا يخرجوا ولك عشر من الإبل إن رددتم. فلما قدم نعيم المدينة وكان أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يريدون موافاة أبي سفيان فقال لهم: بئس الرأي رأيكم، أتوكم في

---

(1) يراجع: مكي، الكشف: 1/ 364 ـ وتفسير الثعلبي، ورقة: 286 ـ في معاني القرآن: 1/ 247.

(2) رواه ابن ماجه في سننه: 2/ 937، رقم: 2802، باب فضل الشهادة في سبيل اللَّه ـ والنسائي في سننه: 6/ 31، باب ما يجد الشهيد من الألم.

دياركم وقراركم ولم ينفلت منكم إلا الشريد، تريدون أن تأتوهم في ديارهم وقد جمعوا لكم ما إن الرجل الواحد منهم يطيق عشرة منكم، إذا والله ما ينفلت منكم إلا الشريد. فكره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج إليهم وتثاقلوا. فلما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم قال: «**والذي نفسي بيده لأخرجن إليهم وإن لم يخرج معي أحد منكم**». فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الله بن مسعود وحذيفة وأبو عبيدة في سبعين رجلاً حتى انتهوا إلى بدر فلم يخرج إليهم أبو سفيان ولم يلقوا بها أحداً من المشركين، فتسوقوا من السوق حاجتهم ثم انصرفوا[1]. فكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾، قالت عائشة رضي الله عنها لعروة[2] بن الزبير: يا ابن أختي أما والله إن أباك وجدك ـ تعني أبا بكر ـ لمن الذين قال الله فيهم[3]: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية..

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ معناه: الذين قال لهم نعيم بن مسعود إن أبا سفيان وأصحابه قد جمعوا لكم فاخشوهم ولا تخرجوا إليهم فزادهم هذا القول تصديقاً ويقيناً على القتال ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي ثقتنا بالله وكافينا الله أمرهم ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي الناصر الحافظ. وموضع الذين خفض مردود على الذين الأول. وإنما ذكر الله نعيم بلفظ الناس لأن الواحد قد يذكر بلفظ الجماعة على معنى الجنس ولهذا قالوا: من حلف وقال: إن كلمت الناس فعبدي حر، وكلم رجلاً واحداً حنث.

قوله عز وجل: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي فانصرفوا بأجر من الله وفضل وهو ما تسوقوا به من السوق. وروي أنهم اشتروا إدماً وزيتاً وأشياء غير ذلك بسعر رخيص، ويجوز أن يكون لخفة ذلك. ومعنى ﴿لَّمْ

---

(1) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 279.
(2) في النسخة (س): لعبد الله بن الزبير. وكذا في النسخة (ف).
(3) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 8/ 124، رقم: 4077، كتاب المغازي ـ يراجع الواحدي في أسباب النزول: 111.

﴿يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ لم تصبهم جراحة ولا قتل، ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ في الخروج إلى المشركين ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ يدفع المشركين عن المؤمنين.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ أراد بالشيطان نعيم بن مسعود وكل عات متمرد فهو شيطان. وقيل: معناه ذلك التخويف من عمل الشيطان ووسوسته. وقوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ يعني المنافقين ومن لا حقيقة في إيمانه فلا تخافوا المشركين في الخروج إليهم وخافون [في القعود عن الجهاد إن كنتم مصدقين بما علمتم أني أنصركم وألقي الرعب في قلوب الكفار. وقيل: معناه يخوف أولياءه: بخوفكم أولياءه، أي من أوليائه، لأن التخويف يتعدى إلى مفعولين كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا﴾[1] أي ببأس شديد، وقرأ ابن مسعود: يخوفكم أولياءه. وفي قراءة أبي: يخوفكم بأوليائه[2]. والمعنى: يخوف المؤمنين بالكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ﴾[3] أي في ترك أمري. وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ نزلت في حرب أحد، وذلك أنه لما رجع المسلمون إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعد الهزيمة قال لهم: «**رحم اللّه قوماً انتدبوا لهؤلاء المشركين ليعلموا أنا لم نستأصل**». فانتدب قوم ممن أصابهم الجراح في ذلك اليوم فشدوا على المشركين حتى كشفوهم عن القتلى بعد أن مثلوا بحمزة وقد كانوا هموا بالمثلة بقتلى المسلمين، فقذف اللّه في قلوبهم الرعب فانهزموا. فصلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على القتلى ودفنهم. فجاء أناس من العرب وقد مروا بأبي سفيان وأصحابه بموضع يسمى حمراء الأسد فقالوا للمسلمين: تركناهم متأهبين للرجوع إلى المدينة لقتل بقيتكم. فعند ذلك قال المسلمون: حسبنا اللّه ونعم الوكيل، فأمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالمسير إليهم، فلما ساروا إلى حمراء الأسد وهي على رأس ثمانية أميال من المدينة لم يروا المشركين هناك، فانصرف المسلمون إلى المدينة بنعمة من اللّه

---

(1) سورة الكهف (18)، الآية: 2.
(2) تراجع قراءة ابن مسعود وأبي في: تفسير الثعلبي، ورقة: 292.
(3) ما بين المعقوفين ساقط من النسخة (ف) من غير ترك بياض.

وفضل، وهي كفايته لهم شر قريش حتى لم ينلهم سوء. وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ بيان أنه تعالى يتفضل عليهم من بعد بنعيم الدنيا والآخرة[1].

قوله: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ قرأ نافع: يحزنك ـ بضم الياء وكسر الزاي في جميع ما كان من هذا الفعل في جميع القرآن إلا التي في الأنبياء: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ﴾[2] وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاي، وهما لغتان[3]. وقرأ طلحة بن مصرف: يسرعون في الكفر. والباقون: يسارعون[4]. والمعنى: لا يحزنك يا محمد الذين يبادرون إلى الجحد والتكذيب وهم اليهود، كانوا يكتمون صفة النبي صلى اللّه عليه وسلم في التوراة، وكان ذلك يشق على النبي صلى اللّه عليه وسلم. وقيل: يعني كفار قريش كانوا يكذبونه وكان الناس يقولون: لو كان حقاً لاتبعه أقرباؤه، وكان ذلك يشق عليه. وقيل: نزلت هذه الآية في قوم ارتدوا عن الإسلام فاغتم النبي صلى اللّه عليه وسلم. قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ أي لن ينقصوا شيئاً من ملك اللّه وسلطانه، يريد اللّه أن لا يجعل لهم نصيباً من الجنة في الآخرة ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ أي الذين اختاروا الكفر عن الإيمان لا ينقصوا من ملك اللّه شيئاً، وإنما أضروا أنفسهم حيث استوجبوا العذاب ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وجيع في الآخرة.

قال اللّه تعالى:

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿178﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿179﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ

---

(1) يراجع: الواحدي في أسباب النزول: 111 ـ وتفسير القرطبي: 4/ 277.
(2) سورة الأنبياء (21)، الآية: 103.
(3) يراجع: مكي، الكشف: 1/ 365 ـ وتفسير القرطبي: 4/ 284.
(4) يراجع: تفسير القرطبي: 4/ 285.

ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿180﴾ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿181﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿182﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ﴾ قرأ حمزة بالتاء[1] على الخطاب للنبي صلى اللّه عليه وسلم، أي لا تظنن يا محمد اليهود والنصارى والمنافقين أن إملاءنا لهم خير لهم من أن يموتوا كما مات شهداء أحد. وقيل: معناه لا تحسبن يا محمد إملاءنا لهم خيراً وتوبة تقع منهم، إنما إملاؤنا لهم ليكون عاقبة أمرهم أن يزدادوا بذلك معصية على معصية ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ يهانون فيه. وقيل: إن المراد بالذين كفروا: كفار مكة، أي لا تظنن ما أصابوه يوم أحد من الظفر خيراً لأنفسهم، وإنما كان ذلك ليزدادوا معصية فيزاد في عقوبتهم. وقرأ الباقون: ولا يحسبن ـ بالياء، معناه: لا يحسبن الكفار إملاءنا إياهم خيراً لهم. والإملاء في اللغة: إطالة المدة والإمهال والتأخير، ومنه قوله: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾[2] أي دهراً طويلاً. قال ابن مسعود: ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها من الحياة، أما الفاجرة فقد قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾، وأما البر فقد قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾[3].

قوله عز وجل: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ اختلفوا في تأويلها، قال الكلبي: قالت قريش: يا محمد تزعم أن من خالفك فهو في النار واللّه عليه غضبان، ومن اتبعك على دينك فهو في الجنة واللّه عنه راض. فاخبرنا بمن يؤمن بك ومن لا

---

(1) يراجع: مكي، الكشف: 1/ 365 ـ والحجة في القراءات السبع، لابن خالويه: 116 ـ 117.

(2) سورة مريم (19)، الآية: 46.

(3) سورة آل عمران (3)، الآية: 198.

يؤمن بك. فأنزل اللَّه هذه الآية[1]، ومعناها: لم يكن اللَّه ليترك من كان في علمه السابق أنه يؤمن على ما أنتم عليه من الكفر حتى يميز الكافر والمنافق من المؤمن المخلص، وما كان اللَّه ليطلعكم يا أهل مكة على من يصير منكم مؤمناً قبل أن يؤمن ولكن اللَّه يصطفي بالنبوة والرسالة من يشاء فيوحي إليه بما يشاء، لأن الغيب لا يطلع عليه إلا الرسل بوحي من اللَّه ليقيموا البرهان على أن ما أتوا به من عند اللَّه ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ أي صدقوا، وإن تؤمنوا باللَّه ورسله وتتقوا الشرك والمعصية فلكم أجر عظيم في الجنة. وقال بعضهم: الخطاب للكافرين والمنافقين. معنى الآية: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ يا معشر الكفار والمنافقين من الكفر والنفاق ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ وقيل: الخطاب للمؤمنين، أي ما كان اللَّه ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من التباس المؤمن بالمنافق حتى يميز الخبيث. قرأ الحسن وقتادة والكوفيون إلا عاصماً: يميز ـ بضم الياء والتشديد، وكذلك في الأنفال. والباقون بالتخفيف وفتح الياء من الميز[2]، وهو الفرق. وسمي العاقل مميزاً لأنه يفرق بين الحق والباطل. والمعنى: حتى يميز المنافق من المخلص. فميز اللَّه المؤمنين يوم أحد من المنافقين حتى أظهروا النفاق وتخلفوا عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. وقال بعضهم: معنى الآية: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الإقرار حتى يعرض عليهم الجهاد والفرائض ليميز بها من يثبت على إيمانه ممن ينقلب على عقبيه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ لأنه لا يعلمه إلا اللَّه تعالى، ولكن اللَّه يختار من رسله من يشاء ليطلعه على علم الغيب. وروي أن الحجاج بن يوسف[3] كان عنده منجم، فأخذ الحجاج حصيات بيده قد عرف عددها فقال للمنجم: كم في يدي؟ فحسب المنجم فأصاب ثم أغفله الحجاج فأخذ حصيات لم يعدها فقال للمنجم: كم في يدي؟

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 111 ـ 112.

(2) مكي، الكشف: 1/ 369 ـ تفسير القرطبي: 4/ 289.

(3) أبو محمد، الحجاج بن يوسف الثقفي قائد داهية سفاك خطيب، ولد ونشأ في الطائف بالحجاز، وتولى الإمارة. توفي بواسط سنة خمس وتسعين هجرية.
وفيات الأعيان: 2/ 29 ـ معجم البلدان: 8/ 382 ـ تهذيب التهذيب: 2/ 210.

فحسب المنجم فأخطأ ثم حسب فأخطأ فقال: أيها الأمير أظنك لم تعرف عددها؟ قال: لا. فقال: إن ذلك الأول أحصيت عدده فخرج عن حد الغيب فأصبت في حسابه وهذا لم يعرف عدده فصار غيباً، والغيب لا يعلمه إلا اللَّه[1].

قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ﴾. من قرأ: ولا تحسبن ـ بالتاء فمعناه: ولا تظنن يا محمد بخل الذين يبخلون بما أعطاهم اللَّه من فضله من المال فيمنعون من ذلك حق اللَّه في الزكاة والجهاد وسائر وجوه البر التي وجبت عليهم، لا تظنن ذلك خيراً لهم. وقوله: ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ﴾ للفصل ويسميه الكوفيون العماد ومعنى ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ﴾ أي بخلهم بحق اللَّه شر لهم. ومن قرأ بالياء فالفعل للباخلين، كأنه قال: ولا يحسبن الذين يبخلون البخل هو خير لهم.

قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ أي سيأتون يوم القيامة بما بخلوا به من الزكاة ونفقة الجهاد كهيئة الطوق في أعناقهم. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**يأتي كنز أحدكم شجاعاً أقرع فيتطوق في عنقه يلدغه يجذبه ويقول: أنا الزكاة التي بخلت بي في الدنيا**»[2]. وقال بعضهم: يجعل ما بخل به من الزكاة حية في عنقه تطوقه إلى يوم القيامة تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول: أنا مالك. فلا يزال كذلك حتى يساق إلى النار ويغل، وهذا قول ابن مسعود وابن عباس والشعبي والسدي. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه يسأله من فضل ما أعطاه اللَّه فيبخل عليه إلا أخرج اللَّه له من جهنم شجاعاً أقرع حتى يطوقه**» ثم تلا هذه الآية. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**مانع الزكاة في النار**». وذهب بعضهم إلى أن المراد بهذه الآية اليهود بخلوا ببيان صفة النبي صلى اللَّه عليه وسلم ومعنى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ على هذا القول وزره ومأثمه. والأظهر في هذه الآية أنه البخل بالمال.

---

(1) تفسير القرطبي: 4/ 290، تفسير الثعلبي، ورقة: 293.
(2) رواه النسائي في سننه: 5/ 28، باب مانع زكاة ماله.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تحريض على الإنفاق، ومعناه: يموت أهل السموات وأهل الأرض كلهم من الملائكة والجن والإنس ولا يبقى إلا اللَّه. وإذا كانت الأموال لا تبقى للإنسان ولا يحملها مع نفسه إلى القبر فالأولى به أن ينفقها في الوجوه التي أمر اللَّه بها فيستوجب بها الحمد والثواب.

قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عالم بمن يؤدي الزكاة ممن يمنعها.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قال إنما هذا لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[1] قالت اليهود: إن اللَّه يستقرض منا ونحن أغنياء. قال الحسن: إن قائل هذه المقالة حيي بن أخطب[2]. وقال عكرمة والسدي ومقاتل: كتب النبي صلى اللَّه عليه وسلم مع أبي بكر رضي اللَّه عنه إلى اليهود يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا اللَّه قرضاً حسناً، فدخل أبو بكر مدراسهم فوجد ناساً كثيراً منهم قد اجتمعوا على رجل يقال له: فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم، فقال أبو بكر رضي اللَّه عنه: يا فنحاص اتق اللَّه وأسلم فواللَّه إنك تعلم أن محمداً رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فآمن وصدِّق وأقرض اللَّه قرضاً حسناً يدخلك الجنة. قال فنحاص: يا أبا بكر تزعم أن ربنا يستقرض منا أموالنا وما يستقرض إلا الفقير من الغني، فإن كان ما تقول حقاً فإن اللَّه فقير ونحن أغنياء. فغضب أبو بكر رضي اللَّه عنه وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو اللَّه. فذهب فنحاص إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وقال: يا محمد انظر إلى ما صنع بي صاحبك. فقال صلى اللَّه عليه وسلم لأبي بكر: «**ما حملك على ما صنعت؟**» فقال: يا رسول اللَّه إنه قال قولاً عظيماً، زعم أن اللَّه فقير وهم أغنياء،

---

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 245 ـ سورة الحديد (57)، الآية: 11.
(2) تفسير الطبري: 7/ 444.

فغضبت لله تعالى وضربت وجهه. فجحد فنحاص فأنزل[1] اللّه تعالى رداً على فنحاص وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ أي سيكتب الكرام الكاتبون عليهم بأمرنا قولهم ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بلا جرم منهم فيجازيهم به. وقرأ حمزة والأعمش: سيكتب ـ بالياء مضمومة وفتح الياء[2]، وقتلهم الأنبياء ـ بالرفع، ويقول بالياء اعتباراً بقراءة ابن مسعود. ويقال: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي النار[3]. وإنما قال الحريق لأن النار اسم للملتهبة وغير الملتهبة، والحريق اسم للملتهبة منها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ أي ذلك بما قدمت أيديكم على الكفر والتكذيب وقتل الأنبياء صلوات اللّه عليهم. وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي وبأن اللّه ليس بظلام للعبيد، أي لا يعذب أحداً بغير ذنب، ولا يمنع أحداً أجره حسب استحقاقه خيراً فعله العبد أو شراً.

قال اللّه تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 112 ـ تفسير القرطبي: 4/ 294 ـ تفسير الطبري: 7/ 441 ـ 442.

(2) يراجع: مكي، الكشف: 1/ 369 ـ وتفسير الثعلبي، ورقة: 295.

(3) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 295 ـ وتفسير القرطبي: 4/ 294.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾. قال الكلبي: نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وفنحاص بن عازوراء أتوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقالوا: أتزعم يا محمد أن اللّه بعثك إلينا رسولاً وأنزل عليك كتاباً؟ وأن اللّه قد عهد إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدقناك. فأنزل اللّه هذه الآية[1]، ومعناها: وسمع اللّه قول الذين قالوا إن اللّه عهد إلينا. ومحل «الذين» خفض رداً على «الذين» الأول. ومعنى ﴿عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾ أمرنا وحدنا في كتبه وعلى ألسنة رسله أن لا نصدق رسولاً يزعم أنه جاء من عند اللّه حتى يأتينا بقربان، وهو ما يتقرب به إلى اللّه تعالى ممن صدقه. وكانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل، وكانوا إذا قربوا قرباناً أو غنموا غنيمة فتقبل منهم جاءت نار من السماء لا دخان لها ولها دوي وحفيف فتأكل ذلك القربان وتلك الغنيمة، فيكون ذلك علامة القبول، وإذا لم يقبل يبقى على حاله. فقال هؤلاء اليهود ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ كما كان في زمن موسى وزكرياء ويحيى وغيرهم صلوات اللّه عليهم. وكان هذا القول منهم كذباً على اللّه واعتلالاً ومدافعة في الإيمان بالنبي صلى اللّه عليه وسلم لا احتجاجاً صحيحاً فاحتج اللّه عليهم بقوله: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ﴾ أي قل لهم يا محمد: قد جاءكم رسل من قبلي بالعلامات الواضحات والمعجزات وبالذي قلتم من أمر القربان، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين في مقالكم؟ وكانوا قتلوا زكرياء ويحيى وغيرهم. وأراد بذلك أسلافهم فخاطبهم بذلك لأنهم رضوا بفعل أسلافهم.

قوله عز وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ أي فإن كذبوك يا محمد فلست بأول رسول كذب، فقد كذب نوح وهود وصالح وغيرهم جاؤوا

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 113 ـ تفسير القرطبي: 4/ 495.

بالبينات، أي بالعلامات الواضحات والزبر وهو جمع زبور، وهو كل كتاب ذي حكمة. يقال: زبرت إذا كتبت، وزبرت إذا قرأت. وأما الكتاب المنير فهو الكتاب المبين للحلال والحرام.

قوله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. قرأ الأعمش: ذائقة ـ بالتنوين ونصب الموت[1]. قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾[2] قالت الملائكة: هلك أهل الأرض. فلما نزلت هذه الآية أيقنت الملائكة بالهلاك. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لما خلق الله آدم اشتكت الأرض إلى ربها لما أخذ منها، فوعدها أن يرد إليها ما أخذ منها. فما من أحد إلا يدفن في التربة التي أخذ منها**». ورأى أبو هريرة رضي الله عنه قبراً جديداً فقال: سبحان الله! انظروا كيف سيق هذا العبد إلى تربته التي خلق منها[3]. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي إنما تعطون جزاء أعمالكم يوم القيامة إن خيراً فخير وإن شراً فشر. والمعنى: لا تغتروا بنعم الكفار ولا تحزنوا لشدائد المؤمنين، فإن كلاً من الفريقين يتفرقون فلا بؤس يبقى ولا نعيم في الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ أي من بعد عنها ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي نجا وسعد وظفر بما يرجوه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ مثل: القدر والقصعة والفأس، يتمتع بهذه الأشياء، أي ينتفع بها، ثم تذهب فتفنى. كذلك الحياة الدنيا. وقيل: متاع الغرور: ما يسر به الإنسان في الحال، وكما أن الناس تهرب من متاع الغرور وهو ما يسرع إليه الفساد مثل الزجاج والذي يسرع إليه الكسر ولا يصلحه الجبر، كذلك ينبغي للحي أن يهرب من الدنيا الفانية إلى متاع الآخرة. وعن عبد الله بن عمر قال: لما توفي رسول الله صلى الله عليه

---

(1) تفسير القرطبي: 4/ 297،
(2) سورة الرحمن (55)، الآية: 26.
(3) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 201.

وسلم سجيناه بثوب وجلسنا حوله نبكي، فأتانا آت نسمع صوته ولا نرى شخصه فقال: السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته. فقلنا: وعليك السلام ورحمة اللَّه وبركاته. فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ إلى آخر الآية، ثم قال: إن في اللَّه خلفاً من كل هالك، وعزاءً من كل مصيبة، ودركاً من كل فائت. فباللَّه فثقوا وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب. قال: فتحدثنا أنه جبريل عليه السلام.

قوله عز وجل: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ وذلك أن اللَّه تعالى لما ذكر الجنة أتى عقيبها بما يدعو إليها ويوجبها فقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي لتختبرن بالنقص والذهاب في الأموال. وفي أبدانكم بالأمراض والأوجاع. ويقال: إن المراد بالابتلاء فرائض الدين مثل الجهاد في سبيل اللَّه والإنفاق فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ معناه: ولتسمعن من اليهود والنصارى ومشركي العرب كلاماً وأذى كثيراً؛ أما من اليهود فقولهم عزير ابن اللَّه، وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾؛ ومن النصارى قولهم المسيح ابن اللَّه، وقولهم: إن اللَّه ثالث ثلاثة؛ ومن المشركين قولهم: الملائكة بنات اللَّه، وعبادتهم الأوثان، ونصبهم الحرب لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم والأذى بما يكره الإنسان ويغتم به. وقال الزهري: نزلت الآية في كعب بن الأشرف، وذلك أنه كان يهجو النبي صلى اللَّه عليه وسلم ويسب المسلمين، ويحرض المشركين على النبي صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه في شعره حتى أذاهم، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من لي بابن الأشرف؟**» فأجابه محمد بن مسلمة[1] وأبو نائلة سلكان بن سلامة أخو كعب من الرضاعة وعباد بن بشر بن وقش والحارث بن أوس وأبو عبس.

---

(1) أبو عبد الرحمن محمد بن مسلمة الأنصاري: صحابي من الأمراء، شهد بدراً والمشاهد كلها مع النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلا تبوك. استخلفه النبي صلى اللَّه عليه وسلم على المدينة، وولاه عمر على صدقات جهينة، واعتزل الفتنة في أيام علي كرم اللَّه وجهه. توفي سنة ثلاث وأربعين هجرية.
الاستيعاب: 3/ 1377 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 338 ـ الأعلام: 7/ 7.

ومشى معهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال: «**انطلقوا على اسم اللَّه، اللهم أعنهم**». ثم رجع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وذلك في ليلة مقمرة، فأتوا حتى انتهوا إلى حصنه فقدَّموا أبا نائلة لأنه أخوه من الرضاعة، فجاءه فتحدث معه ساعة ثم قال: يا كعب إني جئتك لحاجة أريد أن أذكرها لك فاكتمها علي. قال: أفعل. قال: كان قدوم هذا الرجل بلادنا بلاء علينا، عادتنا العرب فرمونا عن قوس واحدة، وانقطعت عنا السبل حتى ضاعت العيال وجهدت الأنفس. فقال كعب: أنا ابن الأشرف أما واللَّه لقد أخبرتك أن الأمر سيصير إلى هذا. فقال أبو نائلة: إن معي أصحاباً أردنا أن تبيعنا من طعامك ونرهنك ونوثق لك بسلاحنا. وقد علمت حاجتنا اليوم إلى السلاح. فقال: هاتوا سلاحكم. وأراد أبو نائلة بذكر السلاح أن لا ينكر كعب السلاح إذا رآه. ورجع أبو نائلة إلى أصحابه فأخبرهم خبره فأقبلوا إليه حتى انتهوا إليه. وكان كعب حديث عهد بعرس، فناداه أبو نائلة، فوثب في ملحفة فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: إنك رجل محارب وصاحب الحرب لا ينزل في هذه الساعة. فقال: إن هؤلاء لو وجدوني نائماً ما أيقظوني، وإنه أبو نائلة أخي. قالت: فكلِّمهم من فوق الحصن. فأبى عليها، فنزل إليهم فتحدث معهم ساعة ثم قال له: يا ابن الأشرف هل لك أن نتماشى ونتحدث ساعة؟ فمشى معهم ساعة، ثم إن أبا نائلة جعل يده على رأس كعب ثم شمها وقال: ما شممت طيب عرس قط مثل هذا. قال كعب: إنه طيب أم فلان، يعني امرأته. ثم مشى ساعة، فعاد أبو نائلة لمثلها حتى اطمأن، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها، ثم أخذ بفود[1] رأسه حتى استمكن منه ثم قال لأصحابه: اضربوا عدو اللَّه. فاختلفت عليه أسيافنا فلم يغن شيئاً. قال محمد بن مسلمة: فذكرت معولاً[2] في سيفي فأخذته فوضعته في ثندؤته[3] ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، فصاح عدو اللَّه صيحة لم يبق من حولنا حصن إلا وقد أوقد ناراً، فوقع عدو اللَّه على الأرض، وقد أصيب الحارث بن أوس فجرح في رأسه أصابه

---

(1) فود رأسه: معظم شعر الرأس.

(2) المعول: السكين التي تكون في السوط.

(3) الثندؤة للرجال كالثدي للمرأة. (اللسان: ثندأ).

بعض أسيافنا فنزفه الدم فأبطأ علينا فوقفنا له ساعة ثم احتملناه وجئنا به إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم آخر الليل وهو قائم يصلي، فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل كعب وجئنا برأسه إليه، وتفل على جرح صاحبنا فبرىء، ورجعنا أهلنا فأصبحنا وقد خافت اليهود لوقعتنا بعد واللَّه. فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه**»(1).

قوله عز وجل: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي إن تصبروا على أذى الكفار وتتقوا معصية اللَّه، فإن ذلك من عزم الأمور وخيرها، أي من حقيقة الإيمان.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿187﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿188﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿189﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿190﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿191﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ أي قد أخذ اللَّه ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبينن الكتاب بما فيه من نعت محمد صلى اللَّه عليه وسلم وصفته للناس ولا يخفون شيئاً من ذلك. قرأ عاصم وأبو عمرو وابن كثير: بالياء فيهما. وقرأ الباقون: بالتاء فيهما(2).

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي ضيعوه وتركوا العمل به. يقال للذي يترك العمل به: جعله خلف ظهره.

---

(1) سيرة ابن هشام: 3/ 54 وما بعدها، تفسير الثعلبي، ورقة: 297.
(2) ينظر: مكي، الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 371.

قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي اختاروا بكتمان نعت النبي صلى الله عليه وسلم وصفته عرضاً يسيراً من المآكل والهدايا التي كانت للعلماء من رؤسائهم ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أي يختارون الدنيا على الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ قرأ أهل الكوفة: تحسبن ـ بالتاء. وقرأ غيرهم بالياء. فمن قرأ بالياء فمعناه: لا يحسبن الفارحون فرحهم منجياً لهم من العذاب. ومن قرأ بالتاء فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم[1].

وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ إعادة توكيد. قرأ الضحاك بالتاء وضم الباء: أراد محمداً وأصحابه. وقرأ مجاهد وابن كثير وأبو عمرو: بالياء وضم الباء خبراً عن الفارحين، أي فلا يحسبن أنفسهم[2]. واختلفوا فيمن أنزلت، فقال مجاهد وعكرمة: نزلت في اليهود كانوا يقولون: نحن أهل الصلاة والصوم والكتاب الأول والعلم الأول، يريدون: الفخر والسمعة والرياسة لتثني عليهم وتحمدهم سفلتهم على ما يقولون من بيان صفة كتابهم[3]. وقال عطاء: نزلت في المنافقين كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم ويخالطون المسلمين ويراؤون بالأعمال التي يحبون أن يحمدوا ويمدحوا على ذلك[4].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي لا تظننهم يا محمد بمنجاة، أي بعد من العذاب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وجيع في الآخرة. وتكرار «لا تحسبن» لطول القصة. ويجوز أن يكون خبر «لا تحسبن» الأول مضمر تقديره: لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ناجين. ومن قرأ: بما أتوا بالمد معناه: بما أعطوا من النفقة والصدقة. ومن قرأ أتوا: بما أعطوا: من الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ أي

---

(1) ينظر: المصدر السابق.
(2) ينظر: المصدر نفسه ـ وتفسير الثعلبي، ورقة: 298.
(3) يراجع: الواحدي، أسباب النزول: 116 ـ تفسير الثعلبي: 298.
(4) يراجع: الواحدي والثعلبي في المصدرين السابقين.

ولله خزائن السموات والأرض؛ فخزائن السموات المطر؛ وخزائن الأرض النبات. ووجه اتصال هذه الآية بما سبق أن في هذا تكذيب لليهود في قولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء: وبيان أن من كان مالك السموات والأرض قادر على الانتقام من الكفار والإثابة للمؤمنين ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ معناه: أن في خلق السموات بما فيها من الشمس والقمر والنجوم، والأرض بما فيها من الجبال والشجر والنبات والدواب، واختلاف الليل والنهار في المجيء والذهاب واللون، لعلامات واضحات لذوي العقول على توحيد الله.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ في جميع أحوالهم. وقيل: المراد به الصلاة، أي لا يتركون الصلاة صحوا أو مرضوا، يصلون قياماً إن استطاعوا وجلوساً إن لم يستطيعوا القيام، ومضطجعين إن لم يستطيعوا الجلوس.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي في عظيم شأنها وما فيها من الآيات والعبرات قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي ما خلقت هذا الخلق للباطل والعبث، بل خلقته دليلاً على وحدانيتك وصدق ما أتت به أنبياؤك.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهاً لك وبراءة من أن تكون خلقتهما باطلاً فادفع عنا عذاب النار. وقال صلى الله عليه وسلم: «**من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله**»(1). وقال صلى الله عليه وسلم: «**ذكر الله علم الإيمان، وبراءة من النفاق، وحصن من الشيطان، وحرز من النيران**»(2).

قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أن لهما صانعاً قادراً مريداً حكيماً. وكان سفيان الثوري يبول الدم من طول حزنه وفكرته، وكان إذا رفع

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، من حديث أنس: 1/ 398، رقم: 529، فصل في إدامة ذكر الله.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 299.

رأسه إلى المساء ورأى الكوكب غشي عليه[1]. وانتصب قوله: ﴿بَٰطِلًا﴾ بنزع الخافض، أي ما خلقته للباطل. وقيل: على المفعول الثاني.

وقوله: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ ذهب به إلى لفظ الخلق، ولو رده إلى السماء والأرض لقال هذه.

قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿192﴾ رَبَّنَآ إِنَّنَا
سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿193﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ
إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿194﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟
وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ
ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿195﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿196﴾ مَتَٰعٌ
قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿197﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أي فقد أهنته وأذللته. وقيل: أهلكته. وقيل: فضحته. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿192﴾﴾ أي ما لهم مانع يمنعهم مما يراد بهم من العذاب.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا﴾ محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو الخلق إلى الايمان ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ فأجبنا إلى ما دعانا إليه وأمرنا به. وقال محمد بن كعب القرظي: المنادي للإيمان هو القرآن يدعو الناس كلهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[2]. وقوله: ﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي إلى الإيمان، كقوله: ﴿لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾[3].

---

(1) ينظر: تفسير الثعلبي، ورقة: 299.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 300.

(3) سورة المجادلة (58)، الآية: 8.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي اغفر لنا الكبائر وما دونها ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي شركنا في الجاهلية ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي اجعل أرواحنا مع أرواح الأنبياء والصالحين الذين كانوا قبلنا.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي أعطنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي لا تعذبنا ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ من الثواب والجنة للمؤمنين. فإن قيل ما فائدة قولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ وقد علموا أن اللَّه لا يخلف الميعاد؟ قيل: فائدته التعبد والخضوع له ورفع الحاجة إليه في عموم الأحوال.

قوله عز وجل: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي أجابهم ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ قال الكلبي: يعني في الدين والنصرة والموالاة[1]. وقيل: حكم جميعكم في الثواب واحد. وقيل: كلكم من آدم وحواء. وقال مجاهد: قالت أم سلمة: يا رسول اللَّه إني أسمع اللَّه يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء بشيء. فأنزل اللَّه هذه الآية[2]: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ قال الضحاك معناه: رجالكم شكل نسائكم في الطاعة، ونساؤكم شكل رجالكم في الطاعة.

قوله عز وجل: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ الآية... أي فالذين هاجروا من مكة إلى المدينة وأخرجوا من أوطانهم وأوذوا في طاعتي وقاتلوا المشركين مع محمد صلى اللَّه عليه وسلم وقتلهم العدو في الجهاد، لأكفِّرن عنهم ذنوبهم ولأدخلنَّهم جنات تجري من تحتها الأنهار، أي بساتين تجري من تحت شجرها ومساكنها الأنهار ثواباً، أي جزاء من عند اللَّه. وانتصب «ثواباً» على المصدر، معناه: لأثيبنهم ثواباً.

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 301.
(2) الواحدي، أسباب النزول: 117.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي حسن الجزاء للموحدين المطيعين. قرأ محارب بن دثار[1] وقاتلوا وقتلوا ـ بالفتح وقال يزيد بن حازم[2]: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول: وقَتلوا وقُتلوا، يعني أنهم قتلوا المشركين ثم قتلهم المشركون. وقرأ أبو رجاء وطلحة والحسن: وقاتلوا وقتلوا ـ بالتشديد. وقرأ عاصم وأبو عمرو، ونافع: وقاتلوا وقتلوا ـ بالتخفيف، أي قاتلوا ثم قتلوا.

وقرأ الأعمش، وحمزة، والكسائي، وخلف: وقتلوا ـ بالتخفيف، وقاتلوا أي قاتل من بقي منهم[3]. وقيل: معناه وقتلوا وقد قاتلوا يضمر فيه.

قوله عز وجل: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ ابتداء هذه الآية خطاب للنبي صلى اللَّه عليه وسلم، والمراد به أصحابه كأنه قال: لا يغرنك أيها السامع ذهاب اليهود ومجيئهم في تجاراتهم ومكاسبهم في الأرض منفعة يسيرة في الدنيا تنقطع، ثم مصيرهم إلى جهنم وبئس الميهاد، أي بئس الفراش النار. وقيل: كان النبي صلى اللَّه عليه وسلم لا يغره شيء لتحذير اللَّه إياه عن الاغترار بشيء وتأذيته إياه. وقيل: نزلت في مشركي العرب كانوا في رخاء من العيش، وكانوا يتجرون ويتنعمون فقال بعض المؤمنين: إن أعداء اللَّه فيما نرى من الخير ونحن قد هلكنا من الجوع والجهد. فنزلت هذه الآية[4]. وقرأ يعقوب: لا يغرنك ـ لإسكان النون[5]. وقوله تعالى: ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ تصرفهم في الأرض للتجارات والبياعات وأنواع المكاسب وقوله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ أي هو متاع قليل فانٍ، قال النخعي: إن الدنيا جعلت قليلاً وما بقي منها إلا قليل من قليل.

---

(1) محارب بن دثار السدوسي الكوفي القاضي: قارىء تقدمت ترجمته. في النسخة (ف): بن دينار.

(2) أبو بكر، يزيد بن حازم الأزدي ثم الجهضمي: ورع ثقة، توفي سنة سبع وأربعين ومائة هجرية. الطبقات الكبرى: 7/ 189.

(3) تراجع هذه القراءات في: تفسير الثعلبي، ورقة: 301 ـ والكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 373.

(4) الواحدي، أسباب النزول: 117 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 301.

(5) ذكر القرطبي في تفسيره: 4/ 319 قراءة يعقوب هذه.

قال اللّه تعالى:

﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿198﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿199﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿200﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تقدير هذه الآية مع ما قبلها: لا يعجبنك يا محمد تقلب أولئك الكفار في نعيم الدنيا بل ما أعطى المتقون في الآخرة أفضل، فإن الذين اتقوا ربهم، أي وحدوه وأطاعوه ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ أي بساتين تجري من تحت أشجارها ومساكنها الأنهار مقيمين فيها. قوله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾ أي رزقاً وثواباً لهم، وهذا نصب على التفسير كما يقال: هذا الشيء هبة أو صدقة. ويجوز أن يكون نصب على المصدر على معنى أنزلوا نزلاً. والنزل: ما يهيأ للنازل من كرامة وبر وطعام وشراب ومنظر حسن.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ أي ما عند اللّه من الجزاء والثواب خير للصالحين من ما لهم في الدنيا. قرأ أبو جعفر: لكن الذين ـ بالتشديد[1]. وقرأ الحسن والنخعي: نزلاً ـ ساكنة الزاي[2]. روى أنس بن مالك قال: دخلت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو على سريره وتحت رأسه وسادة من أدم وحشوها ليف فدخل عليه عمر رضي اللّه عنه، فانحرف النبي صلى اللّه عليه وسلم انحرافة، فرأى أثر الشريط في جنبه فبكى، فقال له: «**ما يبكيك يا عمر؟**» فقال: وما لي لا أبكي يا رسول اللّه فكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا وأنت على الحال الذي أرى. فقال: «**يا عمر أما**

---

(1) يراجع القرطبي في تفسيره: 4/ 321.
(2) نفس المصدر.

ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» فقال: بلى. فقال: «**هو كذلك**»[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ معناه: وإن من أهل الكتاب لمن يصدق بالله والقرآن والتوراة والإنجيل والزبور وسائر كتب الله وهم: عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ أي ذليلة أنفسهم لله لا يشترون بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ثمناً قليلاً وعرضاً يسيراً كما فعله رؤساء اليهود ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. وقال قتادة: نزلت هذه الآية في النجاشي ملك الحبشة لما مات نعاه جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي في اليوم الذي مات فيه، فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «**اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بالحبشة بغير أرضكم**». قالوا: ومن هو؟ قال: «**النجاشي**». فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البقيع[2] وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي فصلى عليه واستغفر له، وقال لأصحابه: «**استغفروا له**». فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج[3] حبشي نصراني لم يؤمن قط وليس على دينه. فأنزل الله هذه الآية[4]. قوله تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ انتصب على الحال.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا يحرفون كتبهم ولا يكتمون صفة النبي صلى الله عليه وسلم لأجل المأكل والرياسة كما فعل رؤساء اليهود.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وقد تقدم تفسيره.

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ أي اصبروا على أداء الفرائض واجتناب المحارم، وصابروا أعداءكم في الجهاد في

---

(1) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 302.
(2) البقيع: مقبرة أهل المدينة.
(3) علج، العلج: بوزن العجل: الواحد من كفار العجم. علوج وأعلاج. (مختار القاموس: علج).
(4) الواحدي، أسباب النزول: 117 ـ 118 ـ والثعلبي في تفسيره، ورقة: 302.

مقابلتهم، ورابطوا خيلاً لكم على الجهاد. والرباط والمرابطة: أن يربط كل واحد من الفريقين خيولهم في الثغر. وقيل المرابطة: المحافظة على الصلوات. قال أبو هريرة: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**ألا أخبركم بما يمحو اللَّه به الخطايا ويرفع به الدرجات؟**» قالوا: بلى يا رسول اللَّه قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**»[1]. وقال الضحاك: معنى الآية: يا أيها الذين آمنوا اصبروا على أمر اللَّه. وقال الكلبي: اصبروا على البلاء. وقالت الحكماء: الصبر ثلاثة أشياء: ترك الشكوى، وصدق الرضى، وقبول القضاء[2]. وقيل: الصبر هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

قوله تعالى: ﴿وَصَابِرُواْ﴾ أي صابروا الكفار ﴿وَرَابِطُواْ﴾ يعني داوموا واثبتوا. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من رابط يوماً في سبيل اللَّه كان كصيام شهر وقيامه، ومن توفي في سبيل اللَّه أجرى اللَّه له أجره حتى يقضى بينه وبين أهل الجنة وأهل النار، ومن رابط في سبيل اللَّه يوماً جعل اللَّه بينه وبين النار سبعة خنادق، كل خندق منها كسبع سماوات وسبع أرضين**»[3]. وقال بعضهم في هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ﴾: عند قيام اليقين على احتمال الكرب، وصابروا على مقاساة العناء والتعب، ورابطوا في دار أعدائي بلا هرب، واتقوا همومكم من الالتفات إلى السبب ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ غداً بلقائي على بساط القرب. وقال سري السقطي[4]: اصبروا عن الدنيا رجاء السلامة، وصابروا عند

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 3/ 141، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره ـ والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 1/ 171، رقم: 51، ما جاء في إسباغ الوضوء على المكاره ـ وابن ماجه في سننه: 1/ 255، رقم: 776، باب المشي إلى الصلاة ـ والنسائي في سننه: 1/ 76.

(2) يراجع: الثعلبي في تفسيره: الكشف والبيان، ورقة: 302.

(3) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره: ورقة: 303.

(4) أبو الحسن: سري بن المغلس السقطي: من كبار صوفية بغداد، وهو أول من تكلم في بغداد بأحوال الصوفية، وهو خال الجنيد وأستاذه. من كلامه: «من عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز. توفي ببغداد سنة ثلاث وخمسين ومائتين هجرية.
طبقات الصوفية: 48 ـ حلية الأولياء: 10// 116 ـ وفيات الأعيان: 2/ 357.

القتال بالثبات والاستقامة، ورابطوا هوى النفس اللوامة، واتقوا ما يعقب لكم الندامة، لعلكم تفلحون غداً على بساط الكرامة[1]. وقيل: معناه اصبروا على بلائي وصابروا بالشكر على نعمائي، ورابطوا في دار أعدائي، واتقوا محبة من يتوانى لعلكم تفلحون بلقائي. وقيل: اصبروا على البغضاء، وصابروا على البأساء والضراء، ورابطوا في دار الأعداء واتقوا إله الأرض والسماء لعلكم تفلحون في دار البقاء. وعن جعفر الصادق قال: معنى هذه الآية: اصبروا عن المعاصي، وصابروا على الطاعات، ورابطوا الأرواح بالمشاهدة، واتقوا اللَّه لكي تبلغوا مواقف أهل الصدق فإنها محل الفلاح. واللَّه سبحانه أعلم.

---

(1) ينظر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 303.

سُورَةُ النِّسَاءِ

سورة النساء مدنية، وهي أربعة عشر ألف وخمسمائة وخمسة وثلاثون حرفاً، وثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وأربعون كلمة، ومائة وست وسبعون آية[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1) وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (2) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ (3) وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا (4) وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (5)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

بسم اللّه الرحمن الرحيم. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ قال ابن عباس: قد يكون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عاماً وقد يكون خاصاً لأهل مكة، وهو ههنا عام لجميع الناس، ومعناه: اخشوا ربكم وأطيعوه. وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني آدم عليه السلام. وإنما أنث النفس لاعتبار اللفظ دون المعنى. قال الشاعر:

أبـوك خـلـيـفـة ولـدتـه أخرى ∴ وأنـت خـلـيـفـة ذاك الـكـمـال[2]

---

(1) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 303.
في النسخة (ف): مائة وست وتسعون آية.

(2) سبق تخريجه عند تفسير قوله تعالى: (ذرية طيبة) (سورة آل عمران) (3)، الآية: 38.

فقال: ولدته أخرى، لأن لفظ الخليفة مؤنث. وإنما من اللّه علينا أن خلقنا من نفس واحدة، لأن ذلك أقرب إلى أن يعطف بعضنا على بعض ويرحم بعضنا بعضاً لرجوعنا جميعاً في القرابة إلى أصل واحد. قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي وخلق من نفس آدم زوجها. خلقها من ضلع من أضلاعه اليسرى وهي القصرى بعدما ألقى عليه النوم فلم يؤذه، ولو آذاه لما عطف عليها أبداً. قال صلى اللّه عليه وسلم: «**إن المرأة خلقت من ضلع أعوج، فإن أردت أن تقيمها كسرتها وإن تركتها وفيها عوج استمتعت بها على عوج**»[1].

قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ أي نشر وفرق، وأظهر من آدم وحواء خلقاً كثيراً من الرجال والنساء.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أي اتقوا معاصي اللّه الذي تساءلون به، أي يسأل باللّه بعضكم بعضاً من الحوائج والحقوق. يقول الرجل للرجل: أسألك باللّه افعل كذا. قرأ أهل الكوفة: يساءلون ـ مخففاً. وقرأ الباقون بالتشديد[2]. قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ قرأ عامة القراء بنصب «الأرحام» على معنى: واتقوا الأرحام أن تقطعوها. وقرأ النخعي وقتادة والأعمش وحمزة: بالخفض على معنى وبالأرحام[3]، على معنى: تساءلون باللّه وبالأرحام، فيقول الرجل: أسألك باللّه وبالرحم، والقراءة الأولى أفصح، لأن العرب لا تعطف بظاهر على مضمر مخفوض إلا بإعادة الخافض، لا يقولون: مررت به وزيد، ويقولون: به وبزيد، وقد جاء ذلك في الشعر، قال الشاعر:

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا ∴ فاذهب فما بك والأيام من عجب[4]

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 10/ 314، رقم: 5184، كتاب النكاح ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 10/ 58، باب الوصية بالنساء.

(2) يراجع: الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 375.

(3) مكي، الكشف: 1/ 375 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 304.

(4) هذا البيت من البحر البسيط وينسب للأعشى ولعمرو بن معد يكرب ولخفاف بن ندبة ولغيرهم، وهو من شواهد سيبويه وعد من الخمسين والشاهد فيه عطف الأيام على الكاف. (ابن يعيش، شرح المفصل 3/ 79 ـ المبرد، الكامل: 2/ 39 ـ الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/ 7، تح. شلبي).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي حفيظاً لأعمالكم، والرقيب: هو الحافظ. قال بعضهم: عليماً والعليم والحافظ متقاربان، لأن العليم بالشيء حافظ له.

قوله عز وجل: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ قال مقاتل والكلبي: نزلت هذه الآية في رجل من غطفان كان في يده مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب ماله فمنعه العم، فترافعا[1] إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فنزلت هذه الآية[2] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ فقرأها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال الرجل: أطعنا اللّه وأطعنا الرسول ونعوذ باللّه من الحوب[3] الكبير. فدفع إليه ماله، فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**من يوق شح نفسه ويطع ربه هكذا فإنه يحل داره**»، أي جنته. فلما قبض الصبي ماله أنفقه في سبيل اللّه، فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**ثبت الأجر وبقي الوزر**». فقالوا: يا رسول اللّه عرفنا أنه ثبت الأجر فكيف بقي الوزر وهو ينفق في سبيل اللّه؟ فقال: «**ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده، لأن الوالد كان مشركاً**». وإنما سمى اللّه تعالى البالغ يتيماً ولا يتم بعد البلوغ استصحاباً للاسم الأول كما قال تعالى: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[4] ولا سحر مع السجود. أو لأنه قريب عهد باليتم. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ أي لا تذروا أموالكم الحلال وتأكلوا الحرام من أموال اليتامى. قال سعيد بن المسيب والنخعي والزهري والسدي والضحاك: كان أوصياء اليتامى وأولياؤهم يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلون مكانه الرديء، وربما كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من مال اليتيم ويجعل مكانها المهزولة، ويأخذ الدرهم الجيد ويجعل مكانه الزيف ويقول: درهم بدرهم. فذلك تبديلهم، فنهاهم اللّه تعالى عن ذلك[5]. وقال مجاهد: معنى الآية: لا تجعل رزقك الحلال حراماً تتعجله

---

(1) فترافعا: أي رفعا أمرهما إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم.
(2) يراجع: الواحدي في أسباب النزول: 119 ـ وتفسير القرطبي: 5/ 8.
(3) الحوب: الإثم.
(4) سورة الأعراف (7)، الآية: 120.
(5) تفسير الثعلبي، ورقة: 304 ـ تفسير القرطبي: 5/ 9.

بأن تستهلك مال اليتيم فتنفقه على نفسك أو تتجر فيه لنفسك وتعطيه غيره فيكون ما تأخذه من مال اليتيم حراماً خبيثاً، وتعطيه مالك الحلال ولكن آتوهم أموالهم بأعيانها[1]. وفي هذا دليل على أنه لا يجوز لولي اليتيم أن يستقرض مال اليتيم ولا أن يستبدله من نفسه. وقيل معنى ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ أي لا تجعلوا الزيف بدل الجيد، ولا المهزول بدل السمين قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي مع أموالكم، كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2] أي مع الله. وقيل معناه: لا تأكلوا أموالهم مضيفين إلى أموالكم، لأنهم كانوا يخلطون أموال اليتامى بأموالهم حتى تصير ديناً عليهم، ثم كانوا يبيعونها مع أموالهم ويربحون عليها، ويستبدلون بتلك الأرباح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي إثماً عظيماً. وفيه ثلاث لغات: قراء العامة حوباً ـ بالضم، وهي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وهي لغة أهل الحجاز، وقرأ الحسن: إنه كان حوباً ـ بفتح الحاء وهي لغة تميم، وقرأ أبي بن كعب: حاباً على المصدر مثل القال، ويجوز أن يكون اسماً مثل: الزاد. ويقال للذنب حوب وحوب وحاب[3].

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية... خاف الناس أن لا يعدلوا في أموال اليتامى، وكانوا يتزوجون من النساء ما شاؤوا، فنزلت هذه الآية[4]، ومعناها: إن خفتم أن لا تعدلوا في أمر اليتامى فخافوا في النساء إذا اجتمعن عندكم ألا تعدلوا بينهن فتزوجوا ما جاز لكم من النساء ولا تنكحوا إلا ما يمكنكم إمساكهن ثنتان ثنتان وثلاث ثلاث وأربع أربع، ولا تزيدوا على الأربع الحرائر. وقيل معنى الآية:

---

(1) المرجعان المذكوران.
(2) سورة آل عمران (3)، الآية: 52.
(3) تراجع هذه القراءات في: تفسير القرطبي: 5/ 10 ـ 11.
(4) الواحدي، أسباب النزول: 120 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 305.

وإن خفتم ألا تعدلوا يا معشر الأولياء في اليتامى إذا تزوجتم بهن فانكحوا ما حل لكم من النساء غيرهن. وقال مجاهد: معناه إن خفتم في ولاية اليتامى إيماناً وتصديقاً فخافوا من الزنا وانكحوا الطيب من النساء[1]. وقال بعضهم: كانوا يتحرجون في أموال اليتامى ولا يتحرجون في النساء ولا يعدلون فيهن ويتزوجون منهن ما شاؤوا، فربما عدلوا وربما لم يعدلوا. فلما سألوا عن أموال اليتامى أنزل اللّه عز وجل: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ وأنزل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي كما خفتم ألا تقسطوا في اليتامى وهمكم ذلك، فخافوا في النساء ألا تعدلوا فيهن، ولا تتزوجوا أكثر مما يمكنكم إمساكهن والقيام بحقوقهن، فإن النساء كاليتامى في الضعف والعجز، فما لكم تراقبون اللّه في شيء وتعصونه في مثله، وهذا قول سعيد بن جبير وقتادة والربيع والضحاك والسدي ورواية عن ابن عباس[2]. والإقساط في اللغة: العدل. يقال: أقسط إذا عدل وقسط إذا جار. وإنما قال: ما طاب ولم يقل: من طاب، لأنه جاء مع الفعل بمنزلة المصدر، كأنه قال: فانكحوا الطيب، يعني الحلال من النساء. وقرأ ابن أبي عبلة: من طاب[3]، لأن «ما» لما لا يعقل و«من» لمن يعقل، إلا أن عامة القراء والعلماء يقولون: إن العرب تجعل «ما» بمعنى «من» و«من» بمعنى «ما»، وقد جاء القرآن بذلك. قال اللّه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾[4] وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾[5] الآية.. وقال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣﴾[6].

قوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ بدل مما طاب لكم، وهو مما لا ينصرف،

---

(1) تفسير الطبري: 7/ 539.
(2) تفسير القرطبي: 5/ 12.
(3) نفس المصدر.
(4) سورة الشمس (91)، الآية: 5.
(5) سورة النور (24)، الآية: 45.
(6) سورة الشعراء (26)، الآية: 23.

لأن مثنى معدول على اثنين وذلك نكرة، وثلاث معدول عن ثلاثة. وذهب بعض الروافض إلى استحلال تسع استدلالاً بهذه الآية وليس ذلك بشيء، فإن الواو هنا بمعنى «أو». وروي عن قيس بن الحارث[1] أنه كان عنده ثماني نسوة، فلما نزلت هذه الآية أمره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يمسك أربعاً ويفارق أربعاً، وقال صلى اللّه عليه وسلم لغيلان[2] حين أسلم وتحته عشر نسوة: أمسك منهن أربعاً وفارق سائرهن[3].

قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ معناه: إن خفتم ألا تعدلوا في القسمة والنفقة بين النسوة الأربع التي أحل اللّه لكم، فتزوجوا امرأة واحدة لا تخافون الميل في أمرها، واقتصروا على الإماء حتى لا تحتاجوا إلى القسم بينهن، يعني السرائر. وقرأ الحسن وأبو جعفر: فواحدة ـ بالرفع، أي فواحدة كافية، أو فليكفكم واحدة. وقرأ العامة نصباً، أي فانكحوا واحدة[4]. قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ذكر الإيمان توكيداً تقديره: أو ما ملكتم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي التزوج بالواحدة والاقتصار على ملك اليمين أقرب إلى أن لا تميلوا أو تجوروا: والعول: مجاوزة الحد، ومنه العول في الفرائض: مجاوزة مخرج الفرائض. روت عائشة رضي اللّه عنها عن النبي صلى اللّه عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فقال: «**ألا تجوروا وألا تميلوا**»[5]. وأما من قال: معنى أن لا تعولوا ألا يكثر عيالكم، وهذا محكي

---

(1) قيس بن الحارث الأسدي، هو جد قيس بن الربيع. قال ابن سعد: أسلم قيس وعنده ثماني نسوة. . . الخ.
الطبقات الكبرى: 6/ 127.

(2) غيلان بن سلمة الثقفي: كان شاعراً، وفد على كسرى فسأله أن يبني له حصناً بالطائف، وعندما ظهر الإسلام أسلم وحسن إسلامه. توفي سنة ثلاث وعشرين هجرية.
الاستيعاب: 3/ 1256 ـ الطبقات الكبرى: 5/ 505 ـ البداية والنهاية: 7/ 143.

(3) رواه مالك في الموطأ عن ابن شهاب: تنوير الحوالك: 2: 34، في جامع الطلاق ـ وأحمد في المسند: 6/ 277، رقم: 4609 ـ وابن ماجه في سننه: 1: 628، رقم: 1953.

(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 306.

(5) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 306.

عن الشافعي رضي اللَّه عنه[1]، فقد قيل إنه خطأ في اللغة لأنه لا يقال في كثرة العيال عال يعول، وإنما يقال: عال يعيل إذا صار ذا عيال. وفي الآية ما يبطل هذا التأويل وهو قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ لأن إباحة كل ما ملكت اليمين أزيد في العيال من أربع نسوة. وقرأ طاوس: ألا تعيلوا من العيلة يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر. والعيلة: الفقر[2]. قال الشاعر:[3]

وما يدري الفقير متى غناه ∴ وما يدري الغني متى يعيل[4]

قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ قال الكلبي: هذا خطاب للأولياء، كان الولي إذا زوج امرأة فإن كان زوجها معهم في العشيرة لم يعطها الولي من مهرها قليلاً ولا كثيراً، وإن كان زوجها غريباً حملوها على بعير إلى زوجها ولا يعطونها من مهرها غير ذلك البعير، فنهاهم اللَّه تعالى عن ذلك وأمرهم أن يعطوا الحق أهله[5]. وقال مقاتل وأكثر أهل التفسير: هذا خطاب للأزواج، كان الرجل يتزوج المرأة فلا يعطيها مهرها، فأمروا أن يعطوا نساءهم مهورهن التي هي أثمان فروجهن. وهذا القول أصح وأوضح[6]. والصدقات: المهور، واحدها صدقة ـ بضم الدال. قوله تعالى: ﴿نِحْلَةً﴾. قال قتادة: فريضة واجبة. وقال ابن جريج: فريضة مسماة[7]. وقال الكلبي: عطية وهبة. وقال أبو عبيدة: عن طيب نفس. وقال الزجاج: تديناً. وقيل: معناه عطية من اللَّه للنساء، حيث

---

(1) يراجع: الشافعي، الأم: 5/ 95 ـ والكيا الهراسي، أحكام القرآن: 2/ 322.

(2) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 306.

(3) أحيحة بن الحلاج الأوسي: كان سيد الأوس في الجاهلية، وكان كثير المال شحيحاً يتعامل بالربا، ومع ذلك فهو شاعر رقيق حلو الديباجة.

(4) هذا البيت من شعر أحيحة من قصيدته التي قالها في حرب بين قومه من الأوس وبني النجار من الخزرج، قتل فيها أخوه، وكانت عنده امرأته سلمى بنت عمرو النجارية، فحذرت قومها مجيء أحيحة وقومه من الأوس، فضربها حتى كسر يدها وطلقها.
(الأغاني: 13/ 114 ـ الخزانة: 2/ 23 ـ الجمهرة لابن دريد: 2/ 193 ـ تاريخ ابن الأثير: 1/ 278 ـ اللسان: عيل).

(5) قول الكلبي بنصه تقريباً في: تفسير القرطبي: 5/ 23 ـ وكذا في: تفسير الثعلبي، ورقة: 306.

(6) يراجع القرطبي في تفسيره: 5/ 23 ـ وتفسير البغوي: 2/ 8.

(7) يراجع تفسير الطبري: 7/ 553.

جعل المهر لهن ولم يوجب عليهن شيئاً من الغرم، مع كون الاستمتاع مشتركاً بينهن وبين الأزواج. وقيل معنى النحلة: ديانة، فانتصب نحلة على المصدر. وقيل: على التفسير[1].

وروي عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**من إدّانَ ديناً وهو ينوي أن لا يؤديه لقي اللّه سارقاً، ومن أصدق امرأة صداقاً وهو ينوي أن لا يوفيها لقي اللّه زانياً**»[2]. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**إن أحق الشروط أن توفوه ما استحللتم به الفروج**»[3].

وقوله عز وجل: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ أي إن أحللن لكم عن شيء من المهر وإن وهبن لكم منه شيئاً. ونصب «نفساً» على التمييز، لأنه إذا قيل: طبن لكم، لم يعلم في أي صنف وقع الطيب، وكأنه قال: فإن طابت أنفسهن بهبة شيء من المهر فكلوا الموهوب لكم هنيئاً لا إثم فيه مريئاً لا ملامة فيه. قال الحسن الحضرمي: إن ناساً كانوا يتأثمون أن يرجع أحدهم في شيء مما ساق إلى امرأته[4]، فقال اللّه تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ من غير إكراه ولا خديعة فكلوه: ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ أي شافياً طيباً. وقيل: معناه فكلوه دواء شافياً. وقيل: الهنيء الطيب المساغ الذي لا ينغصه شيء. والمريء المحمود العاقبة الذي لا يضر ولا يؤذي، يقول: لا تخافون في الدنيا منه مطالبة ولا في الآخرة تبعة. يقال: هنأني الطعام ومرأني، فإذا أفرد يقول: أمرأني، ولا يقال: أهنأني. وهنيئاً مصدر. وعن علي رضي اللّه عنه أنه قال: إذا كان أحدكم مريضاً فليسأل امرأته درهمين من مهرها حتى تهب له بطيبة نفسها، فليشتر بذلك عسلاً ويشربه مع ماء المطر فقد اجتمع الهنيء والمريء والشفاء والماء المبارك لأن اللّه تعالى سمى المهر هنيئاً مريئاً إذا وهبته المرأة لزوجها وسمى العسل شفاء وسمى المطر ماء مباركاً، فإذا اجتمعت هذه

---

(1) تراجع هذه الأقوال في تفسير النحلة عند الثعلبي، ورقة: 307.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 4/ 403. رقم: 5549، فصل في تسديد الدين.

(3) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 10/ 272، رقم: 5151، باب الشروط في النكاح.

(4) يراجع تفسير الطبري: 7/ 556 حيث قال: «زعم الحضرمي...» إلخ.

الأشياء يرجى له الشفاء[1].

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ أي لا تعطوا الجهال بمواضع الحياة وهم النساء والصبيان أموالكم التي جعلها قوام أمركم ومعيشتكم، أي جعلكم تقومون بها قياماً، أي إذا علم الرجل أن امرأته سفيهة مفسدة وأن ولده سفيه مفسد لم ينبغ له أن يسلط أحداً منهما على ماله الذي هو قوام أمره. ومن قرأ «قيماً» فمعناه: التي جعلها اللّه لكم قيمة للأشياء فيها تقوم أموركم. وقال مجاهد: نهى الرجال أن يؤتوا النساء أموالهم وهن سفهاء كن أزواجاً أو بنات أو أمهات[2]. وعن الضحاك: النساء من أسفه السفهاء[3]. يدل على هذا التأويل قوله صلى اللّه عليه وسلم: «**ألا إنما خلقت النساء سفهاء** ـ قالها ثلاثاً ـ **ألا إن السفهاء النساء إلا امرأة أطاعت قيمها**». وعن أنس رضي اللّه عنه قال: جاءت امرأة سوداء جريئة المنطق إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالت: بأبي وأمي أنت يا رسول اللّه بلغني أنك تقول فينا كل شيء. قال: «**أي شيء قلت فيكن؟**» قالت: سميتنا السفيهات. قال: «**اللّه سماكن السفهاء في كتابه**». قالت: وسميتنا النواقص. قال: «**فكفى نقصاً أن تترك كل واحدة منكن الصلاة في كل شهر خمسة أيام لا تصلي فيها**»، يعني أيام حيضها. ثم قال صلى اللّه عليه وسلم: «**أما يكفي إحداكن إذا حملت كان لها كأجر المرابط في سبيل اللّه، فإذا وضعت كانت كالمتشحط في دمه في سبيل اللّه، فإذا أرضعت كان لها بكل جرعة عتق رقبة من ولد إسماعيل، فإذا سهرت كان لها بكل سهرة عتق رقبة من ولد إسماعيل، وذلك للمؤمنات الخاشعات الصابرات اللائي لا يكفرن[4] العشير**». فقالت السوداء: يا له فضلاً لولا ما يتبعه من الشروط[5]. وروي أن امرأة مرت بعبد اللّه بن عمر لها شارة وهيئة فقال لها ابن عمر ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾. وقال معاوية بن قرة: عودوا

---

(1) يراجع: تفسير القرطبي: 5/ 27.
(2) يراجع: تفسير الطبري: 7/ 565 بنصه تقريباً.
(3) يراجع: تفسير الطبري: 7/ 561.
(4) في النسخة (س): يؤذين.
(5) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 307 ـ 308،

نساءكم لا، فإنهن سفيهات إن أطعت المرأة أهلكتك[1]. وعن أبي موسى الأشعري قال: ثلاثة يدعون اللّه فلا يستجيب لهم: رجل كان تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه، ورجل أعطى سفيهاً ماله وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ أي الجهال بمواضع الحق[2].

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ قرأ ابن عمر: قواماً ـ بفتح القاف والواو. وقرأ عيسى بن عمر: قواماً ـ بكسر القاف، وهما لغتان. وقرأ الأعرج ونافع وابن عامر: قيماً ـ بكسر القاف من غير ألف. وقرأ الباقون: قياماً ـ بالألف[3].

قوله عز وجل: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أي أطعموا النساء والأولاد واكسوهم من أموالكم ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي عدوهم عدة حسنة نحو أن يقول الرجل: سأفعل كذا إن شاء اللّه. وقيل: ردوا عليهم رداً جميلاً وقولوا لهم قولاً ليناً تطيب به أنفسهم. والرزق من اللّه تعالى: العطية غير المحدودة، ومن العباد الشيء الموافق لوقت محدود. وإنما قال فيها ولم يقل منها لأنه أراد: اجعلوا لهم حظاً فيها، أي رزقاً فيها.

قال اللّه تعالى:

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿6﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿7﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿8﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

---

(1) يراجع قولا ابن عمر ومعاوية عند الثعلبي في تفسيره.

(2) رواه الحاكم في المستدرك: 2/ 203 من طريق أبي المثنى عن أبيه عن شعبة مرفوعاً ـ والبيهقي في شعب الإيمان: 6/ 249، رقم: 8041، باب حسن الخلق.

(3) يراجع: مكي، الكشف: 1/ 376 ـ وتفسير الثعلبي، ورقة: 308.

قوله عز وجل: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ أي اختبروهم في عقولهم وتدبيرهم وديانتهم حتى إذا بلغوا مبلغ النكاح، وهو الحلم. وهذا دليل جواز الإذن للصبي في التجارة. قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ أي علمتم منهم ووجدتم منهم إصلاحاً في عقولهم وحفظ أموالهم، فادفعوا إليهم أموالهم التي عندكم. نزلت هذه الآية في ابن رفاعة وعمه، وكان رفاعة قد توفي وترك ابنه صغيراً، فأتى عمه ثابت إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال: إن ابن أخي يتيم في حجري فمتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل اللّه تعالى هذه الآية[(1)].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾ أي لا تأكلوا أموال اليتامى بغير حق. والإسراف: مجاوزة الحد. [وقوله تعالى: ﴿وَبِدَارًا﴾ أي مبادرة كبرهم. والمعنى: لا تبادروا إلى أكل أموالهم مخافة أن يكبروا فيأخذوا أموالهم منكم. وموضع ﴿أَن يَكۡبَرُواْ﴾. نصب، أي لا تبادروا كبرهم ورشدهم حذراً أن يبلغوا فيلزمكم تسليم أموالهم إليهم.

قوله عز وجل: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾][(2)] أي ليتورع، معناه: عن مال اليتيم ولا ينقص شيئاً من ماله. والعفة: الامتناع عما لا يحل فعله.

قوله عز وجل: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ اختلفوا في معنى ذلك، فقال سعيد بن جبير وعبيدة السلماني[(3)] معناه: فليأخذ من مال اليتيم على جهة القرض مقدار حاجته، فإذا أيسر رد عليه مثله[(4)]. وهكذا روى الطحاوي[(5)] عن

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 120.

(2) في النسخة (ف) ما بين المعقوفين ساقط.

(3) أبو مسلم، عبيدة بن عمرو السلماني: أسلم باليمن أيام فتح مكة ولم ير النبي صلى اللّه عليه وسلم، وهاجر إلى المدينة في خلافة عمر، وتفقه بكثير من الصحابة، فكان من كبار أصحاب ابن مسعود الفقهاء. توفي سنة اثنتين وسبعين هجرية.
الاستيعاب: 3/ 1023 ـ الطبقات الكبرى: 6/ 63 ـ تذكرة الحفاظ: 1/ 50.

(4) يراجع: تفسير الثعلبي، ورقة: 310.

(5) أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي: ولد ونشأ بطحا بصعيد مصر، تفقه على مذهب الشافعي، ثم تحول إلى الحنفية حتى انتهت إليه رياستها بمصر. من مؤلفاته: «أحكام القرآن» و«شرح معاني الآثار». توفي بمصر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة هجرية.
الداودي، طبقات المفسرين: 1/ 73 ـ الشيرازي، طبقات الفقهاء: 142.

أبي حنيفة. فمعنى قوله: بالمعروف، أي بالقرض نظيره قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾[1] أي أو قرض. وقال مكحول وعطاء وقتادة: إن لولي اليتيم أن يأخذ من مال اليتيم قدر ما يستر عورته ويسد جوعته لا على جهة القرض. وقال الشعبي: لا يأكل إلا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة. وقال بعضهم: معنى ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي يأكل من غير إسراف ولا قضاء عليه فيما أكل. واختلفوا في كيفية هذا المعروف، فقال عكرمة والسدي: يأكل ولا يسرف في الأكل ولا يكتسي منه، وقال النخعي: لا يلبس الكتان ولا الحلل ولكن ما يسد الجوعة ويواري العورة. وقال بعضهم معنى ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾: هو أن يأكل من ثمر نخله ولبن مواشيه بالمعروف لا قضاء عليه، فأما الذهب والفضة إن أخذ منه شيئاً رد بدله. وقال الضحاك: المعروف ركوب الدابة وخدمة الخادم، وليس له أن يأكل منه شيئاً. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً جاء إليه فقال له: إن في حجري أموال اليتامى، أفتأذن لي أن أصيب منها؟ فقال: إن كنت تبغي ضالتها وتهنأ جرباها[2] وتلوط حياضها فاشرب غير مضر بالنسل ولا ناهك في الحلب[3]. وعن ابن عباس رواية أخرى أن معنى الآية: فليأكل من مال نفسه بالمعروف حتى لا يصيب من مال اليتيم شيئاً. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لا يأكل من مال اليتيم قرضاً ولا غيره، وهذا قول أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وروى بشر عن أبي يوسف أنه قال: لا يأكل من مال اليتيم إذا كان مقيماً، فإن خرج في تقاضي دين لليتيم أو إلى ضياع له فله أن ينفق ويكتسي ويركب فإذا رجع رد الثياب والدابة إلى اليتيم. وعن أبي يوسف رواية أخرى أن قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يجوز أن يكون منسوخاً بقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[4] فحاصل هذه الروايات أن الأصح على مذهب أبي

---

(1) سورة النساء (4)، الآية: 114.

(2) تهنأ جرباها: هنأت البعير أهنؤه: إذا طليته بالهناء وهو القطران، أي تعالج جرب إبله بالقطران. (النهاية: هنأ).

(3) رواه مالك في الموطأ: تنوير الحوالك: 2/ 226، جامع ما جاء في الطعام والشراب ـ والبيهقي في السنن الكبرى: 6/ 4، باب الولي يأكل من مال اليتيم.

(4) سورة النساء (4)، الآية: 29.

حنيفة وأصحابه أنه ليس للوصي أن يأكل من مال اليتيم قرضاً ولا غيره إلا أن يضطر إلى شيء منه فيأخذه بالضرورة، ثم يرد إذا وجد. وعن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللَّه إن في حجري يتيماً أفأضربه؟ قال: «**ما كنت ضارباً منه ولدك**»[1].

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي إذا دفعتم إليهم أموالهم بعد بلوغهم وإيناس الرشد منهم فأشهدوا عليهم الثقة لكم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي شهيداً ومجازياً، في الآخرة. إلا أن الإشهاد فيما بين الناس من أحكام الدنيا لضروب من المصلحة. وانتصب «حسيباً» على القطع، يريد: وكفى باللَّه الحسيب حسيباً.

قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ وذلك أن العرب لا تورث إلا من طاعن بالرماح وذاد عن المال وحاز الغنيمة. فأعلم اللَّه تعالى أن حق الميراث للرجال والنساء. قال ابن عباس: توفي أوس بن ثابت الأنصاري[2] وترك ثلاث بنات له وترك امرأة له يقال لها أم كجة وهي أمهن، فقام رجلان من بني عمه سويد وعرفجة وكانا وصيين، فأخذا ماله ولم يعطيا المرأة ولا بناته شيئاً من المال، فجاءت أم كجة إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقالت: يا رسول اللَّه إن أوس بن ثابت توفي وترك ثلاث بنات وليس عندي ما أنفق عليهن، وقد ترك أبوهن مالاً حسناً وهو عند سويد وعرفجة ولم يعطياني ولا لبناته شيئاً، وهن في حجري لا يطعمن ولا يسقين ولا يرفع لهن رأس. فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**ارجعي إلى بيتك حتى أنظر ما يحدث اللَّه فيهن**». فرجعت إلى بيتها فأنزل اللَّه هذه الآية[3]، ومعناها: للرجال حظ مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء أيضاً كذلك

---

(1) ذكره الثعلبي بسنده، ورقة: 311.

(2) أوس بن ثابت الأنصاري، أخو حسان بن ثابت. شهد أوس العقبة مع السبعين، وشهد بدراً، وأحداً، الطبقات الكبرى: 3/ 382.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 120 ـ وتفسير الثعلبي، ورقة: 311 ـ وتفسير الطبري: 7/ 598 ـ وتفسير القرطبي: 5/ 46.

مما قل من المال أو كثر نصيباً مفروضاً، أي معلوماً مقدوراً. فأرسل النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلى سويد وعرفجة أن لا يقربا من مال أوس شيئاً، فإن اللَّه تعالى قد أنزل لبناته نصيباً ولم يبين كم هو، حتى أنظر كم يبين اللَّه تعالى لهن؟ فأنزل اللَّه بعد ذلك: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾. فأرسل النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلى سويد وعرفجة: أن ادفعا إلى أم كجة ثمن جميع المال وادفعا إليها لبناته الثلثين ولكما باقي المال. وانتصب قوله: ﴿نَصِيبًا﴾ لخروجه مخرج المصدر كقول القائل: عندي حقاً ولك معي درهم هبة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ أي إذا حضر قسمة المواريث ذوو قرابة الميت في الرحم الذين لا يورثون واليتامى المحتاجون والمساكين فأعطوهم شيئاً من المال قبل القسمة ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ⑧﴾ أي عدوهم عدة حسنة. وقيل: اعتذروا عند قلة المال: وقولوا لهم كنا نحب أن يكون أكثر من ذلك. وعن ابن عباس روايتان، إحدهما: أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وهو قول عطاء ومجاهد والزهري وجماعة، حتى روي عن عبيدة السلماني أنه ذبح للأقرباء شاة من أموال اليتامى وأعطاهم، وقال: أحب أن يكون ذلك من مالي لولا هذه الآية. وعن ابن سيرين أنه فعل مثل ذلك. وقال قتادة عن الحسن: ليست منسوخة ولكن الناس شحوا وبخلوا. وكان التابعون يعطون الأواني والشيء الذي يستحيا من قسمته؛ والرواية الثانية: أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث، وهو قول سعيد بن المسيب والسدي وأنس بن مالك وأبي صالح والضحاك، لأنها لو كانت واجبة مع كثرة قسمة المواريث في عهد النبي صلى اللَّه عليه وسلم والصحابة ومن بعدهم لنقل وجوب ذلك واستحقاقه لهؤلاء كما نقلت المواريث للزوم الحاجة إلى ذلك، لكن يستحب ذلك في حق الورثة الحضور البالغين. وحديث عبيدة السلماني يؤول على أن الورثة كانوا بالغين، فذبح الشاة من جملة المال بإذنهم[1].

---

(1) تراجع هذه الأقوال في: تفسير الطبري: 8/ 16 ـ 17 ـ وتفسير القرطبي: 5/ 49 ـ 50 ـ وابن حزم في: معرفة الناسخ والمنسوخ، هامش تنوير المقباس: 328.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿9﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى
بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿10﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ
فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ
لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ
فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ
ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿11﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ قال عامة المفسرين: كان الرجل إذا حضره الموت يقول له من بحضرته عند وصيته: انظر لنفسك فإن أولادك وذريتك لا يغنون عنك شيئاً، قدم لنفسك فأعتق وتصدق وأوص لفلان بكذا ولفلان بكذا فلا يزالون كذلك حتى يذهب عامة ماله ويبقى عياله بغير شيء. فنهاهم اللَّه عن ذلك وأمرهم أن يتركوا أموالهم لورثتهم. روي عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه دخل على سعد بن أبي وقاص يزوره فقال سعد: يا رسول اللَّه إني ذو مال وليس لي إلا بنت واحدة أفأوصي بالثلثين؟ قال: «لا». قال: فبالشطر؟ قال: «لا». قال: فبالثلث؟ قال: «**والثلث كثير، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من [أن] تدعهم فقراء يتكففون الناس**»[1]. وقال بعض المفسرين: هذه الآية خطاب لمن يتصرف في أموال اليتامى، معناه: وليخش الذين يخافون الضياع على ذريتهم الضعاف من بعد موتهم فلا يفعلون في أموال اليتامى إلا ما يحبون أن يفعل في أولادهم

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 6/ 12، رقم: 2742، كتاب الوصايا ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 11/ 76، كتاب الوصية ـ ومالك في الموطأ: تنوير الحوالك: 2/ 131، الوصية في الثلث لا يتعدى.
ويتكففون الناس: يسألون الناس بأكفهم.

بعد موتهم. والقول السديد: هو الذي لا خلل فيه من جهة الفساد. مأخوذ من سد الخلة وهو العدل والصواب من القول.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ نزلت في مرثد بن زيد[1] كان يأكل مال يتيم كان في حجره ظلماً، ومعناها: إن الذين يأكلون أموال اليتامى بغير حق إنما يأكلون في بطونهم حراماً. وسمي الحرام ناراً، لأن الحرام يوجب النار، فسماه باسمها على أن أجوافهم تملأ ناراً في الآخرة. قال السدي: من أكل مال اليتيم ظلماً يبعث يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه وأذنيه وعينيه وأنفه، وكل من رآه عرف أنه أكل مال اليتيم ظلماً[2].

قوله عز وجل: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ سيدخلون النار في الآخرة ويلزمونها. والصلاة ملازمة النار للاحتراق والإنضاج. قراءة العامة: وسيصلون ـ بفتح الياء، أي يدخلونها، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿163﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿15﴾﴾[4] قرأ أبو رجاء والحسن وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ـ بضم الياء، على معنى: وسيدخلون النار، على ما لم يسم فاعله، ونظيره: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿26﴾﴾[5]، ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾[6]. وقرأ حميد بن قيس: وسيصلون ـ بتشديد اللام[7] من التصلية لكثرة الفعل، أي مرة بعد مرة، نظيره: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿31﴾﴾[8] والكل صواب. يقال: صليت الشيء إذا شويته. وفي الحديث: أتي بشاة مصلية[9]. وأصليته: ألقيته في النار. وصليته

---

(1) في النسخة (س): حنظلة بن الشمردل، وكذا في النسخة (ف). يراجع: الواحدي، أسباب النزول: 121 ـ وتفسير البغوي: 2/ 17.
(2) ذكره الطبري في تفسيره: 8/ 26.
(3) سورة الصافات (37)، الآية: 163.
(4) سورة الليل (92)، الآية: 15.
(5) سورة المدثر (74)، الآية: 26.
(6) سورة النساء (4)، الآية: 30.
(7) تراجع هذه القراءات في: تفسير الثعلبي، ورقة: 313.
(8) سورة الحاقة (69)، الآية: 31.
(9) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 12/ 232، رقم 4489.

مرة بعد مرة. والسعير: النار المسعورة، أي الموقودة. قال صلى اللّه عليه وسلم: «**رأيت ليلة أسري بي قوماً لهم مشافر كمشافر الإبل إحداها قالصة على منخره والأخرى على بطنه، وخزنة النار يلقمونهم حجر جهنم وصخرها، ثم يخرج من أسافلهم، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً**»[1].

قوله عز وجل: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ قال ابن عباس رضي اللّه عنهما: كان المال للبنين، وكانت الوصية للوالدين والأقربين إلى أن نزلت هذه الآية، ثم صار ذلك منسوخاً بها، ومعناها: يعهد اللّه إليكم ويفرض عليكم في أولادكم إذا متم للذكر الواحد من الأولاد مثل نصيب الأنثيين في الميراث، واسم الولد يتناول ولده من صلبه حقيقة وولد ولده مجازاً، فإذا كان للميت ولد من صلبه حمل على من كان من صلب بنيه مجازاً، وأما ولد البنات فلا يعد من ولده في النسبة والتعصب، ولكنهم من ذوي الأرحام. قال الشاعر[2]:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ∴ بنوهن أبناء الرجال الأباعد[3]

وعن هذا قال أصحابنا: فمن أوصى لولد فلان أن ذلك لولده لصلبه، فإن لم يكن له ولد لصلبه فهو لولد ابنه، ولا يدخل أولاد البنات في هذه الوصية على أظهر الروايتين.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ أي إن كان الأولاد نساء أكثر من اثنتين ليس معهن ذكر، فلهن ثلثا ما ترك من المال والباقي للعصبة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾ قراءة العامة بالنصب على خبر

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 8/ 27، رقم: 8723 ـ والسيوطي في الدر المنثور: 2/ 124 ـ وابن كثير في تفسيره: 2/ 360.

(2) الشاعر هو الفرزدق. تقدمت ترجمته.

(3) هذا البيت من شعر الفرزدق، استشهد به النحاة على جواز تقديم الخبر، والفرضيون على دخول أبناء الأبناء في الميراث، والفقهاء في الوصية، وأهل المعاني والبيان في التشبيه. (ينظر: الخزانة: 1/ 213 ـ شرح شواهد المغني: 6/ 344 ـ شرح ابن عقيل: 1/ 233 ـ شرح الرضى على الكافية: 1/ 257).

كان. وقرأ نافع: واحدة ـ بالرفع، على أن معناه: إن وقعت واحدة، فحينئذ لا خبر له، وقراءة النصب أجود[1]، وتقديره: فإن كانت المولودة واحدة. فإن قيل: لم أعطيتم البنتين الثلثين وفي الآية إيجاب الثلثين لأكثر من الاثنتين؟ قيل: في فحوى الآية دليل على أن فرض الابنتين الثلثان، لأن في أولها للذكر مثل حظ الانثيين، فاقتضى أن للإبنة الواحدة مع الابن الثلث، فإذا كان لها معه الثلث كانت بأخذ الثلث مع عدمه أولى، فاحتجنا إلى بيان حكم ما فوق الاثنتين، فذلك نص على حكم ما فوقهما، ويدل عليه أنه إذا كان للابن الثلثان وللابنة الثلث دل على أن نصيب الاثنتين الثلثان بحال، لأن اللَّه تعالى جعل للذكر مثل حظ الأنثيين. وجواب آخر أن اللَّه تعالى جعل للأخت من الأب والأم النصف في آخر هذه السورة، كما جعل للابنة النصف في هذه الآية، وجعل للأختين هناك الثلثين. فأعطينا الابنتين الثلثين قياساً على الأختين في تلك الآية، وأعطينا جملة الأخوات الثلثين قياساً على البنات في هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ أي لأبوي الميت كناية عن غير مذكور لكل واحد منهما السدس إن كان له ولد أو ولد ابن.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ أي إن لم يكن للميت ولد ذكر ولا أنثى ولا ولد ولد فلأمه الثلث والباقي للأب، وروي عن ابن مسعود أن الأولاد يحجبون الأم من الثلث إلى السدس وإن لم يرثوا، نحو أن يكونوا كفاراً أو مملوكين أو قاتلين لأن اللَّه تعالى لم يفرق في الآية بين الولد الكافر والمسلم فقال: ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾. وقال عمر وعلي وزيد بن ثابت: للأم الثلث، وجعلوا الكافر والرقيق بمنزلة الميت، وحملوا الآية على ولد يحرز الميراث. قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً وخلفاً: فلأمه ـ بكسر الهمزة استثقالاً للضمة بعد الكسرة. وقرأ الباقون بالضم على الأصل[2].

---

(1) وذلك لتقدم قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ حيث ذكر إن كان الأولاد نساء، فناسب أن يكون المعنى هنا: وإن كانت المولودة واحدة.

(2) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع: 125.

قوله عز وجل: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ ذكره بلفظ الجمع وأقله ثلاثة. ولا خلاف أن الحجب يقع بثلاثة من الإخوة والأخوات، وأن ذلك لا يقع بالواحد. ثم قال عامة الصحابة: إن حكم الاثنين في هذا حكم الثلاثة كما في الابنتين والأختين. وعن ابن عباس أنه كان لا يحجب الأم عن الثلث إلى السدس بأقل من ثلاثة إخوة، وهذا القول غير مأخوذ به. وروي عنه أيضاً أنه جعل للابنتين[1] النصف كنصيب الواحدة بظاهر قوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ ولم يقل بهذا أحد غيره فلا يعتدُّ به. وروي أن جدة جاءت إلى أبي بكر الصديق رضي اللَّه عنه وطلبت ميراثها فقال أبو بكر: لا أجد لك في كتاب اللَّه شيئاً. فقام المغيرة بن شعبة[2] وشهد أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أعطى الجدة أم الأم السدس فقال: ائت معك بشاهد آخر. فجاء محمد بن مسلمة فشهد بمثل شهادته، فأعطاها أبو بكر رضي اللَّه عنه السدس[3].

قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي إن هذه القسمة بعد فضل المال على الدين، وبعد إمضاء الوصية من الثلث إن كان الميت أوصى بها. قرأ ابن كثير وابن عامر: يوصى ـ بفتح الصاد. وقرأ الباقون بكسر الصاد[4]. فإن قيل: كيف ذكر اللَّه الوصية قبل الدَّين، والدَّين مقدم على الوصية؟ قيل: إن كلمة «أو» لا توجب الترتيب ولكنها توجب تأخير قسمة الميراث في هذه الآية عن أحدهما إذا انفرد، وعن كل واحد منهما إذا اجتمعا. وعن علي كرم اللَّه وجهه عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قضى بالدَّين قبل الوصية[5]. وهذا شيء قد اجتمعت عليه الأمة حتى روي عن ابن عباس أنه قيل له: ما لنا نقدم أفعال العمرة على أفعال الحج، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ

---

(1) في النسخة (س): للاثنتين.

(2) أبو عبد اللَّه، المغيرة بن شعبة: صحابي جليل، أول مشاهده الحديبية. ولاه عمر بن الخطاب البصرة، ثم ولي بعد ذلك الكوفة وتوفي بها سنة خمسين هجرية.
أسد الغابة: 3/ 406 ـ الطبقات الكبرى: 6/ 97 ـ الأعلام: 7/ 277.

(3) رواه ابن ماجه في سننه: 2/ 909، رقم: 2724، باب ميراث الجدة.

(4) يراجع: الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 380.

(5) رواه ابن ماجه في سننه: 2/ 906، رقم: 2715، باب الدين قبل الوصية.

لِلَّهِۚ﴾[1]؟ فقال: كما يقدمون الدين على الوصية، وقد قال اللّه ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾.

قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾ معناه: أن المذكورين في الآية أباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فقد يكون الولد أكثر نفعاً لوالده، وقد يكون الوالد أكثر نفعاً لولده، وأما في الآخرة فإن كان الأب أرفع درجة في الجنة سأل اللّه تعالى أن يرفع ابنه إليه فيرفع، وإن كان الابن أرفع سأل اللّه تعالى أن يرفع أباه إليه. وفي هذا جواب طعن الملحدين عن قولهم: هلا كان الرجال أولى بالميراث لكونهم قوامين على النساء؟ عن جواب آخرين منهم: لم جاز تفضيل الذكر على الأنثى في قسمة الميراث والأنثى أولى بالزيادة لعجزها عن التصرف؟ فبين اللّه تعالى أنه فرض الفرائض على ما عنده حكمة ومصلحة لهم، ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع فوضعتم الأموال على غير حكمة. وقيل: معناه لا يدري أحدكم أهو أقرب وفاة فينتفع ولده بماله، أم الولد أقرب وفاة فينتفع والده بماله؟

قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ نصب على الحال والتوكيد من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾ وقيل: مصدر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أي لم يزل عالماً بالمواريث وغيرها، حكيماً حين بين قسمة المواريث على الحكمة. وعن الحسن أن معناه: كان اللّه عالماً بالأشياء قبل خلقها، حكيماً فيما يقدر من تدبيره فيها.

قال اللّه تعالى:

﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 196.

ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿12﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿13﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿14﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞ﴾ أي لكم يا معشر الرجال نصف ما ترك نساؤكم إن لم يكن لهن ولد ذكر أو أنثى منكم أو من غيركم أو ولد ولد، فإن كان لهن ولد ذكر أو أنثى منكم أو من غيركم أو ولد ولد فلكم الربع مما تركن من المال من بعد وصية يوصين بها أو دين، أي من بعد قضاء دين عليهن أو إمضاء وصية أوصين بها من الثلث.

قوله: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ﴾ أي مما تركتم أيها الأزواج من المال إن لم يكن لكم ولد من ذكر أو أنثى أو ولد ابن منهن أو من غيرهن، فإن كان لكم ذلك فلهن الثمن مما تركتم من بعد قضاء دين عليكم أو إمضاء وصية أوصيتم بها من الثلث.

قوله عز وجل: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ الآية.. نظم الآية، وإن كان رجل أو امرأة يورث كلالة وهو نصب على المصدر، وقيل على الحال، وقيل على خبر ما لم يسم فاعله، تقديره: وإن كان رجل يورث ماله كلالة. وقرأ الحسن: يورث ـ بكسر الراء، جعل الفعل له[1]. واختلفوا في الكلالة. قال ابن عباس: هو من لا ولد له ولا والد. وعن أبي بكر وعمر وجابر وقتادة والزهري: الكلالة: اسم لما عدا الوالد والولد. وقال الشعبي: سمعت أن أبا بكر رضي الله عنه قال: في الكلالة أقضي فيها

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 315.

فإن كان صواباً فمن اللَّه، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان واللَّه بريء منه هو ما دون الوالد والولد، يقول: كل وارث دونهما كلالة، قال: فلما كان عمر بعده قال: إني أستحيي من اللَّه أن أخالف أبا بكر: هو ما خلا الوالد والولد. وقال طاوس هو: ما دون الولد. وقال الحكم: هو ما دون الأب[1].

قوله عز وجل: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ إنما لم يقل «ولهما» لأن من عادة العرب أن الرجل والمرأة ربما أضافت إليهما وربما أضافت إلى أحدهما وكلاهما جائز. ومعنى ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي من أم. وفي قراءة أبي وسعد بن وقاص: وله أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السدس مما ترك الميت من المال[2].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي أكثر من واحد فهم كلهم سواء في الثلث لا يفضل الذكر على الأنثى.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ قد تقدم.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ نصب على الحال، أي يوصي بها الميت غير مضار في حال وصيته بأن يزيد على الثلث، أو يفضل بعض الورثة على بعض. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**إن اللَّه قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث إلا أن يجيزها الورثة**»[3].

قوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما ذكره من هذه الفرائض ﴿حَلِيمٌ﴾ على من عصاه بأن أخره وقبل توبته.

قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي هذه فرائض اللَّه التي أمركم بها في المواريث وأمر اليتامى. والحدود: هي الأمكنة التي لا ينبغي أن تتجاوز.

---

(1) يراجع هذا الاختلاف في الكلالة في: تفسير الطبري: 8/ 53 وما بعدها. وكذا البغوي في تفسيره: 2/ 25 ـ 26.

(2) تراجع هذه القراءة في: تفسير الثعلبي، ورقة: 316.

(3) رواه الترمذي في سننه العارضة: 8/ 275، باب لا وصية لوارث ـ وأبو داود في سننه: 3/ 290، رقم: 2870، باب الوصية للوارث ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 906، رقم: 2714، باب لا وصية لوارث ـ والدارقطني في سننه: 4/ 97، باب لا وصية لوارث.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي من يقم حدود اللّه وحدود رسوله في أمر الميراث وغيره ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قرىء ندخله ـ بالنون في الموضعين، والياء أقرب إلى لفظ الآية.

قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ نصب على الحال، أي ندخلهم مقدرين للخلود فيها ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي النجاة الوافرة فازوا بها في الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي في قسمة المواريث فلم يقسمها لأن المنافقين كانوا لا يقرون للنساء والصبيان الصغار من قسمة المواريث بشيء.

وقوله تعالى: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿14﴾﴾ ظاهر المعنى.

قال اللّه تعالى:

﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟
فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿15﴾ وَٱلَّذَانِ
يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا
رَّحِيمًا ﴿16﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿17﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ
يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿18﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ أي اللاتي يزنين من حرائركم الثيبات المحصنات فاطلبوا عليهن أربعة من الشهود من حرائركم المسلمين العدول، فإن شهدوا عليهن بالزنا فاحبسوهن في البيوت وهي السجون، بيوت معروفة في المدينة، حتى يتوفاهن الموت بالحبس أو يجعل اللّه لهن سبيلاً، أي مخرجاً من الحبس قبل الموت. وإنما كان هذا قبل نزول الحدود، وكانت المرأة في أول الإسلام إذا زنت حبست في البيت حتى

تموت، وإن كان لها زوج كان مهرها له حتى نزل قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾[1] فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**خذوا عني: قد جعل اللّه لهن سبيلاً، الثيب بالثيب جلد مائة والرجم، والبكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام**»[2]. فنسخت تلك الآية بعض هذه الآية وهو الإمساك في البيوت، وبقي بعضها محكماً وهو الإشهاد، وكان في هذا النسخ نسخ القرآن بالسنة، ثم نسخ التغريب في البكر عندنا بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾. لأن ظاهر تلك الآية يقتضي أن الجلد بيان لجميع الحكم المتعلق بالزنا، إذ لو لم يجعل ذلك كذلك لكان قصوراً في البيان في مواضع الحاجة، ونسخ جلد الزاني المحصن الثيب بحديث ماعز[3] أن النبي صلى اللّه عليه وسلم رجمه ولم يجلده[4]. وعن عمر رضي اللّه عنه أنه قال: لولا أن الناس يقولون زاد عمر في كتاب اللّه لكتبت على حاشية المصحف: أن الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما نكالاً من اللّه ويتوب اللّه على من تاب. وقال الشافعي رحمه اللّه: جلد الثيب المحصن منسوخ، وتغريب البكر غير منسوخ. وعند داود[5] ومن تابعه من أصحاب الظاهر ليس شيء منهما منسوخاً.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ يعني الرجل والمرأة، إلا أن المذكر والمؤنث إذا اجتمعا غلب المذكر. والهاء راجعة إلى الفاحشة. قال المفسرون: هما البكران يزنيان فآذوهما بالشتم والتعيير يقال لهما: زنيتما

---

(1) سورة النور (24)، الآية: 2.

(2) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 11/ 188، باب حد الزنا ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 852. رقم: 2550، باب حد الزنا.

(3) ماعز بن مالك الأسلمي، أسلم وصحب النبي صلى اللّه عليه وسلم، وهو الذي أصاب الذنب ثم ندم فأتى الرسول صلى اللّه عليه وسلم فاعترف عنده، وكان محصناً فأمر به فرجم، وقال: لقد تاب توبة لو تابها طائفة من أمتي لأجزأت عنهم.
الاستيعاب: 3/ 1345 ـ الطبقات الكبرى: 4/ 241.

(4) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 14/ 97، رقم: 6824، كتاب الحدود ـ وأبو داود: عون المعبود: 12/ 99، رقم: 4396، باب رجم ماعز بن مالك ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 854، رقم: 2554، باب الرجم.

(5) أبو سليمان داود بن علي الأصبهاني أحد الأئمة المجتهدين وينتسب إليه المذهب الظاهري الذي يأخذ بظاهر القرآن والسنة. توفي سنة سبعين ومائتين هـ. تذكرة الحفاظ: 2: 572.

فجرتما انتهكتما حرمات اللَّه. وقيل: يعني بهما اللذين لم يحصنا. وقال عطاء وقتادة معنى: فآذوهما، أي عنفوهما باللسان: أما خفتما اللَّه، أما خفتما اللَّه، أما استحييتما منه. وقال ابن عباس: أراد بالأذى الضرب بالنعال والأيدي.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ﴾ أي فإن تابا من الزنا وأصلحا العمل بعد التوبة فأعرضوا عنهما لا تسبوهما ولا تعيروهما. وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رجلين اختصما إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال أحدهما: اقض بيننا بكتاب اللَّه، وقال الآخر: أجل يا رسول اللَّه اقض بيننا بكتاب اللَّه وائذن لي أن أتكلم. قال: «**تكلم**». فقال: إن ابني كان عسيفاً على هذا، أي أجيراً، فزنا بامرأته، فأخبروني أن على ابني الرجم فافتديته بمائة شاة وجارية، ثم سألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وإنما الرجم على امرأته. فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**أما والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب اللَّه، أما غنمك وجاريتك فرد عليك**». وجلد ابنه مائة وغربه عاماً وأمر أنيساً الأسلمي[1] أن يأتي امرأة الرجل، فإن اعترفت رجمها، فاعترفت فرجمها[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي لم يزل متجاوزاً عن الناس رحيماً بهم بعد التوبة.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ معناه: إنما التجاوز من اللَّه للذين يعملون المعصية بجهالة ثم يتوبون من قبل أن ينزل بهم سلطان الموت لا في وقت المعاينة، فأولئك يقبل اللَّه توبتهم، وكان اللَّه عليماً بأهل التوبة حكيماً حكم بقبول التوبة. قيل: إن «على» في قوله ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ بمعنى عنده، أي التوبة عند اللَّه. وقيل: بمعنى «من» أي

---

(1) أبو زيد، أنيس بن مرثد بن أبي مرثد الغنوي: شهد أنيس مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فتح مكة وحنيناً، وكان عين النبي في غزوة حنين بأوطاس. توفي سنة عشرين هجرية. الاستيعاب: 1/ 114.

(2) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 4/ 100، رقم: 6828، باب الاعتراف بالزنا ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 852، رقم: 2549، باب حد الزنا.

من اللَّه. واختلفوا في قوله: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال مجاهد والضحاك: الجهالة العمد. وقال الكلبي: لم يجهل أنه ذنب، ولكنه جهل عقوبته. وقال سائر المفسرين: يعني المعاصي كلها، فكل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته. وقال قتادة: أجمع الصحابة رضي اللَّه عنهم أن كل من عصى ربه فهو جاهل خطأ أو عمداً. وقال الزجاج: معنى قوله ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: اختيارهم اللذة الفانية عن اللذة الباقية[1].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي ثم يتوبون قبل معاينة أسباب الموت. سمى ذلك قريباً لأن كل ما هو آت قريب، لأن المرء لا يأمنه في كل وقت وساعة وكل ما يكون هذا صفته فهو موصوف بالقرب. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من تاب قبل موته بسنة تاب اللَّه عليه**». ثم قال: «**إن السنة لكثيرة، من تاب قبل موته بشهر تاب اللَّه عليه**». ثم قال: «**إن الشهر لكثير من تاب قبل موته بجمعة تاب اللَّه عليه**». ثم قال: «**إن الجمعة لكثيرة من تاب قبل موته بيوم تاب اللَّه عليه**». ثم قال: «**إن اليوم لكثير، من تاب قبل موته بساعة تاب اللَّه عليه**». ثم قال: «**إن الساعة لكثيرة**». ثم قال: «**من تاب من قبل أن يغرغر**[2] **بنفسه تاب اللَّه عليه**»[3]. وقال الكلبي: قوله ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ القريب ما دام في الصحة قبل المرض والموت. [وقال عكرمة: ما قبل الموت قريب. وقال الضحاك: قبل معاينة الموت][4]. وقال أبو موسى الأشعري: هو أن يتوب قبل موته بفواق ناقة.

قوله عز وجل: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ

---

(1) تراجع هذه الأقوال في الجهالة في: تفسير الطبري: 8/ 89 وما بعدها ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 317 ـ ومعاني الزجاج: 2/ 29.

(2) يغرغر: أي تبلغ روحه حلقومه، فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به المريض. والغرغرة: أن يجعل المشروب في الفم ويردده إلى أصل الحلق ولا يبلغ. (النهاية: غرغر).

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 5/ 398، رقم: 7068، باب في التوبة.

(4) سقط قول عكرمة وقول الضحاك من النسخة (ف).

أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي وليس قبول التوبة للذين يعملون المعاصي مقيمين عليها حتى إذا عاين أحدهم أسباب الموت والشرق والنزع ومعاينة الموت قال: إني تبت الآن، ولا الذين يموتون على الكفر أولئك هيأنا لهم عذاباً مؤلماً وهو النار التي مصيرهم إليها. وذهب الربيع إلى أن المراد بالذين يعملون السيئات: المنافقون ثم عطف الكافرين المجاهرين بالكفر على المنافقين. وحاصل هذه الآية: أن من وقع في النزع وقال إني تبت الآن فحينئذ لا يقبل من كافر إيمانه ولا من عاص توبته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ﴾ موضع خفض.

قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (19) وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (20) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا (21) وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا (22)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ الآية.. قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية وأول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من عصبته الذي يرثه فألقى ثوبه على تلك المرأة فورث نكاحها بالصداق الأول، يقول: أنا ولي زوجك فورثتك، فإن كانت جميلة أمسكها ودخل بها، وإن لم تكن جميلة طوّل عليها لتفتدي نفسها منه بما ترث من الميت أو تموت، فيرثها فإن ذهبت إلى أهلها قبل أن يلقي عليها ثوبه فهي أحق بنفسها، فكانوا يفعلون ذلك حتى توفي أبو قيس بن

الأسلت[1] وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية[2]، فقام لها ابنه من غيرها يقال له حصن بن أبي قيس فطرح ثوبه عليها فتولى نكاحها ثم تركها ولم يقربها ولم ينفق عليها فضارها بذلك لتفتدي منه بمالها، فأتت كبيشة إلى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فقالت: يا رسول اللّٰه إن أبا قيس توفي وورث ابنه نكاحي وقد أضر بي وطول علي فلا هو ينفق علي ولا هو يخلي سبيلي. فقال صلى اللّٰه عليه وسلم: «**اقعدي في بيتك حتى يأتيني فيك أمر اللّٰه**» فانصرفت. وسمع بذلك نساء المدينة فأتين رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فقلن: يا رسول اللّٰه ما نحن إلا كهيئة كبيشة. فأنزل اللّٰه هذه الآية[3]، ومعناها: يا أيها الذين آمنوا أي أقروا وصدقوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء جبراً ولا تعضلوهن أي لا تمنعوهن تخلية سبيلهن حتى يفتدين ببعض مالهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فحينئذ يحل لكم ضرارهن ليفتدين منكم، وهو أنها إذا زنت المرأة جاز لزوجها أن يسألها الخلع. وقال عطاء: كان الرجل إذا زنت امرأته أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها، فنسخ اللّٰه ذلك بالحدود. وقال قتادة والضحاك: الفاحشة: النشوز، يعني إذا نشزت المرأة حل لزوجها أن يأخذ منها الفدية.

وقوله تعالى: ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ ـ بخفض الياء: خبثها. قرأ حمزة والكسائي وخلف والأعمش: كرهاً ـ بضم الكاف هنا وفي التوبة. وقرأ الباقون بالفتح وهما لغتان[4]. وعن الضحاك أن هذه الآية نزلت في الرجل يكون في حجره يتيمة فيكره أن يزوجها لمالها فيتزوجها لأجل مالها ويكون تحته عجوز ونفسه تتوق إلى شابة فيكره فراق العجوز ويتوقع موتها ليرثها وهو معتزل فراشها[5].

---

(1) أبو قيس، صيفي بن الأسلت الأوسي الأنصاري، وهو شاعر، هرب إلى مكة فكان فيها مع قريش إلى عام الفتح.
الاستيعاب: 4/ 1734.

(2) كبيشة بنت معن بن عاصم الأنصاري. قال ابن الأثير: روى ابن جريج عن عكرمة مولى ابن عباس قال: نزلت في كبيشة بنت معن كانت عند الأسلت فتوفي عنها فجنح إليها ابنه قيس، فجاءت إلى النبي صلى اللّٰه عليه وسلم فشكت إليه أمرها، فنزلت الآية. ابن الأثير، أسد الغابة: 5/ 538.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 122 وتفسير الثعلبي، ورقة: 318.

(4) يراجع: مكي، الكشف: 1/ 382 ـ وتفسير الثعلبي، ورقة: 318.

(5) تفسير الثعلبي، ورقة: 318.

قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ أمر للأزواج بعشرة نسائهم بالجميل، وهو أن يوفيها حقها من المهر والنفقة والمبيت وترك أذاها بالكلام الغليظ والإعراض عنها والعبوس في وجهها بغير ذنب منها.

قوله عز وجل: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ فيه بيان الخيرة ربما كانت للعبد في الصبر على ما يكرهه يقول: لعلكم أيها الأزواج أن تكرهوا صحبتهن ويجعل اللَّه في ذلك خيراً كثيراً بأن يرزقكم منهن الولد فتظهر بعد ذلك الألفة والموافقة وتنقلب الكراهة صحبة والنفور ميلاً. وقيل: معنى الخير الكثير: ما يحصل له من الثواب في الآخرة في الإنفاق عليها. وقيل: معناه عسى اللَّه أن يقضي بالفراق على وجه جميل فتستبدل به المرأة من هو خير لها منه ويستبدل هو بها من هي خير له منها. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**اتقوا اللَّه في النساء فإنهن عوان عندكم أخذتموهن بأمانة اللَّه واستحللتم فروجهن بكلمة اللَّه لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**»(1). وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**أبغض الحلال إلى اللَّه الطلاق**»(2). وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**تزوجوا ولا تطلقوا فإن اللَّه عز وجل لا يحب الذواقين والذواقات**».

قوله عز وجل: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ﴾ الآية... أي إن أردتم تخلية المرأة ولم يكن من قبلها نشوز أو إتيان فاحشة، وأتيتم إحداهن قنطاراً، أي مالاً عظيماً: وقد تقدم تفسير القنطار، فلا تأخذوا منه شيئاً، أي مما أعطيتموها، ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا﴾، أي ظلماً وذنباً ظاهراً. والبهتان هو الباطل الذي يتحير من بطلانه، من ذلك يسمى الكذب العظيم بهتاناً. لأنه باهت به مخبره ويتحير المكذوب عليه تعظيماً لعظمته. وأصل البهت التحير.

---

(1) رواه الترمذي في سننه: العارضة: 5/ 111 ـ باب ما جاء في حق المرأة على زوجها ـ وابن ماجه في سننه: 1/ 568، باب حق المرأة على الزوج ـ وذكره الطبري بسنده عن جابر في تفسيره: 8/ 118، رقم: 8905.

(2) رواه أبو داود في سننه: 6/ 227، رقم: 2164، كتاب الطلاق ـ وابن ماجه في سننه: 1/ 622، باب لا يحرم الحرام الحلال.

قال اللَّه تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾[1] أي تحير لانقطاع حجته. وإنما سمى اللَّه تعالى أخذ المهر منها بغير حق بالبهتان لأن الزوج لما استعمل المكر والخداع في أخذ ما أعطاها صار في الوزن بمنزلة من يكذب ويوهم أن الذي قاله حق.

قوله عز وجل: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ أي كيف تستحلون أخذ شيء وقد وصل بعضكم إلى بعض. قال ابن عباس: الإفضاء كناية عن الجماع[2]. وقال جماعة من أهل التفسير: إذا كان معها في لحاف واحد جامعها أو لم يجامعها فقد وجب المهر. وعن زرارة بن أوفى قال: قضى الخلفاء الراشدون المهديون: أنه من غلق على امرأة باباً وأرخى ستراً وكشف خماراً فقد وجب المهر والعدة[3]. وذكر الفراء أن الإفضاء مأخوذ من الفضاء، وهو المكان المتسع الذي ليس فيه بناء ولا حاجز عن إدراك ما فيه، فسميت الخلوة فضاء لوصول الزوج إلى جميع ما يقصده من الوطء والدخول في موضع لا يمانع فيه من ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً وثيقاً وهو ذكر المهر في النكاح. وقيل: هو ما اشترط اللَّه للنساء على الرجال من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وقال الشعبي وعكرمة والربيع هو قول النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «**أخذتموهن بأمانة اللَّه واستحللتم فروجهن بكلمة اللَّه**».

فصل: فيما ورد من الأخبار في الرخصة في مغالات المهور

قال عطاء: خطب عمر رضي اللَّه عنه إلى علي كرم اللَّه وجهه ابنته أم كلثوم[4] وهي من فاطمة بنت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فقال له علي رضي اللَّه عنه: إنها صغيرة. فقال عمر رضي اللَّه عنه: إني سمعت رسول اللَّه

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 258.
(2) تفسير الطبري: 8/ 126.
(3) تفسير القرطبي: 5/ 102.
(4) أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب. وأمها فاطمة بنت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. تزوجها عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه وولدت له: زيد ورقية.
الطبقات الكبرى: 8/ 338.

صلى اللَّه عليه وسلم يقول: «**إن كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري، فلذلك رغبت في هذا**». فقال علي كرم اللَّه وجهه: فإني مرسلها إليك حتى تنظر إلى صغرها. فأرسلها إليه فجاءته فقالت: إن أبي يقول لك: هل رضيت هذه القلة؟ فقال: قد رضيتها. قال: فأنكحه علي فأصدقها عمر أربعين ألف درهم[1]. وعن نافع عن ابن عمر رضي اللَّه عنه أنه كان يزوج المرأة من بناته على عشرة آلاف درهم. ويزوج ابن عباس المرأة على عشرة آلاف درهم[2].

فصل: في أقل المهر

روي عن عمر رضي اللَّه عنه أنه خطب الناس فحمد اللَّه وأثنى عليه وقال: ألا لا تغالوا في صداق النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند اللَّه لكان أولاكم بها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. ما أصدق رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم امرأة من نسائه ولا امرأة من بناته فوق اثنتي عشرة أوقية[3]. وعن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**من يمن المرأة أن يتيسر صداقها وأن يتيسر رحمها**». وعن أبي هريرة قال: كان صداقنا مذ كان فينا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عشرة أواق أو أربعمائة درهم. وعن أبي سعيد الخدري أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم تزوج أم سلمة على عشرة دراهم[4].

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾ روي أنهم كانوا بعد قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ﴾ إذا رضيت المرأة أمسكها ولي الميت برضاها على حكم النكاح، وإذا سخطت تركها، فحرم اللَّه ذلك عليهم بهذه الآية، ومعناها: لا تتزوجوا ما

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 319.

(2) المصدر نفسه.

(3) رواه البيهقي في السنن الكبرى: 7/ 233، باب لا تقدير في الصداق كثر أو قل ـ وأحمد في المسند: 1/ 276، رقم: 285.

(4) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 319.

تزوج آباؤكم من النساء. ويقال: لا تطأوا ما وطىء آباؤكم. واسم النكاح يقع على العقد والوطء جميعاً. قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ معناه: إلا ما قد سلف في الجاهلية من نكاح منكوحة الأب كان ذلك مغفوراً لكم لا تؤاخذون به. وقال قطرب: هو استثناء منقطع تقديره: لكن ما قد سلف فدعوه واجتنبوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ يعني نكاح امرأة الأب كان فاحشة فيما سلف لأنهم كانوا يسمونه في الجاهلية نكاح المقت، وكان المولود يقال له: المقتي. فأعلمهم اللّه أن هذا الذي حرم عليهم لم يزل منكراً في قلوبهم ممقوتاً عندهم. والمقت هو البغض على أمر قبيح ركبه صاحبه. وقيل: المقت هو أشد البغض. والفاحشة اسم لما يرتفع ذكر قبحه فيما بين الناس. قوله تعالى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي نكاح امرأة الأب طريق سيّئ لأنه يؤدي إلى جهنم، وساء سبيلاً: نصب على التمييز.

قال اللّه تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿23﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾ قال ابن عباس: حرم اللّه من النساء أربعة عشر صنفاً: سبعة بالنسب وسبعة بالسبب. وتلا هذه الآية ثم قال: والسابعة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ والجدات وإن بعدن محرمات، لأن اسم الأمهات يشملهن. كما أن اسم الآباء يتناول الأجداد وإن بعدوا، واسم البنات يتناول بنات الأولاد وإن سفلن. وقوله تعالى: ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ يشمل الأخوات من الأب والأم ومن الأب ومن الأم. وقوله تعالى: ﴿وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾ يتناول عمات الأب والأم وخالات الأب والأم.

قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ قال صلى اللّه عليه وسلم: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**»[1]. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**تحرم الجرعة والجرعتان ما يحرم الحولان الكاملان**». وعن عائشة رضي اللّه عنها: أن أفلح أخا أبي قعيس[2] جاء يستأذن عليها بعد نزول آية الحجاب وكان عمها من الرضاعة قالت فأبيت أن آذن له حتى أخبرت النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال: «**ليلج عليك فإنه عمك**»، فقالت: إنما أرضعتني المرأة ولم يرضعني الرجل، فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**ليلج عليك فإنه عمك**»[3]، وكان أبو قعيس زوج المرأة التي أرضعت عائشة رضي اللّه عنها.

قوله عز وجل: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾ قال ابن عباس وعطاء وسعيد بن جبير أن أم المرأة مبهمة تحرم على زوج ابنتها بنفس العقد.

وقوله عز وجل: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ لا خلاف بين أهل العلم أن كونها في حجره لا يكون شرطاً في تحريمها، وإنما ذكره اللّه تعالى على عادة الناس، لأن الربيبة تكون في حجر زوج الأم فخرج الكلام على وفق العادة دون الشرط، وهذا كقوله: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾[4] ومعلوم أن المعتكف لا يحل له الجماع وإن كان قد خرج من المسجد لحاجة لأن الغالب في حال العاكف أن يكون في المسجد، فقرنه بذكر المسجد. وأما قوله تعالى: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ فمن الناس من رد هذا الشرط على قوله: ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ وعلى قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾ فشرط الدخول بالنساء في المسألتين في ثبوت التحريم المذكور في الآية على معنى أن اللّه عطف حكماً على حكم وعقبهما

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 10/ 174، رقم: 5099، كتاب النكاح ـ والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 4/ 302، رقم: 1156، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب.

(2) أبو الجعد أفلح بن قعيس المخزومي: عم عائشة من الرضاع. الاستيعاب: 1/ 102 ـ الإصابة: 1/ 57.

(3) رواه البخاري في صحيحه فتح الباري: 10: 187 رقم 5103 ـ كتاب النكاح.
ومالك في الموطأ، المنتقى للباجي: 4: 151 ـ كتاب الرضاع.

(4) سورة البقرة (2)، الآية: 187.

بشرط الدخول بقوله: ﴿ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ وهو قول بشر بن غياث[1] إلا أن هذا لا يصح، لأن قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ جملة مستقلة بنفسها. وقوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ بما فيه من شرط الدخول جملة أخرى مستقلة بنفسها، فلم يجز بناء إحدى الجملتين على الأخرى. ولو جعلنا شرط الدخول راجعاً إلى الأول فخصصنا عموم اللفظ الأول بالشك.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فإن لم تكونوا دخلتم بنسائكم فلا حرج عليكم في تزوج الربائب إذا طلقتم أمهاتهن قبل الدخول أو ماتت أمهاتهن قبل دخول الزوج بهن.

قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ أي ونكاح نساء أبنائكم الذين من أصلابكم. وإنما سميت امرأة الابن حليلة لأنها تحل معه في الفراش. وقيل: إنها حلال له. وأما أمة الابن فلا تسمى حليلة له، ولا تحرم على الأب ما لم يطأها الابن.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ ليس هو على ما ظن بعض الناس أن من شرط الصلب في هذه الآية أخرج امرأة الابن في الرضاع من التحريم بل امرأة الابن في الرضاع بمنزلة امرأة الابن من الصلب في الحرمة. وإنما شرط اللّه تعالى كون الابن من صلبه لاخراج امرأة الابن من التبني عن التحريم، فإن النبي صلى اللّه عليه وسلم لما تزوج امرأة زيد بن حارثة[2] بعدما فارقها زيد تكلم فيه المشركون وقالوا: إن محمداً تبنى هذا ثم تزوج امرأته. وكانوا يجعلون

---

(1) أبو عبد الرحمن، بشر بن غياث المريسي: فقيه حنفي متكلم، أخذ الفقه عن القاضي أبو يوسف الحنفي، وكان يناظر الإمام الشافعي. توفي سنة تسع عشرة ومائتين هجرية.
وفيات الأعيان: 1/ 277.

(2) أبو أسامة، زيد بن حارثة الكلبي: صحابي جليل، اختطف صغيراً في الجاهلية واشترته خديجة بنت خويلد ثم وهبته للنبي صلى اللّه عليه وسلم حين تزوجها، فتبناه النبي صلى اللّه عليه وسلم قبل الإسلام وأعتقه وزوجه ابنة عمته زينب بنت جحش. والناس يسمونه زيد بن محمد إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ﴾ وهو من السابقين في الإسلام، وجعل له الرسول صلى اللّه عليه وسلم الإمارة في غزوة مؤتة فاستشهد بها سنة ثمان هجرية.
الاستيعاب: 2/ 542 ـ صفة الصفوة: 1/ 378 ـ تذكرة الحفاظ: 1/ 30.

المتبنى بمنزلة ابن الصلب في الميراث والحرمة، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾[1].

قوله عز وجل: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ في موضع رفع ومعناه: وحرم عليكم أن تجمعوا بين الأختين. وصورة الجمع أن يتزوج أختين معاً أو في عقدين لا يدري أيتهما كانت هي الأولى. وأما إذا تزوج امرأة ثم تزوج بعد ذلك أختها وهو يعلم الثانية فنكاح الثانية حرام دون الأولى، لأن الجمع حصل بالثانية، وحرم عليه أيضاً أن يتزوج إحداهما والأخرى معتدة في طلاق بائن أو رجعي.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ أي إلا ما مضى في الجاهلية فإنه مغفور لكم إذا تبتم عنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أي لا يؤاخذكم بما كان منكم قبل التحريم.

قال اللّه تعالى:

﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا (24) وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (25)﴾.

---

(1) سورة الأحزاب (33)، الآية: 5.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الآية عطف على ما تقدم، أي وحرم عليكم المحصنات وهن ذوات الأزواج اللاتي أحصن بالأزواج إلا ما ملكت إيمانكم، أي إلا ما أفاء اللّه عليكم من السبايا. وروي عن أبي سعيد الخدري أن المسلمين أصابوا يوم أوطاس[1] سبايا لهن أزواج من المشركين فتأثم المسلمون من وطئهن وقالوا: لهن أزواج في دار الحرب، فأنزل اللّه هذه الآية[2]، فنادى منادي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: ألا لا توطأ الحبالى حتى يضعن، ولا الحيالى حتى يستبرئن بحيضة. وذهب بعض الصحابة وهم أبي بن كعب وأنس وجابر رضي اللّه عنهم: أن الأمة إذا خرجت من ملك مولاها إلى ملك رجل آخر حرمت على زوجها بأي سبب خرجت حتى روي عن ابن عباس أنه قال: طلاق الأمة يبت طلاقها وبيعها وهبتها وميراثها وسبيها وصدقتها. وأنكر ذلك عمر وعلي وعبد الرحمن بن عوف رضي اللّه عنهم. وقالوا: إنما نزلت هذه الآية في السبايا خاصة، بدليل ما روي عن عائشة رضي اللّه عنها: اشترت بريرة[3] وأعتقتها فخيرها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وكان زوجها عبداً أسود يسمى مغيثاً[4].

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ نصب على المصدر، أي كتب اللّه عليكم كتاب اللّه. وقيل: نصب على الإغراء، أي الزموا كتاب اللّه وابتغوا كتاب اللّه.

قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ قرأ أهل الكوفة: وأحل ـ على ما لم يسم فاعله على قوله: حرمت. وقرأ الباقون: بالفتح على أنه قد ذكر اللّه

---

(1) أوطاس: واد بديار هوازن، وكان هذا البعث يوم حنين في سنة ثمان من الهجرة بعد فتح مكة. (سيرة ابن هشام: 4/ 487).

(2) الواحدي، أسباب النزول: 123 ـ السيوطي، أسباب النزول: 77.
رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 10/ 34، باب جواز وطء المسبية بعد الاستبراء ـ والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 8/ 369، رقم: 5005، تفسير سورة النساء.

(3) بريرة ـ على زنة فَعيلة أو فُعيلة: وهي من بني هلال، وعرفت برجاحة العقل، وكانت تخدم عائشة، وعاشت إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان. (الاستيعاب: 4/ 1795 ـ أعلام النساء: 1/ 129).

(4) رواه البخاري في صحيحه: 10/ 507، رقم: 5279، كتاب الطلاق.

كتاب اللَّه، والمعنى: وأحل لكم نكاح ما سوى ما ذكرت لكم من المحرمات.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾ بدل من «ما»، فمن رفع «أحل» فموضعها، أي «ما» رفع، ومن نصب فموضعها نصب. وقال الكسائي: موضعها نصب في القراءتين بنزع الخافض، يعني لأن تبتغوا بأموالكم أن تطلبوا بأموالكم إماء بنكاح أو بملك يمين محصنين، أي ناكحين أعفاء غير زناة، وأصله من سفح المذي والمني وفي هذا دليل أن بدل البضع لا يجوز إلا أن يكون مالاً أو يستحق به تسليم مال. ولهذا قال أصحابنا: إن تعليم القرآن لا يجوز أن يكون صداقاً، وكذلك خدمة الزوج لا تكون صداقاً عند أبي حنيفة وأبي يوسف وأصل الإحصان في اللغة: ما يمنع، ومنه سمي الحصن لأنه يمنع من العدو، ومنه الدرع الحصينة، أي المنيعة. والحصان ـ بكسر الحاء: الفصل من الخيل لمنعه راكبه من الهلاك. والحصان ـ بفتح الحاء: العفيفة من النساء لمنعها فرجها من الفساد. قال حسان بن ثابت رضي اللَّه عنه في عائشة رضي اللَّه عنها:

حصان رزان ما تزنّ بريبة ∴ وتصبح غرثى من لحوم الغوافل[1]

والإحصان في القرآن يقع على معان مختلفة منها النكاح، كما في أول هذه الآية، ومنها الحرية كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[2]، ومنها الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾[3] أي إذا أسلمن، ومنها العفة كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾[4].

قوله عز وجل: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ اختلفوا في معنى ذلك، قال الحسن ومجاهد: فما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح

---

(1) هذا البيت من بحر الطويل مطلع نص قاله حسان في عائشة أم المؤمنين يعتذر مما بدر منه في قضية الإفك. (ديوانه: 188، حرف اللام ـ شرح الديوان: 377 ـ الأغاني: 4/ 167).
(2) سورة المائدة (5)، الآية: 5.
(3) سورة النساء (4)، الآية: 25.
(4) سورة النور (24)، الآية: 4.

الصحيح فآتوهن مهورهن، وهو قول ابن عباس وعطاء وسعيد بن جبير[1]. وقال آخرون: هو نكاح المتعة، وهو رواية عن ابن عباس، روي أنه سئل عن المتعة أسفاح أم نكاح؟ فقال: لا سفاح ولا نكاح. قيل: فما هي؟ قال: المتعة كما قال اللّٰه تعالى. قيل له: هل لها من عدة؟ قال: نعم، حيضة. قيل: هل يتوارثان؟ قال: لا. ثم روي عنه أنه رجع عن القول بالمتعة وقال عند موته: اللهم إني أتوب إليك من قولي بالمتعة وقولي في الصرف في درهم بدرهمين يداً بيد[2]. وعن عمر رضي اللّٰه عنه أنه خطب حين ولي فقال: أيها الناس إن اللّٰه تعالى أحل لنا المتعة ثلاثاً ثم حرمها، وأنا أقسم باللّٰه تعالى لا أجد من تمتع إلا رجمته. وعنه أيضاً أنه قال: لا أوتى برجل يزوج امرأة إلى أجل إلا رجمته بالحجارة[3]. وعن ابن مسعود أن المتعة كانت رخصة لأصحاب محمد صلى اللّٰه عليه وسلم في غزاة شكوا فيها العزبة، ثم نسختها آية النكاح[4]. وقد أجمع سائر الفقهاء والعلماء من الصحابة والتابعين والسلف الصالحين على أن هذه الآية منسوخة ومتعة النساء حرام. وروى الربيع بن سبرة الجهني عن أبيه[5] قال: كنا مع رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم في غزوة فشكونا إلى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم العزبة فقال: «**يا أيها الناس استمتعوا من هذه النساء**». ثم أصبحت غادياً على رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فإذا هو يقول: «**يا أيها الناس إن اللّٰه حرم ذلك إلى يوم القيامة**»[6]. وقال بعضهم: سألت الحسن عن نكاح المتعة فقال: إنما كان ثلاثة أيام على عهد رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ثم نهى عنه.

---

(1) تفسير الطبري: 8/ 175 وما بعدها.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 323 ـ تفسير القرطبي: 5/ 133.
(3) الثعلبي في المصدر السابق.
(4) تفسير القرطبي: 5/ 130.
(5) أبو الربيع، سبرة بن معبد الجهني. روى عنه الزهري وابنه الربيع. وكان لسبرة دار بالمدينة في جهينة. توفي في خلافة معاوية.
الاستيعاب: 2/ 579، الطبقات الكبرى: 4/ 259.
وابنه: الربيع بن سبرة، كان ثقة.
الطبقات الكبرى: 5/ 195 ـ الجرح والتعديل: 3/ 2075.
(6) رواه الإمام أحمد في المسند: 3/ 405 ـ 406 ـ والبيهقي في السنن الكبرى: 7/ 203.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي مهورهن، سمي المهر أجراً لأنه ثمن البضع، أو لأنه بدل عن المنافع، كما سمي بدل منفعة الدار والدابة أجراً. وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي أعطوهن أجورهن فريضة من اللّه لهن عليكم. والفرض ما يكون في أعلى مراتب الإيجاب عن اللّه تعالى. ولهذا لا يجوز إسقاط المهر في ابتداء العقد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ أي لا إثم عليكم فيما تراضيتم به من الزيادة والنقصان في المهر من بعد الفريضة في ابتداء النكاح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليماً بما يصلح أمر العباد فيما أمركم به ونهاكم عنه.

قوله عز وجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ قال ابن عباس وابن جبير وقتادة ومجاهد: الطول الغنى والسعة، أي ومن لم يستطع منكم غنى وقدرة ولم يجد ما لا يتزوج به الحرائر فليتزوج بعضكم من إماء بعض. وقال جابر وابن زيد وربيعة والنخعي: الطول الهوى، أي من لم يقدر منكم على نكاح الحرائر هوى وعشقاً بأمة من الإماء، ولم يتسع قلبه لنكاح الحرة فليتزوج بالأمة التي يهواها من الإماء المؤمنات[1]. قرأ الكسائي: المحصنات ـ بكسر الصاد في كل القرآن إلا الأول[2]، وهو قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم﴾ أي بتحقيق الإيمان وأنتم تعرفون الظواهر، وليس عليكم أن تبحثوا عن الباطن.

وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي في الدين، وقيل: في النسب، أي كلكم ولد آدم عليه السلام، وإنما قال ذلك لأن العرب كانت تطعن في

(1) تفسير الطبري: 8/ 182 ـ 183.

(2) مكي، الكشف: 1/ 384 حيث ذكر هذه القراءة.

الأنساب وتفخر بالأحساب، وتعير بالهجنة: تسمي ابن الأمة الهجين، فأعلم الله أن الآية في جواز نكاحها كالحرة بذلك.

قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي انكحوا الإماء بإذن مواليهن وأعطوهن مهورهن، يعني بإذن أهلهن.

قوله تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي مهراً غير مهر البغي، وهو أن يكون عشرة دراهم فما فوقها.

قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ أي عفائف غير زوانٍ معلنات بالزنا ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أي أخلاء في السر، وذلك لأن أهل الجاهلية كان بينهم زوانٍ بالعلانية لهن رايات مضروبة، وبعضهن اتخذن أخداناً في السر، حتى قال ابن عباس: كان فيهم من يحرم ما ظهر من الزنا ويستحل ما خفي منه[1]. فنهى الله عن نكاح الفريقين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ معناه أن الإماء إذا أسلمن وتزوجن. ومن قرأ: أحصن ـ بضم الهمزة فمعناه: إذا زوجن وأحصن بالأزواج. فإن أتين بفاحشة، يعني الزنا، فعليهن نصف حد الحرائر خمسون جلدة والمراد بهذه الآية نصف الجلد، لأن الرجم لا نصف له. وذهب عامة الفقهاء إلى أن الإسلام والتزوج لا يكونان شرطاً في وجوب الجلد على الأمة، فإنها وإن لم تكن محصنة بالإسلام والتزويج أقيم عليها نصف حد الحرة إذا زنت، واستدلوا بما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «**إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فبيعوها**»[2].

---

(1) في النسخة (ف): فيه.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 14/ 133، رقم: 6838، كتاب الحدود ـ ومالك في الموطأ: المنتقى: 7/ 144، جامع ما جاء في حد الزنا.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي تزويج الإماء والرضاء بنكاحهن عند عدم طول الحرة لمن خشي الزنا منكم. وقيل: لمن خشي الضرر في الدين والدنيا. وإن تصبروا عن نكاح الإماء خير لكم. وإنما قال ذلك لأن ولد الأمة يكون رقيقاً لولي الأمة وله استخدام الأمة في الحاجات وبين أيدي الرجال الأجانب.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور لما أصبتم من المحرمات يغفرها لكم بعد التوبة، رحيم لا يعجل بالعقوبة على المذنبين. فإن قيل: ما فائدة شرط الإحصان في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ والأمة تحد حد الزنا سواء كانت محصنة بالإسلام والزوج أو لا؟ قيل: فائدة ذكر إحصان الإماء في الآية أن حد الحرة يختلف بالإحصان وعدم الإحصان. وكان يجوز أن يتوهم متوهم أن حد الأمة يختلف أيضاً بالإحصان بالإسلام والزوج، كما يختلف حد الحرة بذلك، فأوجب اللَّه تعالى ذلك الحد بالجلد في الحالة التي يجب فيها الرجم على الحرة، ليعلم أن الإماء لا مدخل لهن في الرجم.

وقوله تعالى: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الفتاة في اللغة: الشابة، إلا أن الأمة تسمى فتاة عجوزاً كانت أو شابة لأنها لا توقر توقير الحرة الكبيرة. والأخدان: جمع الخدن، والخدن والخدين هو الصديق. والعنت في اللغة: المشقة، وسمي الزنا به لأن فاعله يلقى الإثم العظيم في الآخرة ويقام عليه الحد في الدنيا. وقد تعلق أصحاب الشافعي بظاهر هذه الآية فقالوا: إذا كان عند الرجل من المال ما يمكنه أن يتزوج به الحرة لا يجوز له أن يتزوج الأمة. قالوا: ولا يجوز للمسلم أن يتزوج الأمة اليهودية ولا النصرانية، ولا يجوز أن يتزوج أكثر من أمة واحدة. قالوا: ويجوز للعبد أن يتزوج أمة على حرة، لأن هذه الآية خطاب للأحرار. قال اللَّه تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ وليست هذه الآية عن أصحابنا على طريق الشرط، ولكن معناها: من لم يبسط اللَّه له في الرزق فليرض بما قسم اللَّه له وليعقد أدون النكاحين إن لم يقدر على أعلاها. وفي قوله: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بيان أن المؤمنة خير من الحرة الكتابية، ولو كان جواز نكاح الأمة للحر مقيداً بحال الضرورة وخوف العنت لكان الحر إذا تزوج حرة على الأمة يبطل نكاح الأمة. ولا خلاف أن نكاح الحرة إذا طرأ

على نكاح الأمة لم يبطل النكاح. وعن أبي يوسف أنه تأول هذه الآية على أن وجود الطول هو كون الحرة في نكاحه على ما ورد به الحديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**لا تنكح الأمة على الحرة، وتنكح الحرة على الأمة**»[1]. وهذا تأويل صحيح، لأن من لا يكون عنده حرة فهو غير مستطيع للطول إليها، لأن القدرة على المال لا توجب له ملك الوطء إلا بعد وجود النكاح.

قال اللّه تعالى:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿26﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿27﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿28﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿29﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿30﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿31﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿32﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي يريد اللّه أن يبين لكم ما تحتاجون إلى معرفته من الحلال والحرام وكيفية الطاعة، ويبصركم طريق الذين من قبلكم من أهل التوراة والإنجيل، يدلكم على طاعته كما دل من قبلكم ويتوب عليكم، أي يتجاوز عنكم ما كان منكم في الجاهلية، واللّه عليم بما فعلتم وبمن يتوب منكم، حكيم بما أمركم به ونهاكم عنه. واللام في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ بمعنى «أن»، والعرب تعاقب بين لام «كي»

(1) ذكره الطبري بسنده في تفسيره: 8/ 187، رقم: 9068.

وبين «أن» فتضع أحدهما مكان الآخر كقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[1] وقوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾[2]. وفي موضع آخر: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾[3]. وقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾[4] وفي موضع آخر: ﴿أَن يُطْفِئُوا﴾[5]، وقال الشاعر[6]:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما ∴ تمثل لي ليلى بكل سبيل[7]

يريد: أن أنسى، ومعنى الآية: يريد اللّه أن يبين لكم شرائع دينكم ومصالح أمركم. وقال الحسن: يبين لكم ما تأتون وما تذرون. وقال عطاء: يبين لكم ما يقربكم إليه. وقال الكلبي: معناه يبين لكم أن الصبر على نكاح الإماء خير لكم. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ في تحريم البنات والأمهات والأخوات.

قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يريد أن يدلكم على ما يكون سبباً لتوبتكم ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ اختلفوا في الذين اتبعوا الشهوات من هم؟ قال السدي: هم اليهود والنصارى. وقال بعضهم: هم المجوس لأنهم كانوا يحلون نكاح الأخوات وبنات الأخ وبنات الأخت، فلما حرمه اللّه تعالى قالوا: إنكم تنكحون بنات الخالة وبنات العمة، والعمة والخالة حرام عليكم، فانكحوا بنات الأخ وبنات الأخت كما تنكحوا بنات الخالة والعمة. فأنزل اللّه تعالى هذه الآية. وقال مجاهد: هم الزناة يريدون أن تميلوا عن الحق فتكونون مثلهم تزنون كما يزنون.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أي في نكاح الأمة إذا لم تجدوا طول الحرة وفي كل أحكام الشرع. وقيل: معناه يريد اللّه ليسهل عليكم فيضع أوزاركم ويحط ذنوبكم ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿28﴾﴾ أي أسيراً للشهوة. وقيل:

---

(1) سورة الشورى (42)، الآية: 15.
(2) سورة الأنعام (6)، الآية: 71.
(3) سورة غافر (40)، الآية: 66.
(4) سورة الصف (61)، الآية: 8.
(5) سورة التوبة (9)، الآية: 32.
(6) كثير عزة: تقدمت ترجمته.
(7) هذا البيت من بحر الطويل، (ديوان كثير: 108 ـ المبرد في الكامل: 3/ 97 ـ شرح شواهد المغني: 4/ 308).

ضعيفاً في كل شيء. وقال طاوس والكلبي: معناه لا يصبر عن النساء ولا يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء[1]. وقال سعيد بن المسيب: ما أيس الشيطان من ابن آدم إلا آتاه من قبل النساء، وقد أتى عليّ ثمانون سنة، وذهبت إحدى عيني وأنا أخوف ما أخاف عليّ فتنة النساء[2]. وقال عبادة بن الصامت: ألا ترون أني لا آكل إلا ما لوق لي، أي لين لي وسخن، ولا أقوم إلا رفدا وقد مات صاحبي، يعني ذكره، وما يسرني أني خلوت بامرأة لا تحل لي مخافة أن يأتيني الشيطان فيحركه على أنه لا سمع له ولا بصر[3]. وقال الحسن: معنى ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ أي خلق من ماء مهين. وقال ابن كيسان: معناه يستميله هواه وشهواته ويستطيشه خوفه وحزنه. قال ابن عباس: ثماني آيات من سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآيـة.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[4] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[5] ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾[6] ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾[7].

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي لا يأكل بعضكم مال بعض بالظلم وشهادة الزور واليمين الفاجرة والربا والقمار وغير ذلك من الغصب والسرقة والخيانة.

قوله عز وجل: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ استثناء منقطع، لأن المستثنى خلاف المستثنى منه، لأن التجارة ليست بباطلة كأنه قال: لكن كلوا مما ملكتم بالمبايعة عن تراض منكم. قرأ أهل الكوفة: تجارة ـ بالنصب على

---

(1) تفسير الطبري: 8/ 216.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 324.
(3) المصدر نفسه.
(4) سورة النساء (4)، الآية: 48، 116.
(5) سورة النساء (4)، الآية: 40.
(6) سورة النساء (4)، الآية: 110.
(7) سورة النساء (4)، الآية: 147.

معنى: إلا أن تكون الأموال تجارة. وقرأ الباقون بالرفع على معنى: إلا أن تقع تجارة. ويروى أنه لما نزلت هذه الآية امتنع الناس عن أكل الأموال بالهدية والهبة والضيافة حتى نزل قوله تعالى ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾[1] الآية..

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً فإنكم أهل دين واحد وأنتم كنفس واحدة. قال صلى اللّٰه عليه وسلم: «**المؤمنون كلهم كنفس واحدة وإذا ألم عضو تداعى له سائر الأعضاء للحمى والسهر**»[2]. وقيل: معناه لا يقتلن الرجل نفسه عند الضجر والغضب. قال صلى اللّٰه عليه وسلم: «**إن رجلاً ممن كان قبلكم أخذته قرحة في يده فقطعها فما رقى دمها حتى مات فقال اللّٰه: بادرني ابن آدم بنفسه فقتلها بيده فقد حرمت عليه الجنة**»[3]. وعن جابر بن سمرة[4] أن رجلاً ذبح نفسه فلم يصل عليه رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم[5]. وقال بعضهم: معناه لا تقتلوا أنفسكم لطلب المال بما يؤدي إلى التلف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي لا يرضى منكم قتل بعضكم بعضاً ولا أكل المال بالباطل فيرجع ضرره عليكم في الدنيا والدين.

قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي من يأكل المال بالباطل، ويقتل النفس بغير الحق عدواناً، أي اعتداء وجوراً بغير حل. والعدوان: أن تعدوا غير ما أمر به. والظلم: أن يقع الشيء في غير موضعه، يعني إذا فعل ذلك على وجه التعمد ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي ندخله

---

(1) سورة النور (24)، الآية: 61.

(2) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 12/ 50، رقم: 6011، كتاب الأدب ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 16/ 140.

(3) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 3/ 592، رقم: 1364، كتاب الجنائز.

(4) أبو عبد اللّٰه، جابر بن سمرة السوائي. نزل الكوفة وابتنى بها داراً، وتوفي بها في خلافة عبد الملك.
الإصابة: 1/ 212 ـ الطبقات الكبرى: 6/ 101 ـ تهذيب التهذيب: 2/ 39.

(5) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 325.

النار، وكان ذلك التعذيب على اللّه يسيراً لا يمنع كثرة رحمته من تعذيب من يستحق النار.

قوله عز وجل: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: إن تتركوا كبائر الذنوب نكفر عنكم الصغائر، كما روي عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**»[1]. ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ يعني الجنة. قرأ أهل المدينة: مدخلاً ـ بفتح الميم، وهو موضع الدخول، وقرأ الباقون بالضم على المصدر بمعنى الإدخال[2]. واختلفوا في الكبائر التي جعل اللّه اجتنابها تكفيراً للصغائر فقال ابن عباس: هي كل شيء سمى اللّه فيه النار لمن عمل بها أو شيء فيه حد الدنيا. وروي أن رجلاً أتى ابن عمر رضي اللّه عنهما فقال: إني أصبت ذنباً فأحب أن تعد علي الكبائر. فعد عليه سبعاً فقال: الإشراك باللّه. وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، واليمين الفاجرة[3]. وعن ابن مسعود: فالكبائر أربع: الإياس من روح اللّه، والقنوط من رحمة اللّه، والأمن من مكر اللّه، والشرك باللّه[4]. وقال مقاتل: الكبائر ما نهى اللّه عنه من أول هذه السورة إلى هذه الآية. ويقال: لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار. وعن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول اللّه أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو قد خلقك**». قلت: ثم ماذا؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك**». قال: قلت: ثم ماذا؟ قال: «**أن تزني بحليلة جارك**»[5]. وتصديق هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿68﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 1/ 209 ـ والبيهقي في شعب الإيمان: 3/ 308، رقم: 3619.

(2) مكي، الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 386.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 326.

(4) ذكره الطبري في تفسيره: 8/ 244.

(5) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 12/ 44، رقم: 6001، كتاب الأدب ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 2/ 80.

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾[1]. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**أكبر الكبائر الاشراك باللَّه واليمين الغموس وعقوق الوالدين وقتل النفس**»[2]. وعن أنس قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**أربع من الكبائر: الإشراك باللَّه. وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور**»[3].

سئل ابن عباس رضي اللَّه عنهما عن الكبائر أسبع هي؟ قال: هن إلى السبعين أقرب منهن إلى السبع[4]. ثم قال: الكبائر: الشرك، وعقوق الوالدين، وقتل المؤمن، والقنوط من رحمة اللَّه، والأمن من مكر اللَّه، والإياس من روح اللَّه، والسحر، والزنا، والربا، والسرقة، وأكل مال اليتيم، وترك الصلاة، ومنع الزكاة، وشهادة الزور، وقتل الولد خشية أن يأكل معه، والحسد، والكبر، والحيف في الوصية، وتحقير المسلمين. وقال سعيد بن جبير: كل ذنب أوعد اللَّه تعالى عليه النار فهو كبيرة[5]. وقال الضحاك: ما وعد اللَّه عليه حداً في الدنيا وعذاباً في الآخرة فهو كبيرة[6]. وقال بعضهم: ما سمى اللَّه في القرآن كبيراً وعظيماً فهو كبيرة، نحو قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[7] ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾[8] ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[9] ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[10] ﴿سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ﴾[11] ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[12]. وقال سفيان الثوري: الكبائر ما كان من المظالم بينك وبين العباد، والصغائر ما كان

---

(1) سورة الفرقان (25)، الآية: 68 ـ 69.
(2) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 6/ 26، رقم: 1964، باب في عقوق الوالدين.
(3) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 5/ 590، رقم: 2653، كتاب الشهادات.
(4) ذكره الطبري بسنده في تفسيره: 8/ 245.
(5) المصدر نفسه: 8/ 247.
(6) المصدر نفسه.
(7) سورة النساء (4)، الآية: 2.
(8) سورة الإسراء (17)، الآية: 31.
(9) سورة لقمان (31)، الآية: 13.
(10) سورة يوسف (12)، الآية: 28.
(11) سورة النور (24)، الآية: 16.
(12) سورة الأحزاب (33)، الآية: 53.

بينك وبين اللَّه، لأن اللَّه كريم يعفو[1]. وقيل: الكبائر ما نهى اللَّه عنه من الذنوب الكبائر، والسيئات: مقدماتها وتوابعها، مثل النظرة واللمسة والقبلة وأشباهها.. وقيل: الكبيرة ما قبح في العقل والطبع مثل: القتل والظلم والزنا والكذب والنميمة ونحوها... وقال بعضهم: الكبائر ما يستحقره العبد، والصغائر ما يستقطعه فيخاف منه.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي لا يتمنى الرجل مال أخيه ولا شيئاً من الذي لغيره، ولكن ليقل: اللهم ارزقني مثله. ولا يتمنى الرجل امرأة أخيه ولا دابته ولا خادمه.

قوله عز وجل: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي حظ من الأجر مما اكتسبوا من العمل الصالح، وللنساء حظ من الأجر مما عملن من العمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي من رزقه، إن اللَّه لم يزل بكل شيء من أعمال الرجال والنساء عالماً. عن جابر بن عبد اللَّه قال: بينما نحن عند رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وهو في نفر من أصحابه، إذ أقبلت امرأة حتى قامت عند رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ثم قالت: يا رسول اللَّه أنا وافدة النساء إليك، إن اللَّه عز وجل رب النساء ورب الرجال، وآدم أبو النساء وأبو الرجال، وحواء أم النساء وأم الرجال، وأنت بعثك اللَّه رسولاً منه إلى النساء والرجال، ثم الرجال إذا خرجوا في سبيل اللَّه فقتلوا فهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين، ونحن نحتبس عليهم ونخدمهم، فهل لنا من الأجر شيء؟ قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**أقرئي النساء مني السلام وقولي لهن: إن طاعة الزوج اعترافاً بحقه تعدل ما هنالك وقليل منكن تفعله**»[2]. وقال قتادة والسدي: لما نزل قوله تعالى: ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ قال الرجال: إنا لنرجو أن يفضلنا اللَّه على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهم

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 327.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 328.

بالميراث، فيكون أجرنا مثلي أجر النساء. وقال النساء: إنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال كما لنا في الميراث النصف من نصيبهم. فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ من الميراث والعقاب، وللنساء نصيب كذلك منه[1]. قال قتادة: يجزىء الرجل بالحسنة عشر أمثالها، والمرأة تجزىء عشر أمثالها أيضاً. قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي وخلف: واسئلوا اللّه من فضله، وسل من أرسلنا، فسل الذين يقرؤون بغير همز. وقرأ الباقون بالهمز[2]. قال صلى اللّه عليه وسلم: «**من لم يسأل اللّه من فضله غضب عليه**»[3]. وقال سفيان بن عيينة: لم يأمرنا بالمسألة إلا ليعطي[4]. قال اللّه تعالى:

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿33﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿34﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿35﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عز وجل: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أي لكل واحد من الرجال والنساء جعلنا موالي، أي عصبة يرثون مما ترك والداه وأقرباؤه من ميراثهم والوالدان والأقربون على هذا التأويل هم الوارثون. وقيل:

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 125 ـ تفسير الطبري: 8/ 265.

(2) مكي، الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 387.

(3) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 329.

(4) المصدر نفسه.

معناه ولكل جعلنا موالي، أي ورثة من الذين تركهم، ثم فسرهم فقال: الوالدان والأقربون يكون بمعنى: من والوالدان والأقربون على هذا التأويل هم الوارثون.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ في محل الرفع بالابتداء. والمعاقدة هي المعاهدة بين اثنين. وقرأ أهل الكوفة: والذين عقدت بغير ألف، أراد: عقدت لهم أيمانكم[(1)]. قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه طرف الرجل عاقده وحالفه وقال: أنت ابني ترثني وتعقل عني وأعقل عنك وتطلب بي وأطلب بك، فيكون للحليف السدس. ثم نسخ[(2)] ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[(3)]. وقال مجاهد: أراد بقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ النصر والعقل والرفد دون الميراث. فعلى هذا تكون الآية غير منسوخة لقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾[(4)] ولقوله صلى الله عليه وسلم: «**أوفوا للحلفاء بعهودهم التي عقدت أيمانكم**». وليس معنى قول ابن عباس إن هذه منسوخة نسخ حكمها من الأصل، ولكن معناه: تقديم ذوي الأرحام على أهل العقد وهو كحدوث ابن لمن له أخ لا يخرج إلا من أن يكون أهلاً للميراث، إلا أن الابن أولى منه، كذلك أولو الأرحام أولى من الحليف. فإذا لم يكن للميت رحم ولا عصبة فالميراث للحليف. ولهذا قال أصحابنا في من أسلم على يدي رجل ووالاه وعاقده ثم مات ولا وارث له غيره: إن ميراثه له. ولهذا قالوا: إن من أوصى بجميع ماله ولا وارث له صحت الوصية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ أي لم يزل شاهداً على كل شيء من إعطاء النصيب ومنعه.

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 388.
(2) الطبري في تفسيره: 8/ 276 ـ 277.
(3) سورة الأنفال (8)، الآية: 75. سورة الأحزاب: (33)، الآية: 6.
(4) سورة المائدة (5)، الآية: الأولى.

قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ قال ابن عباس ومقاتل: نزلت هذه الآية في سعد بن الربيع[1] وكان من النقباء، وفي امرأته ابنة محمد بن مسلمة وهما من الأنصار نشزت عليه فطلقها، فانطلق أبوها معها إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللَّه أفرشته كريمتي[2] فلطمها. فقال لها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**اقتصي منه**». وكان القصاص يومئذ بينهم في اللطمة والشجة والجراح. فانصرفت مع أبيها لتقتص منه، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**ارجعوا هذا جبريل أتاني**». فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**أردنا أمراً وأراد اللَّه أمراً، والذي أراد خير**». ورفع القصاص[3]. ومعناها: الرجال مسلطون على أدب النساء بالحق. والقوامون المبالغون بالقيام عليهن بتعليمهن وتأديبهن وإصلاح أمورهن. قوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ أي جعل اللَّه ذلك للرجال بفضلهم على النساء في العقل والرأي. وقيل: بزيادة الدين واليقين. وقيل: بقوة العبادة والجهاد. وقيل: بالجمعة والجماعات، وبإنفاقهم أموالهم في المهور وأقوات النساء.

قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ أي فالمحسنات مطيعات لله في أمر أزواجهن. وقيل: قائمات بحقوق أزواجهن. وأصل القنوت: مداومة الطاعة. قوله تعالى: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾ أي بحفظهن فروجهن وأموال أزواجهن في حال غيبة أزواجهن. ويدخل في حفظ المرأة لغيب الزوج أن تكتم عليه ما لا يحسن إظهاره من ما يقف عليه أحد الزوجين على الآخر. قوله تعالى: ﴿بِمَا حَفِظَ﴾ أي بحفظ اللَّه إياهن من معاصيه وبتوفيقه لهن. ويقال: بما حفظهن اللَّه في مهورهن وإلزام الزوج النفقة عليهن. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها**

---

(1) سعد بن الربيع الأنصاري من بني الحارث: أحد النقباء يوم العقبة. شهد بدراً واستشهد في أحد سنة ثلاث هجرية.
الاستيعاب: 2/ 579 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 522.

(2) أفرشته كريمتي: أي زوجته إياها.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 125، تفسير الثعلبي، ورقة: 330.

أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها»[1].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ أي النساء اللاتي تعلمون عصيانهن لأزواجهن فعظوهن. والنشوز: الترفع عن المصاحب، مأخوذ من النشز وهو المكان المرتفع. والمراد بالوعظ والهجر والضرب في الآية أن يكون ذلك على الترتيب المذكور فيها لأن هذا من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا أمكن الاستدراك بالأسهل والأخف لا يصار إلى الأثقل، فالأولى أن يبدأ الزوج فيقول لامرأته الناشزة: اتقي اللّه وارجعي إلى فراشي. فإن أطاعته وإلا سبَّها، هكذا قال ابن عباس. والهجر: الكلام الفاحش، يقال: هجر الرجل هجراً إذا هذى، وأهجر الرجل في منطقه يهجر إهجاراً إذا تكلم بقبيح. وقال الحسن وقتادة: قوله: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ من الهجر وهو أن لا يقرب فراشها ولا ينام معها لأن اللّه تعالى قرنه بقوله في المضاجع، وإذا لم ينفعها الوعظ هجرها زوجها في المضجع، فإن كانت تحب زوجها شق عليها الهجران، وإن كانت تبغضه وافقها ذلك فكان دليلاً على النشوز من قبلها فيضربها حينئذ ضرباً غير مبرح ولا شائن كما يؤدب الرجل ولده، ويكون ذلك موكولاً إلى رأيه واجتهاده على ما يرى من المصلحة[2]. ولهذا قيل: إن هذا الضرب مقيد بشرط السلامة، فالأولى أن يضربها بالنعل واللطم ضربتين أو ثلاثاً.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ أي فيما تلتمسون منهن فلا تبغوا عليهن سبيلاً، أي لا تطلبوا عليهن عللاً، ولا تكلفوهن الحب لكم فإنهن لا يملكن ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ أي علا فوق كل شيء، فلا شيء أكبر منه. أراد بالعلي العلو في القهر والقدرة لا علو المكان وأراد بالكبير الجلال والعظمة والمعنى: إني مع علوي وكبريائي أرضى من عبادي بالطاعة ولا آخذهم بالحب الذي لا غاية بعده، فإن في أكثر عبادي من يؤثر نفسه عليّ ولا يخلص حبه لي

---

(1) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 5/ 81 ـ رقم: 1648 ـ وابن ماجه في سننه: 1/ 596، رقم: 1857، باب أفضل النساء.

(2) تفسير الطبري: 8/ 305.

كل الإخلاص. وقد روي أنه لما كان شكا الرجال نساءهم إلى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فأمرهم بالضرب، أصبح بباب رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم سبعون امرأة يشكون أزواجهن فأقبل على أصحابه بعد الصلاة وقال: «**إن المرأة خلقت من ضلع أعوج، فإن أردتم إقامتها كسرتموها وإن رفقتم بها استمتعتم بها على عوج**». ثم قال: «**خيركم خيركم لأهله**»[1].

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ أي وإن علمتم أيها المؤمنون بعد العظة والهجران تباعد الزوجين عن الحق وهو أن يكون كل واحد منهما في شق على حدة ولم تدروا من أيهما جاء النشوز فابعثوا عدلاً ذا رأي وعقل من أهل الزوج وعدلاً من أهل المرأة يختار الحاكم حكماً من أهله وحكماً من أهلها فيخلو حكم الزوج به فيقول: أخبرني بما في نفسك، أتهواها أم لا؟ فأنا لا أدري ما أقول وما أعمل حتى أدري ما تريد. فإن قال: أهواها، ولكنها تسيء معاشرتي فعظها وأرضها عني علم أن الرجل ليس بناشز، وإن قال: لا حاجة لي فيها[2] فرق بيني وبينها، وخذ لي منها ما استطعت علم أنه ناشز. وكذلك يفعل حكم المرأة. ثم يلتقي الحكمان فيصدق كل واحد منهما صاحبه فيما سمع، فيقبلان على الزوج إن كان ناشزاً فيقولان: يا عدو اللّٰه أنت العاصي للّٰه الظالم على امرأتك. ويعظانه ويزجرانه. وكذلك يفعلان بالمرأة إن كانت هي الناشزة، فذلك قوله: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ أي أن الحكمين إذا أرادا عدلاً ونصيحة ألَّف اللّٰه بين الزوجين ويقال: وفّق اللّٰه بين أقوال الحكمين، إن اللّٰه كان عليماً بأمر الحكمين خبيراً بنصيحتهما. ويقال: عليماً بما فيه صلاح الخلق خبير بذلك. وذهب بعض العلماء إلى أن الحكمين إذا رأيا أن يفرقا فرقا بينهما، وكذلك إذا رأى الحاكم أن يفرق فعل إذا وقع اليأس من زوال الشقاق[3]، واعتبروا ذلك بالسنة. فأما عند أصحابنا رحمهم

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 1/ 61، رقم: 27.

(2) في النسخة (ف): منها.

(3) تفسير القرطبي: 5/ 175.

اللَّه فليس للحكمين أن يفرقا إلا أن يكونا وكيلين في الخلع من الجانبين أو يرضى الزوج بتفريقهما.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (36) ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (37) وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا (38) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (39)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ أي وحدوا اللَّه تعالى وأطيعوه ولا تعبدوا معه غيره فإن ذلك يفسد عبادته. قالت الحكماء: العبودية ترك الاختيار وملازمة الذلة والافتقار. وقيل: العبودية أربعة أشياء: الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرضى بالموجود، والصبر على المفقود. قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ أي أحسنوا بالوالدين إحساناً، وقد يذكر المصدر المنصوب على تقدير فعل محذوف كقوله تعالى: : ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾[1] ومعناه: الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ أي أحسنوا بذوي القرابة وباليتامى والمساكين والإحسان إلى ذوي القربى هو مواساة الفقير منهم إذا خاف عليه ضرر الجوع والعري، وحسن العشرة وكف الأذى عنه والمحاباة دونه ممن يريد ظلمه. وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رجلاً شكا إلى رسول اللَّه

---

(1) سورة محمد (47)، الآية: 4.

صلى اللّه عليه وسلم قسوة في قلبه فقال: «**إن أردت أن يلين قلبك فأطعم المسكين وامسح برأس اليتيم وأطعمه**»(1).

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾. قال صلى اللّه عليه وسلم: «**الجيران ثلاثة**»: جار له ثلاثة حقوق وهو الجار القريب المسلم، وجار له حقان: وهو الجار الأجنبي المسلم، وجار له حق واحد وهو الجار الكافر»(2). فعلى هذا يكون معنى الجار الجنب هو الجار الذي هو من قوم آخرين لا قرابة بينك وبينه. ويقال: إن الجار ذي القربى هو الذي يقاربك في الجوار تعرفه ويعرفك، والجار الجنب هو الجار القريب(3) المتباعد. والجنب في اللغة: البعيد. وقرأ الأعمش: والجار الجنب ـ بفتح الجيم وإسكان النون ـ وهما لغتان(4). يقال: رجل جَنب وجُنب إذا لم يكن قريباً، وجمعه أجانب. وقيل للجنب جنب لاعتزاله الصلاة وبعده من المسجد حتى يغتسل. وقال بعضهم: الجار الجنب هو الكافر. وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ هو الرفيق في السفر المنقطع إلى الرجل رجاء خيره، كذا قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير وعكرمة وقتادة(5). وقال بعضهم: الصاحب بالجنب: هو الملاصق داره بدارك فهو إلى جنبك. ويقال: هو جار الرجل في البيت الواحد. وقال علي وعبد اللّه وابن أبي ليلى(6) والنخعي: هي الزوجة تكون معه إلى جنبه(7). وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**ليس بمؤمن من لا يأمن جاره بوائقه(8). وأيما جار أغلق بابه دون**

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 7/ 472، رقم: 11034.

(2) نفسه: 7/ 83 ـ 84، رقم: 9560، باب في إكرام الجار.

(3) في النسخة (ف): الغريب.

(4) تراجع هذه القراءة في تفسير الثعلبي، ورقة: 331.

(5) نفسه.

(6) أبو عيسى، عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري: الفقيه المقرىء العالم بالقرآن وأحكامه. قرأ على حمزة وحدث عن الشعبي وعطاء وغيرهما، وحدث عنه شعبة والسفيانان وغيرهم. توفي سنة ثمان وأربعين ومائة هجرية.
الداودي، طبقات المفسرين: 1/ 269 ـ تذكرة الحفاظ: 1/ 58 ؛ غاية النهاية: 3/ 376.

(7) تفسير الطبري: 8/ 343.

(8) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 2/ 17، باب بيان تحريم إيذاء الجار.

جاره مخافة على أهله وماله فليس جاره ذلك بمؤمن». قالوا: يا رسول اللَّه ما حق الجار؟ قال: «**إن دعاك أجبته، وإن أصابته فاقة عدت عليه، وإن استقرضك أقرضته، وإن أصابه خير هنيته، وإن مرض عدته وإن أصابته مصيبة عزيته، وإن مات شهدت جنازته، ولا تستعل عليه بالبنيان لتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها، وإن اشتريت فاكهة فأهد له منها، وإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج ولدك منها شيئاً فيغيظ ولده[1] به**». وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من آذى جاره فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى اللَّه**».

قوله تعالى: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال مجاهد والربيع: هو المسافر، ومعناه: صاحب الطريق. وقال قتادة والضحاك: هو الضيف ينزل بك. سمي ابن السبيل لأنه كالمجتاز الذي لا يقيم. والضيافة ثلاثة أيام وما زاد صدقة. وقال الشافعي: هو الذي يريد السفر ولا نفقة له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾ يعني المماليك أحسنوا إليهم ولا تكلفوهم إلا طاقتهم. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فإنهم لحم ودم وخلق أمثالكم**»[2]. وقال أنس: كانت وصية رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عند وفاته: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**»[3]. جعل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يغرغر بهذه الكلمة في صدره وما يفيض بها لسانه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ لا يرضى عمل من يختال في مشيته ويفتخر على الناس بكبره. وإنما ذكر المختال في هذه الآية لأن المختال يأنف من ذوي قرابته إذا كانوا فقراء. ومن جيرانه إذا كانوا كذلك، ولا يحسن عشرتهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره من حديث معاذ بن جبل: 5/ 188.
(2) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 14/ 67، رقم: 5136.
(3) رواه ابن ماجه في سننه: 2/ 900، رقم: 2697.

﴿ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ يجوز أن يكون أول هذه الآية في موضع نصب بدلاً من قوله: ﴿مَن كَانَ مُخۡتَالٗا﴾ ويحتمل أن يكون نصباً على الذم على معنى: أعني الذين يبخلون، ويحتمل أن يكون رفعاً على الاستئناف على إضمار هم الذين يبخلون. قال ابن عباس ومجاهد: المراد بالآية: اليهود بخلوا بما كان عندهم من العلم بأمر النبي صلى اللَّه عليه وسلم وأمروا قومهم بالبخل وهو الكتمان. ويقال: كانوا لا يعطون من أموالهم شيئاً، ويأمرون الناس بذلك[1]. وقال بعضهم: الآية عامة في كل من يبخل بما أوتي من المال ويكتم ما أعطاه اللَّه من النعيم، لا يخرج زكاته. فعلى هذا يكون المراد بالكافرين في الآية كافري النعم دون الكفار باللَّه. فأما على التأويل الأول فالمراد بالكافرين اليهود. والبخل: منع الواجب. قرأ يحيى بن يعمر ومجاهد وحمزة والكسائي وخلف: بالبَخَل ـ بفتح الباء والخاء ـ. وقرأ قتادة وأيوب بفتح الباء وسكون الخاء. وقرأ عيسى بن عمر بضم الباء والخاء. وقرأ الباقون بضم الباء وسكون الخاء، وكذلك في سورة الحديد، وكلها لغة معروفة فيه. إلاّ أن اللغة الغالبة ضم الباء وسكون الخاء، وبفتح الباء والخاء لغة الأنصار[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ في محل نصب عطفاً على الذين يبخلون، وإن شئت جعلته خفضاً عطفاً على قوله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾. قال السدي: نزلت هذه الآية في المنافقين الذين يراؤون الناس في الإنفاق ولا يتصدقون في السر. وقيل: المراد به كفار مكة أنفقوا على الناس وقت خروجهم إلى حرب بدر[3].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ أي من يفعل ما يدعوه إليه الشيطان ويسأله له فبئس قرينه الشيطان يغويه في الدنيا ويكون قريناً معه في السلسلة في النار. وقريناً نصب على التمييز، وقيل على القطع، أي قطع الألف واللام.

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 8/ 352 ـ 353 ـ والواحدي في أسباب النزول: ص 126.
(2) ينظر: مكي، الكشف: 1/ 389 ـ وتفسير الثعلبي، ورقة: 332.
(3) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 332 ـ والقرطبي في تفسيره: 5/ 193 ـ 194.

قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ما الذي عليهم لو صدقوا بالله واليوم الآخر وتصدقوا مما رزقهم الله من الأموال، وما فرض عليهم من الصدقة، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (39)﴾ أنهم لا يؤمنون. وفي الآية بيان أنهم إنما كفروا لسوء اختيارهم وقلة تأملهم مع قدرتهم على الإيمان، لأنه لا يحسن أن يقال لمن لا يقدر على الشيء: ماذا عليك لو فعلت كذا؟

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (41) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (42) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (43)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي لا ينقص من جزاء الأعمال زنة نملة حميراء صغيرة. والمثقال: مفعال من الثقل، وهو ما يوزن به الشيء، ومن ذلك سمي ما يوزن به الدينار مثقالاً، لأنه يعادله في الثقل. وقرأ عبد الله: إن الله لا يظلم مثقال نملة[1]. والمعنى: أن الله لا ينقص أحداً من خلقه من ثواب عمله وزن ذرة بل يجازيه عليها ويثيبه بها. وقال بعضهم: الذرة الهباء في الكوة وكل جزء منها ذرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ قراءة العامة: حسنة ـ بالنصب على معنى ـ: وإن تك الفعلة حسنة. وقرأ أهل الحجاز بالرفع على معنى: وإن تقع حسنة أو توجد حسنة[2]. قوله تعالى: ﴿يُضَاعِفْهَا﴾ قرأ الحسن بالنون، والباقون

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 333.
(2) مكي، الكشف: 1/ 389.

بالياء، وهو الصحيح لقوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ﴾ . وقرأ أبو رجاء وابن كثير وابن عامر: يضعفها ـ بالتشديد ـ يجعلها ضعفين[1]. قال الضحاك: أراد بالحسنة التوبة، ومن لم يكن له إلا حسنة واحدة مقبولة غفر اللّٰه له. وقيل: معناه: إذا زاد على سيئاته مثقال ذرة من الحسنة يضاعفه اللّٰه حتى يجعله مثل أحد ويوجب له الجنة، ويعطيه من عنده الزيادة على ما يستحقه من جزاء عمله، فذلك الأجر العظيم لا يعلم مقداره إلا اللّٰه.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو الجنة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ معناه: كيف يصنع الكفار وكيف يكون حالهم يوم القيامة إذا جئنا من كل جماعة بشهيد عليهم ولهم، وجئنا بك يا محمد على هؤلاء الذين أرسلت إليهم شهيداً، تشهد لمن صدق بالتصديق، وعلى من كذب بالتكذيب؟

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ معناه: يوم وقوع الشهادة يتمنّى الذين كفروا باللّٰه وعصوا الرسول أن الأرض تسوى بهم يمشي عليها أهل الجمع، ويودون أنهم لم يكتموا اللّٰه حديثاً وذلك حين يميِّز اللّٰه أصحاب اليمين من أصحاب الشمال، ويقول للوحوش والطيور والبهائم: كوني تراباً. ويرى الكفار ذلك، ويرون ما أكرم اللّٰه المسلمين، فيقول بعض الكفار لبعض: هلموا نقول إذا سئلنا واللّٰه ربنا ما كنا مشركين، فيقولون ذلك فيختم اللّٰه على ألسنتهم ويأذن لجوارحهم في الكلام فتشهد عليهم عند ذلك فيقولون: يا ليتنا كنا تراباً! ويتمنون أنهم لم يكتموا اللّٰه حديثاً لأنهم كانوا كذبوا في قولهم: ما كنا مشركين. وقال بعضهم: معنى ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾: كلام مستأنف غير داخل في التمني، ومعناه: لا يقدرون على كتمان شيء مما علموه لظهور ذلك عند اللّٰه، أي لا يفيد كتمانهم. وقال الكلبي: يقول اللّٰه تعالى للبهائم والوحش والطير: كوني تراباً. فتسوى بهم الأرض، فعند ذلك يتمنّى الكافر أن يكون كذلك[2]. وقال عطاء: معناه يود الذين كفروا

---

(1) تفسير القرطبي: 5/ 195.

(2) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 334 قول الكلبي.

لو تسوى بهم الأرض ولم يكونوا كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ولا نعته[1]. قرأ أهل المدينة والشام: تسوى ـ بفتح التاء والتشديد ـ على معنى تتسوى، فأدغمت التاء الثانية في السين. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً بفتح التاء والتخفيف على حذف أحد التاءين مثل قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[2] وقرأ الباقون: بضم التاء والتخفيف على المجهول، أي لو سويت بهم الأرض وصاروا هم والأرض شيئاً واحداً[3].

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في جماعة من الصحابة كانوا يشربون الخمر قبل التحريم ثم يأتون الصلاة مع النبي صلى الله عليه وسلم فيصلون معه، فنهاهم الله تعالى عن ذلك[4]. وتأويل الآية على هذا: لا تقربوا مواضع الصلاة وهو المسجد وأنتم سكارى حتى تعلموا ما يقرأ إمامكم في الصلاة. وسكارى جمع سكران، وذلك خطاب لمن لم يبلغ به السكر إلى حد لا يفهم الكلام كله، لأن الذي لا يفهم شيئاً لا يصح أن يخاطب. فكانوا بعد نزول هذه الآية يجتنبون السكر أوقات الصلاة حتى نزل تحريم الخمر في سورة المائدة. وقال مقاتل: نزلت في جماعة من الصحابة كانوا يشربون الخمر في دار عبد الرحمن بن عوف قبل التحريم، فحضرت صلاة المغرب فقدموا رجلاً فقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ وقال: أعبد ما تعبدون وحذف «لا» في جميع السورة، فأنزل الله هذه الآية[5]، فمعناها على هذا: لا تقربوا نفس الصلاة وأنتم السكارى حتى تعلموا ما تقرأون. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال بعد نزول هذه الآية: اللهم إن الخمر تضر بالعقول والأموال فأنزل فيها أمرك. فصبحهم الوحي بآية المائدة. قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ أي لا تقربوا

---

(1) المصدر نفسه.

(2) سورة هود (11)، الآية: 105.

(3) ذكر مكي في الكشف: 1/ 390 هذه القراءة، وكذا الثعلبي في تفسيره.

(4) الطبري في تفسيره: 8/ 376.

(5) يراجع: الواحدي في أسباب النزول: 127 ـ وتفسير الثعلبي، ورقة: 334 ـ رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 8/ 380، رقم: 5016، تفسير سورة النساء.

مواضع الصلاة وأنتم جنب حتى تغتسلوا إلاّ أن تكونوا مجتازين، وإذا لم يكن الماء إلا في المسجد تيمم الجنب ودخل المسجد ثم أخذ الماء ثم خرج واغتسل. وقال الشافعي: يجوز للجنب العبور في المسجد بغير تيمم ولا يجوز له الإقامة فيه، وقيل معنى الآية: لا تصلوا وأنتم جنب إلاّ أن تكونوا مسافرين لا تجدون الماء فتتيممون وتصلون. هكذا روي عن علي كرّم اللّه وجهه ومجاهد والحكم[1]. وانتصب قوله «جنباً» على الحال، أي لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي إذا كنتم مرضى فخفتم الضرر باستعمال الماء أو كنتم مسافرين ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ معناه: وجاء أحدكم من الغائط. والغائط: هو المكان المطمئن من الأرض، يقال: تغوَّط الرجل إذا دخل المكان المطمن لقضاء الحاجة. ويجعل هذا اللفظ كناية عن ذلك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قال علي وابن عباس رضي اللّه عنهما: معناه أو جامعتم النساء، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة. وقال ابن مسعود وابن عمر والنخعي والشعبي: أراد به اللمس باليد، وكانوا لا يبيحون للجنب التيمم[2]. واختلف العلماء في هذا فقال الشافعي: إذا مسَّ الرجل بدن المرأة نقض وضوءه سواء كان باليد أو بغيرها من الأعضاء. وقال الأوزاعي: إن مسها باليد نقض، وإن كان بغير اليد لم ينقض. وقال مالك وابن حنبل والليث بن سعد: إن كان اللمس لشهوة نقض وإلا فلا. وقال أبو حنيفة وأبو يوسف: إن كان ملامسة فاحشة تحدث الانتشار مع[3] التجرد نقض وإلا فلا. وقال محمد: لا تنقض الملامسة بحال، وبه قال ابن عباس والحسن البصري. دليل الشافعي ما روي أن النبي صلى اللّه عليه وسلم نهى عن بيع الملامسة[4]. واللمس أكثر

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره: 5/ 206.

(2) تفسير القرطبي: 5/ 225.

(3) في النسخة (ف): في التجرد.

(4) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري: 5/ 94، رقم: 2144، كتاب البيوت ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 733، رقم: 2169.

ما يستعمل في لمس اليد. وحجة من لم يوجب الوضوء بالملامسة: ما روي عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: كنت أنام بين يدي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وهو يصلي ورجلاي في قبلته، فإذا سجد وغمزني قبضت رجليّ فإذا قام بسطتهما والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح(1). وعن عائشة رضي اللَّه عنها أنها قالت: فقدت النبي صلى اللَّه عليه وسلم ذات ليلة فجعلت أطلبه بيدي، فوقعت يدي على قدميه وهما منصوبتان وهو ساجد يقول: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**». فلما فرغ من الصلاة قال لي: «**أتاك شيطانك**». قالوا: فلمسته عائشة وهو في الصلاة فمضى فيها. وعن عائشة رضي اللَّه عنها أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم كان يقبّل بعض أزواجه ثم يصلي ولا يتوضأ(2). ومذهب الشافعي في الملامسة على ثلاثة أوجه: لمس ينقض الوضوء، قولاً واحداً، وهو لمس الشابة الأجنبية بأي جزء من أجزائه، ساهياً كان أو متعمداً، حية كانت أو ميتة، ولمس لا ينقض قولاً واحداً، وهو لمس الشعر والظفر والسن؛ ولمس فيه قولان: وهو لمس الصغيرة والعجوز الكبيرة أو ذوات محارمه، أحدهما ينقض الوضوء لأنهن من جملة النساء، والثاني لا ينقض لأنه لا مدخل للشهوة فيهن. دليله أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم كان يصلي وهو حامل لأمامة بنت زينب(3) وأبوها أبو العاص(4). وكان اللمس من خلف الحائل لا ينقض، سواء كان الحائل ضعيفاً أو رقيقاً. [وقال مالك: إن كان رقيقاً نقض. وقال الليث بن ربيعة: ينقض سواء كان ضعيفاً أو رقيقاً](5). وفي الملموس للشافعي

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح البخاري: 2/ 46، رقم: 382، كتاب الصلاة.

(2) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 1/ 281، رقم: 86 ـ وابن ماجه في سننه: 1/ 168، رقم: 502.

(3) زينب بنت الرسول صلى اللَّه عليه وسلم، بنت خديجة بنت خويلد، تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، أسلمت وهاجرت إلى المدينة، ثم أسلم أبو العاص وهاجر، فردّ الرسول صلى اللَّه عليه وسلم له زوجته. أما أمامة فتزوجها علي بن أبي طالب بعد فاطمة. الطبقات الكبرى: 8/ 25.

(4) ذكره ابن سعد في: الطبقات الكبرى: 8/ 185، في ترجمة أمامة بنت أبي العاص.

(5) ما بين المعقوفين ساقط من النسخة (ف).

قولان: أحدهما ينقض لاشتراكهما في الالتذاذ به، والثاني: لا ينقض لخبر عائشة: فوقعت يدي على أخمص رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ أي إذا لم تقدروا على استعمال الماء. وقد يذكر الموجود ويراد به القدرة على استعمال الماء، فإن كان بينه وبين الماء سبع أو عدو لم يكن واجداً للماء في الحكم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي فاقصدوا تراباً طاهراً. ويقال: إن الصعيد ما يتصاعد على وجه الأرض تراباً كان أو صخرة لا تراب عليها، لأن اللَّه قال: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [1] وإذا كان على الصخرة تراب لا يكون زلقاً، ولهذا جوَّز أبو حنيفة ومحمد التيمم بكل ما كان من جنس الأرض. وقال مالك: يجوز التيمم بالأرض وبكل ما اتصل بها حتى لو ضرب يده على شجرة ثم تيمم عليها أجزأه. وقال الشافعي: لا يجوز إلاّ بالتراب الذي يعلق باليد. والتيمم من خصائص هذه الأمة. وسبب نزول هذه الآية ما روي عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: كنا مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وكان معي عقد استعرته من أسماء فانقطع حتى إذا كنا بالبيداء[2] افتقدته فأخبرت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فأناخ وأناخ الناس معه، فأمر بالتماسه فلم يوجد، فباتوا ليلتهم تلك وليس عندهم ماء، فجاء الناس إلى أبي بكر رضي اللَّه عنه فقالوا: ألا ترى إلى عائشة حبست الناس على غير ماء. فجاء أبو بكر ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم واضع رأسه علي قد نام، فعاتبني وقال: قبحها اللَّه من قلادة حبست المسلمين على غير ماء وقد حضرت الصلاة. ثم طعن بيده في خاصرتي فما منعني من التحرك إلا أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم كان واضعاً رأسه على فخذي فأصبحنا على غير ماء، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية. ثم وجدنا القلادة تحت البعير الذي كنت عليه، فقال أسيد بن حضير: ما هذا

---

(1) سورة الكهف (18)، الآية: 40.
(2) البيداء: الفلاة والصحراء ليس بها ماء.

بأول بركتكم يا آل أبي بكر جزاك اللّه خيراً، فواللّه ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل اللّه لك وللمسلمين فيه خيراً[1].

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ﴾ معناه: بعد ضرب الأيدي على الصعيد الطيب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي متفضلاً عليكم بتسهيل الأوامر وتحقيقها، لأنه نقلكم من الوضوء إلى التيمم، غفوراً متجاوزاً عنكم فيغفر لكم هذه الطاعات المسهلة ذنوبكم. روى جابر قال: خرجنا في سفرنا فأصاب رجلاً منا شجة في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه: هل تجدون لي رخصة؟ قالوا: لا، أنت تقدر على الماء فاغتسل. فمات. فلما قدمنا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أخبرناه بذلك فقال: قتلوه قتلهم اللّه، هلا سألوه إذا لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم[2].

قال اللّه تعالى:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ (44) وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا (45) مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا (46)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ قال ابن عباس: هم اليهود كانوا يستبدلون الضلالة بأخذ الرشاء بكتمان صفة النبي صلى اللّه عليه وسلم، يأخذون الرشوة على كتمانهم بعدما أتوا العلم[3].

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 127.
رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 1/ 373 ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 1/ 109.
(2) رواه الدارقطني في سننه: 1/ 190.
(3) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 341.

قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي يريدون أن تضلوا أنتم طريق الهدى كما ضلوا بأنفسهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾ أي هو أعلم بهم بعلمكم ما هم عليه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا﴾ أي أن عداوة اليهود لا تضر المسلمين إذ ضمن لهم النصر والولاية، أي اكتفوا بولاية اللّه ونصرته قرأ الحسن: أن تضلوا السبيل ـ بفتح الضاد[1] ـ أي عن السبيل. وقيل: معناه واللّه أعلم بأعدائكم، أي أعلم بهم منكم فلا تستنصحوهم. ويجوز أن يكون أعلم بمعنى عليم.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ إن شئت جعلته متصلاً بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، وإن شئت جعلتها منقطعة مستأنفة. قال ابن عباس: كانوا يأتون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيسألونه عن الأمر فيخبرهم، ويرى أنهم كانوا يأخذونه، فإذا انصرفوا من عنده حرفوا كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ويقولون له: سمعنا قولك. ويقولون في أنفسهم: وعصينا أمرك. وقال بعضهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾ على جهة التبيين للأعداء، كما يقال: هذا الثوب من القطن.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا﴾ معناه أنهم كانوا إذا كلموا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بشيء قالوا: اسمع. وقالوا في أنفسهم: لا أسمعت ولا سمعت. وقيل: معناه غير مجاب إلى شيء مما يدعو إليه، وكانوا يقولون: راعنا. يوهمون أنهم يريدون بهذا القول: أنظرنا حتى نكلمك بما نريد. وكانوا يريدون بذلك السب بالرعونة بلغتهم. ويقال: كانوا يقولون هذه الكلمة على وجه التحير والتكبر، كما يقول المتكبر لغيره: افهم كلامي واسمع قولي. وكانوا يقولون: أرعنا سمعك وتأمل كلامنا ومثل هذا مِمَّا لا يخاطب به الأنبياء صلوات اللّه عليهم إنما يخاطبون بالإجلال والإعظام.

---

(1) المصدر نفسه.

قوله تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ أي كانوا يلوون ألسنتهم بالسب والتعيير والطعن في الدين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا﴾ معناه: لو قالوا سمعنا قولك وأطعنا أمرك مكان قولهم سمعنا وعصينا، وقالوا: ﴿وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا﴾ نسمع قولك ونفهم كلامك مكان قولهم: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا﴾ وأصوب ﴿وَلَٰكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي خذلهم وأبعدهم من رحمته مجازاة لكفرهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلا إيماناً قليلاً. وقيل: معناه فلا يؤمنون إلا قليلاً منهم وهم: عبد اللَّه بن سلام ومن تابعه.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (47) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (48) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (49) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (50) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (51) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (52) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (53)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي يا أيها الذين أعطوا علم التوراة صدقوا بهذا القرآن الذين نزلناه على محمد صلى اللَّه عليه وسلم، موافقاً لما معكم من التوراة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ أي من قبل أن نمحو آثار الوجوه عنها فنخسف بالعين والأذى وغير ذلك من آثار الوجوه فنحولها إلى الأقفية فيمشون القهقرى. وروي أنه لما نزلت هذه الآية

قدم عبد اللَّه بن سلام من الشام فأتى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من قبل أن يأتي أهله فقال: يا رسول اللَّه ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحوّل وجهي في قفاي[1]. ويقال في معنى ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾: نجعل وجوههم على هيئة أقفائهم. ومعنى ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾: أو نجعلهم قردة كما مسخنا أصحاب السبت ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ قضاؤه كائناً لا شك فيه. فإن قيل: كيف قال اللَّه تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ وأوعدهم بطمس الوجوه إن لم يؤمنوا، ثم لم يؤمنوا ولم يقع الطمس؟ قيل: يحتمل أن يكون هذا وعيداً لهم على ترك جميعهم الإسلام، وقد آمن منهم جماعة بعد هذه الآية: كعبد اللَّه بن سلام وعبد اللَّه بن ثعلبة، وأسيد بن ثعلبة، وأسيد بن عبيد وغيرهم. ويحتمل أن يكون المراد بالآية الطمس في الآخرة، وسيفعل اللَّه ذلك بهم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ قال الكلبي: نزلت في المشركين: وحشي، وابن حرب، وأصحابه، وكان قد جعل لوحشي إن هو قتل حمزة أن يعتقه مولاه فلم يوف له بذلك. فلما قدم مكة ندم هو وأصحابه على قتل حمزة فكتبوا إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن قد ندمنا على ما صنعنا، وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول إذ كنت عندنا بمكة: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿68﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿69﴾﴾[2] وقد دعونا مع اللَّه إلـهاً آخر، وقتلنا النفس، وزنينا، ولولا هذه الآية لاتبعناك. فنزل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾[3] الآية. فبعث رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى وحشي وأصحابه، فلما قرؤوها كتبوا إليه: إن هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملاً صالحاً فلا نكون من أهل هذه الآية. فنزل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 341.
(2) سورة الفرقان (25)، الآية: 68 ـ 69.
(3) سورة الفرقان (25)، الآية: 70.

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] فبعث بها إليهم، فقالوا: نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة. فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[2] فبعث بها إليهم فوجدوها أوسع مما كان قبلها، فدخل هو وأصحابه في الإسلام، ورجعوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقبل منهم، فقال صلى اللّه عليه وسلم لوحشي: «**أخبرني كيف قتلت حمزة؟**» فلما أخبره قال: «**ويحك غيِّب وجهك عني**». فلحق وحشي بالشام وكان فيها إلى أن مات[3]. قالوا: مات وفي بطنه الخمر.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي ومن يشرك باللّه سواه فقد اختلق على اللّه كذباً عظيماً غير مغفور له.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في بحري بن عمرو ومرحب بن زيد أتيا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومعهما طائفة من اليهود بأطفالهم فقالوا: يا محمد هل لأولادنا هؤلاء من ذنب؟ قال: لا. فقالوا: والذي يحلف به ما نحن إلا مثلهم، ما من ذنب نعمله بالنهار إلا يكفر عنا بالليل، وما من ذنب نعمله بالليل إلا يكفر عنا بالنهار[4]. فهؤلاء الذين زكوا أنفسهم برؤوها من الذنوب فزعموا أنهم أزكياء بقول اللّه تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ أي يطهره من الذنوب ويصلح من يشاء ممن كان أهلاً لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي لا ينقصون من جزاء ما يستحقونه قدر الفتيل، وهو ما تفتله بين أصبعيك من الوسخ إذا مسحت إحداهما بالأخرى. وقيل: الفتيل ما في بطن النواة في شقها من لحافها. والنقير: النقرة التي تكون في ظهر النواة. والقطمير: جملة ما التف عليها من لحافها.

---

(1) سورة النساء (4)، الآية: 48، 116.
(2) سورة الزمر (39)، الآية: 53.
(3) ذكره البغوي في تفسيره: معالم التنزيل: 2/ 87.
(4) الواحدي، أسباب النزول: 128 ـ وتفسير البغوي: 2/ 87.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ أي انظر يا محمد كيف يختلق اليهود الكذب على اللَّه، وكفى بما يفعلونه ذنباً بيناً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾. قرأ السلمي: ألم تر ـ ساكنة الراء ـ في كل القرآن[1] كما قال الشاعر:

من يهده اللَّه يهتد لا مضل له ∴ ومن أضل فما يهديه من هاد

قال ابن عباس: ركب كعب بن الأشرف في سبعين راكباً من اليهود وفيهم حيي بن أخطب ومالك بن الصيف وغيرهم إلى أهل مكة ليحالفوهم على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه قبل أجله، فقال أبو سفيان: يا معشر أهل الكتاب، أنشدكم باللَّه أينا أقرب إلى الهدى والحق أنحن أم محمد وأصحابه؟ فإنا نعمر مسجد اللَّه، ونسقي الحاج، ونحجب الكعبة، ونصل الرحم، ومحمد قطع أرحامنا واتبعه شرار الحجيج بنو غفار فنحن أهدى أم هم؟ فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية[2]، ومعناها: ألم ينته علمك يا محمد إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، أي علماً بالتوراة وما فيها من نعت محمد وصفته، يصدقون بالجبت والطاغوت. قال ابن عباس: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف. وقيل: الجبت الكهنة، والطاغوت الشياطين. وقيل: الجبت والطاغوت صنمان كان المشركون يعبدونهما من دون اللَّه. وقيل: الجبت الصنم، والطاغوت مترجم الصنم لهم عن الصنم على لسانه. وقال أهل اللغة: كل معبود سوى اللَّه تعالى من حجر أو مدر أو صورة فهو جبت وطاغوت، دليله قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾[4]. وقال مجاهد: الجبت الشجر، والطاغوت الشيطان، يدل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ

---

(1) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 343 هذه القراءة.
(2) الواحدي، أسباب النزول: 129.
(3) سورة النحل (16)، الآية: 36.
(4) سورة الزمر (39)، الآية: 17.

﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾[1]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾[2]. وقال بعض المفسرين: لما خرج كعب بن الأشرف هو ومن معه إلى أهل مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشاً على عداوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، نزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه، ونزل اليهود في دور قريش، فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردت يا كعب أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما. ففعل هو وأصحابه، فذلك قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ ثم قال كعب لأهل مكة: يجيء منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب البيت لنجهدن على قتال محمد. ففعلوا ذلك ثم قال أبو سفيان: يا كعب إنك امرؤ تقرأ الكتاب ونحن أميون لا نعلم، فمن أهدى سبيلاً وأقرب إلى الحق نحن أم محمد؟ فقال كعب: أنتم واللّه أهدى سبيلاً من الذي عليه محمد. فأنزل اللّه هذه الآية[3]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يعني كعباً وأصحابه ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ يعني الصنمين ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي لأبي سفيان وأصحابه: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعدهم من رحمته، ومن يبعده اللّه من رحمته فلن تجد له نصيراً ينصره.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿53﴾﴾ أي لهم نصيب. والميم زائدة، وهذا على وجه الإنكار أي ليس لهم من الملك شيء ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ يعني محمداً وأصحابه لا يعطونهم شيئاً من حسدهم وبخلهم وبغضهم ورفع قوله: ﴿يُؤْتُونَ﴾ لاعتراض «لا» بينه وبين «إذا». وفي قراءة عبد اللّه: فإذا لا يؤتوا ـ بالنصب ـ، ولم يبال ـ بلا ـ. وقال

---

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 257.
(2) سورة النساء (4)، الآية: 76.
(3) يراجع: الواحدي، في أسباب النزول: 129 ـ وتفسير الطبري: 8/ 467 ـ والثعلبي في تفسيره، ورقة: 343.

بعضهم معناه أن اليهود لو كان لهم نصيب من الملك ما أعطوا الناس مقدار النقير، وهو النقطة التي تكون في ظهر النواة.

قال اللَّه تعالى:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿54﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿55﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿56﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿57﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي بل يحسدون محمداً صلى اللَّه عليه وسلم على ما أعطاه اللَّه من النبوة. وقيل على ما أحله اللَّه له من النساء. وقالوا: لو كان نبياً لشغلته النبوة عن النساء. وقال قتادة: أراد بالناس العرب، حسدوهم على النبوة أكرمهم اللَّه تعالى بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم[1]. وقال علي رضي اللَّه عنه: أراد بالناس رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضي اللَّه عنهما[2].

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، أي لما قالت اليهود: لو كان محمد نبياً ما رغب في كثرة النساء حسدوه على كثرة نسائه وعايروه بذلك فأكذبهم اللَّه بقوله: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أراد بالحكمة النبوة، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾. قال ابن عباس: هو ملك سليمان بن داود فكان لسليمان ثلاثمائة[3] امرأة مهرية، أي مشهورة، وسبعمائة سرية. ولداود مائة امرأة، فأقرت اليهود لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بذلك فقال لهم: ألف

---

(1) تفسير الطبري: 8/ 477.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 344.
(3) في النسخة (ف): سبعمائة امرأة... وثلاثمائة سرية.

امرأة عند رجل، ومائة امرأة عند رجل أكثر أم تسع نسوة عند رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم؟ فسكتوا[1].

قال اللَّه تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ﴾ معناه: من اليهود من آمن بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم: عبد اللَّه بن سلام وأصحابه، ومنهم من أعرض عن الإيمان. وقيل: معناه منهم من آمن بهذا الخبر عن داود وسليمان، ومنهم من كذب به ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي وقود من كفر به، أي أن صرف اللَّه عن اليهود بعض العذاب في الدنيا مثل الطمس وغيره فقد أعد لهم عذاب جهنم في الآخرة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي إن الذين كفروا بمحمد والقرآن سوف ندخلهم ناراً. وقرأ حميد بن قيس: نصليهم ـ بفتح النون[2] ـ نشويهم، من قولهم: شاة مصلية أي مشوية. ونصب «ناراً» بنزع الخافض على هذه القراءة تقديره: بنار.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أي كلما أحرقت جلودهم جددنا لهم جلوداً غيرها بيضاء كالقراطيس وذلك أنهم كلما احترقوا خبت عليهم النار ساعة ثم زيدت سعيراً وبدلوا خلقاً جديداً فيهم الروح، ثم عادت النار تحرقهم، فهذا دأبهم أبداً. قال الحسن: تنضج جلودهم كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم النار وأنضجتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا[3]. وعن مجاهد قال: ما بين جلده ولحمه دود لها جلبة كجلبة حمر الوحش[4]. وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال: «**غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً وضرسه مثل أحد**»[5]. فإن قيل: كيف جاز أن يعذب اللَّه جلداً لم يعصه؟ قيل: إن العاصي والمتألم واحد وهو

---

(1) تفسير البغوي: 2/ 90.
(2) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 344 هذه القراءة.
(3) ذكر الطبري في تفسيره: 8/ 485 قول الحسن.
(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 344.
(5) ذكره البغوي بسنده في تفسيره: 2/ 92.

الإنسان لا الجلد، لأن الجلود إنما تأتمر بالأرواح. والدليل على أن القصد تعذيب الإنسان لا تعذيب الجلود قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ ولم يقل لتذوق العذاب. وقيل: معناه تبدل جلوداً هي تلك الجلود المحترقة، وذلك فإن غير على ضربين غير تضاد وغير لا تضاد، فالتضاد مثل قولك: الليل غير النهار، والذكر غير الأنثى، والثاني: مثل قولك لصائغ: صغ هذا الخاتم خاتماً غيره فيكسره ويصوغ لك منه خاتماً. فالخاتم المصوغ هو الأول، إلا أن الصياغة قد تغيّرت والفضة واحدة. وقالت الحكماء: كما أن الجلد يبلى قبل البعث كذلك يبدل بعد النضج. وقال السدي يبدل الجلد من لحم الكافر يعاد الجلد لحماً ويخرج من اللحم جلداً آخر، لا أنه يبدل جلد لم يعمل خطيئة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي غالباً في أمره فلا يملك أحد منعه من إنزال وعيده، ذو حكمة فيما حكم من النار للكفار.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي بساتين تجري من تحت شجرها وغرفها الأنهار خالدين فيها أبداً، لهم فيها أزواج مطهرة في الخلق والخلق ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي ظلاً دائماً وهو ظل الأشجار والقصور، ظل لا حر معه ولا برد. وليس كل ظل يكون ظليلاً. وقيل: الظليل الكثيف الذي لا تنسخه الشمس.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا (58) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟
ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (59) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ
أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟
بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (60)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة أتى البيت ليدخله فسأل عن المفتاح فقيل:

هو مع عثمان بن طلحة[1] من بني عبد الدار وكان سادن الكعبة. فأرسل إليه فقال له: هات المفتاح. فأبى، فلوى علي رضي اللَّه عنه يده وأخذه منه وفتح الباب فدخل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم البيت وصلى فيه ركعتين، فلما خرج قال له عمه العباس: بأبي أنت وأمي يا رسول اللَّه اجعل لي السدانة مع السقاية، يعني اجعل لي مفتاح البيت؟ فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ فأمر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم علياً رضي اللَّه عنه أن يرد المفتاح إلى عثمان بن طلحة، فرده عليه، فقال عثمان: أنا أشهد أن محمداً رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. وأسلم، فقال جبريل للنبي صلى اللَّه عليه وسلم: ما دام هذا البيت أو اللبنة من بنائه فإن أولاد عثمان بن طلحة سدنته[2]. وروي أنه لما طلب المفتاح من عثمان أبى فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**يا عثمان إن كنت تؤمن باللَّه واليوم الآخر فهات المفتاح**». فقال: هاك أنت يا رسول اللَّه خذه بأمانة اللَّه. فأخذ النبي صلى اللَّه عليه وسلم المفتاح ففتح الباب ومكث في البيت ما شاء اللَّه، فلما خرج نزل جبريل بهذه الآية، ويدخل في هذا جملة الأمانة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ خطاب للأئمة، أي ويأمركم أن تحكموا بين الناس بالحق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي نعم الذي يأمركم اللَّه به من أداء الأمانة والحكم بالحق، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا﴾ لمقالة العباس ﴿بَصِيرًا﴾ بأمانة عثمان.

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ أي أطيعوا اللَّه تعالى فيما أمر، وأطيعوا الرسول فيما بين. وقيل: أطيعوا اللَّه في الفرائض وأطيعوا الرسول في السنن. قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال

---

(1) عثمان بن طلحة بن أبي طلحة القرشي العبدري: صحابي، كان حاجب البيت الحرام، أسلم في هدنة الحديبية، وشهد فتح مكة، فدفع له النبي مفتاح الكعبة. توفي سنة اثنتين وأربعين هجرية.
الاستيعاب: 3/ 1034 ـ الطبقات الكبرى: 5/ 448 ـ تهذيب التهذيب: 7/ 124.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 130 ـ تفسير البغوي: 2/ 93.

عكرمة: هو أبو بكر وعمر لقوله صلى اللّه عليه وسلم: «**اقتدوا من بعدي بأبي بكر وعمر، وإن لي وزيرين في الأرض ووزيرين في السماء، فبالسماء جبريل وميكائل، وبالأرض أبو بكر وعمر، وهما عندي بمنزلة الرأس من الجسد**»[1]. وقال الوراق: هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي. وقال عطاء: هم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ الآية[2]... وقيل: هم أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كما قال: «**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**». وقال جابر بن عبد اللّه والحسن والضحاك ومجاهد: هم الفقهاء والعلماء أهل الدين والفضل، الذين يعلمون الناس معالم دينهم ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، فأوجب اللّه تعالى على العباد طاعتم. وقال ابن الأسود: ليس شيء أعز من العلم، فالملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك. وقال أبو هريرة رضي اللّه عنه: هم ولاة المسلمين. وقال الكلبي ومقاتل: هم أمراء السرايا كان صلى اللّه عليه وسلم إذا بعث سرية أمر عليهم وأمرهم أن يطيعوه ولا يخالفوه. والأظهر من هذه الآية الأقاويل أن المراد بهم العلماء[3] لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي فإن اختلفتم في شيء من الحلال والحرام والشرائع والأحكام فردوه إلى أدلة اللّه وأدلة رسوله. وهذا الرد لا يكون إلا بالاستدلال والاستخراج بالقياس، لأن الموجود في نص الكتاب إذا علم وعمل به لا يوصف بأنه رد إلى الكتاب، وإنما يقال: هو اتباع للنص. وغير العلماء لا يعلمون كيفية الرد إلى الكتاب والسنة ولا دلائل الأحكام والجواب في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ دليل أن الإيمان اتباع الكتاب والسنة والإجماع.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي رد الاختلاف إلى اللّه تعالى والرسول خير من الإصرار على الاختلاف وأحسن عاقبة لكم. ويقال: أحسن

---

(1) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 10/ 165، رقم: 3761 ـ وذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 346.

(2) سورة التوبة (9)، الآية: 100.

(3) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 346 هذه الأقوال.

تأويلاً من تأويلكم الذي تتأولونه من غير رد ذلك إلى الكتاب والسنّة. وعن عمر رضي اللّه عنه أنه قال: الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية.. قال الكلبي: نزلت في رجل من المنافقين يقال له بشر، كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي: انطلق نتحاكم إلى محمد لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة ولا يجور في الحكم. وقال المنافق: بل ننطلق إلى كعب بن الأشرف وهو الذي سماه اللّه الطاغوت. فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فمضى معه المنافق إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقضى لليهودي. فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال: انطلق بنا إلى عمر. فمضيا إلى عمر رضي اللّه عنه فقال اليهودي: اختصمت أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصمني إليك فتعلق بي فجئت معه إليك. فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم. قال: رويدكما حتى أخرج إليكما. فدخل عمر فأخذ السيف واشتمل عليه ثم خرج إليهما فضرب به المنافق حتى برد وقال: هكذا قضائي فيمن لم يرض بقضاء اللّه وقضاء رسوله. وهرب اليهودي فنزلت الآية(1). وقال جبريل: إن عمر فرق بين الحق والباطل. فسمي الفاروق. ومعنى الآية: ألم تر يا محمد إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بالقرآن وبالكتب التي أنزلت من قبلك وهم المنافقون ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهو كعب بن الأشرف ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بالطاغوت ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ عن الحق.

قال اللّه تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿61﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿62﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿63﴾﴾.

(1) الواحدي، أسباب النزول: 133 ـ تفسير البغوي: 2/ 97.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿61﴾﴾. قال ابن عباس: اختصم الزبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة[1] إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم في أمر بينهما، فقضى للزبير، فخرجا من عنده فمرا على المقداد فقال: لمن كان القضاء يا ابن أبي بلتعة؟ فقال: قضى لابن عمته[2]. ولوى شدقه ففطن يهودي كان مع المقداد فقال: قاتل اللَّه هؤلاء يشهدون أنه رسول اللَّه ثم يتهمونه في قضاء يقضيه بينهم، وأيم اللَّه لقد أذنبنا في حياة موسى عليه السلام فقال لنا: اقتلوا أنفسكم. فاقتتلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفاً في طاعة اللَّه حتى رضي عنا. فأنزل اللَّه تعالى في شأن ابن أبي بلتعة وليه شدقه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي هلموا إلى التحاكم إلى أوامر اللَّه في كتابه وإلى الرسول صلى اللَّه عليه وسلم ليحكم بينهم، رأيت المنافقين يعرضون عن حكمك إعراضاً.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي كيف يكون حالهم من ندم وجزاء إذا أصابتهم مصيبة بقتل عمر لصاحبهم وظهور نفاقهم بما فعلوه من رد حكم النبي صلى اللَّه عليه وسلم ولي الشدق، ثم جاؤوك معتذرين يحلفون باللَّه ما أردنا إلا تسهيلاً عليك كي لا تشغلك خصومتنا، وتوفيقاً بين الخصوم بالتماس ما يقارب التوسط دون الحمل على مر الحكم.

---

(1) في النسخة (س): ثعلبة بن حاطب.
قال الثعلبي في تفسيره، ورقة: 349: اختلف المفسرون في اسمه، فقال الصالحي: ثعلبة بن حاطب، وقال الآخرون: حاطب بن أبي بلتعة.
هو أبو محمد، حاطب بن أبي بلتعة اللخمي: صحابي شهد بدراً وأحداً وغيرهما من المشاهد مع النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وكان من التجار، بعثه النبي بكتابه إلى المقوقس صاحب مصر. توفي في المدينة سنة ثلاثين هجرية.
الاستيعاب: 1/ 312 ـ الإصابة: 1/ 300 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 114.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 350.

قال اللَّه تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق فأعرض عن عقوبتهم في الدنيا. ويقال: أعرض عن قبول عذرهم وعظهم مع ذلك بلسانك وأعلمهم أنهم إن عادوا إلى رد حكمك فحقهم العقوبة. والقول البليغ: أن يبلغ صاحبه بعبارته كنه ما في قلبه.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (64) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (66) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (67) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (68)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ليطاع ذلك الرسول بأمر اللَّه. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بمطالبة الحكم إلى الطاغوت، جاؤوك أيها الرسول فاستغفروا اللَّه وتابوا إليه، واستغفر لهم الرسول عند ذلك لوجدوا اللَّه قابلاً للتوبة رحيماً بعد التوبة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لا يكونون مؤمنين عند اللَّه، بل يحكموك فيما وقع من الاختلاف بينهم، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أي ثم لا تضيق صدورهم مما قضيت. وقيل: لا يجدون شكاً في حكمك ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي ينقادون لحكمك انقياداً. والمشاجرة هي المخاصمة مأخوذة من الشجر تشبيهاً للخصومة في دخول بعض الكلام في بعض بالأشجار في الالتفاف بعضها على بعض.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا

﴿فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾. نزلت في قول ثابت بن قيس[1]: أما والله إن الله يعلم مني الصدق أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو أمرني بقتل نفسي لقتلت نفسي. وكان ثابت من القليل الذين استثناهم الله تعالى في الآية[2]. ومعنى الآية: ولو أنا فرضنا عليهم كما فرضنا على بني إسرائيل أن اقتلوا أنفسكم وأمرناهم أن يخرجوا من ديارهم لشق ذلك عليهم ولم يفعله إلا قليل منهم ورفع القليل على البدل من الواو والمعنى ما فعله منهم إلا قليل، وقرأ أبي بن كعب وابن عامر ـ إلا قليلاً منهم ـ بالنصب على معنى يستثنى قليلاً منهم ـ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي لو فعل المنافقون ما يؤمرون به من الرضاء بحكمك ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من المحاكمة إلى غيرك ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ قلوبهم على الصواب، لأن الحق يبقى والباطل يذهب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾ أي إذا فعلوا ما أمروا به لأعطيناهم من عندنا ثواباً جزيلاً في الجنة، وهديناهم صراطاً مستقيماً، أي إلى صراط مستقيم. وقيل معناه: لهديناهم في الآخرة إلى طريق الجنة.

قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

---

(1) أبو عبد الرحمن، ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي. تقدمت ترجمته.
(2) ذكره الطبري في تفسيره: 8/ 526.

﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ نزلت في ثوبان[1] مولى النبي صلى اللّٰه عليه وسلم، وكان شديد الحب لرسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغيّر لونه ونحل جسمه فقال صلى اللّٰه عليه وسلم: «**ما غيَّر لونك؟**» قال: يا رسول اللّٰه ما بي مرض ولا وجع غير أني لم أرك فاشتقت إليك فاستوحشت، فهذا الذي نزل بي من أجل ذلك، ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لا أراك هناك فإنك ترفع مع النبيئين، وإني إذا دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك وإن لم أدخل الجنة فذاك حين لا أراك أبداً. فأنزل اللّٰه تعالى هذه الآية[2]، فقال صلى اللّٰه عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين**»[3]. ومعنى الآية: ومن يطع اللّٰه في الفرائض والرسول في السنن فأولئك مع الذين أنعم اللّٰه عليهم من النبيئين والصديقين، وهم أفاضل الصحابة، والشهداء وهم الذين استشهدوا في سبيل اللّٰه، والصالحين وهم من استقامت أحوالهم فحسن عملهم، والمصلح هو المقدم لحسن عمله. وقال عكرمة: النبيون هاهنا: محمد صلى اللّٰه عليه وسلم، والصديقون أبو بكر، والشهداء عمر وعثمان وعلي، والصالحون: سائر الصحابة. فإن قيل: كيف يكون المطيعون للّٰه ولرسوله مع النبيئين في درجتهم في أعلى عليين؟ قيل: إن الأنبياء وإن كانوا في أعلى عليين فإن غيرهم من المؤمنين يرونهم ويزورونهم ويستمتعون برؤيتهم، فيصلح في اللفظ أن يقال معهم.

قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ أي حسن الأنبياء ومن معهم رفيقاً في الجنة، أي ما أحسن مرافقتهم فيها! فذكر الرفيق بلفظ التوحيد، لأنه نصب على

---

(1) أبو عبد اللّٰه، ثوبان مولى النبي صلى اللّٰه عليه وسلم، كان من حمير فاشتراه النبي وأعتقه وبقي معه إلى أن لحق الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم بالرفيق الأعلى، ثم انتقل إلى الشام فنزل حمص إلى أن توفي بها سنة أربع وخمسين هجرية.
الطبقات الكبرى: 7/ 400.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 136.

(3) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 2/ 15، باب وجوب محبة النبي صلى اللّٰه عليه وسلم ـ وابن ماجه في سننه: 1/ 26، رقم: 67، باب في الإيمان ـ والبغوي في سننه: 1/ 50، رقم: 22، باب حلاوة الإيمان.

التمييز كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾[1] ويجوز أن يكون معناه: حسن كل واحد من أولئك رفيقاً كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[2] ولم يقل أطفالاً.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك المن من اللّه على المطيعين ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ بهم وبأعمالهم ومجازياً لهم بما يستحقونه من ثواب وكرامة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ أي من عدوكم بالأسلحة والرجال ولا تخرجوا متفرقين، ولكن اخرجوا ثبات واخرجوا جميعاً، أي اخرجوا جماعات جماعات سرية سرية كما يأمركم النبي صلى اللّه عليه وسلم في جهاد عدوكم، أو اخرجوا كلكم جميعاً مع النبي صلى اللّه عليه وسلم إن أراد الخروج. والثبات: الجماعات في تفرقة. واحدها: ثبة، أي انفروا جماعة بعد جماعة. ويجوز أن يكون معنى الحذر: السلاح. واستدل أهل القدر بهذه الآية فقالوا: إن الحذر ينفع ويمنع عنكم مكابدة العدو وإلا لم يكن لأمره تعالى إياهم بالحذر معنى فيقال لهم: الائتمار بأمر اللّه والانتهاء بنهيه واجب عليهم لأنهم سيسلمون من معصية اللّه تعالى، لأن المعصية ترك الأوامر [واتباع] النواهي وليس في الآية دليل على أن حذرهم ينفع من القدر شيئاً، بل المراد منه طمأنينة النفس، إلا أن ذلك يدفع القدر.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي وإن ممن أظهر الإيمان المتثاقلين عن الجهاد ويثقلن غيره وهم عبد اللّه بن أبي وجد بن قيس وأصحابهما من المنافقين الذين كانوا يشاركون المسلمين في ظاهر الإسلام كانوا ينتظرون هلاك المسلمين وهزيمتهم ويتثاقلون على الجهاد[3]. يقال: أبطأ الرجل إذا تأخر عن العمل بإطالة المدة.

---

(1) سورة النساء (4)، الآية 4.
(2) سورة الحج (22)، الآية: 5.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 105 ـ 106.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ أي إن أصابتكم نكبة أو هزيمة أو قتل قال هذا المبطىء: قد منَّ اللَّه عليّ إذ لم أكن معهم حاضراً في تلك الغزوة فيصيبني مثل الذي أصابهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي ولئن أصابكم أيها المؤمنون ظفر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هذا المبطىء نادماً: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾ في الغزوة فأصيب حظاً وافراً وغنائم كثيرة.

قوله تعالى: ﴿﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾﴾ قال بعضهم: هو معترض بين التمني وما قبله تقديره: ولئن أصابكم فضل من اللَّه ليقولن يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً كأن لم يكن بينكم وبينه مودة، أي يتمنى أن ينال المال من غير أن يريد الجهاد والقتال. وقيل: هو متصل بقوله: قد أنعم اللَّه عليَّ إذ لم أكن معهم شهيداً كأن لم يكن بينكم وبينه مودة أي صلة في الدين ومعرفة في الصحبة كأنه لم يعاقدكم قبل أن يجاهد معكم، ثم أمر اللَّه تعالى كل من عقد الإيمان بالقتال فقال:

قال اللَّه تعالى:

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي ليقاتل في طاعة اللَّه ورضاه الذين يبتغون الحياة الدنيا بالآخرة وهم المؤمنون. وقيل: معناه إن الخطاب للمبطئين. ومعنى يشرون: يختارون الحياة الدنيا على الآخرة، وهذا اللفظ من الأضداد. يقال: شريت بمعنى بعت، وشريت بمعنى اشتريت، فيكون معنى الآية على هذا: آمنوا ثم قاتلوا، لأنه لا يجوز أن يكون الكافر مأموراً بشيء متقدم على الإيمان. ثم ذكر اللَّه تعالى فضل المجاهدين فقال تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في الجهاد الذي هو طاعة اللَّه فيقتل هو أو يغلب العدو فسوف نعطيه في كلا الوجهين ثواباً وافراً في الجنة. وسمى اللَّه تعالى الثواب عظيماً لأنه تعالى ثامن العبد بأعلى الأثمان، وقد يكون ثمن الشيء مثله ويكون وسطاً بين الأثمان.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معناه: أي شيء لكم أيها المؤمنون في ترك الجهاد مع اجتماع الأسباب الموجبة الحرص عليه. وقوله تعالى: ﴿لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ في موضع نصب على الحال كأنه قال: وما لكم تاركين الجهاد كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿49﴾﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ في موضع خفض بإضمار «في». ومعناه: في شأن المستضعفين أي في نصرة المستضعفين. ويجوز أن يكون معناه: عن المستضعفين أي للذب عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين هم بمكة ويلقون فيها أذى كثيراً من المشركين وهم: سلمة بن هشام[2]، والوليد بن

---

(1) سورة المدثر (74)، الآية: 49.

(2) سلمة بن هشام بن المغيرة، وهو قديم الإسلام بمكة، وهاجر إلى أرض الحبشة، ثم عاد إلى مكة فحبسه أبو جهل وضربه وأجاعه، فدعا له رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. توفي سنة أربع عشرة.
الطبقات الكبرى: 4/ 96.

الوليد[1]، وعياش بن أبي ربيعة[2] وغيرهم، كانوا أسلموا بمكة فأراد عشائرهم من أهل مكة بعد هجرة النبي صلى اللَّه عليه وسلم أن يفتنوهم عن الإسلام. يقول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي خلصنا من هذه القرية، يعنون مكة ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ أي الكافر أهلها، ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي من عندك حافظاً يحفظنا من أذاهم ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ أي مانعاً يمنعنا منهم. فاستجاب اللَّه دعاءهم وجعل لهم النبي صلى اللَّه عليه وسلم حافظاً وناصراً بفتح مكة على يديه، واستعمل عليهم عتاب بن أسيد، فكان عتاب ينصف الضعيف من الشديد.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معناه: الذين آمنوا بمحمد والقرآن يقاتلون في سبيل طاعة اللَّه بأمر اللَّه، والذين كفروا: أبو سفيان وأصحابه يقاتلون في طاعة الشيطان. فقاتلوا أيها المؤمنون أولياء الشيطان، إن مكر الشيطان وصنعه بالوسوسة إلى أوليائه بأن الظفر يكون لهم كيد ضعيف. وإنما أدخل على هذا اللفظ «كان» لينبىء أن صفة الضعف لازمة له، وأنه مذ كان ضعيفاً فخذل أولياءه كما خذلهم يوم بدر حيث قال لهم: إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. قال ابن عباس وقتادة والحسن والكلبي: نزلت هذه الآية في قوم من

---

(1) الوليد بن الوليد بن المغيرة، لم يزل على دين قومه، وشهد معهم بدراً فأسر فيها ثم افتدي مع الأسرى، وبعد ذلك أسلم ورجع إلى مكة فعذب فيها مع سلمة بن هشام، ودعا له الرسول صلى اللَّه عليه وسلم، وتمكّن من الفرار فهاجر إلى المدينة وتوفي بها.
الطبقات الكبرى: 4/ 98.

(2) أبو عبد الرحمن، عياش بن أبي ربيعة المخزومي أخو أبي جهل لأمه. أسلم عياش قبل دخول الرسول صلى اللَّه عليه وسلم دار الأرقم بمكة وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، ثم رجع إلى مكة مع أخويه: الحارث وأبي جهل، فعذب بمكة، ودعا له الرسول صلى اللَّه عليه وسلم مع صاحبيه: سلمة والوليد حتى تمكنوا جميعاً من الفرار والهجرة إلى المدينة.
الطبقات الكبرى 4/ 96 ـ الاستيعاب: 3/ 1230.

الصحابة: وهم عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد اللّه والمقداد وغيرهم.. كانوا يلقون من المشركين أذى كثيراً وهم بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة. فشكوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقالوا: يا رسول اللّه ائذن لنا في قتال هؤلاء فإنهم قد آذونا. فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**فإني لم أؤمر بقتالهم وأقيموا الصلوات الخمس وأدوا زكاة أموالكم**». فلما خرجوا إلى المدينة وأمرهم اللّه تعالى بقتال المشركين، وأمرهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالسير إلى بدر، كره بعضهم، وشق ذلك عليهم[1]. ومعنى الآية: فلما كتب عليهم القتال بالمدينة، أي فرض عليهم إذا فريق منهم يخشون الناس، يعني مشركي مكة كخشية اللّه أو أشد خشية. وقيل: معناه وأشد خشية كقوله: ﴿مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ أي لم فرضت علينا القتال، أي الجهاد؟ ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يعني الموت، أي هلا تركتنا نموت بآجالنا. قال الحسن: لم يقولوا هذا لكراهة أمر اللّه ولكن لدخول الخوف عليهم بذلك. وقال بعضهم: نزلت في المنافقين، لأن قوله: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ لا يليق بالمؤمنين وكذلك الخشية من غير اللّه وقيل: نزلت في قوم من المؤمنين لم يكونوا راسخين في العلم، قالوا هذا القول لأنهم ركنوا إلى الدنيا وآثروا نعيمها على القتال[3].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أي قل لهم يا محمد: منفعة الدنيا يسيرة تنقطع وتفنى، والاستمتاع بها قليل، لأن الجديد منها إلى البلى، والشباب منها إلى الهرم والانقضاء.

قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي وثواب الآخرة أفضل لمن اتقى المعاصي ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ولا ينقصون من جزاء أعمالهم الذي استحقوه هذا الفتيل. وقد تقدّم تفسير الفتيل.

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 137 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 352.
(2) سورة الصفات (37)، الآية: 147.
(3) الثعلبي في تفسيره: 352.

قال اللّه تعالى:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ
مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ
ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78) مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن
نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (79) مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن
تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ
مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
وَكِيلًا (81) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا
(82) وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ
أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ
ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا (83)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي أين ما تكونوا يا معشر المؤمنين والمنافقين في بر أو بحر أو سفر أو حضر يلحقكم الموت، وإن كنتم في حصون محصنة محكمة من حديد وغيره، مرتفعة إلى عنان السماء والمعنى: إنكم وإن سومحتم وأمرتم بترك القتال فإن آخر أعمالكم موت لا تنجون منه. وقال عكرمة: معنى مشيدة محصنة. وقال القتيبي: مطولة[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ هذه حكاية قول المنافقين واليهود كانوا يقولون: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومراعينا منذ قدم هذا الرجل علينا، يعنون النبي صلى اللّه عليه وسلم بعد قدومه المدينة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي إن يصبهم خصب ورخص وتتابع أمطار يقولوا هذا من فضل اللّه، وإن يصبهم قحط وجدوبة وغلاء سعر يقولوا هذه من شؤم محمد وأصحابه.

---

(1) يراجع معنى «مشيدة» في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 130.

يقول اللَّه تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: الحسنة والسيئة كلها بقضاء اللَّه وتقديره. فما لهؤلاء القوم اليهود والمنافقين لا يقربون من فهم حديث عن اللَّه. والفقه: هو الفهم، ثم اختص من جهة العرف بعلم الفتوى. وقال الحسن: أراد بالحسنة في هذه الآية: الظفر والغنيمة، وبالسيئة القتل والهزيمة. وكانوا إذا غلبوا قالوا هذه من عند اللَّه، وإذا غلبهم العدو قالوا هذا من خطأ رأيك وتدبيرك.

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ اختلف المفسرون في المخاطب بهذه الآية، قال أكثرهم: هو النبي صلى اللَّه عليه وسلم، والمراد بها عامة الناس[1]. وقال قتادة: المخاطب بها الإنسان، كأنه قال: ما أصابك أيها الإنسان من حسنة، أي من خصب ورخص سعر وفتح وغنيمة فاللَّه تعالى هداك له وأعانك عليه ووفقك له، وما أصابك من قحط وجدوبة وهزيمة ونكبة وكل أمر تكرهه فإنما أصابك ذلك بما كسبت يداك بقضاء اللَّه وقدره، كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[2] وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**ما من خدشة عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو اللَّه عنه أكثر**»[3]. وقال بعض المفسرين: بين هذه الآية وبين التي قبلها إضمار تقديره: فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً يقولون ما أصابك من حسنة فمن اللَّه وما أصابك من سيئة فمن نفسك، لأنه يستحيل أن يأمر اللَّه تعالى بإضافة الحسنة والسيئة إلى أمره وقضائه في آية، ثم يتلوها بآية يفرق بينهما بعد أن ذم قوماً على التفرقة في الأولى، فكيف يجوز أن يذم على الجمع في الآية الثانية، ومثل هذا الإضمار كثير في القرآن. وقرىء في الشواذ بنصب الميم: فمن نفسك، أي الكل من اللَّه فمن أنت ونفسك حتى يضاف إليك شيء. غير أن القراءة سنة متبعة فلا يقرأ إلا بما تصح به الرواية. وحاصل المعنى على قراءة العامة: ما أصابك من

---

(1) تفسير البغوي: 2/ 112.
(2) سورة الشورى (42)، الآية: 30.
(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 7/ 153، رقم: 9815 ـ وذكره الطبري في تفسيره: 8/ 558.

خير ونعمة فمن اللَّه، وما أصابك من بلية أو شيء تكرهه فمن نفسك، أي بذنوبك، وأنا الذي قدرته عليك. قال الضحاك: ما حفظ الرجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرأ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ قال: ونسيان القرآن أعظم المصائب(1).

قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ أي ومن نعمة اللَّه تعالى عليك إرساله إياك رسولاً إليهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ على أنك رسول صادق يشهد لك بالرسالة والصدق. وقيل: يشهد على مقالة القوم أن الحسنة من اللَّه والسيئة من عندك. وقيل معناه: يشهد على أن الحسنة والسيئة كلها من اللَّه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ أي من يطع الرسول فيما يأمره وينهاه فقد أطاع اللَّه، لأن الرسول إنما يأمر به من عند اللَّه ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض عن طاعته ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ أي ليس عليك إلا البلاغ، وما أرسلناك عليهم مسلطاً تجبرهم على الإيمان والطاعة وتمنعهم من الكفر والمعصية، فإنك مبلغ وأنا العالم بسرائرهم، وهذه الكلمة من آخر الآية منسوخة بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ معناه: أن المنافقين كانوا يقولون للنبي صلى اللَّه عليه وسلم: أمرك طاعة وقولك متبع. فإذا خرجوا من عندك يا محمد غير جماعة منهم الأمر الذي أمرتهم به على وجه التكذيب، فقال لكل أمر قضي بالليل قد بيت به، وإنما لم يقل بيتت لأن كل مؤنث غير حقيقي يجوز تعبيره بلفظ التذكير وقيل معناه: قدروا ليلاً غير ما أعطوك نهاراً.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ أي يحفظ عليهم ما يغيرون من أمرك. وقيل: ما يسترون من النفاق.

قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي لا تعاقبهم يا محمد واستر عليهم إلى أن يستقيم أمر الإسلام ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي ثق باللَّه وفوّض أمرك إليه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ أي حافظاً. والوكيل: هو العالم بما يفوّض إليه من التدبير.

---

(1) يراجع قول الضحاك في تفسير الثعلبي، ورقة: 353.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ﴾ أي أفلا يتفكرون في القرآن أنه يشبه بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً، وأن أحداً من الخلائق لا يقدر على مثله فيعلموا أنه حق، وأنه من عند اللَّه، إذ لو كان من عند غير اللَّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، أي تفاوتاً وتبايناً، وبعضه بليغاً وبعضه ساقطاً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾ يعني المنافقين كانوا إذا أتاهم خبر من أمر السرايا الذين بعثهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من ظفر ودولة وغنيمة أو أتاهم عنهم خبر نكبة أو هزيمة فشوا ذلك الخبر وأظهروه قبل أن يحدث به رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ليحذر بخبر الظفر من ينبغي أن يحذر من الكفار، ويقوى بخبر الهزيمة قلب من ينبغي من المسلمين، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية[1]، ومعناها: إذا جاء المنافقين أمر من الأمن، يعني الغنيمة والفتح أو الخوف، يعني الهزيمة والقتل أذاعوا به، أي أشاعوه وأفشوه ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي لم يتحدثوا به ولم يفشوه حتى يكون النبي صلى اللَّه عليه وسلم هو الذي يتحدث به. والمعنى: لو تركوا أمر السرايا والعسكر إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم وإلى أولي الأمر من المؤمنين وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأكابر الصحابة حتى يكونوا هم الذين يفشونه لعامة الذين يطلبون الخبر ويستخبرونه من النبي صلى اللَّه عليه وسلم وأكابر الصحابة أن ذلك الخبر صحيح أم فاسد. قال الكلبي: لعلمه الذين يستنبطونه أي يتبعونه. وقال عكرمة: يسألونه عنه، أي لو تركوا إذاعته حتى يتحدث به النبي صلى اللَّه عليه وسلم لعلمه الذين يسألون عنه. وقال القتيبي: لعلمه الذين يستخرجونه[2]. يقال: استنبطت الماء إذا استخرجته.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ يعني الذين يستخرجون عن العلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي لولا ما أنزل اللَّه عليكم من القرآن وبيّن لكم الآيات على لسان نبيه صلى اللَّه عليه وسلم ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي كان أقلكم ينجو من الكفر. والمراد بالفضل ههنا النبي

---

(1) تفسير البغوي، معالم التنزيل: 2/ 115.
(2) تفسير غريب القرآن: 132.

صلى اللَّه عليه وسلم والقرآن وقيل: في الآية تقديم وتأخير معناه: أذاعوا به إلا قليلاً من الخبر لم يذيعوه، أو إلا قليلاً من المنافقين لم يذيعوه.

قال اللَّه تعالى:

﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا (84) مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَاۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (85) وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (86) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا (87)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ﴾ وذلك أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لما التقى هو وأبو سفيان يوم أحد وكان أمرهم ما كان، ورجع أبو سفيان إلى مكة، وواعد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بدراً الصغرى في ذي القعدة، فلما بلغ النبي صلى اللَّه عليه وسلم الميعاد قال للناس: اخرجوا للعدو. كرهوا ذلك كراهة شديدة أو بعضهم، فأنزل اللَّه هذه الآية[1]. ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تدع جهاد العدو ولو وحدك. وقيل: معناه لا تؤخذ بفعل غيرك وإنما تؤخذ بفعل نفسك، وليس عليك ذنب غيرك، وحرض المؤمنين أيضاً على القتال لعل اللَّه أن يكف عنك قتال الكفار. وعسى من اللَّه واجب، لأنه في اللغة للإطماع، وإطماع الكريم لا يكون إلا ناجزاً. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ﴾ جواب عن قوله: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2] فقاتل وحرض المؤمنين على القتال، أي حرضهم على القتال ورغبهم فيه. فتثاقلوا ولم يخرجوا معه، فخرج رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في سبعين راكباً حتى أتى موسم بدر الصغرى فكفاهم

---

(1) تفسير البغوي: 2/ 116.
(2) سورة النساء (4)، الآية: 74.

اللَّه تعالى بأس العدو ولم يوافهم أبو سفيان ولم يكن قتال يومئذ، فرجع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه، فذلك قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ أي قتال المشركين وصولتهم ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ أي صولة وأعظم سلطاناً ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي عقوبة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَاۖ﴾ أي من يصلح بين اثنين يكن له أجر وثواب من ذلك الإصلاح، ومن يمشِ بالغيبة والنميمة يكن له حظ من وزرها وعقوبتها. هكذا روي عن ابن عباس[1]. وقيل: معناه من يوحد ويأمر بالتوحيد يكن له أجر من ذلك، ومن يشرك ويأمر بالشرك يكن له وزر من ذلك. ويقال: الشفاعة الحسنة هي الدعاء للمؤمنين، والشفاعة السيئة الدعاء عليهم. فإن اليهود كانوا يدعون على المؤمنين فتوعدهم اللَّه بذلك.

قوله تعالى: ﴿كِفْلٌ مِّنْهَاۗ﴾ قال ابن عباس وقتادة: الكفل: الإثم والوزر. وقال الفراء وأبو عبيدة: الكفل: الحظ والنصيب.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: مقيتاً أي مقدراً مجازياً بالحسنة والسيئة[2]. قال الشاعر:

وذي ضغن كففت النفس عنه ∴ وكنت على إساءته مقيتا[3]

وقال الزجاج: المقيت الحفيظ. قال الشاعر[4]:

ألي الفضل أم علي إذا حو ∴ سبت؟ إني على الحساب مقيت[5]

---

(1) البغوي في المرجع نفسه.

(2) تراجع هذه الأقوال في الكفل وما بعده في: تفسير الثعلبي، ورقة: 356. وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 132.

(3) هذا البيت من بحر الوافر، نسب في تفسير الطبري: 8/ 584 إلى الزبير بن عبد المطلب، ونسب في الدر المنثور: 2/ 187 إلى أحيحة بن الحلاج الأنصاري، ونسب عند ابن سلام في طبقات فحول الشعراء: 243 لأبي قيس بن رفاعة. وينظر: اللسان: (قوت).

(4) السموأل بن عاديا اليهودي: يضرب به المثل في الوفاء. توفي سنة خمس وستين قبل الهجرة.

(5) هذا البيت من بحر الخفيف، من شعر السموأل اليهودي.
(ديوان الشاعر: 13 ـ 14 ـ الأصمعيات: 85 ـ الجمحي في طبقات فحول الشعراء: 236 ـ 237 ـ بلوغ الإرب: 1/ 146).

وقال مجاهد: المقيت الشاهد. وقال الفراء: المقيت الذي يعطي كل إنسان قوته. وجاء في الحديث: «**كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت ويقيت**»[1].

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ قال ابن عباس: أراد بالتحية السلام، أي إذا سلم عليكم أحد فأجيبوا بتحية أحسن منها وهو أن تردوا في التحية فتقولوا: وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته. يحيي بذلك المسلم عليه والملكين المحافظين معه بأبلغ التحية. قوله تعالى: ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ معناه: أو أجيبوا بمثل الذي سلم عليكم. وقال بعضهم: معنى ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ أي إذا أهدى إليكم هدية فكافئوا بأفضل منها أو مثلها، لأن التحية في اللغة الملك. وكانوا يقولون قبل الإسلام حياك اللّه، أي ملكك اللّه. ثم أبدلوا هذا اللفظ بالسلام بعد الإسلام. وأقيم السلام مقام قولهم حياك اللّه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ أي مجازياً يعطي كل شيء من العلم والحفظ والجزاء مقداراً بحسبه، أي يكفيه. يقال: حسبك هذا، أي اكتف به. وقوله تعالى: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾[2] أي كافئاً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا إلّه في الأرض ولا في السماء غيره. واللام في ليجمعنكم لام قسم، كأنه قال: اللّه يجمعنكم في الحياة أو الموت وفي قبوركم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، أي لا شك فيه أنه كائن لا محالة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ استفهام بمعنى النفي، أي ليس أحد أوفى من اللّه تعالى وعداً ولا أصدق منه قولاً، إذ لا صادق إلا ويوجد خبره على خلاف خبره وقتاً من الأوقات إلا اللّه عزّ وجلّ، فمن أصدق من اللّه حديثاً.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك: 1/ 415 ـ وأبو داود في سننه: عون المعبود: 5/ 111، رقم: 1676، باب صلة الرحم.
(2) سورة النبأ (78)، الآية: 36.

قال الله تعالى:

﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا (88) وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (89) إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (90) سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (91)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ قال ابن هشام[1]: هاجر ناس من قريش فقدموا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المدينة فأسلموا، ثم ندموا على ذلك وأرادوا الرجعة فقال بعضهم لبعض: كيف نخرج؟ قالوا: نخرج كهيئة المتنزهين. فقالوا للمسلمين: إنا قد اجتوينا المدينة فنخرج ونتنزه، أي نتفسح. فصدقوهم فخرجوا فجعلوا يتباعدون قليلاً قليلاً حتى بعدوا، ثم أسرعوا في السير إلى مكة حتى لحقوا بها وكتبوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه: إنا على ما فارقناكم عليه من التصديق، ولكنا اشتقنا أرضنا واجتوينا المدينة. ثم أرادوا أن يخرجوا في تجارتهم إلى الشام فاستبضعهم أهل مكة وقالوا: أنتم على دين محمد فإن لقوكم فلا بأس عليكم منهم. فخرجوا من مكة متوجهين إلى الشام، فبلغ ذلك المسلمين فقالت طائفة منهم: ما يمنعنا أن نخرج إلى هؤلاء الذين رغبوا عن ديننا وتركوا هجرتنا فنقتلهم ونأخذ ما معهم.

---

(1) أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المعافري: مؤرخ، كان عالماً بالأنساب واللغة والأخبار. ولد ونشأ في البصرة. أشهر كتبه: «السيرة النبوية». توفي سنة ثلاثة عشر ومائتين هجرية.
وفيات الأعيان: 4/ 42، 3/ 143 ؛ الأعلام: 4/ 166.

وقالت طائفة: كيف تقتلون قوماً على دينكم. وكان هذا بحضرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو ساكت لا ينهى أحداً من الفريقين، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية والتي بعدها، فبين لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شأنهم[1]، ومعناها: ما لكم في هؤلاء المنافقين حتى صرتم في أمرهم فرقتين من محل لأموالهم ومحرم؟ ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ أي ردهم إلى كفرهم وضلالتهم بما كسبوا من أعمالهم السيئة ونفاقهم وخبث نياتهم. وانتصاب فئتين على الحال، يقال: ما لك قائماً؟ أي لِمَ قمت في هذه الحالة؟ وقيل: على خبر صار.

قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ أي أتريدون يا معشر المخصلين أن ترشدوا من خذله اللّه عن دينه وحجته؟ وقيل: معناه أتقولون إن هؤلاء مهتدون، ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ أي لن تجد له هادياً. وقيل: لن تجد له طريقاً إلى الهدى. وقراءة عبد اللّه وأبي: واللّه ركسهم ـ بالتشديد[2] ـ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ أي تمنى المنافقون والكفار أن تكفروا أنتم بمحمد صلى اللّه عليه وسلم والقرآن كما كفروا، فتكونوا أنتم وهم سواء في الكفر، فلا تتخذوا منهم أولياء، أي أحياء حتى يهاجروا في طاعة اللّه، فإن أعرضوا عن الإيمان والهجرة فأسروهم واقتلوهم حيث وجدتموهم في الحل والحرم ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي حبيباً في العون والنصرة. وهذه الآية محمولة على حال ما كانت الهجرة فرضاً كما قال صلى اللّه عليه وسلم: «**أنا بريء من كل مسلم أقام بين أظهر المشركين**»[3]. ثم نسخ ذلك يوم فتح مكة. كما روي عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم الفتح: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد**

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 356.
(2) ذكر هذه القراءة الثعلبي في تفسيره، ورقة: 339.
(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 7/ 40، رقم: 9374.

ونية وإن استنفرتم فانفروا»[1]. وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ لم يرد جواب التمني، لأن جوابه بالفاء منصوب، وإنما أراد العطف على معنى ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وودوا لو تكونون سواء مثل قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾[2] أي ودوا لو تدهن وودوا لو تدهنون، ومثله: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ﴾[3] أي ودوا لو يميلون.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ هذا استثناء لمن اتصل من الكفار بقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق. وقال ابن عباس: أراد بالقوم الأسلميين، فله من الجوار مثل ما لهم. ويقال أراد بالوصول: أن يدخل أحد من سائر الكفار في عهد الأسلميين على حسب ما كان بين رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وبين قريش من الموادعة، فدخل خزاعة في عهد النبي صلى اللَّه عليه وسلم ودخلت بنو كنانة في عهد قريش.

قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ معناه: أو يصلون إلى قوم جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم مع قومهم، أو يقاتلوا قومهم معكم وهم بني مدلج. ولو شاء اللَّه لسلط قوم هلال بن عويمر وبني مدلج عليكم فلقاتلوكم، أي إذا قاتلتموهم ظالمين لهم، فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم، أي فإن تركوكم فلم يقاتلوكم مع قومهم واستسلموا وخضعوا بالصلح والوفاء فما جعل اللَّه لكم عليهم سبيلاً، أي حجة في القتال. وقال أهل النحو: معنى أو جاؤوكم حصرت، أي قد حصرت، لأن حصرت لا يكون حالاً إلا بقد. قالوا: ويجوز أن يكون حصرت صدورهم خبراً بعد خبر، كأنه قال: أو جاؤوكم، ثم أخبر بعد فقال: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ وفي الشواذ: أو جاؤوكم حصرة صدورهم. وأما اللام في ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾ جواب لو شاء اللَّه.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 6/ 307، رقم: 3077، كتاب الجهاد ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 9/ 123 ـ والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 5/ 214، رقم: 638، باب ما جاء في الهجرة.
(2) سورة القلم (68)، الآية: 9.
(3) سورة النساء (4)، الآية: 102.

واللام في ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ تكرار. والفاء عطف بمنزلة الواو. وقد روي عن عطاء عن ابن عباس: أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، يعني معاهدة المشركين وموادعتهم منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾(1)، ولأن اللّٰه تعالى أعز الإسلام وأهله فلا يقبل من مشركي العرب إلا الإسلام أو السيف بهذه الآية. وقد أمرنا اللّٰه تعالى في أهل الكتاب بقتالهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾(2) إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾. فلا يجوز مهادنة الكفار وترك أحد منهم على الكفر من غير جزية إذا كان بالمسلمين قوة على القتال، وأما إذا عجزوا عن مقاومتهم وخافوا على أنفسهم وذراريهم جاز لهم مهادنة العدو من غير جزية يؤدونها إليهم، لأن خطر الموادعة كان بسبب القوة، فإذا زال السبب زال الخطر.

قوله عزّ وجلّ: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ معناه: ستجدون قوماً آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم، أي يظهرون لكم الصلح يريدون أن يأمنوا منكم بكلمة التوحيد يظهرونها لكم ويأمنوا من قومهم بالكفر في السر كلما دعوا إلى الكفر رجعوا فيه. قال ابن عباس: هم أسد وغطفان كانا حاضري المدينة وكانا تكلما بالإسلام وهما غير مسلمين، وكان الرجل منهم يقول له قومه: بماذا آمنت؟ وبماذا أسلمت؟ فيقول: آمنت بهذا الدود وبهذا العقرب وبهذه الخنفساء، يريدون به الاستهزاء. فإذا لقوا محمداً صلى اللّٰه عليه وسلم وأصحابه قالوا: إنا على دينكم. وأظهروا الإسلام. فأطلع اللّٰه تعالى نبيه صلى اللّٰه عليه وسلم والمؤمنين على ذلك بهذه الآية.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي فإن لم يتركوا قتالكم ولم يستلزموا لكم في الصلح ولم ينتهوا عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ أي اسروهم ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث وجدتموهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي أهل هذه الصفة جعلنا لكم عليهم حجة ظاهرة بالقتال معهم.

---

(1) سورة التوبة (9)، الآية: 5.
(2) نفس السورة، الآية: 29.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿92﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ أي ما كان لمؤمن في حكم الله أن يقتل مؤمناً بغير حق إلا أن يكون وقوع القتل منه على وجه الخطأ، وهو أن لا يكون قاصداً قتله فيكون مرفوع الإثم والعقاب. واختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية: قال ابن عباس: نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأسلم معه فخاف أن يعلم أهله بإسلامه، فخرج هارباً إلى المدينة فاختفى في جبل من جبالها، فجزعت أمه جزعاً شديداً حين بلغها إسلامه وخروجه إلى المدينة، فقالت لابنيها الحارث وأبي جهل ابني هشام وهما أخواه لأمه: والله لا يظلّني سقف ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى تأتوني به. فخرجا في طلبه وخرج معهما الحارث بن يزيد[1] حتى أتوا[2] المدينة فوجدوا عياشاً في أطم، أي جبل فقالوا له: انزل فإن أمك لم يؤوها سقف بيت بعدك وقد حلفت لا تأكل طعاماً ولا تشرب شراباً حتى ترجع إليها، ولك علينا أن لا نكرهك على شيء ولا نحول بينك وبين دينك. فحلفوا له على ذلك، فنزل إليهم فأوثقوه بنسعة ثم جلده كل واحد منهم مائة جلدة، ثم قدموا به إلى أمه، فلما أتاها قالت له: والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به. ثم

---

(1) الحارث بن يزيد بن أنيسة، وقيل ابن أبي أنيسة، وهو الذي أسلم وهاجر وقتله عياش قبل أحد.
الاستيعاب: 1/ 305.

(2) في النسخة (ف): أتيا، فوجدا، فقال ـ بضمير التثنية ـ.

تركوه مطروحاً موثقاً في الشمس ما شاء اللَّه ثم أعطاهم الذي أرادوا، فأتاه الحارث بن يزيد فقال له: يا عياش أهذا الذي كنت عليه؟ فواللَّه لئن كان الهدى لقد تركت الهدى، ولئن كان ضلالة لقد كنت عليها. فغضب عياش من مقالته وقال: واللَّه لا ألقاك خالياً أبداً إلا قتلتك. ثم إن عياشاً أسلم بعد ذلك وهاجر إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم المدينة، ثم أسلم بعد ذلك الحارث بن يزيد وهاجر إلى المدينة ولم يعلم عياش بإسلامه[1]. فبينما عياش، يسير بظهر قباء إذ لقي الحارث بن يزيد فقتله، فقال الناس: ويحك يا عياش إنه قد أسلم. فرجع عياش إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللَّه قد كان من أمري وأمر الحارث ما علمت، وإني لم أعلم بإسلامه حتى قتلته فنزل[2] قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ الآية. أي ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً ألبتة لا خطأً ولا عمداً بحال، لكن إذا قتله خطأً على غير قصد أو قتله على ظن أنه مباح الدم فعليه عتق رقبة مؤمنة من ماله، وعليه وعلى عاقلته تسليم دية كاملة إلى أولياء المقتول، ويكون القاتل كواحد من العاقلة، وإذا لم يكن له عاقلة كانت الدية في بيت المال في ثلاث سنين.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ معناه: إلا أن يتصدق أولياء المقتول فيتركوا الدية ويعفوا ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي إن كان المقتول خطأً من قوم حرب لكم فقتل في دار الحرب وهو ممن أسلم في دار الحرب ولم يهاجر حتى قتل، فعلى قاتله عتق رقبة مؤمنة ولم يذكر الدية، لأن دم المقتول لا قيمة له إذ لم يحرز نفسه بدار الإسلام وليس هو في دار صلح المسلمين. وقيل: إنما لم يذكر الدية لئلا تسلم إلى أهل الحرب دية فيتقوون بها علينا. وهذا القول يقتضي أن الدية واجبة إلا أنها لا تسلم إليهم. وفي وجوب هذه الدية خلاف بين العلماء.

---

(1) في النسخة (ف): باسمه.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 139 ـ 140 ـ تفسير ابن عطية: 4/ 208.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي إن كان المقتول خطأً من قوم بينكم وبينهم عهد أو صلح فعلى القاتل وعاقلته تسليم دية كاملة إلى أولياء المقتول، وعلى القاتل عتق رقبة مؤمنة. والفائدة في إعادة ذكر المؤمنة أنه لو لم يعد ذكرها لكان يتوهم متوهم أنه كما وجب في قتل المؤمن رقبة في مثل صفته يجب أيضاً في قتل الكافر رقبة في مثل صفة المقتول.

قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي من لم يجد رقبة مؤمنة فعليه صيام شهرين متواليين لا يفصل بين صيامهما.

وقوله تعالى: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي اعلموا ما أمركم اللّه به للتوبة ليتوب اللّه به عليكم. وهذا نصب على ما يقال: فعلت كذا حذاراً من الشر، أي للحذر من الشر. وإنما سميت الكفارة توبة لأن قاتل الخطأ كان عاصياً في سبب القتل من حيث إنه لم يتحرز وإن لم يكن عاصياً في نفس القتل. ويقال: معنى التوبة: التوسعة والتخفيف من اللّه تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليم بكل شيء حكيم فيما أمركم به من الدية والكفارة. وقال بعضهم: نزلت الآية في أبي الدرداء حين قتل راعياً خطأً[1].

قال اللّه تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿93﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿94﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ

(1) تفسير ابن عطية: 4/ 208.

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿95﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿96﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ قال ابن عباس: نزلت في مقيس بن صبابة[1] وجد أخاه قتيلاً في بني النجار فأتى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فذكر له ذلك، فأرسل معه رجلاً من بني فهر وقال له: «**ائت بني النجار فأقرئهم مني السلام وقل لهم: إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يأمركم إن علمتم قاتل هشام أن تدفعوه إلى مقيس فيقتص منه، وإن لم تعلموا له قاتلاً أن تدفعوا إليه ديته. فأبلغهم الفهري ذلك فقالوا: سمعاً وطاعة للَّه ولرسوله، واللَّه ما نعلم له قاتلاً ولكن نؤدي ديته**». فأعطوه مائة من الإبل وانصرفوا راجعين نحو المدينة وبينهما وبين المدينة قريب، فوسوس الشيطان إلى مقيس وقال: أي شيء صنعت تقبل دية أخيك فتكون عليك سبة. اقتل الذي معك تكون نفساً مكان نفس وفضل الدية. فرمى الفهري بصخرة فشج رأسه فقتله ثم ركب بعيراً منها وساق بقيتها راجعاً إلى مكة وجعل ينشد:

قتلت به فهراً وحملت عقله ∴ سراة بني النجار أرباب فارع[2]

حللت به وتري وأدركت ثؤرتي ∴ وكنت إلى الأوثان أول راجع

فنزلت هذه الآية وقتل مقيس يوم فتح مكة، ومعناها: ومن يقتل مؤمناً في قتله مستحلاً له فجزاؤه جهنم خالداً فيها باستحلاله وارتداده عن إسلامه، وغضب اللَّه عليه بقتله غير قاتل أخيه، ولعنه أي باعده من رحمته وأعدَّ له

---

(1) مقيس بن صبابة بن حزن الكناني القرشي: شاعر جاهلي كانت إقامته بمكة وشهد بدراً مع المشركين. قتل يوم فتح مكة سنة ثمان من الهجرة.
سيرة ابن هشام: 3/ 293 ـ الأعلام: 1/ 283.

(2) هذان البيتان من بحر الطويل من شعر مقيس بن صبابة.
سراة بني النجار: خيارهم. فارع: حصن لهم.
(ذكرهما القرطبي في تفسيره: 5/ 333 ـ وابن عطية في المحرر الوجيز: 4/ 214 ـ وابن هشام في السيرة: 3/ 293).

عذاباً عظيماً بجرأته على اللّه بقتل نفس بغير حق. واختلف الناس في حكم هذه الآية: قالت الخوارج[1] والمعتزلة[2]: إنها في المؤمن إذا قتل مؤمناً وهذا الوعيد لاحق به[3]. وقالت المرجئة[4]: إنها نزلت في كافر قتل مؤمناً، فأما المؤمن إذا قتل مؤمناً فإنه لا يخلد في النار[5]. وقالت طائفة من أصحاب الحديث: كل مؤمن قتل مؤمناً فهو خالد في النار غير مؤبد، ويخرج منها بشفاعة الشافعين، وزعمت أنه لا توبة لمن قتل مؤمناً متعمداً. والصحيح أن المؤمن إذا قتل مؤمناً متعمداً لا يكفر بذلك، ولا يخرج من الإيمان إلا إذا فعل ذلك مستحلاً له، فإن أقيد بمن قتله فذلك كفارة له، وإن كان تائباً من ذلك ولم يكن مقاداً كانت التوبة أيضاً كفارة له، فإن مات بلا توبة ولا قود فأمره إلى اللّه تعالى إن شاء غفر له وأرضى خصمه، وإن شاء عذبه على فعله ثم

---

(1) عرفت فرقة الخوارج واشتهرت في تاريخ الفرق منذ عهد علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، حيث خرج عليه جماعة ممن كانوا معه في حرب صفين، وقالوا له: القوم يدعوننا إلى كتاب اللّه وأنت تدعوننا إلى السيف. فأجبروه على قبول التحكيم، وعندما قبله خرجوا عليه وقالوا: لَمَ حكمت الرجال؟ لا حكم إلا للّه. وانقسمت إلى عدة فرق يجمعها التبري من عثمان وعلي رضي اللّه عنهما، ويقدمون ذلك على كل طاعة، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك، ويكفرون أصحاب الكبائر. (الشهرستاني، الملل والنحل: 1/ 114).

(2) المعتزلة: من الفرق الكلامية التي ظهرت في الفكر الإسلامي، وناقشت موضوعات علم الكلام في نسق مذهبي متكامل، وتجمعهم خمس نظريات كبرى، تتفرع عنها بقية أبحاثهم العقائدية، وهذه النظريات هي الأصول الخمسة، ولا يعتبر معتزلياً من لا يؤمن بها وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كانت هذه الأصول أو بعضها، يشاركهم في الإيمان والقول بها غيرهم، إلا أن للمعتزلة وجهة نظر خاصة في فلسفتها.
(الشهرستاني، الملل والنحل: 1/ 43).

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 359.

(4) قال الشهرستاني: الإرجاء على معنيين: أحدهما بمعنى التأخير، والثاني: إعطاء الرجاء. وقد أطلق هذا اللقب على جماعة من المسلمين كانوا يقولون: بتأخير العمل عن النية وعقد القلب. وكانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وقد تفرعت هذه الجماعة إلى عدة أقسام كغيرها من الفرق الإسلامية، كل منها نسبت إلى أعظم شخصية تزعمت أفكارها.
(الملل والنحل: 1/ 139).

(5) تفسير الثعلبي، ورقة: 359.

يخرجه بعد ذلك إلى الجنة التي وعده بإيمانه، لأن اللّه لا يخلف الميعاد، وترك المجازاة بالوعيد يكون منه تفضلاً، وترك المجازاة بالوعد يكون خلفاً، تعالى اللّه عن الخلف علواً كبيراً. والدليل على أن المؤمن لا يصير بقتله للمؤمن كافراً ولا خارجاً من الإيمان قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾[1] ولا يكون القصاص إلا في قتل العمد، فسماهم اللّه مؤمنين وآخى بينهم بقوله: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ لم يرد به إلا الأخوة في الإيمان، والكافر لا يكون أخاً للمؤمن. ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ ولا يجعل ذلك للكافر. ثم أوجب على المعتدي بعد ذلك عذاباً أليماً بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ولم يوقع الغضب ولا التخليد في النار ولا سمّيَ هذا العذاب ناراً. والعذاب قد يكون ناراً وقد يكون غيرها في الدنيا. قال اللّه تعالى: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾[2] يعني القتل والأسر، ولو كان القتل يخرجهم من الإيمان لما خاطبهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾[3] الآية.. واقتتالهم على وجه العمد. وروي أن مؤمناً قتل مؤمناً على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فلم يأمر القاتل بالإيمان، ولو كان كافراً لأمره أولاً بالإيمان، وقال لطالب الدم: «**أتعفو؟**» قال: لا. قال: «**أتأخذ الدية؟**» قال: لا. فأمر بقتله، ثم عاد إليه مرتين أو ثلاثاً حتى قبل الدية ولم يحكم عليه بالكفر. فلو كان ذلك كفر لبيّنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، لأن ذلك كان ردة تحرم بها زوجته عليه ولم يجز على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الإغفال عليه لأنه الناصح الشفوق المبعوث بالتأديب والتعليم. ودليل آخر على أن القاتل لا يصير كافراً هو أن الكفر: الجحود والإباء والشرك، والقاتل لم يجحد ولم يأب قبول الفرائض، ولا أضاف إلى اللّه تعالى شريكاً، ولو جاز أن يكون كافراً من لم يأت بالكفر لجاز أن يكون مؤمناً من لم يأت بالإيمان، فإن تعلقت الخوارج والمعتزلة بهذه الآية وقالوا: إن المؤمن إذا قتل مؤمناً متعمداً

---

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 178.
(2) سورة التوبة (9)، الآية: 14.
(3) سورة الحجرات (49)، الآية: 9.

يبقى في النار مؤبداً، لأن اللّه تعالى قال: ﴿خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ يقال لهم: إن هذه الآية نزلت في كافر قتل مؤمناً متعمداً وقد ذكرنا القصة فيه، وسياق الآية يدل عليه، وروايات المفسرين تدل على أنا لو سلمنا أنها نزلت في مؤمن قتل مؤمناً فإنا نقول لهم: لو قلتم: إن الخلود هو التأبيد فأخبرونا عن قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾(1) هنا في الدنيا، فإن قلتم إنه أراد التأبيد فالدنيا تزول وتفنى، ومثله: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾(2) وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾(3) وإن قلتم لم يرد به التأبيد وذلك القول منكم لا بد منه، فقد ثبت أن معنى الخلود غير معنى التأبيد. وكذلك العرب تقول: لأخلدن فلاناً في السجن. فإن قلتم المراد به التأبيد فالسجن ينقطع ويفنى ويموت المسجون أو يخرج منه. فإن قالوا: إن اللّه تعالى لما قال: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ دلّ على كفره، لأن اللّه تعالى لا يغضب إلا على من كان كافراً. قلنا هذه الآية لا توجب عليه الغضب، لأن معناه: فجزاؤه جهنم وجزاؤه أن يغضب اللّه عليه ويلعنه. وما ذكره اللّه تعالى وجعله جزاء للشيء فليس يكون ذلك واجباً، لأنه لو كان على الوجوب لكان كفر له ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾(4). وفي لغة العرب إذا قال القائل: جزاؤه كذا ثم لم يجازه لم يكن كاذباً، وإذا قال: أجزيه كذا ولم يفعل كان كاذباً، فعلم أن بينهما فرقاً واضحاً. وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ قال: هي جزاؤه إن جازاه. فإن قيل: قوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ من الأفعال الماضية، ومتى قلتم: إن المراد به فجزاؤه ذلك إن جازاه كان من الأفعال المستقبلة؟ يقال لهم: يرد الخطاب باللفظ الماضي والمراد به منه المستقبل كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾(5) أي إلا أن آمنوا باللّه. ومثله كثير. وأما

---

(1) سورة الأنبياء (21)، الآية: 34.
(2) نفس السورة، الآية: 34.
(3) سورة الهمزة (104)، الآية: 3.
(4) سورة الأنبياء (21)، الآية: 29.
(5) سورة البروج (85)، الآية: 8.

قول من زعم أنه لا توبة لمن قتل مؤمناً متعمداً، فإنه مخالف للكتاب والسنة، وذلك أن اللّه تعالى عمَّ الذنوب جميعاً وأمر بالتوبة منها، فقال اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1] ولم يفصل بين ذنب وذنب. وإذا كان اللّه تعالى يقبل التوبة من الكفر فقبولها من القتل أولى. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[2] إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾[3] الآية.. وقال إخوة يوسف: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾[4] ثم قال: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ أي تائبين. وسئل النبي صلى اللّه عليه وسلم: أمن كل ذنب تقبل التوبة؟ قال: «**نعم**»، ثم القاتل إذا اقتصّ منه الولي فذلك جزاؤه في الدنيا، وفيما بين القاتل والمقتول الأحكام باقية في الآخرة، لأن الولي وإن قتله فإنما أخذ حق نفسه للتشفي ودرك الغيظ، فأما المقتول فلم يكن له في القصاص منفعة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ قال ابن عباس: نزلت في مرداس بن نهيك[5] الغطفاني ثم الفزاري، كان مسلماً لم يسلم من قومه غيره؛ فسمعوا بسرية الرسول صلى اللّه عليه وسلم فهربوا كلهم وأقام الرجل في غنمه لأنه كان على دين المسلمين. فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وهو المعوج، فلما سمعهم يكبِّرون عرف أنهم الصحابة فكبر ونزل وهو يقول: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه. السلام عليكم. فغشاه أسامة بن زيد[6] فقتله واستاق غنمه وكان أمير السرية غالب بن فضالة

---

(1) سورة النور (24)، الآية: 31.

(2) سورة الفرقان (25)، الآية: 68.

(3) سورة الفرقان (25)، الآية 69 ـ 70.

(4) سورة يوسف (12)، الآية: 9.

(5) مرداس بن نهيك الفزاري، التقى بسرية غالب الليثي في أرض بني مرة فقتله أسامة ورجل من الأنصار.
الاستيعاب: 3/ 1386 ـ السيرة النبوية: 2/ 622.

(6) أبو محمد، أسامة بن زيد بن حارثة: صحابي جليل، روى عن جماعة من الصحابة، وكان الرسول صلى اللّه عليه وسلم يجله ويقدمه على كبار الصحابة. سكن المدينة وتوفي بها سنة أربع وخمسين. الاستيعاب: 1/ 75 ـ الإصابة: 1/ 31 ـ الطبقات الكبرى: 4/ 61.

الليثي[1] [ثم] رجعوا إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فأخبروه الخبر، فوجد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من ذلك وجداً شديداً، وقال: أقتلتموه إرادة ما معه؟ فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية[2]. فقرأها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على أسامة فقال: يا رسول اللَّه استغفر لي. قال: «**فكيف بلا إله إلا اللَّه؟**» قال ذلك ثلاث مرات ثم استغفر له بعد ثلاث مرات، وأمره أن يعتق رقبة. وعن الحسن أن ناساً من المسلمين لقوا أناساً من المشركين فحملوا عليهم فشدّ رجل منهم ومعه متاع، فلما غشيه السيف قال: إني مسلم. فكذبه ثم أوخزه إنسان فأخذ متاعه وكان واللَّه قليلاً، فأخبروا بذلك رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. قال جندب بن سفيان[3]: ولقد كنت عند رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حين جاءه وقال: يا رسول اللَّه بينما نحن نطلب القوم وقد هزمهم اللَّه تعالى إذ لحقت رجلاً بالسيف، فلما أحس أن السيف واقع به قال: إني مسلم، إني مسلم فقتلته. فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**قتلت مسلماً؟**» قال: يا نبي اللَّه إنه قال ذلك متعوذاً. قال: «**فهلا شققت عن قلبه فنظرت أصادقاً هو أم كاذباً؟**» قال: لو شققت عن قلبه ما كان يعلمني هل قلبه إلا بضعة من لحم؟ قال: «**فأنت قتلته لا ما في قلبه علمت، ولا لسانه صدقت، إنما يعبر عنه لسانه**». فقال: يا رسول اللَّه استغفر لي. قال: لا أستغفر لك. قال: فما لبث القاتل[4] أن مات فدفنوه فأصبح على ظاهر الأرض

---

(1) غالب بن عبد اللَّه الليثي: كان يتولى قيادة بعض سرايا الرسول صلى اللَّه عليه وسلم. كما بعثه عام الفتح ليسهل له الطريق.
الاستيعاب: 3/ 1252 ـ السيرة النبوية: 2/ 622.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 142.

(3) جندب بن عبد اللَّه بن سفيان البجلي، وهو العلقي. وعلقة بطن من بجيلة، وبعضهم ينسبه إلى جده فيقول: جندب بن سفيان.
الاستيعاب: 1/ 256 ـ أسد الغابة: 1/ 304.

(4) روي أن القاتل الذي لفظته الأرض حين دفن هو: محلم بن جثامة بن قيس الليثي، كان في سرية عبد اللَّه بن أبي حدرد بطن أضم، وأنه حمل على عامر بن الأضبط لشيء كان بينهما فقتله وأخذ ما معه. توفي محلم نحو سنة ثمان.
الاستيعاب: 4/ 1461 ـ أسد الغابة: 4/ 309 ـ سيرة ابن هشام: 2/ 626.

إلى جانب قبره، ثم عاد فحفروا له ومكنوا ودفنوه فأصبح على ظاهر الأرض ثلاث مرات. فلما رأى ذلك قومه استحيوا وخزنوا وأخذوا برجله فألقوه في شعب من الشعاب، فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**إنها لتطابق على من هو أعظم جرماً ولكن أراد اللّه أن يبيِّن لكم حرمة الدم**». ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا إذا خرجتم مسافرين في طاعة اللّه فتبينوا، أي ميِّزوا الكافر من المؤمن بالدلائل والعلامات، ولا تعجلوا بالقتل حتى يتبيَّن لكم ذلك ومن [قرأ] فتثبتوا ـ بالثاء ـ فمعناه: قفوا في أمر من أظهر لكم الإسلام فلا تعجلوا بقتله ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ أي الانقياد والمتابعة وأسمعكم كلمة الإسلام: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ فتقتلوه تطلبون برد إسلامه استغنام ما معه من المال ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ يظهركم عليها ويبيح لكم أخذها. ومن قرأ السلام ـ بالألف ـ فمعناه: لا تقولوا لمن سلم عليكم ودعاكم: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ والتسليم من علامات الإسلام، به يتعارف المسلمون ويحيي بعضهم بعضاً.

قوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني تطلبون بذلك المغنم والغنيمة وسلبه وعرض الدنيا: منافعها ومتاعها.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي كذلك كنتم من قبل الهجرة تأمنون من قومكم بين المؤمنين بلا إله إلا اللّه، فكيف تخيفون وتقتلون من قالها. فنهاهم اللّه تعالى أن يخيفوا أحداً يأمن بما كانوا يأمنون بمثله وهم في قومهم. وقيل: معناه كنتم تقتلون وتؤخذ أموالكم قبل الهجرة، فمنَّ اللّه عليكم بتوفيق الإيمان والهجرة، فتبيّنوا ولا تخيفوا أحداً بأمر كنتم تأمنون بمثله، إن اللّه كان بما تعملون من القتل وغير ذلك خبيراً.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ أي لا يستوي في الفضل والثواب القاعدون عن الجهاد من المؤمنين الأصحاء الذين لا ضرر بهم من المرض والزمانة ولا عذر يمنعهم من الجهاد، والمجاهدون في طاعة اللّه تعالى بالإنفاق من أموالهم والخروج بأنفسهم. روي أنه نزل أولاً: ﴿لَّا يَسْتَوِى

﴿ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فجاء ابن أم مكتوم[1] ورجل آخر معه وهما أعميان فقال: يا رسول اللّه أمر اللّه بالجهاد وفضل المجاهدين على القاعدين، وحالنا على ما ترى، فهل لنا من رخصة، واللّه لو استطعنا لجاهدنا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ أي غير أولي العذر في البصر يجعل لهم من الأجر ما للمجاهدين. وروى ابن أبي ليلى قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن أم مكتوم: اللّهم أنزل عذري. فنزل قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ فوضعت بينهما، وكان بعد ذلك يغزو ويقول: ادفعوا لي اللواء، ويقول: أقيموني بين الصفين. وعن زيد بن ثابت قال: كنت عند النبي صلى اللّه عليه وسلم وفخذه على فخذي وقد أملى عليّ: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعرض ابن أم مكتوم فثقلت فخذ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على فخذي حتى كادت تتحطم فنزل عليه[2]: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾. ومن قرأ: غير أولي الضرر ـ بالنصب ـ فهو نصب على الاستثناء كأنه قال: إلا أولي الضرر، كما يقال: جاءني القوم غير زيد، ويجوز أن يكون على الحال، أي لا يستوي القاعدون في حال صحتهم والمجاهدون، وهذا كما يقال: جاءني زيد غير مريض أي صحيحاً. ومن قرأ بالرفع فيجوز الرفع في استثناء الإثبات من النفي، ويجوز أن يكون غير صفة للقاعدين وإن كان أصل غير أن تكون صفة لما هو نكرة. المعنى: لا يستوي القاعدون الذين هم غير أولي الضرر والمجاهدون في الفضل والثواب وإن كانوا كلهم مؤمنين. واختار

---

(1) ابن أم مكتوم، عبد اللّه بن قيس بن زائدة: صحابي جليل، كان ضرير البصر. أسلم بمكة وهاجر إلى المدينة، فكان يؤذن للنبي صلى اللّه عليه وسلم مع بلال، واستخلفه عليها في بعض غزواته فكان يصلي بالناس. شهد موقعة القادسية وهو أعمى. توفي سنة ثلاث وعشرين هجرية.
الاستيعاب: 3/ 901 ـ الطبقات الكبرى: 4/ 205 ـ حلية الأولياء: 2/ 4.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 43.
رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 9/ 329، باب لا يستوي القاعدون ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي 13/ 42 ـ والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 8/ 287، رقم: 5022.

بعضهم قراءة الرفع، لأن معنى الصفة على لفظة غير أغلب من معنى الاستثناء، واختار بعضهم قراءة النصب، لأن قوله: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيكون معنى الاستثناء به أليق.

قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ أي فضيلة ومنزلة ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وكلا الفريقين: المجاهد والقاعد وعدهم اللَّه الحسنى، يعني الجنة بالإيمان. وفي هذا دليل أن الجهاد فرض على الكفاية، لأنه لو كان فرضاً على الأعيان لم يجز أن يكون القاعد عنه موعوداً بالحسنى.

قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي فضل اللَّه المجاهدين على القاعدين عن الجهاد بغير عذر ثواباً حسناً في الجنة. وقوله تعالى: ﴿أَجْرًا﴾ نصب على التفسير. وقال الأخفش: على المصدر، تقديره: أجرهم اللَّه أجراً. والفائدة في تكرار لفظ التفضيل: أن في الأول بيان تفضيل من جاهد بالمال وبالنفس جميعاً، وفي الآخر: تفضيل المجاهد مطلقاً، فيدخل فيه المجاهد بالمال والنفس، والمجاهد بالمال دون النفس، وبالنفس دون المال.

قوله عزّ وجلّ: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ هذا بدل من قوله تعالى: ﴿أَجْرًا﴾ أو صفة له وهو في موضع نصب. وعن ابن محيريز[1] أنه قال: فضل اللَّه المجاهدين على القاعدين بسبعين درجة بين كل درجتين مسيرة سبعين خريفاً للجواد المضمر[2].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي غفوراً لذنب من جاهد رحيماً إذ سوى في وعد الحسنى بين من له العذر وبين من جاهد. فإن قيل: كيف ذكر

---

(1) عبد اللَّه بن محيريز الجمحي: تابعي، ثقة، من خيار المسلمين، كان الأوزاعي لا يذكر خمسة من السلف إلا ذكر فيهم ابن محيريز ورفع من ذكره، وفضله، روى عن أبي سعيد الخدري ومعاوية وعبادة بن الصامت وغيرهم من الصحابة.
الطبقات الكبرى: 7/ 311.

(2) تفسير القرطبي: 5/ 344.

التفضيل في هذه الآية بدرجات وفي الآية قبلها بدرجة؟ قلنا: قال بعضهم: أراد بذكر الدرجة في الآية الأولى الفضيلة والكرامة في الدنيا، وبذكر الدرجات درجات الجنة فهي منازل في النعيم بعضها أعلى من بعض، وذكر المغفرة لبيان خلوص نعيمهم عن الكدر، كما روي في الخبر أن اللّٰه تعالى ينسيهم في الجنة ما كان منهم من الذنوب في الدنيا حتى لا يلحقهم الحياء، وذكر الرحمة لبيان أن اللّٰه تعالى أعطاهم ذلك النفع العظيم على جهة النعمة مع ما ينضاف إليه من الفضل بالزيادة في النعمة. وقال بعضهم: أراد بالتفضيل في الدرجة في الآية الأولى تفضيل المجاهدين على القاعدين المعذورين، وبالآية الثانية: تفضيلهم على القاعدين الذين لا عذر لهم.

قال اللّٰه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ الآية: قال ابن عباس: نزلت في قوم من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا، أي أظهروا الإسلام وأسروا النفاق، فلما كان يوم بدر خرجوا مع المشركين إلى محاربة المسلمين، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا وهم مع المشركين: غر هؤلاء دينهم. فقتلوا يومئذ فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم وقالت لهم: لماذا خرجتم مع المشركين وتركتم الهجرة[1]؟ وكان سؤال الملائكة لهم بهذا على سبيل التقريع والتوبيخ، ويجوز أن يكون معناه: فيم كنتم؟ أفي المشركين أم في المسلمين؟ ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي مقهورين في أرض مكة فأخرجونا معهم كارهين. قالت الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ آمنة ﴿فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾

(1) الواحدي، أسباب النزول: 144.

أي إليها وتخرجوا من بين أظهر المشركين. وقوله: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ نصب على الحال. المعنى: تتوفاهم الملائكة في حال ظلمهم لأنفسهم بالشرك والنفاق. والأصل: ظالمين، إلا أن النون حذفت استخفافاً وهي ثابتة في المعنى، فيكون هذا على معنى النكرة، وإن أضيف إلى المعرفة كما في قوله: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾[1] أي بالغاً الكعبة. وقوله: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي تقبض أرواحهم عند الموت. وإنما حذفت التاء الثانية لاجتماع التاءين.

قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي أهل هذه الصفة مصيرهم ومنزلتهم جهنم وساءت مصيراً لمن صار إليها. واختلفوا في خبر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال بعضهم: خبره: ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي قالوا لهم فيم كنتم، وقال بعضهم: خبره: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾. وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ دليل على أنه لا عذر لأحد في المقام على المعصية في بلده لأجل المال والولد والأهل، بل ينبغي أن يفارق وطنه إن لم يمكنه إظهار الحق فيه. ولهذا روي عن سعيد بن جبير أنه قال: إذا عمل بالمعاصي في أرض فاخرج منها[2]. وروي عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً استوجب به الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد صلى اللّه عليه وسلم**»[3].

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ استثناء من قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾. والمعنى: إلاّ من صدق في أنه مستضعف من الشيوخ والولدان والنساء لا يجدون نفقة الخروج إلى المدينة ولا يمكنهم الخروج إليها، ولا يعرفون الطريق حتى يهاجروا. والمعنى: إلا المستضعفين المخلصين المقهورين بمكة لم يستطيعوا الهجرة، ومنعوا من اللحاق بالنبي صلى اللّه عليه وسلم وهو يريدون اللحوق به.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ قال مجاهد: ولا يعرفون طريق المدينة.

---

(1) سورة المائدة (5)، الآية: 95.
(2) تفسير القرطبي: 5/ 347.
(3) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 364.

وقال ابن عباس: كنت أنا وأمي من الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وكنت غلاماً صغيراً يومئذ، فنحن ممن استثنى اللّه عزّ وجلّ"(1).

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾ أي أهل هذه الصفة من المستضعفين عسى اللّه أن يتجاوز عنهم وعسى من اللّه كلمة إيجاب، لأنه أرحم الراحمين. والفائدة في ذكر هذا اللفظ أن يكون العبد بين الخوف والرجاء.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي لم يزل عفواً عن عباده غفوراً لهم.

قال اللّه تعالى:

﴿ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (100) وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا (101) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا (102)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾ أي من يخرج في سبيل اللّه الذي أمر اللّه بالهجرة فيه وهو سبيل المدينة، يجد في الأرض متحولاً كثيراً ومتزحزحاً عما يكره. وقوله تعالى: ﴿وَسَعَةٗۚ﴾ أي سعة في

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره بسنده عن ابن عباس: 9/ 110 ـ رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 9/ 130 ـ 131.

الرزق. وقال قتادة: أي سعة في إظهار الدين. وإنما قال ذلك لما كان يلحقهم من التضييق من جهة الكفار في إظهار دينهم[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ سمعها رجل من بني الليث شيخ كبير يقال له جندع بن ضمرة فقال: واللَّه ما أنا ممن استثنى اللَّه تعالى فإني لأجد حيلة، واللَّه لا أبيت ليلة بمكة. فخرجوا به يحملونه على سرير فأتوا به التنعيم[2] فأدركه الموت، فصفق بيمينه على شماله ثم قال: اللَّهم إن هذا لك وهذه لرسولك، أبايعك على ما بايعك رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. فمات حميداً، فبلغ ذلك أصحاب النبي صلى اللَّه عليه وسلم وكانوا يقولون: لو بلغ إلينا لتمّ أجره[3]. وضحك المشركون وقالوا: ما طلب أدرك. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا﴾ أي مهاجراً قومه وأهله وولده إلى طاعة اللَّه تعالى وطاعة رسوله ثم يدركه الموت فقد وقع، [أي] وجب ثوابه على اللَّه إذ وفى بوعده، وكان اللَّه غفوراً لما كان منه في الشرك رحيماً به في الإسلام.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا سافرتم في الأرض، لأن الخروج إلى الصحراء والقصد إلى القرية القريبة لا يسمى ضرباً في الأرض. قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي ليس عليكم حرج ومأثم في أن تقصروا من الصلاة، يعني من أربع ركعات إلى ركعتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ﴾، أي علمتم أن يغتالكم الذين كفروا ويقتلوكم ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي عدواً ظاهر العداوة يبينون عداوتهم لكم. وفي هذه الآية ذكر القصر من الصلاة بين شرطين، وأجمعت الأمة أن أصل القصر لا يتعلق بها وإن كان واحد منهما يؤثر في القصر نوع تأثير، فتأثير السفر في القصر في العدد في الصلوات الرباعية، وتأثير الخوف في القصر في أركان

---

(1) تفسير القرطبي: 5/ 348.
(2) التنعيم: موضع قرب مكة في الحل، يعرف بمسجد عائشة، ومنه يحرم المعتمر بالعمرة.
(3) الواحدي، أسباب النزول: 145 ـ تفسير القرطبي: 5/ 348 ـ 349.

الصلاة إذا خاف إن قام في الصلاة أن يراه العدو أو خاف إن نزل عن الدابة أن يدركه العدو كان له ترك القيام، وأن يومىء على الدابة فيحتمل أن حرف العطف مضمر في قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ كأنه قال: وإن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة. وقال الحسن: صلاة السفر ركعتان، فإذا قام الحرب فركعة، وهذا اللفظ يقتضي القصر الذي هو غاية في القصر متعلق بشرطين على مذهبه. وروي أن رجلاً سأل عمر رضي اللَّه عنه عن هذه الآية فقال: كيف يقصر الناس وقد آمنوا؟ فقال عمر: عجبت مما عجبت حتى سألت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عن ذلك فقال: «**صدقة تصدق اللَّه بها عليكم فأقبلوا صدقته**»[1]. وصدقة اللَّه تقتضي إسقاط الفرض عنا. وفي قوله صلى اللَّه عليه وسلم: «**فاقبلوا صدقته**». دليل أن القصر عزيمة لا رخصة لأن ظاهر الأمر على الوجوب. ولهذا قال أصحابنا: إن المسافر إذا صلى الظهر أربعاً ولم يقعد في الثانية قدر التشهد فسدت صلاته كمصلي الفجر أربعاً[2].

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ الآية. قال ابن عباس: لما رأى المشركون رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر. وهو يؤمهم ندموا على تركهم الإقدام على القتال فقال بعضهم: دعوهم فإن بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأولادهم ـ يريدون العصر ـ فإذا رأيتموهم قاموا إليها فشدّوا عليهم فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية، وأطلع اللَّه النبي صلى اللَّه عليه وسلم على قصدهم ومكرهم. وعن هذا كان إسلام خالد بن الوليد حين عرف أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم اطلع على ما كان من قصد المشركين فيما بينهم[3]. ومعنى الآية: وإذا كنت يا محمد مع المؤمنين في الغزو فابتدأت في صلاة الخوف فلتقم جماعة منهم معك في الصلاة ولتكن أسلحتهم معهم في صلاتهم،

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 5/ 195، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ـ والترمذي في سننه: العارضة: 11/ 163، باب تفسير سورة النساء ـ والنسائي في سننه: 3/ 116، باب تقصير الصلاة في السفر.

(2) الطحاوي في شرح معاني الآثار: 1/ 415.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 365 فقد ذكر قول ابن عباس.

لأن ذلك أهيب للعدو، فإذا سجدت الطائفة التي معك وصلت ركعة فلينصرفوا إلى المصاف وليقيموا بإزاء العدو، ولتأت طائفة أخرى وهم الذين كانوا بإزاء العدو ولم يصلوا معك في الركعة الأولى فليصلوا معك الركعة الأخرى، ولتكن أسلحتهم معهم في الصلاة. ولم يذكر في الآية لكل طائفة إلا ركعة واحدة، وفي صلاة الخوف خلاف بين العلماء، قال بعضهم: إنها غير مشروعة بعد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وهو رواية عن أبي يوسف، وهو قول الحسن بن زياد[1]، لأن في هذه الآية ما يدلّ على كون النبي صلى اللَّه عليه وسلم شرطاً في إقامة صلاة الخوف، وأنها إنما جازت للنبي صلى اللَّه عليه وسلم ليستدرك الناس فضيلة الصلاة خلفه، لأن إمامة غيره لم تقم مقام إمامته[2]. وذهب أكثر العلماء إلى أن صلاة الخوف مشروعة بعد النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وأن الخطاب في هذه [الآية] وإن كان للنبي صلى اللَّه عليه وسلم فالأئمة بعده يقومون مقامه كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾[3] ونحو ذلك من الآيات. واختلفوا في كيفية صلاة الخوف: فقال أبو حنيفة ومحمد: يجعل الإمام الناس طائفتين: طائفة بإزاء العدو وطائفة معه، فيصلي بها ركعة ثم تنصرف هذه الطائفة إلى وجه العدو وتجيء الأخرى فيصلي بها ركعة ويتشهد ويسلِّم، ثم ترجع هذه الطائفة إلى وجه العدو بغير سلام، وتأتي الأولى فتقضي الركعة الثانية وحداناً بغير قراءة، فإذا سلمت وقفت بإزاء العدو وجاءت تلك الطائفة وقضت الركعة الأولى وحداناً بقراءة. وعن أبي يوسف: إذا كان العدو في وجه القبلة وقف الإمام وجعل الناس خلفه صفين فافتتح بهم الصلاة فصلى بهم ركعة، فإذا سجد سجد معه الصف الأول ووقف الثاني يحرسهم، فإذا رفعوا رؤوسهم من السجود سجد الصف الثاني وتأخر الأول وتقدم الصف الثاني، فيركع بهم جميعاً ثم يرفعون رؤوسهم، ويسجد الصف

---

(1) أبو علي الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي: فقيه حنفي، أخذ عن أبي حنيفة وسمع منه، وكان عالماً بالحنفية. ولي قضاء الكوفة. من مؤلفاته: «معاني الإيمان» و«أدب القاضي». توفي سنة أربع ومائتين هجرية.
الفوائد البهية في تراجم الحنفية: 60 ـ الشيرازي، طبقات الفقهاء: 136.

(2) الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: 1/ 242.

(3) سورة التوبة (9)، الآية: 103.

المقدم سجدتين والصف الآخر يحرسونهم، ثم يسجد الصف المؤخر سجدتين لأنفسهم ثم يتشهد الإمام ويسلم بهم جميعاً. وهكذا قال ابن أبي ليلى. وقال مالك: يجعل الإمام الناس طائفتين فيصلي بطائفة ركعة وسجدتين ثم ينتظر الإمام حتى يصلوا بقية صلاتهم ويسلموا وينصرفوا إلى وجه العدو، وتأتي الطائفة الأخرى فيصلي بهم ركعة وسجدتين ويسلم الإمام ويقومون فيتمون صلاتهم. وقال الشافعي مثل ذلك، إلا أنه قال في الطائفة الأخرى لا يسلم الإمام ولكنه ينتظر حتى يقوموا فيتموا صلاتهم ثم يسلم بهم. وإنما وقع هذا الاختلاف لاختلاف الأخبار الواردة في هذا الباب. روى علي وابن مسعود وجماعة من الصحابة رضي اللَّه عنهم أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم صلى كما ذكرنا عن أبي حنيفة ومحمد. وعن ابن عباس أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم صلاها كما قال أبو يوسف. وعن سعد بن حيثمة[1] أنه صلى اللَّه عليه وسلم صلاها كما قال الشافعي. فدلت هذه الأخبار على جواز الجميع، وإنما يقع الكلام في الأولى والأقرب إلى ظاهر القرآن، وظاهره يشهد للرواية التي رواها علي وابن مسعود، لأن في قوله تعالى: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ دليل أن الإمام لا يصلي بالطائفتين معاً، وفي قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ دليل أن الطائفة الأولى تنصرف عقيب السجود. وعند مالك والشافعي لا تنصرف الطائفة الأولى إلا بعد تمام الصلاة. وفي قوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾ دليل أن الطائفة الثانية تأتي وهي غير مصلية، وهذا خلاف ما قال أبو يوسف، وهذا كله إذا أمكنهم إقامة الصلاة بالجماعة، أما إذا لم تمكنهم الجماعة لقيام القتال وكثرة العدو، صلى كل واحد منهم لنفسه على حسب ما أمكنه، إما إلى القبلة وإما إلى غيرها إذا لم يمكنه التوجّه إليها أو راكباً يومىء إيماء كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن

---

(1) سعد بن حيثمة: شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وكان أحد النقباء الاثني عشر. استشهد في غزوة بدر.
الاستيعاب: 2/ 588 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 481.

﴿تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ﴾ قال ابن عباس: غزا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم محارباً وبني أنمار[1] فهزمهم اللّه تعالى، فنزل النبي صلى اللّه عليه وسلم والمسلمون ولا يرون من العدو واحداً، فوضعوا أسلحتهم، وخرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يمشي لحاجة له قد وضع سلاحه حتى قطع الوادي والسماء ترش، فحال الوادي بين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه، فجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في أصل شجرة فبصر به غورث بن الحارث المحاربي، فانحدر من الجبل ومعه السيف وقال لأصحابه: قتلني اللّه إن لم أقتل محمداً. فلم يشعر به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلا وهو قائم على رأسه في يده السيف مسلولاً فقال: يا محمد من يعصمك مني الآن؟ فقال: «**اللّه عزّ وجلّ**» ثم قال صلى اللّه عليه وسلم: «**اللّهم اكفني غورث بن الحارث بما شئت**». فأهوى بالسيف إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليضربه فانكبّ لوجهه وبدر سيفه فقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأخذ السيف وقال: من يمنعك ويعصمك مني يا غورث؟ قال: لا أحد. قال: «**اشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأني رسول اللّه وأعطك سيفك**». قال: لا، ولكن لا أقاتلك أبداً ولا أعين عليك عدواً. وأعطاه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سيفه[2]، فقال غورث للنبي صلى اللّه عليه وسلم: واللّه لأنت خير مني. فقال عليه السلام: «**أجل، أنا أحق بذلك منك**». فرجع غورث إلى أصحابه فقالوا له: ويلك رأيناك وقد أهويت بالسيف قائماً على رأسه ما منعك منه؟ فقال: لقد أهويت لكن واللّه لا أدري من زاحني بين كتفي فخررت لوجهي وخر سيفي من يدي فسبقني إلى سيفي فأخذه. ثم رجع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقطع الوادي وأتى أصحابه وأخبرهم بالقصة[3]، فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ﴾ أي لا مأثم عليكم في ذلك، ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ﴾ من عدوكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا

---

(1) في شهر ربيع الآخر وبعض جمادى من سنة أربع، وقيل في المحرم سنة خمس. (سيرة ابن هشام: 3/ 203).

(2) سيرة ابن هشام: 3/ 205.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 367 _ 368.

مُّهِينًا﴾ يهانون فيه وهو القتل في الدنيا والنار في الآخرة.

قال اللّه تعالى:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا (103) وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (104) إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (105) وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (106) وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107) يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108) هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (109)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ يعني صلاة الخوف، أي إذا فرغتم منها فاذكروا اللّه، أي فصلوا للّه قياماً للصحيح وقعوداً للمريض، وعلى جنوبكم للمرضى والجرحى الذين لا يستطيعون الجلوس. وقيل: معناه فاذكروا اللّه بتوحيده وتسبيحه وشكره على كل حال. قال ابن عباس: لم يعذر اللّه أحداً في ترك ذكره إلا المغلوب على عقله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ أي رجعتم من سفركم وزال عنكم الخوف والمرض والقتال ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أتموها أربعاً بركوعها وسجودها وسائر شروطها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ أي فرضاً مؤقتاً أو تامة. ويقال: معلوماً فروضه للمسافر ركعتان وللمقيم أربع ركعات. وقال الأخفش: موقوتاً أي مؤقتاً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي لا تضعفوا في طلب القوم، أي أبي سفيان وأصحابه لما أصابكم من القتل والجراحات يوم أحد.

وقوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تألمون من الجراح فلهم مثل

ذلك. والمعنى: إن كان لكم صارف من الحرب وهو أنكم تألمون من الجروح فلهم مثل ذلك من الصارف، ولكم أسباب داعية إلى الحرب ليست لهم وهو أنكم ترجون من الثواب والنصر من اللَّه ما لا يرجون، وكان اللَّه عليماً بمصالحكم حكيماً فيما يأمركم به[1].

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق، سرق درعاً من جار له يقال له قتادة بن النعمان، وكان الدرع في غرارة أو جراب فيها دقيق، فانتثر الدقيق من المكان الذي سرقه إلى باب منزله، ففطن به أنه هو السارق، فمضى بالدرع إلى يهودي يقال له زيد بن السمين فأودعه إياها، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده فحلف لهم باللَّه ما أخذها ولا له بها علم. فقال أصحاب الدرع: لقد أدلج علينا فأخذها وطلبنا أثره حتى دخلنا داره ورأينا أثر الدقيق منتثراً. فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فطلبوه فقال: دفعها إلي طعمة بن أبيرق. وشهد له ناس من اليهود على ذلك. فقال قوم طعمة: انطلقوا بنا إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فنكلمه في صاحبنا فنعذره ونجادل عنه، فإن صاحبنا بريء معذور. فأتوا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وكانوا أهل لسان وبيان، فسألوه أن يعذره عند الناس. فهمَّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن يعذره ويعاقب اليهودي. فأنزل اللَّه هذه الآية[2]. وفي رواية ابن عباس أن طعمة سرق درعاً، وكان الدرع في جراب فيه نخالة، فخرق الجراب حتى كان يتناثر النخالة بطول الطريق، فجاء به إلى دار زيد بن السمين اليهودي وتركه على باب داره وحمل الدرع إلى بيته. فلما أصبح صاحب الدرع جاء إلى زيد بن السمين على أثر النخالة وحمله إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فهمَّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن يقطع يده، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية، ومعناها: إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن إنزالاً بالحق. وقيل: بالحق أي بالأمر والنهي والفصل،

---

(1) تفسير القرطبي: 5/ 374.
(2) الواحدي، أسباب النزول: 147.

لتحكم بين الناس بما أعلمك اللّه وأوحى إليك، ولا تكن يا محمد للخائنين خصيماً، أي لطعمة وقومه معيناً.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي تب إلى اللّه واستغفره مما هممت به من قطع يد زيد بن السمين. وقال الكلبي: من همك باليهودي أن نصرته. وقال مقاتل: واستغفر اللّه من جدالك الذي جادلت عن طعمة، إن اللّه كان غفوراً لمن يستغفره رحيماً بالتائبين[1].

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي ولا تخاصم عن الذين يظلمون أنفسهم بالخيانة والسرقة وبرمي اليهودي بها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ أي خائناً في الدرع أثيماً في رميه اليهودي. وقيل: الخوان: المكتسب للإثم. والآثم: الفاجر بالكذب ورمي البريء. وإنما قال ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ وإن كانوا خانوا غيرهم، لأن مضرة خيانتهم راجعة إليهم، كما يقال فيمن ظلم غيره: ما ظلم إلا نفسه. وإنما قال خواناً ولم يقل خائناً لعظم أمر الخيانة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ معناه: يستخفي قوم طعمة، أي يستترون من الناس وهم يعلمون أنه سارق، ولا يستترون من اللّه، أي لا يمكنهم الاستخفاء منه فإن سرّهم وعلنهم عند اللّه ظاهر. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي علمه معهم وهو مشاهد، لأن أفعالهم ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي يديرون ويقولون بالليل قولاً لا يرضاه اللّه وهو اتفاق قوم طعمة على أن يرموا اليهودي بالسرقة، ويحلف طعمة أنه لم يسرقها، فتقبل يمين طعمة لأنه مسلم ولا تقبل يمين اليهودي.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي عالماً لا يفوته شيء كما لا يفوت المحيط بالشيء.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 369 حيث ذكر هذه الأقوال.

عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وذلك أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم أراد أن يقطع طعمة في السرقة بعد هذه الآيات، فجاء قومه شاكين في السلاح فجادلوا عنه وهربوا به، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية، ومعناها: ها أنتم يا قوم طعمة خاصمتم النبي صلى اللَّه عليه وسلم عن طعمة وعن خيانته في دار الدنيا. وفي قراءة أبي: جادلتم عنه فمن يجادل اللَّه عالم الغيب والشهادة يوم القيامة إذا أخذه بعذابه وأدخله النار، ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ يتوكل بهم ويصلح أمورهم ويحفظهم من عذاب اللَّه[1].

قال اللَّه تعالى:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿110﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿111﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿112﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿113﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ أي ومن يعمل ما يسوء به غيره نحو السرقة والقذف والقتل ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ نحو الكذب واليمين الفاجرة وشرب الخمر وترك الفرائض ثم يستغفر اللَّه بالتوبة ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ للمستغفرين التائبين رحيماً بهم بعد التوبة. وإنما شرطت التوبة، لأن الاستغفار لا يكون توبة بالإجماع ما لم يقل معه: تبت وأسأت ولا أعود إليه أبداً فاغفر يا رب. وقيل: معناه ومن يعمل سوءاً بسرقة الدرع، أو يظلم نفسه برميه البريء بالسرقة. وقيل: معناه من يعمل سوءاً أي شركاً أو يظلم نفسه، يعني بما دون الشرك ثم يستغفر اللَّه أي يتوب إليه يجد اللَّه غفوراً رحيماً. وقيل: أراد بالسوء الكبيرة أو يظلم نفسه الصغيرة. وعن علي كرّم اللَّه وجهه قال: حدثني أبو بكر

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 370.

وصدق أبو بكر رضي اللّه عنه قال: ما من عبد يذنب ذنباً ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ويستغفر اللّه تعالى إلاّ غفر اللّه له. وتلا هذه الآية[1]: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ الآية...

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ من يعمل معصية فإنما عقوبة معصيته على نفسه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي لم يزل عليماً بكل ما يكون، حكيماً فيما حكم به من القطع على السارق. وقيل: معنى الآية: ومن يكسب إثماً، يعني يمينه بالباطل فإنما يضر به نفسه، وكان اللّه عليماً بسارق الدرع ﴿حَكِيمًا﴾ حكم على طعمة بالسرقة. وقد روي أنه لما نزلت هذه الآية عرف قوم طعمة كلهم أنه هو الظالم، فأقبلوا عليه وقالوا: اتق اللّه وأت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فتب من الذنب. فقال: لا، والذي يحلف به ما سرقها إلا اليهودي. فنزل[2] قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿112﴾﴾ أي ومن يعمل معصية بغير عمد أو متعمداً ثم يرم بما فعل بريئاً فقد استوجب عقوبة البهتان برميه غيره بشيء لم يفعله. ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿112﴾﴾، أي ذنباً بيناً ظاهراً. وقيل: معناه ومن يكسب خطيئة، أي بيمينه الكاذبة وإثماً بسرقة الدرع ورمي اليهودي. والبهتان: أن تبهت الرجل بما لا يفعل. وقال الزجاج: البهتان: الكذب الذي يتحر من عظمه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ أي لولا فضل اللّه عليك يا محمد بالنبوة والإسلام ورحمته بإرسال جبريل عليه السلام إليك بالقرآن الذي فيه خبر ما غاب عنك لقصدت جماعة من قوم طعمة أن يخطئوك ويحملوك أن تحكم بما هو غير واجب في الباطن، وأن يبرىء الخائن من غير حقيقة، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي وما يكون إضلالهم إلا على أنفسهم ولا ينقصونك شيئاً مع عصمة اللّه تعالى إياك، ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي القرآن في معرفة الحلال والحرام، وعلمك بالوحي ما لم

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 5/ 401، رقم: 7077 ـ وذكره الطبري في تفسيره: 5/ 380.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 370.

تكن تعلم قبله ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ بالنبوة والإسلام. وفي هذه الآيات دلالة أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن غيره في إثبات حق أو نفيه وهو غير عالم بحقيقة أمره، وأنه لا يجوز للحاكم الميل إلى أحد الخصمين، وإن كان أحدهما مسلماً والآخر كافراً، وأن وجود السرقة في يد إنسان لا توجب الحكم بها عليه.

قال الله تعالى:

﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿114﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿115﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿116﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي لا خير في كثير من أشرار قوم طعمة فيما يديرون بينهم إلا نجوى من أمر بصدقة فتصدّق بها. ويجوز أن يكون ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ استثناء ليس من الأول على معنى لكن، فيكون موضع «من أمر» نصباً على الإضمار والأول موضعه خفض. وذهب الزجاج إلى أن النجوى في اللغة: ما ينفرد به الجماعة أو الاثنان سراً كان أو ظاهراً. قال: ومعنى نجوت الشيء إذا خلصته وأبقيته. ونجوت فلاناً إذا استنكهته[1]. وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي أو أمر بمعروف. ويسمى البر كله معروفاً. قال صلى الله عليه وسلم: «**كل معروف صدقة**»[2]. وأول الجنة دخولاً أهل المعروف. وصنائع المعروف تقي مصاريع الشر. قوله تعالى: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني الإصلاح بين المتخاصمين وإصلاح ذات البين. قال صلى الله عليه وسلم: «**ألا أخبركم**

---

(1) استنكهته: شممت رائحته. الزجاج: (معاني القرآن: 2/ 104).

(2) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 12/ 61، رقم: 6021، كتاب الأدب ـ والبيهقي في شعب الإيمان: 3/ 264، رقم: 3495.

بأفضل درجة من الصلاة والصدقة». قالوا: بلى يا رسول اللّه. قال: «إصلاح ذات البين[1]. وفساد ذات البين هي الحالقة، فلا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين».

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ معناه: من يفعل ذلك البر والإصلاح والصدقة لطالب مرضات اللّه لا للرياء والسمعة فسوف نعطيه أجراً عظيماً، أي ثواباً وافراً في الجنة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نزلت في طعمة، وذلك أنه لما نزل فيه القرآن وعلم قومه أنه ظلم، وخاف هو على نفسه القطع والفضيحة هرب إلى مكة، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية[2]، ومعناها: ومن يخالف الرسول في التوحيد والحدود معانداً من بعد ما تبيَّن له حكم اللّه، ويتبع ديناً غير دين المؤمنين وهو دين أهل مكة ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي نكله في الآخرة إلى ما تولى في الدنيا. وقيل: نؤته في الآخرة جزاء ما تولى في الدنيا. وقيل: نتركه إلى ما اختار لنفسه في الدنيا، أي لا يتولى اللّه نصره ولا معونته: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ أي ونلزمه دخول جهنم في الآخرة. وساءت جهنم مصيراً لمن صار إليها. فلم يتب طعمة ولم يندم وأقام على كفره. ثم إنه نقب بيت رجل من بني سليم من أهل مكة فسقط عليه حجر فنشب فيه فلم يستطع أن يدخل ولا يخرج حتى أصبح فأخذه ليقتله، فقال بعضهم: دعوه فإنه قد لجأ إليكم وتحرم بكم فاتركوه. فأخرجوه من مكة فخرج مع قوم من التجار نحو الشام فنزلوا منزلاً فسرق بعض متاعهم وهرب، فطلبوه فوجدوه فرموه بالحجارة حتى قتلوه فصار قبره تلك الحجارة[3].

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في وحشي قاتل حمزة رضي اللّه عنه.

---

(1) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 7/ 211، رقم: 2627 ـ وأبو داود في سننه: عون المعبود: 13/ 261، رقم: 4898.

(2) يراجع: تفسير القرطبي: 5/ 385.

(3) يراجع: تفسير القرطبي: 5/ 386.

والمعنى: إن اللَّه لا يغفر أن يشرك به المشرك إن مات بغير توبة، ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء من أهل الإسلام من غير توبة. وقال الضحاك عن ابن عباس: أن شيخاً من الأعراب جاء إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال: يا نبي اللَّه إني شيخ منهمك في الذنوب والخطايا إلا أني لا أشرك باللَّه شيئاً مذ عرفته وآمنت به، ولم أتخذ من دونه ولياً، ولم أقع على المعاصي جرأة على اللَّه ولا مكابرة له، ولا توهمت طرفة عين أن أعجز اللَّه هرباً، وإني لنادم تائب مستغفر فما لي عند اللَّه؟ فأنزل اللَّه تعالى[1] هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ أي فقد ذهب عن الصواب والهدى ذهاباً بعيداً وحرم الخير كله. والفائدة في قوله: ﴿بَعِيدًا﴾ أن الذهاب عن الجنة على مراتب أبعدها الشرك باللَّه تعالى.

قال اللَّه تعالى:

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ أي ما يعبد أهل مكة من دون اللَّه إلا الأصنام والأوثان. وسماها إناثاً لأنهم سموها باسم الإناث: اللات والعزى ومناة، فعبدوها مع اعتقاد نقصان مراتب الإناث عن الذكور،

---

(1) يراجع البغوي، معالم التنزيل: 2/ 157، فقد ذكر قول الضحاك.

لأن الإناث من كل جنس أرذله. ويقال: إناثاً، أي مواتاً، لأن الموات كلها يخبر عنها كما يخبر عن الإناث. يقال: هذه الأحجار تعجبني.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ أي ما تريدون بعبادة الأوثان إلا عبادة الشيطان. والمريد: العاتي الخارج عن الطاعة. وسمي المريد مريداً لتعريه عن الخير. يقال: شجرة مرداء، أي لا ورق عليها، وغلام أمرد إذا لم يكن على وجهه شعر.

قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أراد به الشيطان أبعده اللّه من رحمته إلى عقابه بالحكم عليه بالخلود في جهنم. ويسقط بهذا قول من قال: كيف يصح أن يقال: لعنه اللّه وهو في الدنيا لا يخلو من نعمة تصل إليه من اللّه في كل حال؟ لأنه لا يعتد بتلك النعمة مع الحكم له بالخلود في النار.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي قال إبليس: لأتخذن من عبادك نصيباً معلوماً. فكل ما أطيع فيه إبليس فهو مفروض له. والفرض في اللغة: القطع، ومنه الفرضة أي الثلمة والفرض في القوس ما يشد به الوتر، والفريضة في العبادات: الأمر الحتم القاطع. وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[1] أي جعلتم لهم قطعة من المال. وأما قول الشاعر:

إذا أكلت سمكاً وأكلت فرضا ∴ ذهبت طولاً وذهبت عرضا[2]

فالفرض هنا التمر، سمي فرضاً لأنه يوجد في فرائض الصدقة.

قوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ حكاية عن قول إبليس، أي لأضلنهم عن الحق ولأمنينهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب، ولأرجينهم طول الحياة، ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي بتشقيق آذان الأنعام وهي البحيرة التي كانوا يفعلونها نسكاً وعبادة للأوثان. والبتك: القطع. ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ

---

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 237.

(2) نسبه سيبويه في الكتاب: 1/ 163 إلى رجل من عمان ولم يسمه.
الفرض: ضرب من جيد التمر عند أهل عمان. والطول والعرض كناية عن جميع الجسم. (مجالس ثعلب: 217).

﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والضحاك: فليغيرن دين الله[1] نظيره: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ أي لدين الله. لقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾[2]. وقال عكرمة: معناه فليغيرن خلق الله بالخصاء والوشم وقطع الأذن وفقوء العيون. قال مجاهد: كذب عكرمة، إنما هو دين الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي من يتخذ ناصراً من دون الله فقد غبن غبناً ظاهراً لأنه خسر الجنة والنعيم الذي فيها. فإن قيل: كيف علم إبليس أنه ممن يتخذ من عباد الله نصيراً؟ قيل فيه أجوبة: منها أن الله لما خاطبه بقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[3] علم إبليس أنه ينال من ذرية آدم ما يتمناه؛ ومنها: أنه لما وسوس لآدم فنال منه ما نال طمع في ذريته؛ ومنها أن إبليس لما عاين الجنة والنار علم أن لهما سكاناً من الناس.

قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ﴾ أي يعدهم أن لا جنة ولا نار، ويمنيهم طول البقاء في الدنيا ودوام نعيمها ليؤثروها على الآخرة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي باطلاً. والغرور: إيهام النفع فيما فيه ضرر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي أهل هذه الصفة سترهم جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي مخلصاً. يقال: حاص يحيص حيصاً إذا عدل عن الشيء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أنهار الماء واللبن والخمر والعسل. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي مقيمين في الجنة إلى الأبد. وإنما ذكر الطاعة مع الإيمان وجمع بينهما فقال: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ليبين بطلان توهم من يتوهم أنه لا تضر المعصية والإخلال بالطاعة مع الإيمان، كما لا تنفع الطاعة مع الكفر، أي ليبين استحقاق الثواب على كل واحد من الأمرين.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 159.

(2) سورة التوبة (9)، الآية: 36؛ وسورة هود (11)، الآية: (40)؛ وسورة الروم (30)، الآية: 30.

(3) سورة هود (11)، الآية: 19؛ وسورة السجدة (32)، الآية: 13.

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ انتصب «وعد» على المصدر تقديره: وعد اللّه لهم هذا وعداً حقاً كائناً ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ أي ليس أحد أصدق من اللّه قولاً ووعداً.

قال اللّه تعالى:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿123﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿124﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿125﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿126﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ليس ثواب اللّه تعالى بأمانيكم. فإن ليس يقتضي اسماً. واختلفوا في المخاطبين بهذه الآية: قال قتادة والضحاك: إن أهل الكتاب والمسلمين افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى باللّه منكم. وقال المسلمون: نحن أولى باللّه منكم، نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله. فأنزل اللّه تعالى هذه الآية[1]. وقال مجاهد: المخاطبون بها عبدة الأوثان فإنهم قالوا: لا نبعث ولا نحاسب. وقال أهل الكتاب: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، فأنزل اللّه تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ ولا ينفعه تمنيه. والمراد بالسوء الكفر[2]. وقال بعضهم: المخاطب بها المسلمون، أي ليس بأمانيكم يا معشر المسلمين أن لا تؤاخذ بسوء بعد الإيمان ولا أماني أهل الكتاب ألا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، من يعمل معصية يجز بذلك ولا ينفعه تمنيه. روي أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي اللّه عنه: يا رسول اللّه كيف الفلاح بعد هذه الآية؟

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 147.
(2) تفسير البغوي: 2/ 160.

فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**غفر اللّه لك يا أبا بكر ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تصيبك اللأواء؟**» قال: بلى. قال: «**فهو ما تجزون به**»[1]. وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية شقّ ذلك على المسلمين فشكوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال: «**قاربوا وسددوا وكل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها في قدميه والنكبة ينكبها**»[2]. قال عطاء: لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ قال أبو بكر رضي اللّه عنه: هذه قاصمة الظهر يا رسول اللّه فأينا لم يعمل سوءاً وإنا لمجزيون بكل شيء عملناه؟ فقال: «**إنما هي المغيبات تكون في الدنيا**». وقال أبو هريرة: لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ بكينا وحزنا وقلنا: يا رسول اللّه ما أبقت هذه الآية من شيء. قال: «**أما والذي نفسي بيده لكما أنزلت ولكن يسروا وقاربوا وسددوا إلا أنه لا يصيب أحدكم مصيبة في الدنيا إلا كفّر عنه بها سيئة حتى الشوكة يشاكها في قدمه**». وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ قال: هو الكافر، وأما المؤمن فلا يجازي يوم القيامة إلا بأحسن عمله ويتجاوز عنه سيئاته. ثم قرأ: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾[3] وقرأ: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾[4] ولولا السنة لأمكن أن يقال إن الآية نزلت في الكفار، لأن في سياق الآية ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ ومن لم يكن له يوم القيامة ولي ولا نصير كان كافراً، لأن اللّه تعالى قد ضمن نصر المؤمنين في الدارين فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾[5] ولكن الخطاب إذا ورد مجملاً وبينه الرسول عليه السلام كان الحكم لبيانه لا للآية إذ البيان إليه صلى اللّه عليه وسلم. قال اللّه تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾[6].

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 1/151، رقم: 9805.
(2) نفس المصدر: 7/150، رقم: 9804.
(3) سورة الزمر (39)، الآية: 35.
(4) سورة سبأ (34)، الآية: 17.
(5) سورة غافر (40)، الآية: 51.
(6) سورة النحل (16)، الآية: 44.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي وهو مصدق بالثواب والعقاب ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي لا ينقصون مما استحقوه من جزاء أعمالهم مقدار النقير وهو النقرة التي تكون في ظهر النواة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ معناه: أي أحد أحكم وأصوب طريقة وسيرة ممن أخلص عمله وطاعته للّه وهو محسن في الاعتقاد والعمل فيما بينه وبين ربه ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كل دين سوى الإسلام. وقيل: الحنيف المستقيم في سلوك الطريق الذي أمر بسلوكه. ومعنى المحسن: ما روي أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سئل عن الإحسان فقال: «**أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: خليلاً أي صفياً. وقيل في معنى قوله: ﴿خَلِيلًا﴾ وجهان: أحدهما: الاصطفاء بالمحبة والاختصاص بالأسرار دون من لم يكن له تلك المنزلة؛ والثاني: من الخلة وهو الحاجة فخليل اللّه المحتاج إليه، المنقطع بحوائجه إلى اللّه تعالى دون غيره. وقد يسمى الفقير خليلاً. قال زهير:

وإن أتاه خليل يوم مسغبة ∴ يقول لا غائب مالي ولا حرم[2]

أي ولا ممنوع. فإذا أريد به في الوجه الأول جاز أن يقال: إبراهيم خليل اللّه، واللّه خليل إبراهيم. فإذا أريد به الوجه الثاني لم يجز أن يوصف اللّه تعالى بأنه خليل إبراهيم، وجاز وصفه بأنه خليل اللّه. وعن جابر رضي اللّه عنه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**اتخذ اللّه إبراهيم خليلاً لإطعامه الطعام وإفشاء السلام وصلاته بالليل والناس نيام**»[3]. فإن قيل: لِمَ كان اتباع ملة إبراهيم أولى من اتباع ملة غيره من الأنبياء مثل موسى وعيسى؟ قيل: لأن

---

(1) رواه أبو داود في سننه: 12/ 459، رقم: 4679، باب في القدر.
(2) هذا البيت من بحر البسيط، مدح به زهير بن أبي سلمى هرم بن سنان المري. (ينظر: ديوانه: 91 ـ الكامل، للمبرد: 1/ 134 ـ رغبة الآمل: 2/ 109).
(3) ذكره الواحدي بسنده في: أسباب النزول: 148.

الفرق كلهم متفقون على تعظيمه ووجوب اتباع ملته، وهو كان يدعو إلى الحنيفية دون اليهودية والنصرانية.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إنما قال هكذا ليبيِّن أن إبراهيم مع كونه خليلاً للَّه عبداً له، وأنه لم يتخذه لحاجته إليه، ولكنه اتخذه خليلاً جزاء على عمله. وقال بعضهم: إنما قال ذلك لأنه لما أمر الناس بطاعته حثّهم على الطاعة بما يوجب الرغبة فيها وهو كونه مالك السموات والأرض.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ أي لم يزل قادراً على كل شيء عالماً بكل شيء من كل وجه فلا يخرج شيء من معلومه ومقدوره.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (127) وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (129)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ قال ابن عباس: نزلت في أم كجة امرأة أوس بن ثابت وبناتها منه لما أمر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بتوريثهن من أوس، أقبل عيينة بن حصن الفزاري إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللَّه إنك قد ورثت النساء والبنات والصغار ولم نكن نحن نورث إلا من قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة، فأنزل اللَّه هذه الآية[1]. ويقال: إنها نزلت بعد نزول قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ

---

(1) تفسير الطبري: 9/ 253.

﴿فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قبل نزول فرض الزوجات، فجاؤوا إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يستفتونه في ميراث أم كجة امرأة المتوفى، فأنزل اللَّه هذه الآية، ووعدهم أن يفتيهم في ميراث الزوجات فأفتاهم في ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ إلى آخر الآية. ومعنى الآية: ويستفتونك يا محمد في أمر النساء وما يجب لهن من الميراث، قل اللَّه يبين لكم ميراثهن والذي يقرأ عليكم ما في كتاب اللَّه في أول هذه السورة يفتيكم ويبين لكم ما سألتم عنه في بنات أم كجة اللاتي لم تعطوهن ما فرض لهن من الميراث وهو قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي وترغبون عن نكاحهن لدمامتهن فلا تعطوهن نصيبهن من الميراث لمن يرغب فيهن غيركم وذلك أن بني أعمام البنات كانوا أولياءهن وكانوا لا يعطونهن حقهن من الميراث ويرغبون عن نكاحهن، وهذا قول ابن عباس وابن جبير وقتادة ومجاهد. وعن عائشة والحسن أن معناه: وترغبون أن تنكحوهن لجمالهن ولا تعطونهن ما وجب لهن من الصداق. وفي كلا القولين دليل على جواز نكاح الأولياء لليتامى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ أي والمستضعفين من الولدان، أي في ميراث اليتامى.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي في أموالهم وحقوقهم بالعدل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾ أي ما تفعلوا من خير في أمر اليتامى والضعاف فإن اللَّه كان به عليماً يجزيكم على ذلك. واختلف أهل النحو في موضع ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ فذهب أكثرهم على أنه [في] موضع رفع تقديره: وما يتلى عليكم في الكتاب يفتيكم. وقال بعضهم: هو في موضع خفض تقديره وفي ما يتلى عليكم في الكتاب يفتيكم. إلا أن هذا الوجه أضعف من الأول لأنه لا يصح عطف الظاهر على المضمر من دون إعادة حرف الجر.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ الآية نزلت في

خولة بنت محمد بن مسلمة وفي زوجها سعد بن الربيع، تزوجها وهي شابة فلما علاها الكبر جفاها وتزوج عليها، فشكت إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فنزلت هذه الآية. وهذا قول الكلبي وجماعة من المفسرين(1). وقال سعيد بن جبير: كان رجل له امرأة قد كبرت، وكان لها ستة أولاد فأراد أن يطلقها ويتزوج عليها فقالت: لا تطلقني ودعني على أولادي، واقسم لي في كل شهرين أو أكثر إن شئت وإن شئت فلا تقسم لي، فقال: إن كان يصلح ذلك فهو أحب إليّ. فأتى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فذكر له ذلك، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية(2)، ومعناها: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ﴾، أي علمت من زوجها بغضاً أو إعراضاً بوجهه عنها لإثارة غيرها عليها. قال الكلبي: يعني ترك مجامعتها ومضاجعتها ومجالستها ومحادثتها فلا جناح على الزوج والمرأة أن يصالحا بينهما صلحاً معلوماً بتراضيهما، وهو أن يقول لها الزوج: إنك امرأة قد دخلت في السن وأنا أريد أن أتزوج عليك امرأة شابة أوثرها عليك في القسم لها لشبابها، أو أزيد في نصيبها من القسم فإن رضيت وإلا سرحتك بالإحسان وتزوجت أخرى. فإن رضيت بذلك فهي المحسنة وحل للزوج ذلك. كما روي عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه طلق امرأته سودة(3) فسألته لوجه اللَّه تعالى أن يراجعها ويجعل يومها لعائشة، ففعل. ومثل هذا الصلح لا يقع لازماً لأنها إذا أبت بعد ذلك إلا المقاسمة على السواء كان لها ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ أي خير من الإقامة على النشوز وقيل: خير من الفرقة. ودخول حرف الشرط على الاسم في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ﴾ فعلى تقدير فعل مضمر، أي وإن خافت امرأة خافت، أو على التقديم والتأخير كأنه قال: وإن خافت امرأة من بعلها نشوزاً. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 375.

(2) تفسير الطبري: 9/ 269.

(3) سودة بنت زمعة بن قيس: إحدى أمهات المؤمنين، زوجة النبي صلى اللَّه عليه وسلم، كانت في الجاهلية زوجة السكران بن عمرو وأسلمت ثم أسلم زوجها، وهاجرا إلى الحبشة، ثم عادا. ولما توفي زوجها تزوجها النبي صلى اللَّه عليه وسلم بعد خديجة، وتوفيت بالمدينة سنة أربع وخمسين هجرية.
الاستيعاب: 4/ 1867 ـ الطبقات الكبرى: 8/ 52 ـ أعلام النساء: 2/ 267.

هَلَكَ﴾[1]، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾[2] وهذا لا يكون إلا في الفعل الماضي، كما يقال: إن اللَّه أمكنني فعلت كذا، فأما في المستقبل فيقبح أن يفرق بين «إن» التي للجزاء وبين لفظ الاستقبال فيقال: إن امرأة تخف، لأن «إن» تجزم المستقبل فلا يفصل بين العامل والمعمول.

قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ أي جبلت الأنفس على الشح. فشح المرأة الكبيرة يمنعها من الرضى بدون حقها وترك بعض نصيبها من الرجل لغيرها، وشح الرجل بنصيبه من الشابة يمنعه من توفير نصيب الكبيرة من القسم عليها.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي إن تحسنوا العشرة وتتقوا الظلم على النساء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ من الإحسان والجور، عالماً بخير عملكم الحسن والسيئ فيجزيكم على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي ولن تقدروا أن تسووا بين النساء ولو اجتهدتم في العدل، كما روي أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: «**اللَّهم إن هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك**»[3]. وأراد به التسوية في المحبة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي لا تميلوا إلى الشابة والجميلة بالفعل كل الميل في النفقة والقسمة والإقبال عليها فتتركوا العجوز بغير قسمة كالمربوطة والمحبوسة لا أيم ولا ذات بعل. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل**»[4].

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي وإن تصلحوا ما أفسدتموه بإفراط

---

(1) سورة النساء (4)، الآية: 176.
(2) سورة التوبة (9)، الآية: 6.
(3) رواه الترمذي في سننه: العارضة: 5/ 79، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر ـ وأبو داود في سننه: 2/ 601، رقم: 2134، باب في القسم بين النساء.
(4) رواه الترمذي في سننه: 5/ 80 ـ وأبو داود في سننه: 2/ 600، رقم: 2133.

الميل فتعدلوا في القسمة بينهن، وتتقوا الجور والعقوبة فيه، فإن اللّه كان غفوراً لما سلف منكم من الظلم عليهن رحيماً بكم بعد التوبة.

قال اللّه تعالى:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿130﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿131﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿132﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿133﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿134﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿135﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾ معناه: أن الزوج والمرأة إذا تفرقا خوفاً من ترك حقوق اللّه تعالى التي أوجبها عليهما أغنى اللّه كلاً من سعته، أي من رزقه، الزوج بامرأة أخرى، والمرأة بزوج آخر. وكان اللّه واسعاً لهما في النكاح حكيماً حكم على الزوج بالإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان. وقيل: معناه: وكان اللّه واسع الملك جواداً لا يعجزه شيء في حكمه فيما حكم من الفرقة بجعل لكل واحد منهما من يسكن إليه فيتسلى به عن الأول. ومن حكم هذه الآية أن الرجل إذا قسم لنسائه لا يجب عليه وطء واحدة منهن، لأن الوطء لذة له فهو حقه، فإذا تركه لم يجبر عليه فليس هو كالمقام والنفقة، وعماد القسم الليل، ولا يجامع المرأة في غير يومها، ولا يدخل بالليل على التي لم يقسم لها، ولا بأس أن يدخل عليها بالنهار في حاجة ويعودها في مرضها في ليلة غيرها، فإن ثقلت فلا بأس أن يقيم حتى تشفى أو تموت، فإن أراد أن يقسم ليلتين ليلتين أو ثلاثاً ثلاثاً كان له ذلك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ كلهم عبيده وإماؤه

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي أمرنا أهل التوراة في التوراة، وأهل الإنجيل في الإنجيل، وأهل كل كتاب في كتابهم ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي أوصيناكم يا أمة محمد في كتابكم أن اتقوا اللّه وأطيعوه في أمر النساء واليتامى وأحكامهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾ أي وإن تجحدوا وصية اللّه تعالى فلم تعملوا بها فإن للّه ما في السماوات من الملائكة وما في الأرض من الجن والإنس وسائر الخلق، وكان اللّه غنياً عن عبادتكم لا يضره كفر من كفر منكم ولا ينفعه طاعة من أطاع منكم، حميداً محموداً في ذاته وفي خواص ملائكته وعباده حمدتموه أم لم تحمدوه. وقيل: حامد لمن وحده وأطاعه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تنبيه بعد تنبيه، كأنه تعالى نبههم عن غفلتهم بأنه حفيظ على أعمالهم كي يتحفظوا ولا يتهاونوا بما أمروا به من أمر اللّه تعالى. وليس شيء من هذه الألفاظ تكرار في كتاب اللّه تعالى، ولكن كل واحد منهما مقرون بفائدة جديدة. والفائدة في إعادة قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالذات الأمر بالاتكال على اللّه تعالى والثقة به وتفويض الأمور إليه، فلذلك عقبه بقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً لأعمالكم كفيلاً بأرزاقكم.

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ أي كما يملك الموجود من السموات والأرض يملك أيضاً الاستبدال بإفناء الخلق وإنشاء آخرين. وقيل: هو خطاب للكفار، لأنه تعالى قال من قبل: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾ فكأنه قال: وإن يشأ يذهبكم أيها الناس الكفار ويأت بقوم آخرين أطوع منكم، وكان اللّه على إهلاككم وخلق غيركم قادراً.

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي من كان يريد بعمله منفعة الدنيا فليعمل للّه ولا يقتصر على طلب الدنيا، فإن ثواب الدنيا واصل إلى البر والفاجر والمؤمن والكافر، ولكن ليتكلف طلب الآخرة التي لا تنال إلا بالعمل ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا﴾ لكلام عباده ﴿بَصِيرًا﴾ بما في قلوبهم. وفي الآية تخويف للعلماء المرائين. وفي الحديث: «**إن في النار وادياً تتعوذ منه جهنم كل يوم**

أربعمائة مرة أعد للقراء المرائين»[1]. وقيل: معنى الآية: من كان يريد بعمله عرضاً من الدنيا، ولا يريد به وجه اللَّه أثابه اللَّه عليه من عرض الدنيا ما أحبه ودفع عنه فيها ما أحب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي قوموا بالعدل وقولوا الحق والقوام بالقسط المستعمل على ما يجب من إنصافه من نفسه وإنصاف كل مظلوم من ظالمه، ومنع كل ظالم من ظلمه. ولفظ القوام لا يكون إلا للمبالغة. والقسط والإقساط العدل، يقال: أقسط الرجل إقساطاً إذا عدل وأتى بالقسط. وقسط يقسط قسطاً: إذا جار. قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[2] أي اعدلوا. وقال اللَّه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿15﴾﴾[3] أي الجائرون. وقوله تعالى: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ نصب على أحد ثلاثة أوجه؛ أحدها: أنه خبر ثان كما يقال: هذا حلو حامض؛ والثاني: على الحال كما يقال: هذا زيد راكباً؛ والثالث: على أنه صفة لقوامين. فإن قوامين نكرة، وشهداء نكرة، والنكرة تنعت بالنكرة. ومعنى شهداء للَّه، أي اشهدوا بالحق للَّه على من كان من قريب أو بعيد. وقيل: معنى الآية: كونوا قوامين بالعدل في الشهادة على من كانت ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين في الرحم فأقيموها عليهم للَّه ولا تخافوا غنياً لغناه، ولا ترحموا فقيراً لفقره، فذلك قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ أي فلا تتركوا الحق. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي قولوا الحق ولو على أنفسكم. والشهادة على النفس إقرار. قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي وعلى والديكم وعلى أقربائكم. وفي هذا بيان أن شهادة الابن على الوالدين لا تكون عقوقاً، ولا يحل للابن الامتناع عن الشهادة على أبويه، لأن في الشهادة عليهما بالحق منعاً لهما عن الظلم.

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 5/ 339، رقم: 6850.
(2) سورة الحجرات (49)، الآية: 9.
(3) سورة الجن (72)، الآية: 15.

قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرًا﴾ معناه: إن يكن المشهود عليه غنياً أو فقيراً فاللَّه أحق بالغني والفقير من عباده من أحدهم بوالديه وقراباته وأرحم وأرأف، فأقيموا الشهادة للَّه لا تميلوا في الشهادة رحمة للفقير ولا تقصروا إقامتها لاحتمال غنى الغني عندكم، أي لأجل غناه. وعن هذا قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»[1]. قيل: يا رسول اللَّه كيف ينصره ظالماً؟ قال: «**أن يرده عن ظلمه فإن ذلك نصره**».

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾ معناه: لا تتبعوا الهدى لتعدلوا، وهذا كما يقال: لا تتبع الهوى لترضي ربك. ويقال: معناه: لا تتبعوا الهوى أن لا تعدلوا. ويقال: كراهة أن تعدلوا، وهذا كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾[2] ويقال: معنى تعدلوا: تميلوا عن[3] الحق إلى الهوى.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾. من قرأ: تلووا ـ بواوين فمعناه: أن تماطلوا في إقامة الشهادة وتقلبوا اللسان لتفسدوا الشهادة أو تعرضوا عن إقامة الشهادة. مأخوذ من لوى فلان في دينه إذا دافع، ومنه قول صلى اللَّه عليه وسلم: «**لي الواجد ظلم**»[4]. والمعنى: إن تلووا اللسان لتحرفوا الشهادة لتبطلوا الحق وتعرضوا عنها فتكتموها ولا تقيموها عند الحكام، إن اللَّه كان بما تعملون من إقامتها وكتمانها خبيراً. ومن قرأ: تلوا ـ بواو واحد فهو من الولاية معناه: إن أقمتم الشهادة أو أعرضتم. وعن ابن عباس: أن المراد بالآية القاضي يتقدم إليه الخصمان فيعرض عن أحدهما أو يدافع في إمضاء الحق أو لا يسوي بينهما في المجلس والنظر والإشارة[5]. ولا يمتنع أن يكون المراد بالآية القاضي والشاهد وعامة لاحتمال اللفظ للجميع. وعن رسول اللَّه صلى

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 5/ 387، رقم: 2443، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً ـ وأحمد في مسنده: 3/ 99 ـ والبيهقي في شعب الإيمان: 6/ 101، رقم: 7606.

(2) سورة النساء (4)، الآية: 176.

(3) في النسخة (ف): من.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 5/ 342، رقم: 2400 ـ والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 4/ 535، رقم: 1323.

(5) تفسير الطبري: 9/ 307 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 377.

اللَّه عليه وسلم أنه قال عند نزول هذه الآية: «**من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليقم شهادته على من كانت، ومن كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فلا يجحد حقاً هو عليه وليؤدِّه عفواً ولا يلجئه إلى سلطان وخصومه ليقطع حقه. وأيما رجل خاصم إليّ فقضيت له على أخيه بحق ليس عليه فلا يأخذنه فإنما أقطع له قطعة من نار جهنم**».

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (136) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا (137) بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (138) ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (139) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا (140)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾. قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبد اللَّه بن سلام وسلمة ابن أخيه ويامين بن تامين، فهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب أتوا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقالوا: يا رسول اللَّه إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وبعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل. فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**بل آمنوا باللَّه وبرسوله محمد وبالرسل كلهم وبكل كتاب أنزل اللَّه**». قالوا: لا نفعل. فأنزل اللَّه هذه الآية[1]، ومعناها: يا أيها الذين آمنوا بمحمد والقرآن وموسى والتوراة، آمنوا باللَّه ورسوله محمد والكتاب الذي نزل على رسوله، يعني

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 151.

القرآن، والكتاب الذي نزل من قبل، يعني الكتب المتقدمة التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي أخطأ خطأً بعيداً. فلما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول اللَّه إنا نؤمن باللَّه وبرسوله والقرآن وكل كتاب كان قبل القرآن وكل رسول كان من قبل، والملائكة واليوم الآخر لا نفرق بين أحد منهم كما فرقت اليهود والنصارى. ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا بموسى والتوراة وعيسى والإنجيل، آمنوا بمحمد والقرآن. وقال أبو العالية وجماعة من المفسرين: هذه الآية خطاب للمؤمنين، وتأويلها: يا أيها الذين آمنوا آمنوا أي أقيموا واثبتوا على الإيمان. وقال بعضهم: إنها خطاب للمنافقين ومعناها: يا أيها الذين آمنوا في الملأ آمنوا في الخلاء[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي من يجحد بوحدانية اللَّه وبملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت فقد أخطأ خطأً بعيداً عن الحق والصواب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ اختلف المفسرون في هذه الآية، قيل: إن المراد بهم اليهود. قال الكلبي: آمنوا بموسى ثم كفروا بعد موته ثم آمنوا بعزير عليه السلام ثم كفروا بعد عزير بالمسيح عليه السلام، ثم ازدادوا كفراً بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم والقرآن. وقال مقاتل: آمنوا بموسى عليه السلام ثم كفروا بعد موته، ثم آمنوا بعيسى عليه السلام ثم كفروا بعدما رفع إلى السماء، ثم أقاموا على كفرهم بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم والقرآن. وقيل: آمنوا بموسى عليه السلام ثم كفروا بعده بعيسى عليه السلام، ثم آمنوا بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم قبل أن يبعث، ثم كفروا به بعدما بعث، ثم أقاموا على كفرهم. وقال قتادة: آمن اليهود بموسى ثم كفروا به بعبادة العجل، ثم آمنوا بالتوراة ثم كفروا بعد ذلك بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بنبينا محمد صلى اللَّه عليه وسلم[2].

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 378.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 173.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي ما داموا على كفرهم ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ أي ولا ليوفقهم طريقاً إلى الإسلام، ولكن يخذلهم مجازاة لهم على كفرهم. فإن قيل: إن اللّه لا يغفر كفر مرة، فما الفائدة في قوله: ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا؟ قيل: إن الكافر إذا آمن غفر له كفره، فإذا كفر بعد إيمانه لم يغفر له الكفر الأول وهو مطالب بجميع كفره.

قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ أي خوِّف المنافقين: عبد اللّه بن أبي وأصحابه ومن يكون على سبيلهم إلى يوم القيامة، بأن لهم عذاباً أليماً وجيعاً يخلص وجعه إلى قلوبهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هم الذين يتخذون اليهود أحياء في العون والنصرة من دون المؤمنين المخلصين الموحدين.

قوله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ هذا استفهام بمعنى الإنكار، أي كيف يطلبون عند الكفار العزة؟ وهو أنه في حكم اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي فإن القوة والمنعة للّه جميعاً فمن أراد طلب العزة فليطلبها من اللّه تعالى لأنه المقدر لجميع من له العزة من خلقه، فجميع العزة له.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ أي قد نزل عليكم في القرآن في سورة الأنعام بمكة أن إذا سمعتم آيات اللّه يجحد بها ويسخر منها فلا تجلسوا معهم حتى يكون خوضهم في حديث غير القرآن. وأراد بذلك المذكور في الأنعام قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي من جالسهم راضياً بما هم عليه من الكفر والاستهزاء بآيات اللّه فهو مثلهم في الكفر، لأن الرضى بالكفر والاستهزاء كفر، ومن جلس معهم ساخطاً لذلك منهم لم يكفر ولكنه يكون عاصياً بالقعود معهم. فيكون معنى قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي في أصل العصيان وإن لم يبلغ

---

(1) سورة الأنعام (6)، الآية: 68.

معصية المؤمنين معصية الكفار، هذا إذا لم يكن جلوس المؤمنين معهم لإقامة فرض أو سنّة، أما إذا كان جلوسه هنالك لإقامة عبادة وهو ساخط لتلك الحال لا يقدر على تغييرها فلا بأس بالجلوس. كما روي عن الحسن أنه حضر هو وابن سيرين جنازة، وهناك نوح فانصرف ابن سيرين فذكر ذلك للحسن فقال: إنا كنا متى رأينا باطلاً تركنا حتى شرع ذلك في ديننا ولم نرجع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أي يجمعهم في جهنم مجازاة لهم لاجتماعهم في الدنيا للاستهزاء، فمن شاء أن لا يكون معهم في جهنم فلا يكون معهم في الدنيا.

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141) إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا (143)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي هم الذين ينتظرون بكم الدوائر ويراعون أحوالكم، يعني المنافقين. والمتربص للشيء هو المتوقع لأسبابه. ويسمى المحتكر متربصاً لتوقعه غلاء السعر.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي إن كان لكم ظفر ودولة وغنيمة قال المنافقون: ألم نكن معكم على دينكم فأعطونا من الغنيمة، ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي ظهور على المسلمين قال المنافقون: ألم نخبركم بعزيمة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونطلعكم على سرهم ونكتب بذلك إليكم ونحذركم منهم ونجبنهم ونواليكم، فالله يقضي بين المؤمنين والمنافقين والكفار ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي لم يجعل لليهود ظهوراً على المؤمنين. وقيل: السبيل الحجة، ولن يجعل الله للكافرين من اليهود وغيرهم

حجة على المسلمين في الدنيا والآخرة. وقيل: معنى السبيل: الدولة الدائمة. وقيل: معناه: لن يدخل اللّه الكافرين الجنة فيقولون للمؤمنين: ما أغنى عنكم تعبكم في الدنيا وما ضرنا كفرنا بعد أن تساوينا في الجنة. فيكون لهم على المؤمنين بذلك السبيل. والاستحواذ في اللغة: هو الاستيلاء.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أي يخادعون أولياء اللّه بإظهارهم الإيمان وإبطالهم الكفر ليحقنوا بذلك دماءهم ويشاركوا المسلمين في غنائمهم، وجعل اللّه مخادعة أوليائه مخادعة له كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أي مجازيهم جزاء أعمالهم، وذلك أنهم على الصراط يعطون نوراً كما يعطى المؤمنون فإذا مضوا به على الصراط طفي نورهم ويبقى المؤمنون ينظرون بنورهم فينادون المؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[2] فتناديهم الملائكة على الصراط: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً. وقد علموا أنهم لا يستطيعون الرجوع. قال: فيخاف المؤمنون حينئذ أن يطفى نورهم فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿8﴾﴾[3].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يعني المنافقين ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ أي متثاقلين لا يريدون بها وجه اللّه تعالى ولا يريدون الصلاة إلا مراءاة للناس خوفاً منهم، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يصلون للّه إلا قليلاً رياء وسمعة. ولو كانوا يريدون بهذا القليل وجه اللّه لكان كثيراً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أول هذه الآية نصب على الذم. والمعنى مترددين بين الكفر السر وإيمان العلانية، ليسوا من المؤمنين فيجب لهم ما يجب للمسلمين، وليسوا من الكفار فيجب عليهم ما يجب على الكفار. وقيل: معناه: متحيرين بين كفر والإيمان ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي ليسوا من المؤمنين فيجب عليهم ما يجب عليهم، وليسوا من الكفار فيؤخذ منهم ما يؤخذ من

(1) سورة الفتح (48)، الآية: 10.
(2) سورة الحديد (57)، الآية: 13.
(3) سورة التحريم (66)، الآية: 8.

الكفار، أي ما هم بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك. وكان صلى اللَّه عليه وسلم يضرب مثلاً للمؤمنين والمنافقين والكافرين كمثل رهط ثلاثة دفعوا إلى نهر فقطعه المؤمن ووقف الكافر ونزل فيه المنافق حتى إذا توسطه عجز فناداه الكافر: هلم إليّ لا تغرق. وناداه المؤمن: هلم إليّ لتخلص. فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى عليه ماء فغرَّقه. فكأن المنافق لم يزل في شك حتى أتى عليه الموت[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي من يخذله اللَّه عن الهدى فلن تجد له يا محمد طريقاً إلى الهدى.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿144﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿145﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿146﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿147﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ أي لا تفعلوا أيها المؤمنون كفعل المنافقين. أتريدون أن تجعلوا للَّه عليكم حجة ظاهرة توجب العقوبة عليكم في الدنيا والآخرة. والسلطان في اللغة: هو الحجة. يقال للأمين سلطان، يراد بذلك أنه ذو حجة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي في الطابق الأسفل وهي الهاوية لمكرهم وخيانتهم للنبي صلى اللَّه عليه وسلم مع إبطان الكفر. قال أبو عبيدة: جهنم أدراك. أي منازل كل منزلة منها درك. ومن قرأ الدرك ـ بإسكان الراء ـ فهو لغة، وأكثر القراء على فتحها. والدركات في النار مثل الدرجات في الجنة، كل ما كان من درجات النار أعلى فثواب من فيه

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 379.

أعظم، وما كان من دركات النار أسفل فعقاب من فيه أشد. وسئل ابن مسعود رضي اللّه عنه عن الدرك الأسفل فقال: هو توابيت من حديد مبهمة عليهم لا أبواب لها(1).

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي مانعاً يمنع عنهم العذاب. وعن عبد اللّه بن عمر: أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون(2). قال اللّه تعالى في أصحاب المائدة: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(3)، وقال ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿46﴾﴾(4)، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فإن قيل: ما وجه التوفيق بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿46﴾﴾؟ قيل: لا يمتنع أن يجتمع القوم في موضع واحد ويكون عذاب بعضهم أشد من عذاب بعض. ألا ترى أن البيت الداخل في الحمام يجتمع فيه الناس فيكون بعضهم أشد أذى بالنار لكونه أدنى إلى موضع الوقود، وكذلك يجتمع القوم في القعود في الشمس وتأذي الصفراوي منها أشد وأكثر من تأذي السوداوي.

والمنافق في اللغة: مأخوذ من النفق وهو السرب، أي يتستر بالإسلام كما يتستر الرجل بالسرب. وقيل: هو مأخوذ من قولهم: نافق اليربوع: إذا دخل نافقاه، فإذا طلب من النافقاء خرج من القاصعاء، وإذا طلب من القاصعاء خرج من النافقاء. والنافقاء والقاصعاء والراهطاء والداماياء: جحر اليربوع.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي إلا الذين تابوا من النفاق وأصلحوا العمل فيما بينهم وبين ربهم، وتمسكوا بتوحيد اللّه ودينه، وأخلصوا توحيدهم وعملهم للّه، أي أخلصوا ذلك من شوب الرياء وعرض

---

(1) ذكر الثعلبي في تفسيره، قول ابن مسعود، ورقة: 379.
(2) نفس المصدر.
(3) سورة المائدة (5)، الآية: 115.
(4) سورة غافر (40)، الآية: 46.

الدنيا، فأولئك مع المؤمنين في الجنة والثواب، لا يضرهم النفاق السابق إذا أصلحوا وتابوا.

قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو الجنة. وإنما حذفت الياء من «يؤت» في الخط كما حذفت في اللفظ لسكونها وسكون اللام في اسم اللَّه، وكذلك ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ⑱﴾[1] ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾[2]. ويحتمل أن يكون معنى الآية: بيان زيادة الثواب لمن لم يسبق منه كفر ولا نفاق، فكذلك قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وسوف كلمة ترجية وإطماع، وهي من اللَّه سبحانه إيجاب لأنه أكرم الأكرمين، ووعد الكريم إنجاز.

قوله عزّ وجلّ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ بين اللَّه تعالى أن المنافقين هم الذين أوقعوا أنفسهم في الدرك الأسفل من النار واستحقوا ذلك بنفاقهم، وأنه ليس في حكمة اللَّه تعذيب من شكر وآمن، وإنما في حكمه أن يجزي كل عامل بما عمل فذلك قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ أي ما حاجته إلى عذابكم أيها المنافقون إن وحدتم في السر وصدقتم في إيمانكم. ويقال معناه: إن شكرتم نعم اللَّه وآمنتم به وبكتبه ورسله. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي إن آمنتم وشكرتم، لأن الشكر لا يقع مع عدم الإيمان، وبيَّن اللَّه تعالى أن تعذيبه عباده لا يزيد في ملكه، وتركه عقوبتهم على فعلهم لا ينقص من سلطانه.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي شاكراً للقليل من أعمالكم مثيباً عليها يقبل اليسير ويعطي الجزيل، عليماً بإضعافها لكم واحدة إلى عشرة إلى سبعمائة إلى ما شاء اللَّه من الإضعاف، والشكر من اللَّه تعالى هو مجازاته العبد على طاعته.

قال اللَّه تعالى:

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ⑭⑧ إِن

(1) سورة العلق (96)، الآية: 18.
(2) سورة القمر (54)، الآية: 6.

تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (149) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (150) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (151) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (152)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ قال ابن عباس معناه: لا يحب اللّه الجهر بالدعاء الشر على أحد إلا أن يظلم فيه فيدعو على ظالمه فلا يعاب على ذلك وهو مأذون له في أن يشكو ظالمه ويدعو عليه. ويقال: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ استثناء منقطع معناه: لكن المظلوم يجهر بظلامته تشكياً. وفي تفسير الحسن: لا يحب اللّه الشتم في الانتصار إلا من ظلم فلا بأس له أن ينتصر ممن ظلمه بما يجوز له الانتصار به في الدين[1]. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾[2] قال الحسن: لا يجوز للرجل إذا قيل له: يا زاني، أن يقابل بمثل ذلك أو نحوه من أنواع الشتم. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في الضيف إذا لم يضف ومنع حقه فقد أذن له أن يشكو، والضيافة ثلاثة أيام[3]. ومن قرأ: إلا من ظلم ـ بنصب الظاء ـ فمعناه: لكن الظالم يجهر بذلك ظلماً واعتداء. وقيل: لكن الظالم اجهروا له بالسوء من القول.

قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ أي سميعاً لدعاء المظلوم عليماً بعقوبة الظالم. ويقال سميعاً لجميع المسموعات عليماً لجميع المعلومات. فقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ في موضع نصب على الاستثناء المنقطع.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (149)﴾ معناه: إن تظهروا خيراً أو تسروه أو تعفو عن مظلمة ظلمتهم بها فإن اللّه كان عفواً. العفو: كثير العفو من غير حصر. والقدير والقادر بمعنى

---

(1) تفسير الطبري: 9/ 345.
(2) سورة الشعراء (26)، الآية: 227.
(3) تفسير البغوي، معالم التنزيل: 2/ 180.

واحد، أي إن اللَّه قادر على العقوبة ثم يعفو عن عباده مع قدرته على الانتقام. وقيل: معنى الآية: إن تردوا جواباً حسناً أو تسكتوا عن الظالم ولا تحقوا ولا تؤاخذوه بظلمه فإن اللَّه يعفو عن المظلوم ذنوبه، فإن عفو اللَّه عنكم معاصيكم أكثر من عقوبتكم عمن ظلمكم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى: آمنت اليهود بموسى والتوراة وكفرت بعيسى والإنجيل، وآمنت النصارى بعيسى والإنجيل وكفرت بموسى والتوراة وكلهم كفروا بمحمد والقرآن. فأعلم اللَّه أنه ليس بين الإيمان بالبعض والكفر بالبعض دين يتخذ ذلك طريقاً[1].

قوله عزّ وجلّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ أي أهل هذه الصفة هم الكافرون ألبتة، وانتصب قوله: «حقاً» على المصدر. والفائدة في قوله: «حقاً» بيان أن إيمانهم بالبعض لا ينفعهم ولا يسلب اسم الكفر عنهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ يعني في الإيمان والتصديق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ﴾ أي ثوابهم. وسمي الثواب أجراً لأنه يستحق كالأجر.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن
ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا
جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا (153) وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ
بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا
غَلِيظٗا (154) فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ
قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا (155) وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ
مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا (156)﴾.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 380.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يسألك يا محمد كعب بن الأشرف وجماعة من اليهود أن تنزل عليهم كتاباً من السماء جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى، وهذا حين قالوا للنبي صلى اللّه عليه وسلم لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه[1].

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي لا تعجب من مسألتهم إنزال الكتاب من السماء بعد أن جاءتهم البينات على نبوتك فقد سألوا موسى بعدما رأوا الآيات أعظم من ذلك فقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي معاينة ظاهرة منكشفة وهم السبعون الذين كانوا معه عند الجبل حين كلمه اللّه تعالى سألوه أن يروا ربهم رؤية يدركونها بأبصارهم في الدنيا. وقال أبو عبيدة: معنى الآية: قالوا جهرة أرنا اللّه. فجعل جهرة صفة لقولهم، قال لأن الرؤية لا تكون إلا جهرة.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي أخذتهم النار عقوبة لهم بسؤالهم موسى ما لم يستحقوه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي عبدوا العجل من بعد ما جاءتهم الدلالات على توحيد اللّه تعالى. وفي هذا بيان جهل اليهود وتعنتهم وعنادهم. وأي جهل أعظم من اتخاذ العجل إلّهاً بعد ظهور المعجزات وثبوت الآيات البينات.

قوله تعالى: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ أي تجاوزنا عنهم بعد توبتهم مع عظم جنايتهم وجريمتهم ولم نستأصلهم. دلَّ اللّه تعالى بذلك على سعة رحمته ومغفرته وتمام نعمته ومنته، وبين بذلك أنه لا جريمة تضيق عنها مغفرة اللّه. وفي هذا منع من القنوط واستدعاء إلى التوبة.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿153﴾﴾ أي أعطيناه حجة على من خالفه بينة ظاهرة وهي اليد والعصا.

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 151.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ أي ورفعنا فوق رؤوسهم الجبل بإقرارهم بالله وبنبوة موسى، وذلك حين أبوا قبول التوراة فرفع الله فوقهم الطور فقبلوها وخروا سجداً فرفع الله الطور عنهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي قلنا لهم مع هذا ادخلوا باب أريحا إذا دخلتموها خاشعين لله منحنية أصلابكم، فدخلوها زحفاً وبدلوا ما قيل لهم. ويقال: أراد بالباب الباب الذي عبدوا فيه العجل، أمرهم الله تعالى أن يدخلوه بعد توبتهم من عبادة العجل ساجدين لله عز وجل، فيصير ذلك كفارة لعبادة العجل.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي وقلنا لهم مع هذا أيضاً لا تستعجلوا أخذ السمك في يوم السبت. ومن قرأ: لا تعدوا ـ بتشديد الدال ـ فأصله لا تعتدوا، فأدغمت التاء في الدال وأقيم التشديد مقامه، والقراءة بالتخفيف من عدا يعدو عدواناً[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي إقراراً وثيقاً شديداً، يعني العهد الذي أخذه الله في التوراة، فأبوا إلاّ مضياً على المعصية وخروجاً عن الطاعة واستخفافاً بأمر الله.

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ فبنقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة وبجحدهم بالقرآن وبالإنجيل وبما في التوراة من نعت الإسلام وصفة النبي صلى الله عليه وسلم وبقتلهم الأنبياء بغير جرم، ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، أي في أوعية لا تعي شيئاً بقول الله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي ليس كما قالوا، ولكن ختم الله على قلوبهم مجازاة على كفرهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا إيماناً قليلاً لا يجب أن يسموا به المؤمنين، وذلك أنهم آمنوا ببعض الرسل والكتب دون البعض. وقال الحسن: في هذا تقديم وتأخير معناه: بل طبع الله عليهم بكفرهم إلا قليلاً فلا يؤمنون. والمراد بالقليل: عبد الله بن سلام ومن تابعه. أما دخول «ما» في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ فمعناه:

---

(1) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع: 128.

التأكيد، كأنه قال: فبنقضهم العهد. وجواب قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ مضمر في الآية تقديره: فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم، وهذا لأن أول الآية ذم على الكفر، ومن ذمه اللّه فقد لعنه، يعني من ذمه على الكفر. ويقال: إن الجالب للباء في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ قوله تعالى من بعد: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾. فقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ بدل من ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ وجوابهما جميعاً ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ﴾.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿156﴾﴾ عطف على ما تقدم، أي وبجحدهم بعيسى والإنجيل وبمحمد صلى اللّه عليه وسلم، ورميهم مريم بالزنا وهو البهتان العظيم، وذلك أن عيسى عليه السلام استقبل رهطاً من اليهود، فقال بعضهم لبعض: قد جاء الساحر ابن الساحرة، والفاعل ابن الفاعلة، فقذفوه وأمه، فلما سمع بذلك عيسى قال: اللّهم أنت ربي وأنا عبدك بقدرتك خرجت، وبكلمتك خلقتني، ولم أتهم من تلقاء نفسي. اللّهم العن من سبّني وسبّ والدتي. فاستجاب اللّه دعاءه ومسخ ذلك الرهط الذين سبوه وسبوا أمه خنازير، وكانوا رموا أمه بالزنا بيوسف[1] النجار، وكان من الصالحين.

قال اللّه تعالى:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ
لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ
يَقِينًا ﴿157﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿158﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا
لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿159﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا
عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿160﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ
وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿161﴾ لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ
مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿162﴾﴾.

---

(1) في النسخة (ف): بيوسف بن يعقوب بن ماثان.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: وذلك أنه لما مسخ الرهط الذين سموا عيسى وأمه خنازير، فزعت اليهود وخافت دعوته، فجمعوا على قتله، فثاروا عليه ليقتلوه فهرب منهم، ودخل بيتاً في سقفه روزنة، أي كوة فرفعه جبريل عليه السلام إلى السماء، وأمر يهوذا ملك اليهود رجلاً يقال له ططيانوس أن يدخل البيت فيقتله، فدخل فلم يجده فألقى اللّه عليه شبه عيسى عليه السلام، فلما خرج إلى أصحابه قتلوه وهم يظنون أنه عيسى، ثم صلبوه فقال بعضهم: قتلناه. وقال بعضهم: إن وجهه وجه عيسى وجسده جسد صاحبنا، فإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا، وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ فأشبه عليهم[1] واختلفوا فيه، ثم بعث اللّه عليهم ططوس بن آسسيانوس الرومي فقتل منهم مقتلة عظيمة. وقوله تعالى: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ قول اللّه خاصة لا قول اليهود. كانت اليهود تقول: قتلنا عيسى بن مريم قال اللّه تعالى: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي يعنون الذي هو رسول اللّه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ أي ما قتلوا عيسى وما صلبوه، ولكن ألقى اللّه على ططيانوس شبه عيسى فقتلوه، ورفع عيسى إلى السماء. وقال الحسن: إن عيسى عليه السلام قال للحواريين: أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهي فيقتل فيدخل الجنة. فقام رجل من الحواريين فقال: أنا يا رسول اللّه. ألقى اللّه عليه شبه عيسى فقتل وصلب، ورفع اللّه عيسى إلى السماء[2].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أي من قتله. قال الكلبي: اختلافهم فيه أن اليهود قالوا نحن قتلناه وصلبناه. وقالت طائفة من النصارى: بل نحن قتلناه وصلبناه. فما قتله هؤلاء ولا هؤلاء بل رفعه اللّه إليه إلى السماء. ويقال: إن اللّه تعالى لما ألقى شبه عيسى على ططيانوس ألقاه على وجهه دون جسده فلما قتلوا ططيانوس نظروا إليه فإذا وجهه وجه عيسى وجسده غير جسد عيسى فقالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا، وإن كان هذا صاحبنا

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 381.
(2) تفسير الطبري: 8/ 370.

فأين عيسى[1]. فقال اللَّه تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾. يقيناً: نعت لمصدر محذوف، أي وما علموه علماً يقيناً.

قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ﴾ أي بل رفعه اللَّه إلى السماء. وإنما سمي ذلك رفعاً إليه لأنه رفع إلى موضع لا يملك فيه أحد شيئاً إلا اللَّه. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ قد ذكرنا معناه غير مرة، وفائدة ذكره ها هنا بيان قدرة اللَّه سبحانه على نجاة من شاء، وبيان حكمته فيما فعل ويفعل، وحكم ويحكم. فلما رفع اللَّه عيسى عليه السلام كساه الريش وألبسه النور، وقطع عنه شهوات المأكل والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش، فكان إنسياً ملكياً سمائياً أرضياً. قال وهب بن منبه: بعث عيسى على رأس ثلاثين سنة، ورفعه اللَّه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وكانت نبوته ثلاث سنين[2].

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ﴾ لما ذكر اللَّه تعالى اختلاف اليهود والنصارى في عيسى بين بعده أن هذا الشك سيزول عن كل كتابي فقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ أي ما أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل أن يموت الكتابي، يعني إذا عاين اليهودي أمر الآخرة وحضرته الوفاة ضربت الملائكة وجهه ودبره وقالت: أتاك عيسى عليه السلام نبياً فكذبت به. فيؤمن به حين لا ينفعه إيمانه، وتقول للنصراني: أتاك عيسى عليه السلام عبد اللَّه ورسوله فزعمت أنه هو اللَّه أو ابن اللَّه. فيؤمن بأنه عبد اللَّه حين لا ينفعه إيمانه. وقيل: معناه قبل موت عيسى. وهذا قول الحسن. وقتادة والربيع جعلوا هاتين الكنايتين في «به» و«موته» راجعين إلى عيسى عليه السلام. والقول الأول هو: قول عكرمة ومجاهد والضحاك والسدي جعلوا الهاء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ راجعة إلى عيسى عليه السلام، وفي قوله: ﴿مَوْتِهِۦ﴾ راجعة إلى الكتابي الذي يؤمن به إذا عاين الموت، وهي رواية عن ابن عباس قالوا: لا يموت يهودي ولا صحاب كتاب حتى يؤمن بعيسى، وإن

---

(1) تفسير البغوي: 2/ 184.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 381.

احترق أو غرق أو تردى أو سقط عليه جدار أو أكله سبع أو أي ميتة كانت حتى قيل لابن عباس: لو خر من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهواء. قيل له: أرأيت لو ضرب عنق أحدهم؟ قال: يتلجلج به لسانه. يدل على صحة هذا التأويل قراءة أبي: قبل موتهم(1). قال شهر بن حوشب: قال الحجاج يوماً: إن آية من كتاب اللَّه تعالى ما قرأتها إلا تلجلج في نفسي منها شيء. فقلت: ما هي؟ قال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ وإني لأوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فما أسمعه يقول شيئاً. فقلت: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة وجهه ودبره وتقول له: يا عدو اللَّه أتاك عيسى عبداً نبياً فكذبت به. فيقول: إني آمنت به وإنه عبد نبي. فيؤمن به حين لا ينفعه إيمانه. وتقول للنصراني: أتاك عيسى عبد اللَّه ورسوله فقلت إنه اللَّه أو ابن اللَّه. فيقول: إنه عبد اللَّه ورسوله حين لا ينفعه إيمانه. قال الحجاج: ومن حدثك بهذا الحديث؟ قلت: حدثني به محمد بن الحنفية. قال: وكان متكئاً فجلس ثم نكث في الأرض بقضيبه ساعة ثم رفع رأسه إليّ وقال: أخذتها من عين صافية، أخذتها من معدنها. قال الكلبي: فقلت لشهر بن حوشب: وما الذي أردت بقولك للحجاج حدثني بذلك ابن الحنفية وهو يكرهه ويكره من جاء من قبله؟ قال: أردت أن أغيظه(2). وحجة من قال: إن الهاء في قوله: «موته» راجعة إلى عيسى، ما روي في الخبر عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: **«أنا أولى الناس بعيسى لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، ويوشك أن ينزل عليكم حكماً عدلاً، فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويكسر الصليب، ويذهب السحرة، ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك اللَّه في زمانه الملل كلها، غير ملة الإسلام، وتكون السجدة واحدة للَّه رب العالمين، ويهلك اللَّه في زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال حتى لا يبقى أحد من أهل الكتاب وقت نزوله إلا يؤمن به، وتقع الأمنة في زمانه حتى ترتع الإبل مع**

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 282 ـ تفسير الطبري: 8/ 383.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 282 ـ 283.

الأسود والبقر مع النمور، والغنم مع الذئاب، ويلعب الصبيان بالحيات لا يؤذي بعضهم بعضاً، ثم يلبث في الأرض أربعين سنة، ثم يموت، ويصلي عليه المسلمون، ويدفنونه»[1]. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**إن المسيح جاي، فمن لقيه فليقرئه مني السلام**». وروي أنه خليفة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في أمته، ينزل على ثنية جبال بيت المقدس وفي يده عصا من حديد فيمكث في الأرض أربعين سنة إماماً مهدياً[2]. ويقال: إن المراد بقوله: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ محمد صلى اللّه عليه وسلم يؤمن به أهل الكتاب في وقت المشاهدة، ولكن لا ينفعهم. والقول الأول أصح، لأن الآية في قصة عيسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي يشهد عيسى على نفسه يوم القيامة بالعبودية، وعلى النصارى بأنهم عبدوه بغير حق وعلى اليهود بأنهم كذبوه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي فبكفر اليهود وجرمهم حرمنا عليهم أشياء كانت طيبة لهم في التوراة، منها لحوم الإبل وألبانها والشحوم. وكانوا إذا أصابوا ذنباً عظيماً حرم اللّه عليهم طعاماً طيباً ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ معناه: وبسبب منعهم الناس عن دين اللّه وهو الإسلام، وبسبب أخذهم الربا وقد نهوا عن ذلك في التوراة، وبسبب أكلهم أموال الناس بالباطل ـ بالظلم، وأخذ الرشاء في الحكم.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ أي خلقنا وهيأنا للكافرين منهم عذاباً وجيعاً يخلص وجعه إلى قلوبهم. وإنما خصّ الكافرين لبيان أن من يؤمن منهم غير داخل في هذا الوعيد، ثم استثنى اللّه تعالى منهم من آمن فقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي لكن التائبون من أهل الكتاب وهم عبد اللّه بن سلام وأصحابه وسماهم الراسخون في العلم لثباتهم في العلم وتبحرهم فيه لا يضطربون ولا تميل بهم الشبه بمنزلة الشجرة الراسخة بعروقها في الأرض.

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 9/ 388، رقم: 10830 ـ والبغوي في تفسيره: معالم التنزيل: 2/ 186.

(2) تفسير البغوي: 2/ 186.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ﴾ أي والمؤمنون من غير أهل الكتاب من أصحاب محمد صلى اللّه عليه وسلم يصدقون بما أنزل إليك من الفرقان، وما فيه من تحريم هذه الأشياء عليهم، ويصدقون بما أنزل من قبلك على الأنبياء من الكتب، ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يجوز أن يكون معناه: يؤمنون بالنبيين المقيمين الصلاة، فيكون قوله: والمقيمين نسقاً على قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ويجوز أن يكون نصباً على المدح على معنى، أعني المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة، كما تقول: جاءني قومك المطعمين في المحل يستعينون في الشدائد.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي المصدقون باللّه وبالبعث بعد الموت، أولئك سنعطيهم ثواباً وافراً في الجنة.

قال اللّه تعالى:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا (163) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (164) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165) لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (166)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي إنا أنزلنا جبريل عليك بهذا القرآن كما أوحينا إلى نوح فأمرناه بالاستقامة على التوحيد ودعوة الخلق إليه، وكما أوحينا إلى النبيئين من بعد نوح أوحينا إليك. قيل: إن نوحاً عليه السلام عمر ألف سنة لم تنقص له سن ولا نور، ولم يشب له شعر، ولم يبالغ أحد من الأنبياء في الدعوة ما بالغ ولم يصبر على أذى قومه ما صبر. وكان يدعو قومه ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً، وكان الرجل من قومه يضربه حتى يغمى عليه، فإذا أفاق دعا وبلغ. وقيل: هو أول من تنشق عليه الأرض يوم القيامة بعد محمد صلى اللّه عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وهم

بنو يعقوب عليه السلام، وهما اثنا عشر رجلاً، وإلى ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾، وأعطينا داود زبوراً. والزبور: هو الكتاب، مأخوذ من الزبر وهو الكتابة. ومن قرأ: زبور ـ بضم الزاي ـ وهم الأعمش وحمزة وابن وثاب فمعناه: الكتب، على الجمع[1]. فإن قيل: كيف قدم اللَّه ذكر عيسى على ذكر أيوب ويونس وهارون وسليمان وداود وهو من بعدهم؟ قيل: لأن الواو للجمع دون الترتيب، فتقديم ذكره في الآية لا يوجب تقديمه في الخلق والإرسال، والفائدة في تقديمه في الذكر للرد على اليهود ولغلوهم في الطعن فيه وفي نسبه، فقدمه اللَّه في الذكر لأن ذلك أبلغ في كتب اليهود، وفي تبرئته مما رمي به ونسب إليه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ عطف على ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، كأنه قال: إنا أرسلناك موحين إليك وأرسلنا رسلاً قد قصصناهم عليك. ويجوز أن يكون منصوباً بالفعل الذي بعده كأنه قال: وقد قصصنا رسلاً عليك. ومعنى قصصناهم، أي سميناهم لك في القرآن، وعرفناك قصتهم، وأرسلنا رسلاً لم نسمهم لك أمرناهم بالاستقامة على التوحيد ودعوة الخلق إليه. وعن أبي ذر قال: قلت: يا رسول اللَّه كم كانت الأنبياء؟ وكم كان المرسلون؟ قال: «**كانت الأنبياء صلوات اللَّه عليهم مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً، وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر**». وعن كعب الأحبار أنه قال: الأنبياء صلوات اللَّه عليهم ألفا ألف ومائتا ألف وخمسة وعشرون ألفاً، والرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر[2]. وكان داود عليه السلام قد أنزل عليه الزبور، وكان ينزل إلى البرية يقرأ الزبور فيقوم معه علماء بني إسرائيل خلفه، ويقوم الناس خلف العلماء ويقوم الجن خلف الناس، وتجيء الدواب التي في الجبال إذا سمعت صوت داود فيقمن بين يديه تعجباً بما يسمعن من صوته، وتجيء الطير حتى يظللن على داود في خلائق لا يحصيهن إلا اللَّه ترفرفن على رأسه، وتجيء السباع حتى تحيط بالدواب والوحش لما يسمعن. فلما فارق الدنيا لم

---

(1) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 384 هذه القراءة.
(2) ذكره القرطبي في تفسيره: 6/ 19.

ير ذلك فقيل له ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية، وعن أبي موسى الأشعري قال: قال لي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك، لقد أعطيت مزماراً من مزامير داود**». قال: قلت: أما واللَّه يا رسول اللَّه لو علمت أنك تستمع لحبرته تحبيراً[1]. وكان عمر رضي اللَّه عنه إذا رأى أبا موسى رضي اللَّه عنه قال: ذكّرنا يا أبا موسى. فيقرأ عنده[2]. وعن أبي عثمان النهدي قال: ما سمعت قط تطريباً ولا مزماراً ولا عوداً أحسن من صوت أبي موسى، وكان يؤمنا في صلاة الغداة نود أنه يقرأ سورة البقرة من حسن صوته[3]. وفي تفسير الكلبي أن اللَّه تعالى لما أنزل الآية التي قبل هذه الآية وقرأها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على الناس، قالت اليهود فيما بينهم: ما نرى محمداً يقرأ بما أنزل اللَّه على موسى، ولقد أوحي إليه ما أوحى على النبيئين من قبله. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية فقرأها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فقالوا: إن محمداً قد ذكره فيمن ذكره وفضله بالكلام عليهم. فائدة تخصيص موسى عليه السلام بالكلام مع أنه تعالى كلم غيره من الأنبياء، أنه تعالى كلمه من غير واسطة وكلم غيره من الأنبياء بالوحي إليهم على لسان بعض الملائكة.

قوله تعالى: ﴿تَكْلِيمًا﴾ يدل على التأكيد كيلا يحمل كلام اللَّه إياه على معنى الوحي إليه.

قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ معناه: أرسلنا هؤلاء رسلاً مبشرين بالجنة لمن أطاع اللَّه، ومخوفين بالنار لمن عصى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ يوم القيامة بعد إرسال الرسل إليهم فيقولون ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: ظاهر المراد.

قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن رؤساء مكة أتوا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقالوا: سألنا اليهود عن بعثك

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 2/ 526، رقم: 2604.
(2) تفسير البغوي: 2/ 189.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 384.

إلينا وصفتك، فزعموا أنهم لا يعرفونك في كتبهم، فأتنا بما يشهد لك أن اللّه بعثك إلينا رسولاً. فأنزل اللّه تعالى هذه الآية[1]، وأنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[2] الآية..

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي على علم منه بأنك أهل لإنزاله عليك، وعلم من يقبل ومن لا يقبل، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[3]. وقيل: معناه ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي علم ما فيه من الأحكام وما يحتاج إليه العباد من أمر دينهم ودنياهم ثم أنزله. وقيل: معناه أنزله إليك من عنده لم يبدل ولم يغير، بل وصل إليك كما كان في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أي هم يشهدون على شهادة اللّه وعلى شهادتك بأن الذي شهدت به حق.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي اكتفوا باللّه شهيداً في شهادته إن لم يشهد اليهود بما في كتابهم.

قال اللّه تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (167) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (169) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (170) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (171) لَّن يَسْتَنكِفَ

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 152.

(2) سورة الأنعام (6)، الآية: 19.

(3) سورة الأنعام (6)، الآية: 124

﴿الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿172﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿167﴾﴾ معناه: أن الذين جحدوا وحدانية اللّه ومحمداً صلى اللّه عليه وسلم والقرآن، وصرفوا الناس عن دين اللّه وطاعته فقد أخطأوا خطأً بعيداً عن الهدي والصواب. بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية ضلالتهم في الدنيا، ثم بيَّن عقوبتهم في الآخرة فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي إن الذين كفروا بما يجب الإيمان به وظلموا أنفسهم بكفرهم لم يكن اللّه ليغفر لهم ما داموا على كفرهم، ولا ليهديهم طريقاً إلى الإسلام، ولكن يتركهم على طريق جهنم وهو الكفر. وقيل: معناه لا يرشدهم في الآخرة إلى طريق غير طريق جهنم، كما في قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[1] ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وكان ذلك التخليد والتعذيب على اللّه سهلاً هيناً.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ خطاب لعامة الخلق. قد جاءكم الرسول، يعني محمداً صلى اللّه عليه وسلم بكلمة التوحيد والقرآن من عند ربكم فصدقوا باللّه ورسله وبما جاء به من عنده يكن خيراً لكم من التكذيب. قال الخليل والبصريون: انتصب قوله تعالى: ﴿خَيْرًا﴾، لأنك إذا أمرت بفعل دخل في معناه، تقديره: ائتوا خيراً لكم. وإذا نهيت على فعل دخل في معناه، تقديره: ائت بدله خيراً لك. وقال الفراء: انتصب لأنه متصل بالأمر وهو من صفته[2]، تقديره: هو خير لكم. فلما سقط اتصل بما قبله. وعلى هذا: انتهوا خيراً لكم. وقال الكسائي: انتصب لخروجه من الكلام. قالوا: وهذا إنما تقوله العرب في الكلام التام نحو قولك: لتقومن خيراً لك وانته خيراً لك. وإذا كان الكلام ناقصاً رفعوا فقالوا: إن تنتهوا خير لكم.

---

(1) سورة الصافات (37)، الآية: 23.
(2) الفراء، معاني القرآن: 1/ 295.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أي إن تكفروا يعاقبكم اللَّه فإن للَّه ما في السموات والأرض. وقيل: إن تكفروا فإن اللَّه غني عنكم لكونه مالك السموات والأرض. وكان اللَّه عليماً حكيماً، أي لم يزل عليماً بخلقه بمن يؤمن ومن لا يؤمن، حكيماً في أمره حكم بالإسلام على عباده.

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ نزلت في نصارى نجران، وهم النسطورية الذين يقولون عيسى ابن اللَّه، واليعقوبية الذين يقولون عيسى هو اللَّه، والمرقوسية الذين يقولون ثالث ثلاثة، ويقال لهم الملكانية[1]. ومعنى الآية: يا أهل الكتاب لا تتجاوزوا الحد في الدين فتغيروا فيه. والغلو في الدين: مجاوزة الحد فيه. وقد غلت النصارى في أمر عيسى حتى جاوزوا به منزلة الأنبياء فجعلوه إلَهاً. ويقال: إن الآية خطاب لليهود والنصارى، لأن اليهود أيضاً غلوا في أمر عيسى جاوزوا به منزلة من ولد على الطهارة فجعلوه لغير رشيدة. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ أي لا تصفوا اللَّه إلا بالحق والحق أن يقال: إلَه واحد لا شريك له ولا صاحبة له ولا ولد وننزهه عن القبائح والنقائص وعن جميع صفات المحدثين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ليس المسيح إلا رسول اللَّه، لأن إنما تقتضي تحقيق المذكور وتمحيق ما سواه كقوله: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ وفي قوله: ﴿عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ بيان أنه لا يجوز أن يكون إلَهاً، أي كيف يكون إلَهاً؟ وهو ابن مريم أمة اللَّه، فكيف يكون إلَهاً وأمه قبله.

قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ أي إنه بكلمته عز وجل وهو قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ قال ابن عباس: معناه أمر من اللَّه عزّ وجلّ: أتاها جبريل بأمر اللَّه فنفخ في جيب درعها فدخلت تلك النفخة بطنها فخلق اللَّه عيسى بنفخة جبريل عليه السلام. والنفخ في اللغة يسمى روحاً. وقيل:

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 192 ـ الواحدي، أسباب النزول: 152.

سماه اللَّه روحاً لأنه كان يحيي به الناس في الدين كما يحيون بالأرواح. وقيل: لأنه روح من الأرواح أضافه اللَّه إليه تشريفاً كما يقال بنت اللَّه. وقال السدي: معناه ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي مخلوق منه، أي من عنده. وقيل: معناه ورحمة منه، جعله اللَّه رحمة لمن آمن به، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[1] أي قواهم برحمة منه. وقيل: الروح أوحى إلى مريم بالبشارة وأوحى إلى جبريل بالنفخ، وأوحى إليه أن كن فكان، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾[2] أي بالوحي، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[3] أي وحياً. وروي أنه كان لهارون الرشيد طبيب نصراني وكان غلاماً حسن الوجه جداً، وكان كامل الأدب جامعاً للخصال التي يتوسل بها إلى الملوك، وكان الرشيد مولعاً بأن يسلم وهو يمتنع، وكان الرشيد يمنيه الأماني إن أسلم فأبى، فقال له ذات يوم: ما لك لا تؤمن؟ قال: إن في كتابكم حجة على من انتحله. قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فعبر بهذا أن عيسى جزء منه. فضاق قلب الرشيد وجمع العلماء فلم يكن فيهم من يزيل شبهته حتى قيل له: قدم حجاج خراسان وفيهم رجل يقال له: علي بن الحسين بن واقد[4] من أهل مرو وهو إمام في علم القرآن. فدعاه فجمع بينه وبين الغلام، فسأله الغلام عن ذلك فاستعجم عليه الجواب في الوقت، وقال: قد علم اللَّه يا أمير المؤمنين في سابق علمه أن هذا الخبيث يسألني في مجلسك عن هذا، وأنه لم يخل كتابه عن جوابه، فإنه ليس يحضرني الآن، ولله علي أن لا أطعم ولا أشرب حتى أؤدي الذي يجب من الحق إن شاء اللَّه ودخل بيتاً مظلماً وأغلق عليه بابه واندفع في قراءة القرآن حتى بلغ سورة الجاثية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[5] فصاح بأعلى

---

(1) سورة المجادلة (58)، الآية: 22.

(2) سورة النحل (16)، الآية: 2.

(3) سورة الشورى (42)، الآية: 52.

(4) علي بن الحسين بن واقد المروي: روى عن أبيه وهشام بن سعد وابن المبارك وغيرهم، وعنه ابنه الحسين ومحمود بن غيلان وإسحاق بن راهويه وآخرون. توفي سنة إحدى عشرة ومائتين هـ. البخاري، التاريخ الكبير: 6/ 267 ـ تهذيب التهذيب: 7/ 308.

(5) سورة الجاثية (45)، الآية: 13.

صوته: افتحوا الباب فقد وجدت الجواب. ففتحوا ودعا الغلام فقرأ عليه الآية بين يدي الرشيد. وقال: إن كان قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ وجب أن يكون عيسى بعضاً منه وجب أن يكون ما في السماوات وما في الأرض بعضاً منه. فانقطع النصراني وأسلم، وفرح الرشيد فرحاً شديداً، ووصل علي بن الحسين بصلة جيدة. فلما عاد علي بن الحسين إلى مرو صنف كتاباً سماه: «كتاب النظائر في القرآن» وهو كتاب لا يوازيه في بابه كتاب[1].

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي صدقوا بوحدانية اللَّه، وبما جاءكم به الرسل من اللَّه، ولا تقولوا ثلاثة، أي لا تقولوا آلهتنا ثلاثة: أب وابن وروح قدس، انتهوا عن هذه المقالة وتوبوا إلى الله هو خير لكم من الإصرار على الكفر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي ما اللَّه إلا إلَه واحد ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ كلمة تنزيه عن السوء، أي منزهاً له عن أن يكون له ولد ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلهم عبيده وإماؤه وفي قبضته. ويستحيل أن يكون المملوك ابناً للمالك أي لا يجتمع الملك مع الولادة. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿92﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿93﴾﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي اكتفوا بربوبيته وكفالته فلا ولد له ولا شريك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ نزلت في وفد نجران ناظروا النبي صلى اللَّه عليه وسلم في أمر عيسى فقال لهم: هو عبد اللَّه ورسوله. فقالوا: لا تقل هكذا فإن عيسى يأنف من هذا القول. قال تكذيباً لهم: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ أي لن يأنف ولن يتعاظم عن الإقرار بالعبودية للَّه عزّ وجلّ ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي

---

(1) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 385 هذه الرواية بنصها تقريباً.
(2) سورة مريم (19)، الآية: 92 ـ 93.

ولن يستنكف الملائكة المقربون عن عبوديته وهم حملة العرش[1]. وإنما خصّ الملائكة بعد عيسى، لأن النصارى كانوا يقولون: عيسى ابن اللّه، وبنو مدلج كانوا يقولون: الملائكة بنات اللّه. فرد اللّه على الفريقين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي من يأنف ويمتنع عن توحيده وطاعته ويتعاظم عن الإيمان به فسيجمعهم إليه جميعاً: المستنكف والمستكبر، والمقر والمطيع.

قال اللّه تعالى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (173) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (174) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (175) يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (176)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي أما الذين آمنوا بمحمد وبالقرآن وعملوا الصالحات فيوفر عليهم جزاء أعمالهم في الجنة ويزيدهم من عطائه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وأما الذين أبوا وامتنعوا عن الإيمان بمحمد صلى اللّه عليه وسلم والقرآن فيعذبهم عذاباً وجيعاً، ولا يجدون لهم سوى اللّه قريناً ينفعهم، ولا مانعاً يمنعهم من النار.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (174)﴾ خطاب للناس كلهم. والبرهان هو النبي صلى اللّه عليه وسلم. سماه

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 152 ـ تفسير البغوي: 2/ 194.

برهاناً لظهور معجزاته. والنور المبين هو القرآن. سماه نوراً مبيناً، لأن النور هو الذي يبين الأشياء حتى ترى. والقرآن مبين للأشياء كلها.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي فأما الذين صدقوا بوحدانية اللّه وتمسكوا بدينه وكتابه وسألوا العصمة من معاصيه فسيدخلهم في الآخرة في رحمته وكرامته التي أعدها لهم فيها ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، أي ويعرفهم في الدنيا سبيل الهدى وهو الإسلام، ويثيبهم عليه. وتقدير الآية: يهديهم في الدنيا ويرحمهم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ نزلت في جابر بن عبد اللّه حين جاء إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال: إن لي أختاً، فما لي فيها بعد موتها؟ فأنزل اللّه هذه الآية[1]. وقد تقدم تفسير الكلالة، وابتدأ بالرجل، فيقال إنه مات قبل أخته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ يعني من أم وأب، أوْ من أب.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ وحكم الثلاث والأربع فصاعداً حكم الاثنتين كالبنات ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾ أي وإن كان الورثة إخوة من أم وأب، أو من أب ذكوراً وإناثاً فللذكر مثل نصيب الأنثيين.

قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ أي يبين اللّه لكم قسمة الموارث لئلا تخطئوا في قسمتها. وقد يحذف «لا» في الكلام ويراد إثباتها كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[2]. ويقال في القسم: واللّه أبرح قاعداً، أي لا أبرح. ويذكر «لا» ويراد طرحها كما في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾، ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[3]. وذهب البصريون إلى أن معناه: كراهة أن

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 152 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 386 ـ رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 11/ 55، كتاب الفرائض.
(2) سورة لقمان (31)، الآية: 10.
(3) سورة الأعراف (7)، الآية: 12.

تضلوا، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[1]. وقال الفراء: موضعه نصب بنزع الخافض[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ظاهر المعنى. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**من قرأ سورة النساء أعطي من الأجر كمن اشترى ذا رحم فأعتقه وبرئ من الشرك، وكان في مشيئة اللَّه من الذين يتجاوز عنهم**».

---

(1) سورة يوسف (12)، الآية: 82.
(2) الفراء، معاني القرآن: 1/ 297.

سُورَةُ المَائِدَةِ

سورة المائدة مدنية إلا قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[2] فإن هاتين الآيتين نزلتا بمكة بعد الفتح، فحكمهما حكم المدنية لنزولهما بعد الهجرة. وعدد حروفها: أحد عشر ألفاً وسبعمائة[3] وثلاثة وثلاثون حرفاً. وعدد كلماتها ألفان وثمانمائة وأربع كلمات. وعدد آياتها مائة وعشرون آية عند الكوفيين، واثنتان وعشرون عند الحجازيين، وثلاث وعشرون عند البصريين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى
ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿1﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ
ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ
فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى
ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿2﴾﴾.

قال أبو بكر:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ أي بالعقود التي عقدها اللَّه عليكم مما أحله لكم وحرمه عليكم. وقيل: معناه أتموا العهود التي بينكم وبين المشركين لا تنقضوها حتى يكون النقض من قبلهم. هكذا روي

---

(1) سورة المائدة (5)، الآية: 3.

(2) نفس السورة والآية.

(3) في النسخة (ف): وتسعمائة.

عن ابن عباس والضحاك وقتادة. قال الحسن: معناه أوفوا بعقود الدين، يعني أوامر اللَّه ونواهيه[1]. وقيل: معناه أوفوا بكل عقد تعقدونه على أنفسكم من نذر أو يمين. وقيل: أوفوا بالعقود التي يعقدها بعضكم لبعض نحو عقد البيع والإجارة والنكاح والشركة. ولا تنافي بين هذه الأقوال، إذ كل هذه العقود يجب الوفاء بها.

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ أي أحلت لكم الأنعام نفسها، وأضاف البهيمة إلى الأنعام كما يقال: مسجد الجامع، ونفس الإنسان. والأنعام: هي الإبل والبقر والغنم، ودخل في هذه الإباحة الظباء وبقر الوحش وحمار الوحش لأنها أبهم في التمييز من الأهلية. ولهذا استثنى اللَّه الصيد في حالة الإحرام في قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾. والبهيمة في اللغة: تتناول كل حي لا يميز استبهم عليه الجواب، أي استغلق.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي إلا ما يقرأ عليكم في القرآن مما حرم عليكم في هذه السورة من الميتة والدم ولحم الخنزير والموقوذة والمتردية والنطيحة.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ نصب على الحال من الكاف والميم التي في قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾ كما يقال: جاء زيد راكباً، وجاء غير راكب. والمعنى: أحلت لكم بهيمة الأنعام غير محلي الصيد، أي من غير أن تستحلوا قتل الصيد وأنتم محرمون. وقيل: نصب على الحال من قوله: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ أي أوفوا بالعقود غير محلي الصيد. وهذا قول الأخفش. والأول قول الكسائي. ومعنى الآية: أحلت لكم الأنعام إلا ما كان وحشياً، وأنه صيد لا يحل لكم إذا كنتم محرمين، فذلك قوله: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي يقضي على عباده بما شاء من التحليل والتحريم على ما توجبه الحكمة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أراد به المناسك، أي

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 32.

لا تستحلوا مخالفة شيء منها ولا تتجاوزوا مواقيت الحرم غير مؤدين حقوقها، وذلك أن الأنصار كانوا لا يسعون بين الصفا والمروة، وكان أهل مكة لا يخرجون إلى عرفة، فأمر اللَّه تعالى أن لا يتركوا شيئاً من المناسك. وقال الحسن: شعائر اللَّه دين اللَّه[1]. أي لا تحلوا في دين اللَّه شيئاً مما لم يحله اللَّه. ويقال: هي حدود اللَّه في فرائض الشرع. والشعائر في اللغة: المعالم. والإشعار: الأعلام. والشعيرة واحدة الشعائر، وهي كل ما جعل على الطاعة للَّه تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ أي ولا تستحلوا القتل والغارة في الشهر الحرام. وأراد بذلك الأشهر الحرم كلها وهي: رجب وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. إلا أنه ذكر باسم الجنس كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾[2] أراد به جنس الإنسان. فلذلك استثنى المطيع بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[3]. وكان في ابتداء الإسلام لا تجوز المحاربة في الأشهر الحرم، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾[4] ثم نسخ حرمة القتال في الشهر الحرام بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾[5].

قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ﴾ أي ولا تحلوا الهدي، أي لا تذبحوه قبل محله، ولا تنتفعوا به بعد أن جعلتموه للَّه، ولا تمنعوه أن يبلغ البيت.

قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ التي تكون في أعناق الهدايا، أي لا تقطعوها قبل الذبح وتصدقوا بها بعد الذبح، كما قال صلى اللَّه عليه وسلم لعلي رضي اللَّه عنه: «**تصدق بجلالها وخطامها ولا تعطي الجزار منها شيئاً**».

قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ معناه: ولا تستحلوا القتل والغارة على القاصدين المتوجهين نحو البيت الحرام. وعن ابن عباس رضي اللَّه عنهما: أن

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 37.
(2) سورة العصر (103)، الآية: 2.
(3) نفس السورة، الآية: 3.
(4) سورة البقرة (2)، الآية: 217.
(5) سورة التوبة (9)، الآية: 5.

الآية وردت في شريح بن ضبيعة بن هند اليمامي[1]، دخل على النبي صلى اللَّه عليه وسلم بالمدينة، وقال: أنت محمد النبي؟ قال: «**نعم**». قال: إلام تدعو؟ قال: «**إلى شهادة أن لا إلَه إلاّ اللَّه وأني رسول اللَّه**». فقال: إن لي أمراء أرجع إليهم وأشاورهم فإن قبلوا قبلت. ثم انصرف من عند النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فلما خرج قال النبي صلى اللَّه عليه وسلم: لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقبى غادر. فمر شريح بسرح لأهل المدينة فاستاقه وانطلق نحو اليمامة وهو يرتجز ويقول:

قد لفّها الليل بسوّاق حطم ∴ ليس براعي إبل ولا غنم
ولا بجزّار على ظهر الوضم ∴ باتوا نياماً وابن هند لم ينم
بات يقاسيها غلام كالزّلم ∴ خدلّج الساقين خفّاق القدم[2]

وقد كان عند دخوله على النبي صلى اللَّه عليه وسلم خلّف خيله خارج المدينة ودخل وحده، فلما كان في العام القابل خرج شريح نحو مكة في تجارة عظيمة في حجاج بكر بن وائل من أهل اليمامة وهم مشركون، وكانت العرب في الجاهلية يغير بعضهم على بعض فإذا كان أشهر الحج أمن الناس بعضهم بعضاً، وإذا سافر أحدهم في غير أشهر الحرم نحو مكة قلد هديه من الشعر والوبر، ومن لم يكن معه هدي قلد راحلته، ومن لم يكن معه راحلة جعل في عنقه قلادة، وكانوا يأمنون بذلك، فإذا رجعوا من مكة جعلوا شيئاً من لحاء شجر الحرم في عنق الراحلة فيأمنوا. فلما سمع أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بخروج شريح وأصحابه استأذنوا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فأنزل اللَّه هذه الآية[3].

---

(1) شريح بن ضبيعة بن شرحبيل بن عمرو بن مرثد بن سعد بن مالك ولقبه: الحطم. خرج في الردة في السنة الحادية عشرة فيمن تبعه من بكر بن وائل، وحاصر المسلمين، فتجمّع المسلمون إلى العلاء بن الحضرمي وقتلوا الحطم وانتصروا على من معه.
تاريخ الطبري: 3/ 254 ـ جمهرة الأنساب: 301.

(2) البيان والتبيين: 2/ 308 ـ الأغاني: 4/ 44، الكامل: 1/ 224.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 154 ـ تفسير القرطبي: 6/ 43.

قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ في موضع نصب على الحال معناه: قاصدين طالبين رزقاً بالتجارة. ورضواناً، أي رضى من اللّه تعالى على زعمهم، ولا يرضى اللّه تعالى عنهم حتى يسلموا. وقال الحسن وقتادة: معنى رضواناً، أي رضى اللّه تعالى عنهم، فيصلح معاشرهم ويصرف عنهم العقوبات في الدنيا إذ كانوا لا يقرون بالبعث. ثم نسخ اللّه تعالى بعد ذلك حرمة التعرّض للمشركين بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾[1] وبقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[2]. وقرأ الأعمش: ولا أمي البيت الحرام بالإضافة[3].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي إذا حللتم من إحرامكم فاصطادوا في الحل إن شئتم، وهذا لفظ أمر، ومعناه: الإباحة، لأن الأمر إذا تعقب الإباحة كان معناه رفع الحظر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ أي لا يحملنكم ويكسبنكم بغض قوم وعداوتهم بأن صرفوكم عام الحديبية عن المسجد الحرام على أن لا تظلموهم وتتجاوزوا الحد للمكافأة. وموضع ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾ نصب لأنه مفعول به و﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ مفعول له، كأنه لا يكسبنكم بغض قوم الاعتداء عليهم لصدهم وإياكم. قرأ أهل المدينة إلا قالون وابن عامر والأعمش: شنئان ـ بسكون النون الأولى ـ وقرأ الآخرون بالفتح وهما لغتان. إلا أن الفتح أجود لأنه أفهم اللغتين، ولأن المصادر أكثر ما تجيء على فعلان مثل: الضربان والنزوان والعسلان ونحو ذلك[4]. قال ابن عباس: معنى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي ولا يحملنكم. وقال الفراء: لا يكسبنكم يقال: فلان جريمة أهله، أي كاسبهم. قوله تعالى: ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الألف على الاستئناف والجزاء. وقرأ الباقون بالفتح، أي

---

(1) سورة التوبة (9)، الآية: 36.
(2) نفس السورة، الآية: 28.
(3) تفسير القرطبي: 6/ 42.
(4) الكشف عن وجود القراءات السبع: 1/ 404.

لأن صدوكم. والفتح أجود، لأن الصد كان واقعاً من الكفار يوم الحديبية قبل نزول هذه السورة[1].

قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي تحابوا على الطاعة وترك المعصية. قال أبو العالية: البر ما أمرت به، والتقوى ترك ما نهيت عنه[2]. وظاهر الأمر يقتضي وجوب المعاونة على الطاعة، وظاهر الأمر على الوجوب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي لا يعن بعضكم بعضاً على شيء من المعاصي والظلم. وقال بعضهم: سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الإثم والبر فقال: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطّلع عليه الناس**»[3].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي اخشوه وأطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي إذا عاقب فعقابه شديد.

قال اللّه تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (3) يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (4) ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (5)﴾.

---

(1) المصدر السابق: 1/ 405.

(2) تفسير الطبري: 9/ 491.

(3) رواه البخاري في: الأدب المفرد: 1/ 394، رقم: 295.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾. الميتة: اسم لكل ذي روح فارقته روحه حتف أنفه. والمراد بالدم: الدم المسفوح، وحرم عليكم لحم الخنزير لعينه لا لكونه ميتة حتى لا يحل تناوله مع وجود الذكاة فيه. وفائدة تخصيص لحم الخنزير بالذكر دون لحم الكلب وسائر السباع أن كثيراً من الكفار ألفوا لحم الخنزير واعتادوا أكله وأولعوا به ما لم يعتادوا أكل غيره. وقيل: فائدته أن مطلق لفظ التحريم يدل على نجاسة عينه مع حرمة أكله. ولحم الخنزير مختص بهذا الحكم وذلك أن سائر الحيوانات المحرم أكلها إذا ذبحت كان لحمها طاهراً لا يفسد الماء إذا وقع فيه وإن لم يحل أكله بخلاف لحم الخنزير.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي وحرم عليكم ما ذكر عليه عند الذبح اسم غير اللَّه، وذلك أنهم كانوا يذبحون لأصنامهم يتقربون بذبحهم إليها، فحرّم اللَّه كل ذبيحة يتقرب بذبحها إلى غير اللَّه تعالى، ولذلك قال الفقهاء: إن الذابح لو سمى النبي صلى اللَّه عليه وسلم مع اللَّه فقال: باسم اللَّه ومحمد حرمت الذبيحة. كذا قال في تفسير عبد الصمد[1]. وذكر الإمام أبو عاصم العامري محمد بن أحمد[2] عن أصحابنا أن سلطاناً لو دخل بلداً فذبح الناس الذبائح تقرّباً إليه بذبحها وإراقة دمها لم يحل تناول شيء منها لأنه قد أهل به لغير اللَّه، وتقرب بذبحها إلى غير اللَّه. وكان يفرق بين هذا وما يذبحه الرجل لضيفه، بمعنى أن صاحب الضيف إنما يتقرّب إلى ضيفه باللحم دون إراقة الدم. ألا ترى أنه لو ذبح الشاة باسمه ونسبته ولم يقربها إليه لم يكن متقرباً إليه. فأما ما يذبح لأجل الأمراء عند دخولهم البلاد إنما يتقربون إليهم بالذبح، وإراقة الدم دون اللحم، فإن اللحم لا يحمل إليهم ولا يرجع إليهم شيء من منافعه

---

(1) أبو الفتح، عبد الصمد بن القاضي محمود بن يونس الغزنوي الفقيه الحنفي. تقدمت ترجمته.

(2) أبو عاصم، محمد بن أحمد العامري: فقيه حنفي. كان قاضياً بدمشق، ومن مؤلفاته: «المبسوط» في ثلاثين مجلداً.
الفوائد البهية في تراجم الحنفية: 160.

فلذلك افترقا. وكان يحكى عن بعض المشائخ أن هذه المسألة وقعت ببعض بلاد ما وراء النهر فاختلف فيها فقهاؤها فكتبوا إلى أئمة بخارى فأفتوا بتحريمها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ أي وحرم عليكم أكل لحم المنخنقة وهي التي تخنق بحبل أو بشبكة فتموت من غير ذكاة. وأما الموقوذة فهي المضروبة بالخشب حتى تموت.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾: هي التي تتردى من جبل أو سطح أو في بئر فتموت قبل الذكاة. والتردي: هو السقوط، مأخوذ من الردى وهو الهلاك. قال صلى اللَّه عليه وسلم لعدي بن حاتم: «**إذا تردت رميتك من جبل فلا تأكل فإنك لا تدري أسهمك قتلها أم الماء؟**» فصار هذا الكلام أصلاً في كل موضع اجتمع فيه معنيان أحدهما حظر والآخر مبيح أنه يغلب جانب الحظر. ولهذا قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك. ألا وإن لكل ملك حمى وإن حمى اللَّه محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه**»[1]. وعن عمر رضي اللَّه عنه قال: كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الربا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾: هي التي تنطح حتى تموت، وإذا تناطحت الحيوانات فقتل بعضها بعضها في النطاح فهي حرام بالآية. قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة حتى إذا ماتت أكلوها، وكذلك الموقوذة. قال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربون الشاة بالعصا حتى إذا ماتت أكلوها، يقال: وقذه يقذه وقذاً إذا ضربه حتى أشفى على الهلاك. قال الفرزدق:

شغّارة تقذ الفصيل برجلها ∴ فطّارة لقوادم الأبكار[2]

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 3/ 8، رقم: 2051، كتاب البيوع ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 1318، رقم: 3984 ـ والنسائي في سننه: 7/ 213.

(2) هذا البيت من رائية للفرزدق تبلغ أربعين بيتاً، هجا بها جريراً وعيره بأن نساءه راعيات أجلاف، وقبله:

كم خالة لك يا جرير وعمة   فدعاء قد حلبت علي عشاري

واستجاد لهن شر الصفات فقال: فدعاء: أي في الرسغ من أقدامها ميل وعوج من المهنة. ثم وصفها بالغلظة بأقبح وصف فقال: شغارة: أي إذا دنا الفصيل من أمه وهي تحلب ضربته =

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ إنما أدخل الهاء فيها وإن كان الفعيل بمعنى المفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، كقولهم: لحية دهين وعين كحيل وكف خضيب، لأن النطيحة لم يتقدمها اسم، فلو أسقطت الهاء منها لم يُدر أهي مذكر أم مؤنث؟ فنظير ذلك لو قيل: شاة نطيح لم يذكر الهاء لذكر الشاة. وقرأ ابن أبي زيد: وأكيلة السبع. وقرأ الحسن وطلحة: السبع ـ بسكون الباء ـ وهي لغة في السبع[1]. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ هو فريسته.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي إلا ما أدركتم ذكاته كما أكل منه السبع فذكيتم فإن ذلك يحل لكم. وأما ما أبين من الصيد قبل الذكاة فهو ميت. ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ راجعاً إلى المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكيلة السبع فإنها كلها في الحكم بمعنى واحد. وعن الحسن أنه كان يقول في هذه الجملة: إذا طرفت بعينها أو ركضت برجلها أو حركت بذنبها فذكها وكل[2]. وشرط أكثر العلماء في إباحة أكلها بالذكاة أن تكون حياتها وقت الذكاة أكثر من حياة المذبوح، فإن كانت هذه الصفة أثرت الذكاة في إباحتها وإلا فلا. والتذكية: تمام فري الأوداج وإنهار الدم. ومنه الذكاء في الفهم إذا كان تمام العقل. وذكيت النار إذا أتممت اشتعالها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ أي وحرم عليكم ما ذبح على النصب، وهي جمع النصب والنصاب، وهي الحجارة كانوا ينصبونها فيعبدونها من دون اللّه تعالى، ويقربون لها الذبائح. والفرق بين النصب والأنصاب والأصنام أن الصنم اسم لما كان على صورة الإنسان. والنصب ما لا نفس له ولا صورة، ولكنه يعبد. والوثن ما كان منقشاً في الحائط لا شخص له. وقيل: النصب

= ضربة يشرف معها على الهلاك كأن ساقها رمح أو هراوة. وفطارة لقوادم الأبكار: البكر: الناقة التي ولدت بطناً واحدة فأخلافها صغار لا تحلب ضباً بالكف كلها، وإنما تحلب فطراً، أي بالسبابة والوسطى ويستعان بطرف الإبهام. (الديوان: 1/ 361 ـ نقائض جرير والفرزدق: 1/ 332 ـ الخزانة: 6/ 495).

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 5، تفسير سورة المائدة.

(2) الثعلبي نفسه.

واحد وجمعه أنصاب مثل عنق وأعناق. وقرأ الحسن بن صالح وطلحة بن مصرف: على النصب ـ بسكون الصاد ـ. وقرأ الجحدري بفتح النون والصاد[1] جعله اسماً موحداً كالجبل والجمل. والجمع: الأنصاب كالأجبال والأحمال، وكلها لغات، وهي الشيء المنصوب، ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[2]. واختلفوا في معنى النصب ههنا، قال ابن جريج ومجاهد وقتادة: كان حول البيت ثلاثمائة وستون حجراً كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها، وكانوا يعظمونها ويعبدونها ويذبحون لها، وكانوا مع هذا يبدلونها إذا رأوا حجارة هي أعجب إليهم منها وقالوا ليست أصناماً إنما الصنم ما ينقش. وقال آخرون: النصب هي الأصنام المنصوبة. قال الأعشى:

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه ∴ لعاقبة واللّه ربك فاعبدا[3]

قال قطرب: معنى الآية: وما ذبح للنصب، أي لأجلها، و«اللام» و«على» يتعاقبان في الكلام[4]. قال اللّه تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾[5] أي عليك. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[6] أي فعليها. وقال بعضهم: وما ذبح على اسم النصب.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ أي وحرم عليكم الاستقسام، وهو طلب القسم بالأزلام، وهي القداح التي كانوا يجيلونها عند العزم على المسير، ويتقسمون بها لحم الجزور على ما تقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾[7]. وقال الحسن: كانوا يتخذون السهام، فإذا أراد الرجل أن يخرج إلى سفر أو تجارة أو تزويج أجال السهام بيده وكان مكتوباً على بعضها:

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 57.
(2) سورة المعارج (70)، الآية: 43.
(3) هذا البيت من بحر الطويل من قصيدة تبلغ أربعة وعشرين بيتاً يزعمون بأن الأعشى مدح بها الرسول صلى اللّه عليه وسلم. (ينظر: السيرة النبوية، لابن هشام: 1/ 387 ـ وديوان الأعشى، النص: 17 ـ شرح نهج البلاغة: 11/ 58 ـ اللسان: نون).
(4) تفسير البغوي: 2/ 205.
(5) سورة الواقعة (56)، الآية: 91.
(6) سورة الإسراء (17)، الآية: 7.
(7) سورة البقرة (2)، الآية: 219.

أمرني ربي. وعلى بعضها: نهاني ربي. فإن خرج الذي عليه أمرني ربي قال: قد أمرت بالخروج ولا بد لي من ذلك فيخرج. وإن كره الخروج خرج غير بعيد ثم رجع ولا يدخل من باب بيته ولكن ينقب ظهر بيته منه يدخل ومنه يخرج إلى أن يتفق له الخروج، وإن خرج الذي عليه نهاني ربي قال: قد نهيت عن الخروج ولا يسعني[1]. فنهى اللَّه تعالى عن ذلك. فعلى هذا يجوز أن يكون معنى الاستقسام طلبهم في الخروج والدخول في قسم الرزق والحوائج. وظاهر هذه الآية يقتضي أن يكون العمل على قول المنجمين: لا تخرج من أجل نجم كذا، واخرج من أجل نجم كذا فسقاً، لأن ذلك دخول في علم الغيب، ولا يعلم الغيب إلا اللَّه، ومعنى الفسق: الخروج من الطاعة. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من المعاصي والحرام. قوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟﴾ في موضع رفع، أي وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام. والأزلام: هي القداح التي لا ريش لها ولا نصل، واحدها: زلم، مثل عمر وزفر. وقيل: زلم مثل قلم. وقال ابن جبير: هي حصى بيض كانوا يضربون بها.

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية يوم دخل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مكة ومعه المسلمون وهو يوم الفتح، يئس الذين كفروا يومئذ من رجوع المسلمين إلى دينهم بما ظهر من علو الإسلام والمسلمين على سائر الأديان[2]. وقال بعضهم: أراد به يوم حجة الوداع وقال الحسن: أراد باليوم جميع زمان النبي صلى اللَّه عليه وسلم وعصره كما يقال: كانت حادثة كذا في يوم فلان، يراد به عصره.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ أي ليكن خوفكم للَّه وحده فقد أمنتم وحول اللَّه الخوف الذي كان يلحقكم إليهم بإظهار الإسلام. وقيل: معناه لا تخشوهم بإظهار تحريم ما كانوا يبيحونه فأسرعوا في ترك إظهار المحرمات.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية على النبي صلى اللَّه عليه وسلم

---

(1) تفسير الطبري: 9/ 511.
(2) تفسير القرطبي: 6/ 60.

وهو واقف بعرفة يوم عرفة والناس وقوف رافعون أيديهم بالدعاء، فبركت ناقة النبي صلى اللَّه عليه وسلم من ثقل هذه الآية بعد أن كاد عضدها يدق. ولم ينزل بعدها آية حلال ولا حرام. وعاش النبي صلى اللَّه عليه وسلم بعدها واحداً وثمانين يوماً ثم قبضه اللَّه تعالى إلى رحمته[1]. قال طارق بن شهاب[2]: جاء يهودي إلى عمر رضي اللَّه عنه فقال: يا أمير المؤمنين آية تقرءونها لو نزلت علينا لاتخذنا يوم نزولها عيداً. فقال: وأي آية هي؟ قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ الآية.. فقال عمر: هل علمت في أي يوم نزلت؟ وفي أي مكان نزلت؟ إنها نزلت يوم الجمعة يوم عرفة ونحن مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وهو واقف بعرفة، وكلاً بحمد اللَّه لنا عيد. ولا يزال ذلك اليوم عيداً للمسلمين ما بقي منهم أحد[3]. وقيل: لما قالت اليهود: لو نزلت علينا هذه الآية لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال ابن عباس: إنها نزلت في يوم عيدين: يوم جمعة، ويوم عرفة. وروي عن عمر رضي اللَّه عنه أنه بكى يوم نزلت هذه الآية، فقال له النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «**ما يبكيك يا عمر؟**» قال: أبكاني أنا كنا في زيادة في ديننا، فأما إذا كمل فإنه لا يكمل شيء إلا نقص قال: «**صدقت**»[4]. واختلفوا في معنى الآية: قال بعضهم معناها: اليوم أكملت لكم دينكم أي شرائع دينكم من الفرائض، والسنن، والأحكام، والحدود، والحلال والحرام. فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام ولا شيء من الفرائض وبينت لكم جميع ما كنت أريد أن أبيِّنه لكم في الأزل. فأما دين اللَّه فلم يزل كاملاً لا نقص فيه. وهذا قول ابن عباس، والسدي. وقال قتادة وسعيد: معناه: أكملت لكم دينكم فلم يحج معكم مشرك. ويحتمل أن يكون المراد الإكمال للدين إظهاره على سائر الأديان بالنصر والغلبة. وقوله

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 6، تفسير سورة المائدة.

(2) طارق بن شهاب بن عبد شمس بن سلمة بن هلال. روى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، وكان يكثر ذكر سلمان.
الطبقات الكبرى: 6/ 131 ـ الأعلام: 3/ 217.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 155 ـ تفسير الطبري: 9/ 524.

(4) تفسير القرطبي: 6/ 61.

تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ نصب على الظرف، كما يقال: الآن، وفي هذا الزمان. قوله تعالى: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ أي أتممت عليكم منتي بإظهار الدين حتى لم يحج معكم مشرك. وقيل: نعمة اللَّه بيان فرائضه. وقيل: هي إيجاب الجنة. وقيل: معناه وأنجزت لكم وعدي في قولي: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾[1] فكان من تمام نعمته أن دخلوا مكة آمنين وعليها ظاهرين، وحجوا مطمئنين ولم يخالطهم أحد من المشركين. قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ أي اخترت لكم الإسلام من الأديان كلها ديناً، فمن دان بالإسلام فقد استحق ثوابي، ورضاي. والدين: اسم لجميع ما يعبد اللَّه به خلقه وأمرهم بالإقامة عليه، وهو الذي أمر أن يكون ذلك عادتهم والذي به يجزون، فإن الدين في اللغة: العادة، والدين: الجزاء.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي من دعته الضرورة إلى أكل شيء مما حرّم اللَّه عليه في المجاعة غير مائل إلى إثم، أي زائد على سد رمقه فإن اللَّه غفور رحيم أباح ذلك رحمة منه وتسهيلاً على خلقه. والمخمصة مأخوذ من الخمص وهو: شدة ضمور البطن. والمتجانف: من الجنف وهو الميل.

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾. جاء عدي بن حاتم إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال: إن لنا كلاباً نتصيّد بها فنأخذ البقر والظباء والحمر فمنها ما يدرك ذكاته، ومنها ما لا يدرك وقد حرّم اللَّه الميتة. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية[2]، ومعناها: يسألونك يا محمد أي شيء أحل لهم من الصيد وغيره، قل أحل لكم المباحات. يقال: هذا يطيب لفلان، أي يحل. قال اللَّه تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[3] أي ما أحلّ لكم. وكل شيء لم يأت تحريمه في كتاب اللَّه أو سنة رسوله فهو من

---

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 150.
(2) الواحدي، أسباب النزول: 156 ـ 157 ـ تفسير القرطبي: 6/ 65.
(3) سورة النساء (4)، الآية: 3.

الطيبات. وقال بعضهم: أراد بالطيبات المستلذات والمشتهيات، وهو عام أريد به غير ما تضمنت الآية المتقدمة. قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي وأحلّ لكم صيد ما علمتم، فحذف ذكر الصيد لأن في الكلام دليلاً عليه. والجوارح: هي الكواسب: من الفهد، والصقر، والبازي، والعقاب، والنسر، والباشق، والشاهين، وسائر ما يصطاد به الصيد. قال اللَّه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[1] أي كسبتم. وقيل: معنى الجوارح :الجارحات بناب ،أو مخلب. قوله تعالى: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ حال للمعلمين، أي في حال إغرائهم الكلب على الصيد. والتكليب: إغراء السبع على الصيد، وإرساله. ومن قرأ: مكلبين ـ بفتح اللام ـ فهو حال من الكواسب المعلمين. وقرأ ابن مسعود والحسن: مكلبين ـ بإسكان الكاف وتخفيف اللام[2] ـ. فعلى هذا المعنى يجوز أن يكون من قولهم: أكلب الرجل إذا كثرت كلابه، وأمشى إذا كثرت ماشيته. وذكر الكلاب لأنها أعم وأكثر، والمراد به: جميع الجوارح.

قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي تؤدبونهن أن يمسكن الصيد عليكم كما أدبكم اللَّه. ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي مما حفظن لكم بعد قتلهن إياه، وهو أن لا يأكل الكلب من الصيد، فإذا أكل منه حرم الصيد على صاحبه. قال ابن عباس: تعليم الكلب أن يضربه حتى يترك الأكل، وتعليم البازي أن تدعوه فيجيبك[3].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي على الإرسال كما روي عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال لعدي بن حاتم: «**إذا أرسلت كلبك المعلم، وسميت اللَّه تعالى فكل، وإن أكل منه فلا تأكل فإنه إنما أمسك على نفسه**»[4]. وفي بعض الروايات: «**وإن شارك كلبك كلب آخر فلا تأكل فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على كلب غيرك**». وذهب بعض أهل العلم إلى أن معنى

---

(1) سورة الأنعام (6)، الآية: 60.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 7.
(3) تفسير الطبري: 9/ 557.
(4) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 9/ 527 ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 13/ 78 ـ وأبو داود في سننه: 3/ 145، رقم: 2849.

الإمساك في هذه الآية أن يحفظ الكلب الصيد حتى يجيء صاحبه، فإن تركه حتى غاب عن صاحبه ثم وجده صاحبه بعد ذلك ميتاً لم يحل أكله كما قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**كل ما أصميت، ودع ما أنميت**». قيل: إن الأصماء ما رأيت، والإنماء: ما توارى عنك. واختلف أهل العلم في حد التعليم، قال أبو حنيفة رحمه اللَّه: ليس فيه حد مؤقت، وإنما يرجع فيه إلى أهل الصنعة، فإن حكموا بتعليمه حل صيده بعد ذلك وإلا فلا، لأن الاصطياد للكلاب بمنزلة الحرف والصناعات للناس وليس في مقدرة إنسان عالم بصنعة متقدم على حرفته حد يوقف عليه، ولكن يرجع في كل صنعة إلى أهلها. وقال أبو يوسف ومحمد وكثير من الفقهاء: إذا دعي الكلب ثلاث مرات على الولاء فأجاب وأرسل فاسترسل وأخذ الصيد ولم يأكل حكمنا بكونه معلماً، لأن التعليم لا يحصل بالمرة الواحدة ويحصل بالمرات الكثيرة، فجعل الحد الفاصل بين القليل والكثير بالثلاث التي هي أقل الجمع الصحيح.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قد تقدم تفسيره. وروى أبو رافع[1] قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فاستأذن له فلم يدخل، فأخذ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم رداءه وخرج له فقال له: «**قد آذناك يا رسول اللَّه**»[2]. قال: أجل، ولكنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة. فنظروا فإذا ببعض بيوتهم جرو[3]. وعن علي رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب**»[4]. قال أبو رافع: فأمرني رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن

---

(1) أبو رافع، مولى الرسول صلى اللَّه عليه وسلم، واسمه: أسلم، وكان عبداً للعباس بن عبد المطلب فوهبه للنبي صلى اللَّه عليه وسلم. وقد أسلم أبو رافع وهاجر وشهد أحداً والخندق والمشاهد كلها، وزوجه الرسول مولاته سلمى وولدت له عبيد اللَّه. توفي بالمدينة بعد قتل عثمان بن عفان.
الاستيعاب: 4/ 68 ـ الإصابة: 4/ 67 ـ الطبقات الكبرى: 4/ 54.

(2) يعني بقوله: رسول اللَّه، جبريل عليه السلام رسول اللَّه بوحيه إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم.

(3) رواه النسائي في سننه: 7/ 162.

(4) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 5/ 187، رقم: 6308 بدون «ولا جنب».

لا أدع كلباً في المدينة إلا قتلته، فقلت حتى بلغت العوالي[1]، فانتهيت إلى امرأة في ناحية المدينة عندها كلب تحرس غنمها فرجمته ثم أتيت إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فأخبرته بأمره، فأمرني بقتله، فرجعت إلى الكلب فقتلته. وقال ابن عمر رضي اللَّه عنهما: سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم رافعاً صوته يقول: «**اقتلوا الكلاب**». وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**لا يحل ثمن الكلب، ولا حلوان الكاهن، ولا مهر البغي**»[2]. ونهى عن اقتنائها وإمساكها، وأمر بغسل الإناء من ولوغها سبع مرات إحداهن بالتراب. قال: فلما أمر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بقتل الكلاب، جاء أناس فقالوا: يا رسول اللَّه ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فسكت النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فأنزل اللَّه هذه الآية[3]. فلما نزلت أذن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها، ونهى عن اقتناء ما لا ينتفع بها، وأمر بقتل الكلب العقور وما يضر ويؤذي، ورفع القتل عما سواها مما لا ضرر فيه. وعن عبد اللَّه بن المغفل[4] قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها الأسود البهيم**»[5]. و«**أيما قوم اتخذوا كلباً ليس بكلب صيد أو حرث أو ماشية فإنه ينقص من أجورهم كل يوم قيراط**»[6]. وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**من اقتنى كلباً ليس بكلب صيد ولا ماشية ولا أرض فإنه ينقص من أجره كل يوم قيراطان**»[7]. والحكمة في ذلك أنه ينبح الضيف ويروع السائل.

---

(1) العوالي: أماكن بأعلى أراضي المدينة، أدناها من المدينة على أربعة أميال.

(2) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 5/ 179، رقم: 2237 ـ والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 4/ 283، رقم: 1142 ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 730، رقم: 2159.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 156.

(4) أبو سعيد، عبد اللَّه بن المغفل: كان من البكائين وممن بايع النبي صلى اللَّه عليه وسلم تحت الشجرة يوم الحديبية، وأقام بالمدينة ثم تحول إلى البصرة إلى أن توفي.
الطبقات الكبرى: 7/ 9.

(5) رواه النسائي في سننه: 7/ 165.

(6) رواه النسائي في سننه: 7/ 165.

(7) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 11/ 31، رقم: 4580، كتاب الذبائح والصيد ـ رواه النسائي في سننه: 7/ 166.

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أي الآن يبيِّن اللَّه لكم الحلالات، وهو ما لم يجر ذكره في المحرمات.

قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ أي ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم. والدليل على أن المراد بالطعام ههنا الذبائح أن ما سوى الذبائح من الأطعمة والأشربة حلال للمسلمين سواء كانت لأهل الكتاب ولغيرهم، فبان أن المراد به الذبائح، لأن ذبائح غير أهل الكتاب من الكفار حرام على المسلمين.

قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي ذبائحكم حلال لهم، أي رخص لكم في أن تطعموهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال الحسن: أراد بالمحصنات ههنا الحرائر من المؤمنات والكتابيات. وقال ابن عباس: أراد به الحرائر والعفائف منهن. وتقدير الآية: وأحل لكم نكاح المحصنات من المؤمنات والكتابيات[1]. وقد استدل بعض الفقهاء بظاهر هذه الآية على أنه لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية. والصحيح أنه يجوز بظاهر قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾[2] بدليل حل ذبائحهم. وإنما خصَّ اللَّه المحصنات بإباحة نكاحهن مع جواز نكاح غيرهن لأن الآية خرجت مخرج الامتنان. فالمنة في نكاح الحرائر العفائف أعظم وأتم، يدل على ذلك أنه لا خلاف في جواز النكاح بين المسلم والأمة المؤمنة وإن كان في الآية تخصيص المحصنات من المؤمنات، والأفضل لمن أراد النكاح أن لا يعدل عن نكاح الحرائر الكتابيات مع القدرة عليهن، وذلك لأن نكاح الأمة يؤدي إلى استرقاق الولد لأن الولد يتبع أمه في الرق والحرية، ولا ينبغي لأحد أن يختار رق ولده، كما لا ينبغي أن يختار رق نفسه.

قوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ أي ناكحين غير

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 79.
(2) سورة النساء (4)، الآية: 25.

زانين معلنين بالزنا ولا متخذين صديقات للزنا سراً. قال الحسن: كان بعض أهل الجاهلية يسافح ويزني بكل من وجد من النساء، وبعضهم يتخذ خليلة يزني بها سراً ويجتنب الزنا علانية، فبيَّن اللَّه تعالى بهذه الآية الزنا سراً وعلانية.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ قال ابن عباس: لما رخَّص اللَّه للمسلمين في الكتابيات قال أهل الكتاب: لولا أن اللَّه رضي أعمالنا لم يحل للمسلمين تزويج نسائنا[1]. وقال المسلمون: كيف يتزوّج الرجل الكتابية وهي كافرة؟ فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ أي فقد بطل ثواب عمله وهو في الآخرة من المغبونين غبن نفسه ومنزله وصار إلى النار، لا يغني المرأة الكتابية إسلام زوجها ولا ينفعها ذلك، ولا يضر المسلم كفر زوجته الكتابية.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ﴾ قال ابن عباس وجماعة من المفسرين معناه: إذا أردتم القيام إلى الصلاة وإنما أضمروا إرادة القيام لأن صحة قيام الصلاة بالطهارة فلا يصح من أحل القيام قبل تقديم

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 79.

الطهارة[1]. وظاهر الآية يقتضي أن القيام إلى الصلاة يكون سبباً لوجوب الطهارة. ولا خلاف بين السلف والخلف أن الطهارة لا تجب بسبب القيام إلى الصلاة، إلا أنه روي عن ابن عمر رضي اللّه عنهما كان يتوضأ عند كل صلاة ويقرأ هذه الآية، فيحتمل أنه كان يفعل ذلك ندباً واستحباباً، فإن تجديد الطهارة لكل صلاة مستحب[2]. وقد روي عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**من توضأ فهو على وضوئه ما لم يحدث**». وقال: «**لا وضوء إلا من حدث**». فثبت أن في الآية إضمار آخر تقديره: إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون فاغسلوا وجوهكم وهذا نظير قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[3] معناه: فأفطر فعليه عدة أيام أخر. وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾[4] معناه: فحلق فعليه فدية. وقال بعضهم: معنى الآية: إذا قمتم من نومكم إلى الصلاة وقال هذا على أن النوم في حالة الاضطجاع حدث.

قوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ الغسل: إجراء الماء على المحل وتسييله، سواء وجد معه الدلك أم لا. والوجه: ما يواجهك من الإنسان وحده من قصاص الشعر إلى أسفل الذقن، ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن. وظاهر الآية يقتضي أن المضمضة والاستنشاق غير واجبين في الوضوء، لأن اسم الوجه يتناول الظاهر دون الباطن.

قوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ أي مع المرافق. هكذا قال علماؤنا رحمهم اللّه تعالى إلا زفر[5] رحمه اللّه، فإنه ذهب إلى ظاهر الآية وقال:

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 8.
(2) تفسير القرطبي: 6/ 81.
(3) سورة البقرة (2)، الآية: 184.
(4) سورة البقرة (2)، الآية: 196.
(5) أبو الهذيل، زفر بن الهذيل العنبري: فقيه حنفي، كان من أصحاب الحديث فغلب عليه الرأي. أصله من أصبهان، أقام بالبصرة وولي قضاءها، وتوفي بها سنة ثمان وخمسين ومائة هجرية.
الفوائد البهية في تراجم الحنفية: 75 ـ طبقات الفقهاء: 135 ـ وفيات الأعيان: 2/ 317.

صرف إلى الغاية، والغاية لا تدخل في الحكم كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ﴾[1] . وأما عامة أصحابنا العلماء فقالوا: إن «إلى» تذكر بمعنى مع كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ﴾[2] . فإذا احتمل اللفظ الغاية واحتمل معنى المقارنة حل محل المجمل، فكان موقوفاً على بيان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. وقد روي أنه كان إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه[3] . فصار فعله بياناً للمجمل فحمل على الوجوب.

قوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ اختلف العلماء في مقدار وجوب المسح منه، فذهب مالك إلى أن مسح جميع الرأس واجب. وقال: ظاهر الآية يقتضي الجميع دون البعض، لأنك إذا قلت: مررت بزيد أردت جملته لا بعضه، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[4] والمراد كل البيت، وكقوله تعالى: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ﴾. وذهب الشافعي رحمه اللَّه إلى أن الواجب مسح مقدار ما يتناوله الاسم، ومن أصحابه من قدره بثلاث شعرات وهذا بعيد، لأن فاعله لا يسمى ماسحاً رأسه ولا برأسه، ولأن ذلك القدر يحصل بغسل الوجه، وفعل ذلك أيضاً متعسر. وقال أصحابنا في الاحتجاج على مالك: إن الباء تذكر ويراد بها التبعيض كما تقول: أخذت برأس فلان، ومسحت برأس اليتيم. فإذا احتمل اللفظ التبعيض كان مجملاً، فوجب الرجوع فيه إلى فعل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وقد روي أنه توضأ ومسح على ناصيته[5] . والناصية :هو الربع المقدم من الرأس. ومعلوم أنه كان لا يترك بعض الواجب فثبت أن الفرض مقصور على هذا المقدار. إلا أن الأفضل أن يمسح جميع الرأس ليخرج عن الفرض بيقين. وقد روي أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم توضأ، ومسح جميع رأسه. واختلف العلماء في عدد مسح الرأس

---

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 187.
(2) سورة النساء (4)، الآية: 2.
(3) رواه الدارقطني في سننه: 1/ 83.
(4) سورة الحج (22)، الآية: 29.
(5) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 1/ 342، رقم: 100 ـ والنسائي في سننه: 1/ 65، باب المسح على الناصية.

فقال مالك: الأفضل أن يمسح جميع رأسه بماء واحد. وروى الحسن عن أبي حنيفة: أن مسح رأسه ثلاث مرات بماء واحد كان سنّة. وقال الشافعي: إن الأفضل أن يمسح ثلاثاً بثلاث مياه. روي عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه مسح رأسه مرة واحدة، وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**الوضوء ثلاثاً ثلاثاً إلا المسح**». وأما مسح الأذنين فهو سنّة لا خلاف في ذلك بين أهل العلم، وإنما اختلفوا في كيفية مسحهما فقال أصحابنا: يمسح ظاهرها وباطنها مع الرأس بماء واحد كما روي عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه مسح برأسه وأذنيه بماء واحد. وفي بعض الروايات: مسح رأسه وأمسك سبابتيه لأذنيه بماء واحد ثم قال: «**الأذنان من الرأس**». وقال الشافعي: هما عضوان مفردان يمسحان ثلاثاً بثلاث مياه. وأما مسح الرقبة فلم يذكر في شيء من الكتب المشهورة. ويحتمل أن يكون سنّة، ويحتمل أن يكون مستحباً، لأن النبي صلى اللَّه عليه وسلم كان يمسح مقدم رأسه ومؤخره فقال بعضهم: إن المقصود من مسح مؤخر الرأس الرقبة. وقد ورد عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**من مسح رقبته في الوضوء أمن من الغل يوم القيامة**».

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ قرأ ابن عامر ونافع والكسائي وحفص ويعقوب: وأرجلكم ـ بالنصب ـ، وهي قراءة علي رضي اللَّه عنه. وقرأ الباقون: وأرجلكم ـ بالخفض ـ، وهي قراءة أنس وعلقمة والشعبي[1]. فمن نصب فمعناه: فاغسلوا أرجلكم عطفاً على الوجه واليدين، ومن خفض فعلى العطف على الرؤوس على الإتباع والجوار لفظاً لا معنى كقول العرب: جحر ضب خرب، وقولهم: أكلتم التمر[2] واللبن، ويقال: فلان متقلد سيفاً ورمحاً والرمح لا يتقلد وإنما يحمل. وقال لبيد:

.... وأطفلت ∴ بالجلهتين[3] ظباؤها ونعامها[4]

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 406 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 9.

(2) في النسخة (ف): السمن.

(3) وأطفلت بالجلهتين: كان لها أطفال بالجلهتين. والجلهتان: جنبتا الوادي.

(4) وتمام البيت:

فعلا فروع الأيهقان وأطفلت بالجلهتين ظباؤها ونعامها

لسان العرب، باب: جله، وطفل.

والنعام لا يطفل وإنما يفرخ. فقولهم: حجر ضب خربٍ كان ينبغي أن يقال: خربٌ، لأنه نعت الحجر، وإنما خفض للمجاورة. وقال بعضهم: أراد بذلك المسح على الخفين، فإن الماسح على الخفين يسمى ماسحاً على الرجلين لقرب الجوار، كما يقال: قبل فلان رجل الأمير ورأسه ويده، وإن كان الرجلان في الخف والرأس في العمامة واليد في الكم. وفي الحديث أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم كان إذا ركع وضع يديه على ركبتيه، وليس المراد أنه لم يكن بينهما حائل[1]. وأجاز بعضهم المسح على الرجلين، وهو قول ابن عباس. وقالوا: للوضوء غسلان ومسحان. وذهب بعضهم إلى أن المتوضىء مخير بين غسل الرجلين ومسحهما. وإذا احتملت قراءة الخفض المسح على الخفين واحتملت مسح الرجلين واحتملت غسلهما وجب الرجوع إلى فعل النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فقد روي أنه داوم على غسل رجليه واتفقت الأمة على فعله[2]. وروى ابن عمر عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه توضأ مرة مرة وغسل رجليه، وقال: «**هذا وضوء لا يقبل اللَّه الصلاة إلا به**»[3]. ولأن اللَّه تعالى قال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ وهذا يدل على الغسل كاليدين لما حدهما إلى المرافق كان فرضهما الغسل دون المسح. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**لا يقبل اللَّه صلاة امرىء حتى يضع الطهور مواضعه فيغسل وجهه ويديه ويمسح برأسه ويغسل رجليه**». وعن جابر رضي اللَّه عنه قال: أمرنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن نغسل رجلينا إذا توضأنا. وقال ابن أبي ليلى: أجمع أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على وجوب غسل الرجلين. وعن عبد اللَّه بن عمر قال: مرَّ النبي صلى اللَّه عليه وسلم على قوم وعراقيبهم تلوح فقال: «**أسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار**»[4]. ورأى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أعمى يتوضأ فقال: «**اغسل باطن قدميك**». فجعل يغسل حتى سمي أبا غسيل. وقالت عائشة رضي اللَّه عنها: لأن يقطعا قدماي أحب من أن

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 218.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 10.

(3) رواه الدارقطني في سننه: 1/ 80 ـ والبيهقي في السنن الكبرى: 1/ 80، كتاب الطهارة.

(4) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 1/ 214 ـ والبيهقي في شعب الإيمان: 3/ 6، رقم: 2718، باب في الطهارة ـ والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 1/ 152، رقم: 41.

أمسح عليهما من غير خفين. وذهب الروافض إلى أن الواجب في الرجلين المسح، ورووا في المسح خبراً ضعيفاً شاذاً.

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ﴾ هما العظمان الناتئان من جانبي الرجل، وهما مجمع مفصل الساق والقدم، مأخوذ من التكعب وهو النتوء، يقال: جارية كاعب: إذا خرج ثدياها. وروى هشام عن محمد أنه الكعب الذي في وسط القدم عند معقد الشراك. والصحيح أن محمداً إنما قال ذلك في المحرم بالحج أنه يقطع خفيه بأسفل من الكعبين قال: والكعب ههنا هو معقد الشراك، فنقل هشام ذلك إلى الطهارة. ولا خلاف في الكعب في الوضوء بين علمائنا الثلاثة أنه داخل في غسل الرجلين[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ أي إن كنتم جنباً وأردتم القيام إلى الصلاة فاغتسلوا. والجنب يوضع موضع الجمع يقال: رجل جنب ورجلان جنب وقوم جنب. ولفظ الإطهار يقتضي تطهير جميع البدن في الاغتسال من الجنابة كما قال صلى اللّه عليه وسلم: «**تحت كل شعرة جنابة فبلوا الشعر وانقوا البشر**»[2]. وبهذا قال أصحابنا إن المضمضة والاستنشاق واجبتان في غسل الجنابة. وقوله تعالى: ﴿فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ أي فتطهروا، إلا أن التاء تدغم في الطاء لقرب مخرجهما. وعن أنس رضي اللّه عنه قال: قال لي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**يا بني إذا أخذت في الغسل من الجنابة فبالغ فيه فإن تحت كل شعرة جنابة**». فقلت: يا رسول اللّه وكيف أبالغ؟ قال: «**رو أصول الشعر وانق بشرتك تخرج من مغتسلك وقد غفر لك كل ذنب**»[3].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي مرضى من جدري أو غيره فلم تطيقوا غسل هذه الأشياء أو كنتم مسافرين ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ معناه: أو جاء أحد منكم من قضاء الحاجة، لأنه لا خلاف أن المريض

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 10.

(2) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 1/ 357، رقم: 106 ـ والبيهقي في السنن الكبرى: 1/ 175، كتاب الطهارة.

(3) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 11.

والمسافر إذا لم يكونا محدثين لا يلزمهما الوضوء ولا التيمم. وقد يذكر حرف «أو» بمعنى الواو، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾[1].

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ معناه: أو جامعتم النساء فلم تجدوا ماء، أي فلم تقدروا على ما تتطهرون به من الجنابة والحدث ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي اقصدوا تراباً نظيفاً ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ اختلف العلماء في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ قال أبو يوسف: معناه التبعيض، أي امسحوا بوجوهكم وأيديكم من بعض الصعيد وهو التراب. وقال أبو حنيفة ومحمد: معنى «من» ههنا ابتداء الغاية، أي فانقلوا اليد بعد وضعها على الصعيد إلى الوجوه والأيدي من غير أن يتخللها ما يوجب الفصل.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي ما يريد اللّه أن يجعل عليكم بتكليف العبادات تضييقاً في الدين، وإنما يريد بذلك أن يطهركم من الذنوب والإحداث والجنابة، كما روي عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**أيما رجل قام إلى وضوئه يريد الصلاة ثم غسل كفيه نزلت خطيئة كفيه مع أول قطرة فإذا تمضمض واستنشق نزلت خطيئة لسانه وشفتيه مع أول قطرة فإذا غسل وجهه ويديه إلى المرفقين ورجليه إلى الكعبين سلم من كل ذنب هو عليه وكان كيوم ولدته أمه**»[2].

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ قال الحسن: بإدخال الجنة. وقال ابن عباس: يجوز التيمم لكم بالتراب في حال عدم الماء لكي تشكروا نعمة اللّه عليكم في رخصته لكم وتخفيفه عليكم في التكليف. قال عثمان رضي اللّه عنه: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «**ما توضأ عبد فأسبغ وضوءه ثم قام إلى الصلاة إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة الأخرى**»[3].

---

(1) سورة الصافات (37)، الآية: 147.

(2) رواه ابن ماجه في سننه: 1/ 103، رقم: 282 ـ والبيهقي في السنن الكبرى: 1/ 81، باب فضيلة الوضوء.

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 3/ 9، رقم: 2728.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾ أي احفظوا نعمة اللّه عليكم. وإنما ذكر بلفظ النعمة لأنه ذهب فيه مذهب الجنس وميثاقه أي عهده الذي عاهدكم به. قال ابن عباس والحسن: يعني الميثاق الذي أخذه اللّه على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه وقال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾[1] وقال السدي: أراد بالميثاق هنا متابعة النبي صلى اللّه عليه وسلم على السمع والطاعة في كل ما أمر به أو نهى عنه في حال العسر واليسر والرضى والكره، وهذا أقرب إلى ظاهر الآية، لأن اللّه تعالى ذكرهم الميثاق وهم لا يحفظون الميثاق الذي من وقت آدم. وقيل: أراد به العهد الوثيق الذي أخذه اللّه على جميع عباده في أوامره ونواهيه فأبقوه وقبلوه وآمنوا به على ما فسره اللّه بقوله: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اخشوا اللّه في نقض الميثاق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما في القلوب من الوفاء والنقض. وذات الصدور: ما تضمنته الصدور وما في القلوب.

قال اللّه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿8﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿9﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿10﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿11﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي كونوا قوامين بأمر اللّه قائلين له مبينين عن دين اللّه بالحق والعدل. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أي لا يحملنكم بغض الكفار على ترك العدل فيه مكافأة لما سلف

---

(1) سورة الأعراف (7)، الآية: 172.

منهم. ويقال: لا يحملنكم عداوة المشهود له على كتمان حاله عندكم من الشهادة ولا عداوة المشهود عليه على إقامة الشهادة عليه بغير حق.

قوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ أي اعدلوا في جميع أقوالكم وأفعالكم فيما لكم وعليكم، فإن العدل أقرب إلى التقوى، أي أقرب إلى أن تصيروا به متقين. وقيل: أقرب إلى تقوى عذاب اللَّه. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الخير والشر والعدل والجور.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي الذين صدقوا بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم والقرآن وعملوا فيما بينهم وبين ربهم، وهنا تمام الكلام. يقال: وعدت الرجل، يراد بذلك وعدته خيراً، ووعدت الرجل، يراد بذلك شراً. فكان وعد اللَّه لهم دليلاً على عدة الخير، ثم فسر ذلك الخير فقال: لهم مغفرة وأجر عظيم، أي مغفرة لذنوبهم وثواب عظيم في الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٠﴾ أي أصحاب النار الموقدة. والجحيم: من أسماء جهنم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما: وذلك أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بعث سرية سبعين رجلاً[1] إلى بني عامر بن صعصعة، وأمر عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري[2]، وكان طريقهم على بني سليم، وكانوا يومئذ صلحاء لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وأمر عليه السلام السرية أن ينزلوا على بني سليم فنزلوا عليهم، فبعث بنو سليم إلى بني عامر وأخبروهم بأمرهم وقتلهم، فارتحل المسلمون من عند بني سليم إلى بني عامر، فأضل أربعة منهم بعيراً لهم فاستأذنوا أميرهم أن يطلبوا بعيرهم ثم يلحقوا بهم

(1) كان بعث السرية في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من غزوة أحد، ذكر ابن إسحاق منهم: الحارث بن الصمة، وحرام بن ملحان، وعروة بن أسماء السلمي، ونافع بن بديل الخزاعي وعامر بن فهيرة. (سيرة ابن هشام: 3/ 183 ـ 184).

(2) المنذر بن عمرو الأنصاري الخزرجي: من بني ساعدة، وكان عقبياً بدرياً، من أكابر الصحابة.
الاستيعاب: 4/ 1449 ـ طبقات ابن سعد: 3/ 91.

فأذن لهم، وسار المنذر بمن بقي معه حتى أتاهم وقد جمعوا لهم واستعدوا بالسلاح فالتقوا ببئر معونة[1] فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم قتل المنذر ومن معه جميعاً[2]، ثم أقبل الأربعة الذين طلبوا البعير فلقيتهم أمة لبني عامر فقالت لهم: أمن أصحاب محمد أنتم؟ قالوا: نعم. قالت: فإن إخوانكم قد قتلوا جميعاً على الماء. فقال أحد الأربعة: ما ترون؟ قالوا: نرى أن نرجع إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فنخبره بالأمر. قال: لا، ولكني واللَّه لأتغذين من غذاء أصحابي، ارجعوا فاقرأوا محمداً صلى اللَّه عليه وسلم مني السلام. ثم أشرف على أصحابه فإذا هم مقتولون والمشركون قعود يتغذون، فانحدر إليهم من الجبل بسيفه فقاتلهم حتى قتل، وغشي الثلاثة المدينة فلقوا رجلين من بني سليم خارجين من المدينة فقالا لهما: من أنتما؟ قالا: من بني عامر. قالوا: هذان من الذين قتلوا إخواننا. فقتلوهما وأخذوا سلبهما، ثم دخلوا المدينة وأخبروا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال: «**بئسما صنعتم قتلتم رجلين من أهل الميثاق**». وجاء أولياء القتيلين يطلبون القصاص، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**ليس لكم، لأن صاحبيكم انتسبا[3] إلى عدونا من بني عامر، ولكنا نؤدي إليكم الدية**». فانطلق رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي حتى أتى بني قريظة فقال لهم: إنكم جيراننا وحلفاؤنا وقد علمتم ما أصبنا به من دم الرجلين من بني سليم وهما من أهل الميثاق، ونحن نريد أن نؤدي ديتهما، فاتخذوا بها عندنا يداً نجزيكم بها بعد اليوم، فإن الأيام دول. فقالوا: مرحباً وأهلاً يا أبا القاسم، ولكن إخواننا من بني النضير لا نقضي أمراً دونهم، نعلمهم بذلك حتى يأتينا يوم كذا وقد جمعنا الذي تريد. فرجع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه، فلما كان يوم الميعاد أتاهم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف فأجلسوهم

---

(1) وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم، وكلا البلدين منها قريب، وهي إلى حرة بني سليم أقرب. (سيرة ابن هشام: 3/ 184).

(2) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 8/ 139، رقم: 4088، كتاب المغازي ـ وذكره البغوي في تفسيره: 2/ 223.

(3) في النسخة (س)، (ف): اعتريا.

في بيت ثم خرجوا يجمعون السلاح، وخلا بعضهم ببعض وقالوا: إنكم لم تجدوا محمداً أقرب من الآن، فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه. فقال عمرو بن جحاش: أنا. فجاء إلى رحى عظيمة ليطرحها عليه، فأمسك اللَّه أيديهم. وقيل: لما جمعوا السلاح وهمُّوا بقتل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه جاء جبريل عليه السلام فأخبر النبي صلى اللَّه عليه وسلم بذلك، فخرج النبي صلى اللَّه عليه وسلم فقام على الباب وإذا هم مجتمعون ينتظرون قدوم كعب بن الأشرف ليهجموا على النبي صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه، فخرج علي رضي اللَّه عنه وإذا هو برسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قائماً على الباب، فقال: يا رسول اللَّه أبطأت علينا وتخوفنا أن يكون قد اغتالك أحد. فقال: «**قد أرادوا ذلك. اللَّهم العنهم**». ثم خرج بقية أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فلحقوا جميعاً بالنبي صلى اللَّه عليه وسلم، فجاءت اليهود فقالوا: يا رسول اللَّه إن قدورنا تغلي نريد أن نطعمك وقد رجعت بغير علمنا. فأخبرهم بما همّوا به وعزموا عليه، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية[1]، ومعناها: يا أيها الذين آمنوا باللَّه وكتبه ورسله احفظوا منة اللَّه عليكم إذ همَّ قوم وهمَّ بنو قريظة أن يبسطوا إليكم أيديهم بالقتل فكفّ أيديهم عنكم بالمنع عن قتلكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ في جميع أمورهم وأحوالهم.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (12)
فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (13)
وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى

(1) الواحدي، أسباب النزول: 157 ـ 158.

أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (14) يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ
جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟
عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ (15) يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ
مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (16)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أي أخذ اللَّه العهد على بني إسرائيل أن يؤمنوا به وبجميع كتبه ورسله، وبعث منهم اثني عشر ملكاً، من كل سبط منهم رجلاً ليأخذ على قومه ما يأمرهم اللَّه به من طاعته. وقيل: إن النقيب هو الرسول والأمين، وهم الذين أرسلهم موسى إلى قرية الجبارين عيوناً فوجدوهم يدخل في كم أحدهم أربعة منهم، ولا يحمل عنقود عنبهم إلا عشرة منهم، ويدخل في شق رمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس أو أربعة، فرجع النقباء كلهم، ونهى كل نقيب سبطه عن القتال إلا يوشع بن نون وكالب بن يوقنا أمرا قومهما بالقتال. وقال الحسن: النقيب الضمين، وإنما أراد بهذا أن يضمن مراعاة أحوالهم، وقد روي أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم جعل على الأنصار ليلة العقبة اثني عشر نقيباً. وفائدة النقيب أن القوم إذا علموا أن عليهم نقيباً كانوا أقرب إلى الاستقامة فالنقيب والعريف نظيران. وقيل: النقيب فوق العريف[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ﴾ خطاب للنقباء. ومعناه إني حفيظ عليكم في النصر لكم والدفع عنكم. وقيل: هو خطاب لجميع بني إسرائيل ضمن لهم النصر على عدوهم بالشرائط التي شرطها عليهم بقوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي عظمتموهم ونصرتموهم بالسيف على الأعداء. ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، أي تصدقتم من أموالكم

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 112 ـ تفسير البغوي: 2/ 224.

تطوعاً صدقة حسنة، وهي أن تكون من حلال المال وخياره برغبة وإخلاص لا يشوبها رياء ولا سمعة، ولا يكدرها منّ ولا أذى ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن﴾ تحت شجرها ومساكنها الأنهار الأربعة، فمن كفر بعد العهد والميثاق منكم فقد أخطأ قصد الطريق وهو طريق الجنة، فمن أضلّه وقع في طريق النار إذ لا طريق سواهما.

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي فبنقض اليهود ميثاقهم الذي أخذ عليهم في التوراة باعدناهم من الرحمة. وقيل: عذبناهم بالجزية. وقيل: مسخناهم قردة وخنازير. ودخول «ما» في هذه الآية صلة زائدة. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً﴾ أي صيرناها يابسة خالية من حلاوة الإيمان مجازاة لهم على معصيتهم. قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي: قسية ـ بتشديد الياء من غير ألف ـ وقرأ الباقون: قاسية ـ بالألف ـ وهما لغتان مثل زكية وزاكية. وقيل: معنى قاسية غليظة متكبرة لا تقبل الوعظ. وقيل: ردية فاسدة من الدراهم القسية وهي المغشوشة[1].

قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ قرأ السلمي والنخعي: يحرفون الكلام ـ بالألف[2] ـ، أي يغيرون ألفاظه، فعلوا ذلك في التوراة كما أخبر اللّه تعالى عنهم من لي ألسنتهم بالكتاب وقيل: يغيرون تأويله.

قوله تعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي وتركوا نصيباً مما أمروا به في كتابهم من نعت محمد صلى اللّه عليه وسلم وصفته ومن رجم الزاني المحصن. وأصل النسيان الترك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي لا تزال يا محمد تطلع على خائنة ومعصية منهم، وفاعله من أسماء المصادر مثل عاقبة وكاذبة، وقد تكون الخائنة من أسماء الجماعة كما يقال: رافض ورافضة، فيكون المعنى:

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 115.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 13.

ولا تزال تطلع على فرقة خائنة منهم مثل كعب بن الأشرف وأصحابه وبني قريظة حين نقضوا العهد وركبوا إلى أبي سفيان بمكة فحالفوه وعاقدوه على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على ما سبق ذكره.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ لم ينقضوا العهد وهم عبد اللّه بن سلام وأصحابه. وقال ابن عباس: يعني قوله خائنة، أي معصية. وقال بعضهم: أي كذب وفجور. وكانت خيانتهم نقض العهد ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهمهم بقتله[1].

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ أي أعرض عنهم ولا تعاقبهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي المتجاوزين. وهذا منسوخ بآية السيف، قوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ بيّن اللّه أن النصارى لم يكونوا بعد أخذ الميثاق أحسن معاملة من اليهود. ومعنى أخذ الميثاق هو ما أخذ اللّه عليهم في الإنجيل من العهد المؤكد باتباع محمد صلى اللّه عليه وسلم وبيان نعته وصفته، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[3] ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي تركوا بعضاً مما ذكروا به ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ أي هيجنا بين فرق النصارى وهم النسطورية واليعقوبية والملكانية، وألقينا بينهم عداوة في الدين، وذلك أن اللّه تعالى رفع الألفة بينهم وألقى بينهم العداوة والبغضاء فهم يقتتلون إلى يوم القيامة. وأصل الإغراء: الإلصاق، مأخوذ من الغراء وهو أن يلصق به الأشياء. والعداوة: تباعد القلوب والنيات. والبغضاء: البغض.

قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أي يخبرهم في

---

(1) تفسير البغوي: 3/ 227.
(2) سورة التوبة (9)، الآية: 29.
(3) سورة الصف (61)، الآية: 6.

الآخرة بما كانوا يصنعون من الجنابة والمخالفة وكتمان بعث محمد صلى اللّه عليه وسلم ونعته وصفته، ثم خاطب اللَّه تعالى الفريقين من اليهود والنصارى فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني التوراة والإنجيل قوله: ﴿تُخۡفُونَ﴾ يعني صفة محمد صلى اللَّه عليه وسلم وآية الرجم. وإضافة اليهود والنصارى إلى الكتاب تعييراً لهم كما يقال: يا عاقل لم تعمل، أي يا جاهل.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ يعني بالنور محمد صلى اللَّه عليه وسلم ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ﴾ أي تكتمون شرائع الإسلام كآية الرجم وتحريم الربا وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ أي يتجاوز عن كثير مما كنتم تكتمونه ولا يعاقبكم عليه، يعني ما لم يؤمر ببيانه.

وقوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ يعني القرآن يبيِّن الحلال والحرام، والأمر والنهي.

قوله تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي يهدي اللَّه بالقرآن من قبل الحق ورغب في الإسلام. وقوله تعالى: ﴿رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ أي رضى اللَّه. وقوله تعالى: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي طرق السلامة وهي دين الإسلام. والإسلام والسلامة كالرضاع والرضاعة. ويقال: السلام هو اللَّه، وسبل السلام طرق اللَّه التي دعا إليها.

قوله تعالى: ﴿وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بإذن اللَّه ومشيئته. وسمي الإيمان نوراً لأن الإنسان إذا آمن أبصر به طريق نجاته فطلبه، وطريق هلاكه فحذره.

قال اللَّه تعالى:

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ

قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾ نزل في نصارى نجران وهم: اليعقوبية قالوا: إن اللّه هو المسيح ابن مريم[(1)].

قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي قل يا محمد من يقدر أن يدفع شيئاً من عذاب اللّه إن أراد اللّه أن يهلك عيسى بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً، وهذا احتجاج من اللّه تعالى على النصارى بما لا يملكون دفعه، إذ كان المسيح وأمه بشرين يأكلان الطعام ويحتاجان إلى ما يحتاج إليه الناس وقد علموا ضرورة أنهما كانا بعد أن لم يكونا، وشاهد كثير منهم ميلاد عيسى وحاله من الطفولة والشباب والكهولة.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي إذا أراد اللّه هلاك عيسى وأمه لما أعجزه ذلك ولا كان هناك دافع، وكيف يكون إلَهاً من لا يقدر على دفع الهلاك عن نفسه ولا عن غيره.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ﴾ أي من كان مالك السموات لا يوصف بالولادة. وقيل: من كان له ملك السموات والأرض يقدر على خلق ولد بلا والد كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ أي كما يشاء بأب وبغير أب. ولو كان خلق المسيح من غير أب موجباً كونه إلَهاً وابنه لكان خلق آدم من غير أب ولا أم أولى بذلك، لأنه أعجب وأبدع.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من خلق عيسى وغيره، قادر على عقوبتكم.

---

(1) البغوي: معالم التنزيل: 2/ 229.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ وذلك أن جماعة من اليهود دخلوا على النبي صلى اللّه عليه وسلم فدعاهم إلى الإيمان ووعدهم وأنذرهم فقالوا: نحن أبناء اللّه وأحباؤه فلا يعذبنا. وكذلك قالت نصارى نجران حين حذرهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عذاب اللّه. وأرادوا بقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾: نحن من اللّه بمنزلة الأبناء للآباء، وقربنا من اللّه كقرب الوالد لولده، وكحب الوالد لولده، وغضب اللّه علينا كغضب الرجل على ولده، والوالد إذا سخط على ولده في وقت رضي عنه في وقت آخر[1].

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي لم يعذب من قبلكم من اليهود والنصارى الذين كانوا أمثالكم في الدين، فمسخهم اللّه في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي لستم بأبناء اللّه ولا أحبائه ولكنكم خلق كسائر الخلق. يغفر لمن هداه للإسلام ويعذب من مات على الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي له القدرة على أهل السماوات والأرض وما بينهما من الخلق والعجائب ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿18﴾﴾ أي إليه مصير من آمن ومن لم يؤمن.

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي يا أهل التوراة والإنجيل قد جاءكم محمد صلى اللّه عليه وسلم يبيّن لكم الحلال والحرام على انقطاع من الرسل ودرس العلم. قال الكلبي: كان بين ميلاد عيسى ومحمد صلى اللّه عليه وسلم خمسمائة وتسعاً وستين سنة، وبينهما أربعة من الرسل في مائة وأربعة وثلاثين سنة[2]. كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 120.

(2) المصدر نفسه.

﴿إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾[1]. قال: ولا أدري الرسول الرابع من هو؟ قال بعضهم: كان بين عيسى ومحمد صلوات اللّه عليهما ستمائة سنة[2].

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ معناه: كيلا يقولوا يوم القيامة ما جاءنا من بشير ولا نذير، أي من بشير يبشر بالجنة ولا مخوف يخوفنا بالنار، فقد جاءكم بشير يبشركم بالجنة إن أطعتموه، ونذير ينذركم بالنار إن عصيتموه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من إرسال الرسل والثواب والعقاب.

قال اللّه تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿20﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿21﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿22﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ معناه: واذكروا يا أهل الكتاب إذ قال موسى لبني إسرائيل احفظوا منة اللّه عليكم إذ أكرم بعضكم بالنبوة وهم السبعون الذين اختارهم موسى وانطلقوا معه إلى الجبل. وإنما منَّ اللّه عليهم بذلك لأن كثرة الأشراف والأفاضل في القوم شرف وفضل لهم، ولا شرف أعظم من النبوة. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي أحراراً تملكون أمر أنفسكم بعد أن كانت تستعبدكم القبط في مملكة فرعون. وقيل: ملوكاً ذوي خدم وأهل ومنازل لا يدخل عليكم فيها إلا بإذن[3].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿20﴾﴾ أي أعطاكم ما لم يعط أحداً من عالمي زمانكم. ويقال: أراد بذلك جميع العالمين، فإنه تعالى

---

(1) سورة يس (36)، الآية: 14.
(2) نسب القرطبي في تفسيره: 6/ 112 هذا القول إلى قتادة.
(3) تفسير البغوي: 2/ 231.

أنزل عليهم المن والسلوى وظللهم بالغمام ولم يؤت أحداً مثل هذه النعمة قبلهم ولا يدخل المستقبل في اللفظ لأن اللفظ خبر عن ما مضى، ولا يدل ذلك على أنه تعالى لم يؤت أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم مثل الفضيلة التي آتاهم أو أكثر. والغرض من هذه الآية أن اللّه تعالى لما أراد أن يكلفهم دخول الأرض المقدسة وكان يشق ذلك عليهم قدم ذكر النعمة عليهم ليكون باعثاً لهم على امتثال أمر اللّه تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن الاثني عشر نقيباً الذين أرسلهم موسى إلى قرية الجبارين جواسيس، لما انتهوا إلى مدينتهم أخذوا فأتي بهم الملك، ويقال أخذهم عوج بن عناق واحتملهم في ثوبه حتى ألقاهم بين يدي الملك، فقيل للملك: إن هؤلاء يزعمون أنهم يفتحون مدينتك ويظهرون عليك. قال: فطوفوا بهم في المدينة فأروهم إياها. فطافوا بهم وكانوا يلعبون بهم حتى إن الرجل منهم ليأتي القدح والسكرجة والقصعة فيدخل واحد منهم تحتها، ثم ردوهم إلى الملك فأراد قتلهم، فقالت امرأته: ماذا يصنع هؤلاء؟ ويكفيهم ما رأوا ردوهم إلى أصحابهم يحدثونهم بما رأوا فأرسلوهم فلما خرجوا قال بعضهم لبعض قد عملتم خلاف بني إسرائيل لموسى وقد وعد اللّه موسى أن يفتح لهم الأرض ولم يخلف اللّه وعده، فهلموا نتحالف أن لا تخبروا أحداً بشيء غير موسى. فتحالفوا فلما خلوا بنسائهم جعلت المرأة تسأل زوجها عن ما رأى فيأخذ عليها المواثيق أن لا تخبر أحداً بما يخبرها، وجعلت المرأة يأتيها أبوها وأمها وأخواتها فتأخذ عليهم المواثيق ثم تخبرهم. فما ارتفع النهار حتى فشا الخبر في البلاد، ولم يخبر يوشع ولا كالب أحد بشيء من أمرهم[(1)]. وإنما أخبر بذلك العشرة، فجمع موسى عليه السلام بني إسرائيل وخطبهم ثم قال: يا بني إسرائيل ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾. وأما قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ قال ابن عباس: هي أرض بيت المقدس. ويقال: هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن. وسميت

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 125.

المقدسة لأنها طهرت من الشرك وجعلت مسكناً وقراراً للأنبياء صلوات اللّه عليهم أجمعين[1]. قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي أمركم بدخولها. وقيل التي كتب اللّه لكم في اللوح المحفوظ أنها لكم مساكن. ويقال: التي وهب اللّه لأبيكم إبراهيم عليه السلام، وجعلها ميراثاً لكم، وذلك أن إبراهيم حين ارتفع على الجبل قيل له: أنظر ملك ما أدرك بصرك، وهو ميراث لولدك من بعدك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ أي لا ترجعوا وراءكم وتجبنوا عن عدوكم منهزمين منهم فتنصرفوا مغبونين بفوت الظفر في الدنيا والعقوبة في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ أي قالت بنو إسرائيل يا موسى إن فيها قوماً عظاماً قتالين ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أو لا ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ حينئذ.

قال اللّه تعالى:

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿23﴾ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿24﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿25﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿26﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي قال يوشع وكالب من الاثني عشر الذين أرسلهم موسى إلى قرية الجبارين، وكانوا يخافون الجبارين ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي هداهما لقبول أمره ومعرفة صدق وعده ﴿ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ أي باب قرية الجبارين وهي أريحاء، فإذا دخلتم ذلك الباب فإنكم غالبون عليهم، لأنهم إذا رأوا كثرتكم انكسرت قلوبهم فتغلبوهم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ

(1) تفسير البغوي: 2/ 231.

فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ أي فوضوا أمركم إليه إن كنتم مؤمنين، أي مصدقين بوعد اللَّه. وفي الآية ثناء على الرجلين إذ لم يمنعهما الخوف من العدو عن قول الحق. وقد روي عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يقول الحق إذا رآه أو علمه فإنه لا يبعد من رزق اللَّه ولا يدني من أجل**»[1].

قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ﴾ وذلك أن موسى لما أمرهم من بعد قول الرجلين أن يدخلوا قرية الجبارين. قالت له بنو إسرائيل: نكذب العشرة ونصدق الاثنين ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا﴾ منتظرون. فقولهم: اذهب أنت وربك يحتمل أنهم قالوا ذلك على وجه المجاز، بمعنى وربك معين لك وكان هذا القول فسقاً منهم لامتناعهم عن المضي إلى أمر اللَّه. وقيل: يحتمل أنهم عنوا بذلك الذهاب ذهاب النقلة، وهذا تشبيه وكفر من قائله، وهو أقرب إلى معنى كلامهم، لأن كلام اللَّه تعالى خرج مخرج الإنكار عليهم والتعجيب من جهلهم. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه لما أراد الخروج إلى بعض الغزوات استشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في ذلك فقالا: إنا لن نقول لك مثل ما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ ولكنا نقول: اذهب فقاتل عدوك إنا معك مقاتلون[2]. وفي بعض الروايات قالا: اقعد أنت فإنا بأمرك مقاتلون. وقال المقداد بن الأسود: إنا واللَّه لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ ولكنا نقول: نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، ولو خضت بنا البحر لخضناه معك، ولو علوت جبلاً لعلوناه معك. فأشرق وجه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لذلك وسره[3].

---

(1) رواه ابن ماجه في سننه: 2/ 1328، رقم: 4007 ـ والبيهقي في شعب الإيمان: 6/ 90، رقم: 7572.

(2) نسبه ابن إسحاق إلى المقداد بن عمرو، قاله حين استشار الرسول صلى اللَّه عليه وسلم في غزوة بدر الكبرى. (السيرة النبوية، لابن هشام: 2/ 615).

(3) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 234.

قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾. قال ابن عباس: وذلك أن موسى عليه السلام عزف من مقالة قومه وكان رجلاً حديداً، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾ ولا أملك إلا أخي يعني لا يطيعني من هؤلاء إلا أخي هارون فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين، أي اقض وافصل بيننا وبين القوم العاصين. وكانت عجلة عجلها موسى عليه السلام فأوحى اللّٰه إلى موسى: لم يعصني هذا الشعب؟ وإلى متى لا يصدقون بالآيات؟ لأهلكنهم ولأجعلن لك شعباً أشد وأكثر منهم. فقال موسى: إلٰهي لو أنك أهلكت هذا الشعب من أجل أنهم لم يستطيعوا أن يدخلوا هذه الأرض فتقتلهم في البرية وأنت عظيم عفوك كثير نقمتك وأنت تغفر الذنوب فاغفر لهم. فقال اللّٰه تعالى: قد غفرت لهم بكلمتك ولكن بعدما سميتهم فاسقين ودعوت عليهم فإني حلفت لأحرمن عليهم دخول الأرض المقدسة، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ أي يتحيرون في الأرض[1]. وقيل: إن قول موسى: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ كان سؤالاً منهم الفرق في الحقيقة دون القضاء، وكان دعاؤه منصرفاً إلى الآخرة، أي أدخلنا الجنة إذا أدخلتهم النار، ولم يعن بذلك في الدنيا، لأنه لو عنى بذلك لأجاب اللّٰه تعالى دعاءه وأهلكهم جميعاً، لأن دعاء الأنبياء لا يرد من أجل أنهم يدعون بأمر اللّٰه تعالى. ويقال: كان هذا دعاء راجعاً إلى الدنيا وقد أجاب اللّٰه تعالى دعاءه، لأنه عاقب قومه في التيه، ولم يكن موسى وهارون محبوسين في التيه، لأن الأنبياء عليهم السلام لا يعذبون. قال الحسن: لا يجوز أن يكون موسى معهم فيها لا حياً ولا ميتاً، ولا يجوز إذا عذب اللّٰه قوم نبي إلا أن ينجي ذلك النبي ومن آمن معه. ويقال: إن هذا الدعاء كان من موسى عند الغضب، لأنه عنى به الحقيقة. ألا ترى أنه ندم على دعائه وجزع من تحريم قرية الجبارين عليهم جزعاً شديداً حتى قيل له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 15.

قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي قال اللّه تعالى فإن الأرض المقدسة محرمة عليهم، إنهم ممنوعون من دخولها أربعين سنة. وأصل التحريم المنع. قال اللّه تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[1] وأراد به المنع.

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يتحيرون. قال ابن عباس: يتحيرون في ستة فراسخ أربعين سنة، كانوا يسيرون أول النهار فيمسون في مكانهم، ويسيرون من أول الليل فتدور بهم الأرض فيصبحون في مكانهم[2]. وقال الحسن: عمي عليهم السبيل وأخفي عليهم الأعلام التي يهتدون بها إلى الطريق، فلم يستطيعوا الخروج منها. وذهب بعضهم إلى أن قوله تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ﴾ منصوب بيتيهون قالوا: وكانت الأرض المقدسة حراماً على أولئك القوم الذين عصوا اللّه عزّ وجلّ أبداً، ولم يبق منهم أحد بعد أربعين سنة، إنما بقي يوشع بن نون وكالب. وقيل: مات من النقباء العشرة الذين أفشوا الخبر ثمانية وكان جميعهم ستمائة[3] ألف مقاتل، فكان كل من دخل التيه ممن جاوز عشرين سنة مات في التيه غير يوشع وكالب، ولم يدخل أريحاء ممن قالوا: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾ أحد، ومات موسى وأخوه هارون حين انقضى التيه.

وفاة هارون عليه السلام: قال السدي: أوحى اللّه إلى موسى أني متوف هارون فأت به جبل كذا. فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فإذا هما بشجرة لم ير مثلها، وإذا سرير عليه فرش وريح طيبة. فلما نظر هارون إلى ذلك أعجبه فقال: يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير. قال له: نم عليه. فلما نام عليه جاءه ملك الموت فقال: يا موسى قد خدعتني. فلما توفي ذهبت تلك الشجرة ورفع السرير إلى السماء. فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل وليس معه هارون قالوا: فإن موسى قتل هارون وحسده على حب بني إسرائيل إياه. فقال لهم موسى: ويحكم أفتروني أقتل أخي؟ فلما أكثروا عليه صلى

---

(1) سورة القصص (28)، الآية: 12.
(2) تفسير البغوي: 2/ 235.
(3) في النسخة (ف): سبعمائة.

ركعتين ثم دعا، فنزل السرير حتى نظروا إليه فصدقوه[1]. وقال عمرو بن ميمون[2]: مات هارون في بعض الكهوف فدفنه موسى ورجع إلى بني إسرائيل فقالوا: وأين هارون؟ قال: مات. قالوا: لا. ولكنك قتلته لحبنا إياه. فتضرع موسى إلى ربه وشكا ما قال بنو إسرائيل، فأوحى اللَّه إليه: انطلق بهم إلى قبره فأنا باعثه حتى يخبرهم بأنه مات. فانطلق بهم إلى قبر هارون فناداه يا هارون، فخرج من قبره ينفض التراب عن رأسه، فقال موسى له: أنا قتلتك؟ قال: لا ولكني ميت. قال: فعد إلى مضجعك. وانصرفوا[3].

وفاة موسى عليه السلام: قال أبو هريرة: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجب ربك. فلطم عين ملك الموت ففقأها، فرجع ملك الموت قال: يا رب إنك أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت فقأ عيني. فرد اللَّه عليه عينه وقال له: ارجع إلى عبدي وقل له: إن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما دارت عليه من شعرة فلك بها سنة. قال: ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن من قريب. قال: رب أدنيني من الأرض المقدسة قدر رمية حجر**». فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**واللَّه لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر**». قال محمد بن يحيى: قد صح حديث ملك الموت وموسى عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لا يرده إلا كل مبتدع. كذا في تفسير الثعلبي[4]. وفي حديث آخر أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال: «**إن ملك الموت كان يأتي الناس عياناً، حتى أتى موسى عليه السلام ليقبضه فلطمه ففقأ عينه، فجاء ملك الموت بعد ذلك خفية**». وقال وهب: خرج موسى لبعض حوائجه فمر برهط من الملائكة يحفرون قبراً لم ير أحسن منه نظرة وبهجة فقال: يا ملائكة اللَّه، لمن

---

(1) تفسير البغوي: 2/ 235.

(2) أبو عبد اللَّه عمرو بن ميمون الأودي. روى عن عمر وعبد اللَّه بن مسعود، وسمع معاذ بن جبل والربيع بن خثيم وغيرهم. توفي سنة أربع وسبعين هجرية.
الطبقات الكبرى: 6/ 172.

(3) تفسير البغوي: 2/ 236 ـ 237 بنصه تقريباً.

(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 16.

هذا القبر؟ قالوا: لعبد كريم على ربه. فقال: ما رأيت مضجعاً أحسن من هذا. قالوا: يا كليم اللَّه، أتحب أن يكون لك؟ قال: وددت. قالوا: فانزل فاضطجع فيه. ففعل ذلك ثم تنفس فقبض اللَّه روحه، ثم سوت عليه الملائكة التراب. فيروى أن يوشع رآه بعد موته في المنام فقال: كيف وجدت الموت؟ قال: كشاة تسلخ وهي حية. وكان عمر موسى مائة وعشرين سنة[1]. فلما مات موسى عليه السلام، وقد كان استخلف يوشع. سار يوشع بالناس حتى انتهوا إلى مدينة الجبارين وحاصروهم، فلما كان يوم الجمعة وكادت الشمس تغرب توضأ وصلى ودعا ربه وسأله أن ينجز له ما وعده، وذكر أن الشمس تغرب وليلة السبت لا يقاتل فيها. فردّ اللَّه الشمس حتى كانت إلى مقدار صلاة الظهر. فجمع يوشع بني إسرائيل وجعل في كل سبط منهم شبوراً فصاحوا بشبابيرهم ودخلوا مدينة أعدائهم فقتلوهم حتى إن الثمانين رجلاً من أصحاب يوشع كانوا يقعدون على الرجل ويجزون رأسه فما يطيقونه من عظمه، وكان طول كل واحد من الجبارين ثمانين ذراعاً، وكان موسى عليه السلام قد قتل عوج بن عنق قبل ذلك، وكان طوله ثلاثة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع. قاله ابن عمر رضي اللَّه عنهما، وكان يحتجن السحاب ويشرب منه ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس ويأكله. ويروى أن طوفان نوح عليه السلام غسل جميع جبال الدنيا وما بلغ إلا إلى ركبتيه، وعاش عوج ثلاثة آلاف سنة وستمائة سنة، وأهلكه اللَّه على يد موسى عليه السلام. وسبب ذلك أنه كان محطة عسكر موسى فرسخاً في فرسخ فجاء عوج حتى نظر إليهم ثم جاء الجبل وقد منه صخرة على قدر العسكر ثم حملها ليطبقها عليهم، فبعث اللَّه طيراً حتى قور الصخرة بمنقاره فانتقبت فوقعت في عنق عوج فطوّقته فصرعته، وأقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع، ووثب عشرة أذرع إلى جهة السماء فما أصاب إلا كعبه وهو مصروع فقتله[2]. وأقبل جماعة كثيرة معهم السكاكين والخناجر حتى حزوا رأسه وكانت أمه عنق،

---

(1) تفسير البغوي: 2/ 237 ـ 238.

(2) ذكر القرطبي في تفسيره: 6/ 126 ـ 127 كل هذه الروايات، وقال محققه في الهامش: «كل ما ذكره المؤلف في هذا المقام من الإسرائيليات التي لا يعول عليها».

ويقال لها عناق، وكانت إحدى بنات آدم عليه السلام، وهي أول امرأة زنت على وجه الأرض، وكان كل أصبع من أصابعها ثلاثة أذرع وعرضها ذراعين، وفي كل أصبع ظفران مثل المخلبين، وكان موضع مجلسها من الأرض حزيناً، فلما زنت بعث اللَّه عليها أسوداً كالفيلة وذئاباً كالإبل، ونموراً كالحمر وسلطهم عليها فأكلوها.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ
ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿27﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي
مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿28﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ
بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿29﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ
أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿30﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ
يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ
فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿31﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ معناه: واقرأ يا محمد على قومك خبر ابني آدم بالصدق، إذ وضعا على الجبل قرباناً. والقربان: ما يتقرّب به إلى اللَّه تعالى. وقيل معناه: واقرأ على أولاد هؤلاء الذين تقدم ذكرهم من أهل الكتاب حتى يقروا برسالتك. قوله تعالى: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا﴾ أي قبل القربان من أحدهما ولم يقبل من الآخر. ومعنى القبول: إيجاب الثواب. قال ابن عباس: وذلك أن حواء كانت تلد في كل بطن ولدين ذكراً وأنثى إلا شيثاً فإنها ولدته منفرداً، فولدت أول بطن قابيل وأخته إقليمياي، ثم ولدت في البطن الثاني هابيل وأخته ليوذا، فلما أدركوا أمر اللَّه آدم أن يزوج قابيل أخت هابيل، وهابيل أخت قابيل. فرضي هابيل وكره قابيل، لأن أخته كانت أحسنهما. فقال آدم: ما أمر اللَّه إلا بهذا يا بني ولا تحل لك. فأبى أن يقبل وقال: إن اللَّه لم يأمر بهذا وإنما هو من رأيك. فقال لهما: قربا قرباناً فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بها. وكان هابيل صاحب غنم وقابيل صاحب حرث. فقرب هابيل كبشاً سميناً ولبناً

وزبداً، وقرب قابيل سنبلاً من شر زرعه وأضمر في قلبه: ما أبالي أيقبل مني أم لا؟ لا يتزوج أختي أبداً. وأضمر هابيل في نفسه الرضى للَّه عز وجل. فوضعا قربانيهما على الجبل فنزلت نار من السماء فما أكلت شيئاً من السنبل بعدما دنت منه، ثم أكلت الكبش واللبن والزبد فذلك[1].

قوله تعالى: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ فنزلوا من الجبل وتفرقوا، وكان آدم عليه السلام معهم، فذهب هابيل إلى غنمه وذهب قابيل إلى زرعه غضبان وأظهر الحسد لهابيل وقال: يا هابيل لأقتلنك. قال: ولم ذلك؟ قال: لأن اللَّه تعالى قبل قربانك ورد قرباني، وتنكح أختي الحسنة وأنكح أختك القبيحة، فيتحدّث الناس أنك خير مني. قال هابيل: ما ذنبي في ذلك؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي من الزاكية قلوبهم الذين يخافون على حسناتهم أن لا تقبل، ولم تكن أنت زاكي القلب فردّ اللَّه قربانك لخبث نيتك. وقيل: أراد بالمتقين الذين يتقون الشرك. قال ابن عباس: كان قابيل كافراً. وفي أكثر الروايات أنه كان رجل سوء. قال الحسن: كان الرجل إذا أراد أن يقرب القربان تعبد وتاب وتطهر من الذنوب ولبس الثياب البيض، ثم قرب وقام يدعو اللَّه فإن قبل اللَّه قربانه جاءت نار فأكلته، وذلك علامة القبول، وإن لم تجئ نار فذلك علامة الرد.

قوله تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ أي قال هابيل مجيباً لقابيل: لئن مددت يدك إلى القتل ما أنا بالذي أمد يدي إليك لأقتلك ظلماً. قال قابيل: ولم ذلك؟ قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بقتلك ظلماً. واختلف العلماء في وقت مولد قابيل وهابيل، قال بعضهم: غشي آدم حواء بعدما هبط إلى الأرض بمائة سنة فولد له قابيل وتوأمته في بطن، ثم بعد ذلك البطن هابيل وتوأمته. قال ابن عباس: ولم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً[2]. وقال بعضهم: كان آدم يغشى حواء في الجنة فحملت بقابيل وتوأمته فلم تجد عليهما وحماً ولا وصباً ولا طلقاً ولا نفاساً لطهر

---

(1) ذكره البغوي في تفسيره: 2/ 239 ـ 240.

(2) تفسير القرطبي: 6/ 135.

الجنة، فلما هبطا إلى الأرض تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته، فوجدت عليهما الوحم والوصب والطلق والدم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ أي قال هابيل لقابيل: إن كنت تريد قتلي فلا ترجع عني فإني أريد أن ترجع إلى اللّه بإثم دمي وإثم ذنبك الذي من أجله لم يتقبل قربانك فتكون من أصحاب النار في الآخرة ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿29﴾﴾ أي وذلك عقوبة من لم يرض بحكم اللّه تعالى.

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ أي طاوعته نفسه. وقيل: زينت له قتله فقتله. قال السدي: لما قصد قابيل قتل هابيل أتاه في رأس جبل وهو نائم وغنمه ترعى فأخذ صخرة فشدخ بها رأسه فمات. وقال الضحاك: كان قابيل لا يدري كيف يقتله حتى جاء إبليس وبيده حية فوضعها بين حجرين فرضخ رأسها بالحجر وقابيل ينظر، فلما نظر ذلك جاء إلى هابيل فلم يزل يضرب بالحجارة على رأسه حتى قتله، وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة[1]. واختلفوا في موضع قتله، قيل: قتل على جبل ثور، وقيل: بالبصرة. فلما مات هابيل قصدته السباع لتأكله، فحمله قابيل على ظهره حتى أروح وعكف الطيور والسباع حواليه تنتظر متى يرمي به فتأكله، فبعث اللّه غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفيرة وواراه وقابيل ينظر إليه[2]. ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾. وعن ابن عباس قال: لما قتل قابيل هابيل رجع إلى أبيه قبل أن يدفنه، فلما أبطأ هابيل قال آدم عليه السلام: يا قابيل أين أخوك؟ قال: ما رأيته وكأني به أرسل غنمه في زرعي فأفسده فلعله خاف أن يجيء من أجل ذلك. قال: وحست نفس آدم فبات ليلته تلك محزوناً، فلما أصبح قابيل غدا إلى ذلك الموضع فإذا هو بغراب يبحث في الأرض على غراب ميت ليواريه. وقيل: بعث اللّه الغراب إكراماً لهابيل، وكان الغراب يحثي التراب على هابيل ليرى قابيل كيف يواريه، أي كيف يغطي عورته. وفي الخبر أنه قتله وسلبه ثيابه وتركه

---

(1) تفسير البغوي: 2/ 241 ـ 242.
(2) تفسير القرطبي: 6/ 139.

عرياناً. ويقال: أراد بالسوءة جسد المقتول، سماه سوءة لأنه لما بقي على وجه الأرض تغير وأنتن. والسوءة في اللغة عبارة عن كل شيء مستكره.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي صار من المغبونين بالوزر والعقوبة. قال الكلبي: كان قابيل أول من عصى الله في الأرض من ولد آدم، وهو أول من يساق إلى النار. وقال مقاتل: كان قبل ذلك تستأنس السباع والطيور والوحوش، فلما قتل قابيل هابيل نفروا فلحقت الطيور بالهواء والوحوش بالبرية والسباع بالغياض، وشاك الشجر، وتغيّرت الأطعمة، وحمضت الفواكه، واغبرت الأرض[1]. وقال المطلب المخزومي[2]: لما قتل هابيل رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام[3]. وقال سالم بن أبي الجعد[4]: مكث آدم عليه السلام حزيناً على قتل ولده هابيل مائة سنة لا يضحك[5].

قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أي أرسل الله غراباً يثير التراب على غراب آخر ميت بمنقاره ورجليه. فلما أبصر قابيل الغراب يبحث في الأرض، دعا بالويل على نفسه فقال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ والويل كلمة تستعمل عند الوقوع في الشدة والهلكة.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ يحتمل أنه ندم ندم توبة عن جميع ما قال وما فعل. ويحتمل أنه ندم على ترك مواراة سوءة أخيه، فإن كانت الأولى فالله تواب رحيم، وإن كانت الثانية فإثم القتل في عنقه. قال ابن عباس: لو

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 139.

(2) المطلب بن عبد الله بن المطلب بن حنطب المخزومي: كان كثير الحديث، ولا يحتج بحديثه لأنه يرسل عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً. قال ابن حجر: صدوق كثير الإرسال.
الطبقات الكبرى: 5/ 331 ـ تهذيب التهذيب: 10/ 178 ـ الجرح والتعديل: 8/ 359.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 17.

(4) سالم بن أبي الجعد الغطفاني: كان ثقة كثير الحديث، لأنه كان يكتب. توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومائة هجرية.
الطبقات الكبرى: 6/ 29.

(5) تفسير القرطبي: 6/ 139.

كانت ندامته على قتله لكانت توبة منه[1]. وقيل: إنه إنما ندم لأنه لم ينتفع بقتله ولم يحصل له مراده، فكان ندمه لأجل ذلك لا بقبح فعله. ولو كان ندمه تقرباً إلى اللَّه عزّ وجلّ لقبلت توبته. قال ابن عباس: فقال اللَّه تعالى لقابيل: كن خائفاً أبداً لا ترى أحداً إلا خفت منه أن يقتلك. قال: وكان كل من رأى قابيل رماه بالحجارة، فأبصره بعض ولد ولده فرماه بالحجارة حتى قتله. ويقال: كان على جبل فنطحه ثور فوقع إلى سفح الجبل فتفرقت أوصاله. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل**»[2]. قال مقاتل: وتزوج شيث بإقليمياء. وقال الضحاك: لما قتل قابيل هابيل حمله على ظهره ولم يدر كيف يصنع به، فمكث ثلاثة أيام يحمله على ظهره لا يدري ما يصنع به. فبعث اللَّه غرابين يقتتلان فقتل أحدهما صاحبه ثم أخذ يحفر في الأرض وأخذ برجل الغراب القتيل وألقاه في الحفيرة فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

قال اللَّه تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿32﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿33﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿34﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي من أجل ذلك القتل

---

(1) المصدر السابق.
(2) ذكره البغوي في سنده في تفسيره: 2/ 244.

الذي عرفه بنو إسرائيل واشتهر عندهم فرضنا وأوجبنا عليهم في التوراة ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي من أن وجب عليه القود أو بغير فساد الأرض نحو الشرك وقطع الطريق والزنى عند الإحصان ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي استوجب النار بقتل النفس الواحدة كما يستوجبها من قتل الناس جميعاً. وقيل: معناه أن على الناس كلهم معرفة ولي القتيل حتى يفديه، ويكون كلهم خصماً للقاتل حتى يقاد. وقيل: إن المراد به استحقاق القتل عليه بقتل النفس الواحدة. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ أي من استنقذ نفساً من غرق أو من حرق أو مما يميتها لا محالة أو استنقذها من كفر أو ضلال فأحياها بالنعيم الدائم في الجنة أو عفا عن دمها بعدما وجب عليه القصاص استوجب الجنة كما استوجبها من أحيا الناس جميعاً. وعن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**من سقى مؤمناً شربة من ماء والماء موجود فكأنما أعتق سبعين رقبة، ومن سقاها في غير موطنها فكأنما أحيا نفساً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً**»(1).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ أي لقد جاءت بني إسرائيل رسلنا بالأوامر والنواهي والعلامات الواضحات، ثم إن كثيراً منهم بعد أن جاءتهم الدلائل والمعجزات في الأرض لمسرفون مشركون تاركون أوامر اللَّه تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وادع أبا بردة هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومن أتاه من المسلمين فهو آمن، ومن أتى المسلمين منهم فهو آمن، ومن مرّ بهلال بن عويمر إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فهو آمن لا يهاج. فمرّ قوم من بني كنانة يريدون الإسلام على قوم من أسلم من قوم هلال، ولم يكن هلال يومئذ حاضراً فخرج أصحابه إليهم فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فبلغ ذلك رسول اللَّه

(1) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 19.

صلى اللَّه عليه وسلم، فأنزل اللَّه فيهم هذه الآية[1]، ومعناها: إنما جزاء الذين يحاربون أولياء اللَّه ورسوله ويسعون في الأرض بالفساد نحو القتل والنهب والتخريب وقطع الطريق أن يقتلوا إن قتلوا أحداً ولم يأخذوا المال أو يصلبوا مقتولين إن قتلوا وأخذوا، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف اليد اليمنى من الرسغ والرجل اليسرى من الكعب إن أخذوا المال ولم يقتلوا أحداً، أو ينفوا من الأرض إن أخافوا الطريق ولم يفعلوا سوى ذلك. واختلفوا في معنى النفي، قال بعضهم: يعني الحبس. وقال بعضهم: هو الطلب الدائم حتى لا يستقر بهم مكان. والتوفيق بين القولين: أنهم إن أخذوا بعدما أخافوا الطريق أودعهم الإمام السجن حتى يتوبوا أو يموتوا، وإن لم يؤخذوا أمر بطلبهم وأمر أن ينادى في الناس أن من قتلهم لا سبيل عليه. وإنما سمي الحبس نفياً لأنه يمنع المحبوس من التردد والتصرف في الأرض، ويكون ذلك بمنزلة النفي من الأرض. واختلفوا في كيفية الصلب مع القتل، قال أبو حنيفة: يصلب حياً ليرى الناس ويروه، ويكون ذلك زيادة عقوبة له، ثم تبعج بطنه بالرمح يطعن في خاصرته حتى يموت.. وقال أبو يوسف والشافعي: يقتل ثم يصلب.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي فضيحة في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أعظم من هذا. وقال مقاتل وسعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في قوم من بني عرنة قدموا المدينة على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وبايعوه على الإسلام، وهم كذبة وليس يريدون الإسلام، فاجتووا المدينة وعظمت بطونهم واصفرت وجوههم، فأمرهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن يخرجوا إلى إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا ذلك حتى صحوا ثم قتلوا الرعاة واستاقوا الإبل وارتدوا عن الإسلام فصاح الصائح: يا خيل اللَّه اركبي. فركبوا لا ينتظر فارس فارساً فأسرعوا في طلبهم، وبعث رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم علي بن أبي طالب كرَّم اللَّه وجهه في طلبهم فجاؤوا بهم فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمل أعينهم وتركهم بالحرة حتى ماتوا، فأنزل اللَّه هذه الآية[2] فصارت عامة في قطاع الطريق ناسخة

---

(1) ذكره البغوي في تفسيره: 2/ 246.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 158.

تسميل العين. وقال الليث بن سعد: نزلت هذه الآية معاتبة لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وتعليماً له عقوبتهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ ولم يكن جزاؤهم هذه المثلة التي هي السمل. فقام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم خطيباً ونهى عن المثلة[1].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ معناه: أن يقتلوا أو يصلبوا إلا الذين تابوا من قطع الطريق من قبل أن يقدر الإمام عليهم، فاعلموا أن اللَّه غفور لعباده رحيم بعد التوبة. روى الشعبي أن حارثة بن بدر خرج محارباً في عهد علي رضي اللَّه عنه فأخاف السبل وسفك الدماء وأخذ الأموال، ثم جاء تائباً، فأتى الحسن بن علي فطلب إليه أن يستأمن له علياً كرَّم اللَّه وجهه فأبى، فأتى عبد اللَّه بن جعفر فأبى عليه، فأتى سعد بن قيس الهمداني فقبله وضمه إليه. فلما صلى علي رضي اللَّه عنه صلاة الغداة أتاه سعد بن قيس الهمداني فقال: يا أمير المؤمنين ما جزاء الذين يحاربون اللَّه ورسوله؟ قال: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ قال: ما تقول فيمن تاب من قبل أن يقدر عليه؟ قال: أقول كما قال اللَّه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿34﴾﴾ فقال سعد بن قيس: وإن كان حارثة بن بدر؟ قال: نعم. فجاء به إليه فبايعه وأمنه وكتب إليه أماناً ومنشوراً، فقال حارثة:

ألا أبلغا همدان إما لقيتما ∴ على البأس لا يسلم عدو يعيبها

لعمرو أبيها إن همدان تتّقي ∴ الإله ويقضي بالكتاب خطيبها

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿35﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿36﴾

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 19.

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (37) وَٱلسَّارِقُ
وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38) فَمَن
تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (39) أَلَمْ تَعْلَمْ
أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (40)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا اخشوا عذاب اللّه واجتنبوا معاصيه واطلبوا إليه القربة بالأعمال الصالحة وجاهدوا أعداء اللّه في طاعته ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لعلكم تظفرون بعدوكم في الدنيا، وتنجوا من النار في العقبى. والوسيلة: القربة وهي فعيلة من توسل إلى فلان بكذا، أي تقرّب إليه، وجمعها وسائل. قال الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا ∴ وعاد التصافي بيننا والوسائل[1]

وقال عطاء: الوسيلة أفضل درجات الجنة. قال صلى اللّه عليه وسلم: «**سلوا اللّه لي الوسيلة**». [قيل: يا رسول اللّه وما الوسيلة؟][2] قال: «**أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا عبد واحد، وأرجو أن أكون أنا هو**»[3].

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ وفي الآية إزالة لطمع الكفار عن التخلص من عذاب الآخرة، يقول: لو ماتوا على الكفر وكان لهم ما في الأرض جميعاً من الأموال بأسرها وضعفه معه ليشتروا به أنفسهم من عذاب اللّه ما يتقبل ذلك الفداء منهم لو فادوا، ولهم عذاب وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم.

---

(1) ابن عطية في تفسيره: 5/ 94، فقد أنشده.
(2) ما بين المعقوفين ساقط من النسخة (ف).
(3) الطحاوي في شرح معاني الآثار: 1/ 143.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ قيل: معناه كلما رفعتهم النار بلهيبها تمنوا أن يخرجوا منها، يقول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم لا ينقطع.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ قال ابن عباس: نزلت في طعمة بن أبيرق سارق الدرع، وقد مضت قصته في سورة النساء، ثم صارت عامة في جميع الناس[1]. ومعنى الآية: والسارق من الرجال والسارقة من النساء فاقطعوا أيديهما أي أيمانهما. هكذا تأوله ابن عباس. وفي قراءة ابن مسعود: فاقطعوا أيمانهما. وقرأ عيسى بن عمر: والسارق والسارقة ـ بالنصب[2] ـ على إضمار: اقطعوا السارق والسارقة، كما يقال: زيداً اضربه. والقراءة المختارة الرفع، لأن القطع على الأيدي لا على السارق. وقال المبرد: ليس القصد من الكلام إلى واحد بعينه، وإنما معناه: من سرق فاقطعوا يده بخلاف قولك: زيداً اضربه. ولو أراد سارقاً بعينه لكان وجه الكلام النصب، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾[3] ولو أراد زانياً بعينه لكان النصب، وإنما ذكر أيديهما بلفظ الجمع لأنه أراد أيمانهما، لأن ما كان واحداً من واحد فتثنيته بلفظ الجمع، ومثل ذلك: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[4]. والإضافة إلى الاثنين يدل على أن المراد به التثنية دون الجمع. فإن قيل: لأي معنى قدم اللَّه ذكر السارق على السارقة، وقدم ذكر الزانية على الزاني؟ قيل: لأن السرقة في الرجال أكثر، والنساء هن أصل الفتنة للرجال بالتعريض لهم. ولو لزمت المرأة بيتها كما أمر اللَّه تعالى لم تقع هي ولا الرجال في الزنا. واختلفوا في كم تقطع يد السارق من المال الذي سرقه؟ فقال بعضهم: في عشرة دراهم فصاعداً، ولا تقطع فيما دون ذلك. وإليه ذهب أبو حنيفة

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 159.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 20.
(3) سورة النور (24)، الآية: 2.
(4) سورة التحريم (66)، الآية: 4.

وأصحابه. وقال سليمان بن يسار: لا تقطع الخمس إلا في خمس دراهم. وقال مالك: تقطع في ثلاثة دراهم فصاعداً. وقال الأوزاعي[1] والشافعي: في ربع دينار فصاعداً. وقال بعضهم: تقطع في القليل والكثير، ولو كان دانقاً. وهو قول ابن عباس. وقال بعضهم: في درهم[2]. ولو قطع السارق ثم عاد فسرق قطعت رجله اليسرى، فإن سرق ثالثاً قال أبو حنيفة وأصحابه: لا يقطع لما روي أن علياً كرّم اللّه وجهه أتي بسارق فقطع يده اليمنى، ثم أتي به مرة أخرى فقطع رجله اليسرى، ثم أتى به ثالثة فضربه وحبسه وقال: إني أستحيي من اللّه أن لا أدع له يداً يستنجي بها ولا رجلاً يمشي بها[3].

قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ أي عقوبة لهما على ما فعلا. وانتصب «جزاء» لأنه مفعول له كأنه قال: فاقطعوهما لجزاء فعلهما.

وقوله تعالى: ﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي عقوبة وفضيحة من اللّه. والنكال: هو أن ينكل به ليعتبر به غيره فينكل أن لا يفعل مثل فعله.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ أي منيع بالنقمة من السارق ذو حكمة فيما حكم من القطع لما في ذلك من زجر السراق وردعهم عن عبثهم صيانة لأموال الناس. وظاهر الآية: يقتضي وجوب القطع على السارق في القليل والكثير وهو قول الخوارج. إلا أنه قد ورد عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**لا قطع في أقل من عشرة دراهم**»[4]. وبه أخذ أصحابنا. وروي عن علي وابن مسعود مثل قولنا. وعن عمر أنه قال: لا تقطع الخمس إلا في خمس[5]، أي الخمس الأصابع لا تقطع إلا في خمسة دراهم. وعن عائشة رضي اللّه عنها

---

(1) أبو عمرو، عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي: إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتاب المترسلين. ولد في بعلبك ونشأ في البقاع وسكن بيروت. عرض عليه القضاء فأبى له كتاب السنن في الفقه، والمسائل. توفي في بيروت سنة سبع وخمسين ومائة هجرية.
تذكرة الحفاظ: 1/ 178 ـ حلية الأولياء: 6/ 135 ـ شذرات الذهب: 1/ 241.

(2) تنظر هذه الأقوال في: تفسير القرطبي: 6/ 160 ـ 161.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 21.

(4) رواه الدارقطني في سننه: 3/ 193.

(5) رواه النسائي في سننه: 8/ 75.

أنها قالت: لا قطع إلا في ربع دينار[1]. وهو قول الشافعي. وقال عبد اللَّه بن عمر: ثلاثة دراهم[2].

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾ أي من تاب من السراق من بعد سرقته وأصلح العمل فيما بينه وبين اللَّه تعالى فإن اللَّه يتوب عليه، أي يتجاوز عنه ولا يؤاخذه به في الآخرة. ولا تقطع يده إذا ردَّ المال قبل المرافعة إلى الحاكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ بمن مات على التوبة. وأما إذا رفع إلى الحاكم ثم تاب فالقطع واجب، فإن كانت توبته حقيقية كان ذلك زيادة له، كما أن اللَّه تعالى ابتلى الصالحين والأنبياء بالبلايا والمحن والأمراض زيادة لهم في درجاتهم، وإن لم تكن توبته حقيقية كان الحد عقوبة له عن ذنبه وهو مؤاخذة في الآخرة إن لم يتب. وعن عبد اللَّه بن عامر قال: سرقت امرأة على عهد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فجاءوا بها إليه فقالوا: يا رسول اللَّه إن هذه المرأة سرقتنا. فقال قومها: نحن نفديها. فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**اقطعوا يدها**». فقالوا: نحن نفديها بخمسمائة مثقال. فقال: «**اقطعوا يدها**». فقطعت يدها اليمنى، فقالت المرأة: هل من توبة يا رسول اللَّه؟ قال: «**نعم، إن التوبة تخرجك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك**». فأنزل اللَّه هذه الآية[3]: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾ الآية... وعن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية[4] تستعير المتاع وتجحده، فأمر النبي صلى اللَّه عليه وسلم بقطع يدها، فأتى أهلها أسامة فكلموه، فكلم النبي صلى اللَّه عليه وسلم فقال: «**يا أسامة لا أراك تكلمني في حد من حدود اللَّه تعالى**». ثم قام خطيباً فقال: «**إنما هلك من قبلكم بأنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف قطعوه. والذي نفسي بيده لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها**». فقطع يد المخزومية[5].

(1) رواه البخاري في صحيحه: 14/ 50، رقم: 6789، كتاب الحدود.
(2) المصدر نفسه: 14/ 51، رقم: 6795، كتاب الحدود.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 21.
(4) فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد المخزومية: أسلمت وبايعت. الطبقات الكبرى: 8/ 206.
(5) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 14/ 38، رقم: 6788، كتاب الحدود.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له القدرة على أهل السموات والأرض. والخطاب للنبي صلى اللَّه عليه وسلم.

وقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي يعذب من يشاء على الذنب الصغير وهو عدل منه، ويغفر لمن يشاء العظيم وهو فضل منه، أي يعذب من توجب الحكمة تعذيبه ويغفر لمن توجب الحكمة مغفرته ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (41)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي لا يحزنك يا محمد فعل الذين يسارع بعضهم بعضاً في الإقامة على الكفر والحثّ عليه. قرأ نافع: يحزنك ـ بضم الياء[1] ـ ومعناهما واحد. وقرأ السلمي: يسرعون في الكفر[2]. وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ وهم المنافقون ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي ومن يهود المدينة الذين هم أهل الصلح للنبي صلى اللَّه عليه وسلم، وفي هذا تسلية للنبي صلى اللَّه عليه وسلم وتثبيت لفؤاده بوعده النصرة والظفر، وإعلام أن المنافقين واليهود لا يضرونه.

قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي قائلون للكذب،

---

(1) ذكر القرطبي في تفسيره: 6/ 181 هذه القراءة.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 21.

يعني بني قريظة ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ يعني يهود خيبر، ذلك أن رجلاً وامرأة من أشراف أهل خيبر زنيا وكانت خيبر حرباً لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وكان الزانيان محصنين، وكان حدهما الرجم في التوراة، فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما وقالوا: إن هذا الرجل الذي في يثرب ليس في كتابه الرجم ولكنه الضرب، فأرسلوا إلى إخوانكم بني قريظة فإنهم صلح له وجيرانه فيسألونه عن ذلك. فبعثوا رهطاً منهم مستخفين وقالوا لهم: اسألوا محمداً عن الزانيين المحصنين ما حدهما؟ فإن أمركم بالجلد فاقبلوا منه وإن أمركم بالرجم فاحذروه ولا تقبلوا منه. وأرسلوا الزانيين معهم، فقدم الرهط إلى بني قريظة والنضير وقالوا: اسألوا لنا محمداً عن قضائه. فقال لهم بنو قريظة: إذا واللَّه يأمركم بما تكرهونه. ثم انطلق منهم قوم مثل: كعب بن الأشرف وكعب بن أسيد وشعبة بن عمر ومالك بن الصيف وعازوراء وغيرهم، وقالوا: يا محمد أخبرنا عن الزانية والزاني إذا أحصنا ما حدهما؟ وكيف تجد في كتابك؟ فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**وهل ترضون بقضائي في ذلك؟**» قالوا: نعم. فنزل جبريل عليه السلام بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به، فقال جبريل عليه السلام: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا. ووصفه له. فقال لهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدك؟**» قالوا: نعم. قال: «**فأي رجل هو فيكم؟**» قالوا: هو أعلم من على وجه الأرض من اليهود بالتوراة. قال: «**فأرسلوا إليه**». ففعلوا فأتاهم ابن صوريا فقال له النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «**أنت ابن صوريا؟**» قال: نعم. قال: «**أنت أعلم اليهود؟**» قال: كذلك يزعمون. قال: تجعلونه بيني وبينكم؟ قالوا: نعم، قد رضينا به إذا رضيت به. فقال له النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «**أنشدك باللَّه الذي لا إلّه إلا هو القوي إلّه بني إسرائيل الذي أنزل التوراة على موسى، والذي فلق لكم البحر فأنجاكم وأغرق آل فرعون، والذي ظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى، هل تجدون في كتابكم الرجم على من أحصن؟**» قال ابن صوريا: نعم، والذي ذكرتني به ولولا خشية أن تحرقني التوراة إن كذبت أو غيرت لما اعترفت لك، ولكن كيف في كتابك يا محمد؟ قال: «**إذا شهد أربعة عدول أنه أدخل فيها كما يدخل الميل في المكحلة وجب عليه**

الرجم». قال ابن صوريا: والذي أنزل التوراة على موسى لهكذا أنزل على موسى. فقال له قومه: ما أسرع ما صدقته، ما كنت لما أثنينا عليك بأهل، وما أنت بأعلمنا. فقال لهم: أنشدني بالتوراة، ولولا خشية التوراة أن تهلكني ما أخبرته، وخفت إن كذبته أن ينزل بنا عذاب شديد. فأمر رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم برجم اليهوديين الزانيين وقال: «**أنا أول من أحيا سنة إذا أماتوها**»[1]. فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾[2] فلا يخبركم به. فقال ابن صوريا: أنشدك باللّٰه يا محمد أن تخبرنا بالكثير الذي أمرت به أن تعفو عنه. فأعرض رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم، فقال ابن صوريا: أخبرنا عن ثلاث خصال. فقال: «**ما هن؟**» قال: أخبرني عن نومك؟ قال: «**تنام عيناي وقلبي يقظان**». قال: صدقت، فأخبرني عن شبه الولد بأبيه وليس فيه من شبه أمه شيء وعن شبه أمه وليس فيه من شبه أبيه شيء؟ قال: «**أيهما علا وسبق ماؤه ماء صاحبه كان الشبه له**». قال: صدقت. قال: فأخبرني ما للرجل من الولد وما للمرأة من الولد؟ قال: «**للمرأة اللحم والدم والظفر والشعر، وللرجل العظم والعصب والعروق**». قال: صدقت. فأسلم ابن صوريا حينئذ، وقال: يا محمد من يأتيك من الملائكة بالوحي؟ قال: «**جبريل**». قال: صفه لي؟ فوصفه النبي صلى اللّٰه عليه وسلم فقال: أشهد أنه في التوراة كما قلت وأنك رسول اللّٰه. فلما أسلم ابن صوريا شتموه.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ أي من يرد اللّٰه بليته وعقوبته وفضيحته فلن تقدر يا محمد أن تدفع عنه شيئاً مما أراد اللّٰه به.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ أي أهل هذه الصفة لم يرد اللّٰه أن يفتح قلوبهم ليبصروا الحق. وقيل معناه: ليطهر قلوبهم من عقوبات الكفر مثل: الختم والطبع والضيق، كما شرح صدور المسلمين وطهر قلوبهم بكتابة الإيمان فيها. وقال الحسن: لم يرد اللّٰه أن يطهر قلوبهم،

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 22 ـ تفسير القرطبي: 6/ 177 ـ الواحدي، أسباب النزول: 159.
(2) سورة المائدة (5)، الآية: 15.

أي لا تبرأ قلوبهم من الكبر وهم مقيمون على دينهم واعتقادهم ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي فضيحة بما أظهر اللَّه من كذبهم. وقيل: أراد بالخزي القتل والسبي والجزية ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أعظم مما في الدنيا.

قال اللَّه تعالى:

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿42﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿43﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿44﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أول هذه الآية راجع إلى صفة اليهود والمنافقين الذين سبق ذكرهم، والفائدة في إعادة وصفهم بسماعين للكذب بيان أنهم إنما يستحقون الخزي والعذاب بإصرارهم على الكذب واستماعه وضمهم إلى ذلك السحت. واختلفوا في المراد بالسحت، فقال ابن مسعود والحسن أراد به الرشوة على الحكم. وقال علي وأبو هريرة: هو الرشوة على الحكم، ومهر البغي، وعسب الفحل، وحلوان الكاهن، وثمن الخمر[1]. والسحت: اسم لما لا يحل أخذه. وأصل السحت في اللغة: من الهلاك، يقال: سحته وأسحته إذا استأصلته، ومنه قوله تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾[2] أي يهلككم. وسمي الحرام سحتاً لأنه يؤدي إلى الهلاك والاستئصال. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به**»[3]. قيل: ما السحت يا رسول اللَّه؟ قال: «**الرشوة في الحكم**». وعن

---

(1) رواه النسائي في سننه: 7/ 274.
(2) سورة طه (20)، الآية: 61.
(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 5/ 56، رقم: 5759.

مسروق عن ابن مسعود قال: الرشوة سحت. قلت له: أفي الحكم؟ قال: لا، ذاك الكفر. ثم قرأ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وأراد بهذا استحلال الرشوة وجحد الحق. والرشوة تنقسم على وجوه: منها الرشوة على الحكم وذلك حرام على الراشي والمرتشي، لأنه لا يخلو إما أن يرشي ليحكم له الحكام بحقه فيكون المرتشي آخذاً للأجرة على ما هو فرض عليه، ويكون الراشي محاكماً إلى من لا يصلح للحكم ولا ينفذ حكمه، وإما أن يرشي ليقضى له بما ليس له بحق فيكون الإثم أعظم ويفسق الحاكم من وجهين وكذلك الراشي. وقد روي عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**لعن اللّه الراشي والمرتشي والرائش**»[1]. وأراد بالرائش الذي يمشي بينهما. ومنها الرشوة في غير الحكم كما روي عن وهب بن منبه أنه قيل له: الرشوة حرام في كل شيء قال: لا، إنما يكره أن ترشي لتعطى ما ليس لك أو تدفع حقاً لزمك. فأما أن ترشي لتدفع عن دينك ودمك ومالك فليس بحرام، وإنما الإثم على القابض[2]. قرأ عاصم ونافع وحمزة وابن عامر: للسحت ـ بضم السين وسكون الحاء ـ وقرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائي بضمهما جميعاً. وقرأ العباس[3]: للسحت ـ بفتح السين وسكون الحاء ـ وقرأ عبيد بن عمير: للسحت ـ بكسر السين وسكون الحاء[4] ـ وكله بمعنى واحد وهو الحرام. وقيل: يقال رجل مسحوت المعدة: إذا كان أكولاً لا يلقى أبداً إلا جائعاً. قيل: نزلت هذه الآية في حكام اليهود: كعب بن الأشرف وأمثاله، كانوا يرتشون ويقضون لمن يرشوهم. وعن الحسن في قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ قال: ذلك الحاكم يستمع كذبه ويأخذ رشوته فيكون الحاكم قد سمع دعواه الكاذبة

---

(1) رواه الترمذي في سننه: 4/ 565، رقم: 13511 ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 775، رقم: 2313 ـ والبيهقي في شعب الإيمان: 4/ 390، رقم: 5503.

(2) ذكر القرطبي في تفسيره: 6/ 183 ما روي عن وهب بن منبه.

(3) أبو الفضل، العباس بن الفضل بن عمرو الواقفي: أستاذ حاذق وقارىء مجيد، قاضي الموصل. روى القراءة عرضاً وسماعاً على أبي عمرو بن العلاء، وروى القراءة عن خارجة بن مصعب عن نافع. توفي سنة ست وثمانين ومائة هجرية.
ابن الجزري، غاية النهاية: 1/ 353.

(4) مكي، الكشف: 1/ 408 ـ تفسير القرطبي: 6/ 184.

وأكل رشوته. وروي أن مسروقاً تشفع لرجل في حاجة فأهدى له جارية فغضب غضباً شديداً وقال: لو علمت أنك تفعل هذا ما تكلمت في حاجتك ولا أتكلم فيما بقي من حاجتك. سمعت ابن مسعود رضي اللّه عنه يقول: من شفع في حاجة ليرد بها حقاً أو يدفع بها ظلماً فأهدي له شيء فهو سحت. فقيل له: يا أبا عبد الرحمن ما كنا نرى ذلك إلا أخذ الرشوة على الحكم. فقال: الأخذ على الحكم كفر. قال اللّه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾. وإذا ارتشى الحاكم انعزل من ساعته وإن لم يعزل[1]. ومن السحت: ثمن الخمر، والخنزير، والميتة، وعسب الفحل، وأجرة النائحة والمغنية، والساحر، وهدية الشفاعة، ومهر البغي، وحلوان الكاهن. هكذا قال عمر وعلي وابن عباس رضي اللّه عنهم. وقال ابن كيسان: سمعت الحسن يقول: إذا كان لك على رجل دين فأكلت في بيته فهو سحت.

قوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وذلك أن اليهود لما أرادوا أن ينهضوا من عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعد قصة الزنا، تعلقت بنو قريظة ببني النضير فقالوا: يا محمد إخواننا بنو النضير، أبونا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد، إذا قتلوا منا قتيلاً أعطونا سبعين وسقاً من تمر، وإذا قتلنا منهم قتيلاً أخذوا منا أربعين ومائة وسق، وجراحاتنا على النصف من جراحاتهم. فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**دم القرظي وفاء بدم النضيري**». فأنزل اللّه تعالى هذه الآية: فإن جاءك الفريقان كلهم راضين بحكمك فاحكم بينهم بما أنزل اللّه وإن شئت فأعرض عنهم. وقيل: معناه فإن جاءك أهل خيبر في حكم الزنا فاقض بينهم بالرجم في هذه الحادثة وفي نظيرها من الحوادث التي تقع من بعد أو أعرض عنهم ولا تحكم بينهم. خيَّره اللّه تعالى بين أن يحكم بينهم وبين أن يعرض عنهم، وهذا التخيير منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ معناه: وإن تعرض عن

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 22.
(2) سورة المائدة (5)، الآية: 49.

الحكم والقضاء بينهم لا يضرك غضبهم عليك لإعراضك عنهم، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط، أي بالعدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي العادلين.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي كيف يرضون بحكمك؟ وعندهم التوراة فيها حكم الرجم والقصاص وغير ذلك ثم يعرضون عن العمل بها من بعد البيان الذي في كتابهم ليسوا بمصدقين لما عندهم يزعمون أنهم مؤمنون بالتوراة وهم كاذبون. وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء اليهود كانوا لا يحكمون النبي صلى اللّه عليه وسلم بحكم يرضي العباد، ولولا طلبهم الرخص واتباع ما لا يفتي به كتابهم لما جاؤوا.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي أنزلنا التوراة على موسى فيها بيان من الضلالة ونور لمن آمن به يقضي به النبيون الذين أخلصوا، وهذه صفة الأنبياء لا أن فيهم من لم يخلص كما يقال: صلى اللّه على محمد وعلى آله الطيبين لا يراد بذلك أن في آله غير طيبين. والمراد بالنبيين: موسى وعيسى ومحمد صلى اللّه عليهم أجمعين وغيرهم من الأنبياء الذين كانوا من وقت موسى إلى وقت نبينا عليهم السلام. ويقال: أراد بالنبيين محمداً صلى اللّه عليه وسلم فإنه كالنائب عن أنبياء بني إسرائيل في أن يحكم في الزنا بينهم بحكم التوراة. وقيل: معنى الذين أسلموا، أي انقادوا لأحكام اللّه لا على أن غيرهم من النبيين لم يكونوا مسلمين. وقيل: معنى أسلموا أي صاروا إلى السلامة، كما يقال: أصبحوا وأمسوا إذا دخلوا في الصباح والمساء. وقيل: معنى الذين أسلموا أنفسهم إلى اللّه، كما روي أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان يقول إذا آوى إلى فراشه: «**أسلمت نفسي إليك**». قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ يعني اليهود. وقيل: معنى الآية للذين تابوا من الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾(1).

قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ هم العلماء العاملون يربون العلم، أي يقومون به. والأحبار: سائر العلماء دون الأنبياء والربانيين. وإنما سمي العالم حبراً لكثرة ما يكتب بالحبر. ويقال: هو من التحبير وهو تحسين العلم وتقبيح الجهل.

---

(1) سورة الأعراف (7)، الآية: 156.

قوله تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ من الرجم وسائر الأحكام ﴿وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ إنه كذلك. ومعنى استحفظوا: استودعوا.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ خطاب لعلماء اليهود، أي لا تخشوا السفلة والجهال في إظهار نعت النبي صلى اللّه عليه وسلم وإظهار الرجم، واخشوا عقابي في كتمانهما ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تختاروا عرضاً يسيراً من الدنيا فإن الدنيا وما فيها قليل.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ذهبت الخوارج إلى أن معنى الآية: ومن لم يحكم بما أنزل اللّه وحكم بخلافه كان كافراً بفعل ذلك اعتقاداً كان أو غير ذلك وكفروا بذلك كل من عصى اللّه تعالى بكبيرة أو صغيرة فأداهم ذلك إلى الضلال والكفر بتكفيرهم الأنبياء صلوات اللّه عليهم بصغائر ذنوبهم. وأما عامة أهل الإسلام فقالوا إن المراد بهذه الآية أن من جحد شيئاً مما أنزل اللّه مثل ما فعله اليهود من التحريف والتبديل وإنكار بعض آيات من كتاب اللّه تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي أهل هذه الصفة بمنزلة الكفر بالكتب والرسل كلها. يدل على هذا أنه لا خلاف أن من لم يقض بينهم بما أنزل اللّه لا يكفر بأن لم يحكم، لأن أكثر الناس بهذه الصفة، والحاكم بين الناس في كثير لا يحكم. فإذا صلح للخوارج أن يريدوا في ظاهر اللفظ فيقولوا معناه: من لم يحكم بما أنزل اللّه وحكم بخلافه صلح لغيرهم أن يقولوا معناه: ومن لم يحكم بصحة ما أنزل اللّه فأولئك هم الكافرون. وهذا عام في اليهود وغيرهم.

قال اللّه تعالى:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (45) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (47)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الجراحات التي كانت بين بني قريظة والنضير، كان لبني النضير فضل على بني قريظة في الدية والدم ضعف ما كان لبني قريظة، فأنزل اللّه هذه الآية[1]، ومعناها: وأوحينا إلى بني إسرائيل في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ يعني أن نفس القاتل بنفس المقتول وفاء، ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ تفقأ بها، ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ يجدع به، ﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ تقطع بها، ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ تقلع بها. وخفف نافع الأذن في جميع القرآن وثقله غيره[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ﴾ أي يجري فيها القصاص. والقصاص: عبارة عن المساواة، وهذا مخصوص فيما يمكن القصاص فيه، فأما ما كان من رضة أو هشمة لعظم أو هدة ركن لا يحيط العلم به ففيه أرش أو حكومة. قرأ الكسائي: والعين ـ رفعاً إلى آخره ـ وكذلك قوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ﴾ رفعه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر، ونصبوا سائر الحروف[3]. فعليه قالوا، لأن لها نظائر في القرآن منها قوله: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَۙ وَرَسُولُهُۥۚ﴾[4] و﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5] و﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ﴾[6]. وقرأ نافع وعاصم وحمزة وخلف كلهم بالنصب[7].

قوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ﴾ أي من عفا عن مظلمته في الدنيا فهو كفارة للجارح لا يحد بها في الآخرة، كما أن القصاص كفارة

(1) تفسير القرطبي: 6/ 191.
(2) ابن مجاهد، كتاب السبعة: 244.
(3) نفس المصدر.
(4) سورة التوبة (9)، الآية: 3.
(5) سورة الأعراف (7)، الآية: 128.
(6) سورة الجاثية (45)، الآية: 32.
(7) ابن مجاهد، السبعة: 244.

له، وأما أجر العافي فعلى اللَّه. قال اللَّه تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1] وهذا قول إبراهيم ومجاهد وزيد بن أسلم ورواية عن ابن عباس. وقيل: معناه فهو كفارة للمجروح وولي القتيل، وهو قول ابن عمر والحسن والشعبي وقتادة وجابر وابن زيد. ودليل هذا قوله صلى اللَّه عليه وسلم: «**من تصدق من جسده بشيء كفر اللَّه عنه بقدره من ذنوبه. فمن عفا كان عفوه كفارة لذنوبه يعفو عنه اللَّه ما سلف من ذنوبه**»[2]. وأما الكافر إذا عفا لا يكون عفوه كفارة له مع إقامته على الكفر. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من أصيب بشيء من جسده فتركه للَّه كان كفارة له**». وروي أن رجلاً طعن رجلاً على عهد معاوية رضي اللَّه عنه فأعطوه ديتين على أن يرضى فلم يرض، فحدث رجل من أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**من تصدق بدم فما دونه كان كفارة له من يوم ولد إلى يوم تصدق**». فتصدَّق به[3]. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**ثلاث من جاء بهن يوم القيامة مع الإيمان دخل الجنة من أي أبواب الجنة شاء، وتزوج من الحور العين حيث شاء: من عفا عن قاتله ومن قرأ دبر كل صلاة مكتوبة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ عشر مرات، ومن أدى ديناً خفياً**». قال أبو بكر رضي اللَّه عنه: أو إحداهن يا رسول اللَّه؟ قال: «**أو إحداهن**»[4]. فأما القصاص في العين فلا يجب إلا إذا ضربها رجل فأذهب ضوءها وهي قائمة فإنه يشد العين الأخرى وحوالى العين التي يجب فيها القصاص من الضارب بثوب أو قطن مبتل، وتجيء مرآة وتقرب إلى العين حتى يذهب ضوءها، وأما إذا قلعها فلا قصاص فيها لتعذر استيفائه على المماثلة، لأنا لا نعلم للقلع حداً معلوماً ينتهي إليه، وهذا كمن قطع قطعة لحم من فخذ رجل أو ذراعه فإنه لا يجب القصاص. وأما الأنف فمعناه: إذا قطع المارن، وهو ما لان منه وجب فيه القصاص، وإن قطعه من أصله فلا قصاص فيه لأنه عظم لا يمكن استيفاؤه على المساواة، كمن قطع يد رجل من نصف الساعد.

---

(1) سورة الشورى (42)، الآية 40.

(2) ذكره البغوي بسنده في تفسيره: 2/ 262.

(3) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 24.

(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 24.

وعن أبي يوسف أن الأنف إذا استوعبت ففيها القصاص، وكذلك الذكر واللسان. وأما الأذن فمعناه: إذا استوفيت بالقطع، وأما إذا قطع بعضاً فلا قصاص فيها. وأما السن فمعناه: القلع ككسر البعض، لأن القلع يمكن استيفاؤه على المساواة، ولا يجوز استيفاء اليمنى باليسرى ولا اليسرى على اليمنى وإن تراضيا على ذلك، لأنه لا مساواة بينهما. وأما المساواة في النفس فلا تشترط. ألا ترى أن الرجل يقتل بالمرأة، فعلم أن التساوي بين الرجل والمرأة في الأنفس غير معتبر في القصاص، وفي الأطراف معتبر. ولهذا لا يجري عندنا بين الرجل والمرأة في الأطراف قصاص، ولا بين الحر والعبد لعدم التساوي بين الطرفين في البدل وكذلك بين العبد والعبد لا يمكن معرفة التساوي بين أطرافهما في البدل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ يعني التي لها حد معلوم مثل: الموضحة ونحوها، وأما ما ليس له حد معلوم لا يمكن مراعاة التساوي فيه، ففيه الأرش دون القصاص.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ الآية.. أي اتبعنا النبيين الذين ذكرناهم بعيسى عليه السلام وجعلناه ممن يقفوهم. يقال: قفوت أثر فلان إذا اتبعته. وحقيقة التقفية: الإتيان بالشيء قفا غيره. وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ نصب على الحال من عيسى كان مصدقاً بالكتاب الذي أنزل قبله وهو التوراة. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي أعطيناه الإنجيل فتهدى من الضلالة وبيان الأحكام.

قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ نعت للإنجيل، أي أعطيناه ذلك كتاباً فيه هدى ونور ومصدقاً، أي وموافقاً لما تقدمه من التوراة. وهدى، أي بياناً لنعت النبي صلى الله عليه وسلم وصفته ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي نهياً للذين يتقون الفواحش والكبائر.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ أي وليقض أهل الإنجيل، وهذا جزاهم بالأمر، أي قلنا لهم احكموا بما أنزل الله في الإنجيل. قال الكلبي: بيّن الله حكم الرجم على الزاني المحصن، وحكم القصاص في

النفس، والأطراف، وحكم القطع على السارق في التوراة والإنجيل، وفيما أنزل اللَّه على نبينا محمد صلى اللَّه عليه وسلم. وجميع هذه الكتب يصدق بعضها بعضاً. قرأ الأعمش وحمزة: وليحكم ـ بكسر اللام وفتح الميم ـ أي آتيناه الإنجيل لكي يحكم. وقرأ الباقون بسكون اللام والميم[1]. قال مقاتل: أمر اللَّه الربانيين أن يحكموا بما في التوراة، وأمر القسيسين والرهبان أن يحكموا بما في الإنجيل، فكفروا وكذبوا بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم، وقالوا العزير ابن اللَّه والمسيح ابن اللَّه[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي ومن لم يقض بما أنزل اللَّه في كتبه على رسله فأولئك هم الخارجون عن أمر اللَّه.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ (49) أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي وأنزلنا إليك يا محمد القرآن بالصدق وموافقاً لما تقدم من الكتب في التوحيد، وبيان الحق من الباطل ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي أميناً ومؤتمناً على ما قبله من الكتب. ويقال: شاهداً على الكتب كلها، وهذا وصف خاص للقرآن دون ما سواه. فأصل مهيمن: مؤيمن على وزن مفيعل من الأمانة، إلاّ أن الهاء أبدلت من

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 24.
(2) تفسير البغوي: 2/ 263.

الهمزة، كما قالوا: أرقت الماء وهرقت الماء، وإياك وهياك، وهيهات وأيهات. ونظير المهيمن: مسيطر. قال الشعبي والكسائي ورواية الوالبي عن ابن عباس[1]: معنى قوله ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ أي شاهداً. قال الشاعر:

إن الكتاب مهيمن لنبينا ∴ والحق يعرفه ذوو الألباب[2]

أي شاهداً. وقال ابن جبير وأبو عبيدة والحسن: أميناً، وهي رواية العوفي عن ابن عباس[3]. وأمانة القرآن أنه أمين على ما قبله من الكتب فيما أخبر به أهل الكتاب في كتبهم، فإن كان ذلك في القرآن فصدقوا وإلا كذبوا. وقال الضحاك: مهيمناً أي قاضياً. وقال عكرمة: دالاً. وقال ابن زيد: مصدقاً. وقال الخليل: رقيباً وحافظاً. يقال: هيمن فلان على كذا إذا شاهده وحفظه. تقول العرب للطائر إذا طار حول وكره: هيمن الطير يهيمن، وكذلك يقال للطائر إذا أرخى جناحيه وألبسهما بيضه وفرخه ورفرف على فرخه صيانة له ومنه قيل للّه عزّ وجلّ المهيمن، أي الرقيب الرحيم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾ أي احكم في الزاني والزانية بالرجم. ويقال: أحكم بين بني قريظة وبني النضير في الجراحات التي بينهم بالتسوية بين الفريقين ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ أي لا تتبع مرادهم عما جاءك من الحق.

قوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ أي لكل نبي منكم يا معشر الأنبياء فرائض وسنن. والشرعة والشريعة هو التخلص إلى الجنة كشريعة الأنهار والحياض في الدنيا هو التخلص إلى الشرب والاستقاء منه. وأصل الشرعة من قولهم: شرع فلان يشرع شروعاً إذا دخل في الأمر دخولاً ظاهراً. ويقال: إن الشرعة والمنهاج كلاهما الطريق. والطريق ههنا الدين، وقد يعبر عن الشيء الواحد بلفظين مختلفين تأكيداً للكلام. وقال المبرد: الشرعة ابتداء الطريق،

---

(1) تفسير البغوي: 2/ 264.
(2) نسب هذا البيت لشاعر الرسول صلى اللّه عليه وسلم حسان بن ثابت: تقدمت ترجمته. (تفسير البغوي: 2/ 264 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 24 ـ تفسير القرطبي: 6/ 210).
(3) تفسير القرطبي: 6/ 210.

والمنهاج الطريق المستمر. ويقال: معنى المنهاج الدلائل الواضحة التي يستدل بها على الفرائض من كتاب وسنّة. وقيل: معناه لكل جعلنا منكم سبيلاً وسنّة. والمنهاج: الطريق البيِّن الواضح. قال المفسرون: عنى بذلك جميع أهل الملل المختلفة، جعل اللَّه لكل أمة شرعة ومنهاجاً، فلأهل التوراة شريعة، ولأهل الإنجيل شريعة، ولأهل القرآن شريعة يحل فيها ما يشاء ويحرم فيها ما يشاء، فالدين واحد والشرائع مختلفة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي لجعلكم على أمر واحد في دعوة جميع الأنبياء ولكن ليبلوكم، أي ولكن ليختبركم فيما أعطاكم من الكتب وفيما أمركم به من السنن والشرائع المختلفة، فيبين من يطيع اللَّه ومن يعصيه.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي بادروا يا أمة محمد صلى اللَّه عليه وسلم إلى الخيرات والطاعات والأعمال الصالحة. قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك**»[1].

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي إلى اللَّه مرجع من آمن ومن لم يؤمن، فيجزيكم يوم القيامة بما كنتم فيه تختلفون من أمر الدين والشريعة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ معناه: أنزلنا إليك الكتاب بالحق وبأن تحكم بين اليهود بما أنزل اللَّه من رجم الزاني المحصن، والقصاص بين الوضيع والشريف، ولا تعمل بأهوائهم في الجلد وترك الرجم، ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ أي أن يستنزلوك عن بعض ما بيَّن اللَّه في كتابه. قال ابن عباس: وذلك أن يهود بني النضير مثل ابن صوريا وكعب بن أسيد وغيرهما قالوا فيما بينهم: اذهبوا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر. فأتوه فقالوا له: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وساداتهم، وأنا إن اتبعناك اتبعك اليهود كلهم ولن يخالفونا، وإن بيننا وبين

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 7/ 263، رقم: 10248، باب في الزهد.

قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فاقض لنا عليهم فنؤمن بك. فأبى النبي صلى اللّه عليه وسلم، وكان حريصاً على إسلامهم، فأنزل اللّه[1]: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾ أي إن أعرضوا عن حكمك فاعلم أنما يريد اللّه أن يعاقبهم بالقتل من بني قريظة، والجلاء إلى الشام من بني النضير ﴿بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾ أي بما سلف من ذنوبهم وهو جحودهم لدينك ونعتك وصفتك في التوراة والإنجيل. ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ أي خارجون عن الطاعة ناقضون للعهد.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾. قرأ ابن عامر: تبغون ـ بالتاء ـ وقرأ الباقون بالياء[2]. ومعنى الآية: أتطلبون من حكم الزنا والقصاص وأنتم أهل الكتاب شيئاً لم ينزله اللّه عليكم ما يفعله أهل الجاهلية. وأي أحد أعدل في الحكم من اللّه تعالى ﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أي من الفريقين لم عدل اللّه في حكمه؟

قال اللّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (51) فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ (52) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ (53) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (54)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ وذلك أنه لما

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 161 ـ البغوي، معالم التنزيل: 2/ 266.
(2) أبو عمرو الداني، التيسير في القراءات السبع: 99.

كانت وقعة أحد خاف أناس من المسلمين أن يظهر عليهم الكفار، فأراد من كان بينه وبين اليهود والنصارى صحبة أن يتولوهم ويعاقدوهم، فنهاهم اللَّه عن ذلك[1]. ومعنى الآية: لا تتخذوا اليهود والنصارى أحباء في العون والنصرة، بعضهم على دين بعض ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ إذا تولاه لأجل كفره صار كافراً مثله، وأما إذا تولاه لا لأجل كفره صار من جملة المستحقين لعذاب اللَّه لمخالفته أمر اللَّه ولموالاته من أوجب اللَّه عليه أن يعاديه. وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في أبي لبابة[2] حين قال لبني قريظة حين رضوا بحكم سعد: إنه الذبح[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يرشد اليهود والنصارى إلى دينه وحجته ما داموا على كفرهم.

قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ وذلك أن المنافقين كانوا يوادون يهود عرينة ونصارى نجران لأنهم كانوا أهل ريف وكانوا يجيرونهم ويقرضونهم. فقال المنافقون: كيف نقطع مودة قوم إن أصابتنا سنة واحتجنا إليهم وقفوا علينا في المنازل وعرضوا علينا الثمار إلى القابل؟ فنزل قوله تعالى[4]: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي ترى يا محمد الذين في قلوبهم شك ونفاق يبادرون إلى ولاية الكفار ومعاقدتهم ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي شدة وجدوبة. ويقال: أراد بهذا القول أنهم يخشون أن لا يتم أمر محمد صلى اللَّه عليه وسلم بأن يدور الأمر على الحالة التي هي عليهم فيحتاجون إلى الكفار. يقول اللَّه تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ أي عسى أن يظهر المسلمون وعسى من اللَّه واجب. ويسمى النصر فتحاً، لأن فيه فتح الأمر المغلق.

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 161 ـ 162 ـ تفسير البغوي: 2/ 266 ـ 267.

(2) أبو لبابة، بشير بن عبد المنذر: أحد النقباء الذين شهدوا العقبة وبدراً وأحداً وغيرها من المشاهد مع النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلا تبوك. توفي في خلافة علي بن أبي طالب. الاستيعاب: 4/ 1470 ـ أسعد الغابة: 5/ 254 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 457.

(3) تفسير البغوي: 2/ 267 ـ تفسير القرطبي: 6/ 216.

(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 25.

قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ معناه: أو يقضي بالنصر لمحمد صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه. يقال: هو أن يؤمر النبي صلى اللَّه عليه وسلم بإظهار المنافقين وقتلهم، فيصبح المنافقون على ما أضمروا في أنفسهم من ولاية اليهود والنصارى نادمين فلا تنفعهم الندامة حينئذ.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ قرأ أهل الكوفة: ويقول ـ بالواو والرفع على الاستئناف ـ. وقرأ أهل البصرة بالنصب والواو عطفاً على أن يأتي. وقرأ الباقون برفع اللام وحذف الواو[1]. ومعنى الآية: يقول المؤمنون المخلصون عندما يظهر اللَّه نفاق المنافقين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ يعنون المنافقين الذين حلفوا باللَّه إنهم لمعكم على دينكم، حبطت أعمالهم وبطل ما أظهروه من الإيمان والأعمال الصالحة، فصاروا مغبونين في الوزر والعقوبة.

قوله تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ تفسير للقسم باللَّه تعالى فإن من يحلف باللَّه فقد بذل جهد يمينه، إذ لا يمين أعظم من اليمين باللَّه، ولا حرمة أكبر من حرمة اللَّه. قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما: فجاء اللَّه بالفتح ونصر الرسول صلى اللَّه عليه وسلم وجاء أمر اللَّه من عنده بإجلاء بني النضير وقتل بني قريظة وسبي ذراريهم، فندم المنافقون حين ظهر نفاقهم، وقال المؤمنون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾[2]؟

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾. قرأ أهل المدينة والشام: يرتدد ـ بدالين[3] ـ. وفي الآية تهديد لمن لا ثبات له على الإيمان. قال ابن عباس: هم أسد وغطفان وأناس من كندة ارتدوا بعد وفاة النبي صلى اللَّه عليه وسلم في عهد أبي بكر رضي اللَّه عنه، وكان من المرتدين فرقة يقال لهم بنو حنيفة باليمامة ورئيسهم مسيلمة الكذاب،

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 411 ـ ابن خالويه، الحجة: 131.
(2) تفسير القرطبي: 6/ 218.
(3) مكي، الكشف: 1/ 412.

وكان ادعى النبوة في حياة النبي صلى اللَّه عليه وسلم في آخر سنة عشر، وزعم أنه أشرك مع محمد صلى اللَّه عليه وسلم في النبوة، وكتب إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم: من مسيلمة الرسول إلى محمد صلى اللَّه عليه وسلم. أما بعد، فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك. وبعث بذلك رجلين من أصحابه: نهشل والحكم بن الطفيل، وكانا من سادات اليمامة، فقال لهما النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «**أتشهدان أن مسيلمة رسول اللَّه؟**» قالا: نعم. فقال: «**لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما**». ثم أجابه: من محمد رسول اللَّه إلى مسيلمة الكذاب. أما بعد، فإن الأرض للَّه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. ومرض رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وتوفي، وجعل مسيلمة يعلو أمره باليمامة يوماً بعد يوم فبعث إليه أبو بكر رضي اللَّه عنه خالد بن الوليد في جيش عظيم حتى أهلكه اللَّه على يدي وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب بعد حرب شديدة، فكان وحشي يقول: قتلت خير الناس في الجاهلية، وقتلت شر الناس في الإسلام. ومن المرتدين أيضاً طليحة بن خويلد رئيس بني أسد، وكان قد ادعى النبوة أيضاً في حياة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فقاتله أبو بكر رضي اللَّه عنه بعد وفاة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، بعث إليه خالد بن الوليد فقاتله قتالاً شديداً وهرب طليحة على وجهه نحو الشام، فلجأ إلى بني حنيفة فأجاروه ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه. وارتد أيضاً بعد وفاة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم كثير من العرب منهم فزارة قوم عيينة بن حصن، وبنو سليم، وبنو يربوع، وطائفة من بني تميم ورأسوا عليهم امرأة يقال لها: سجاح بنت المنذر، وادعت النبوة ثم زوجت نفسها من مسيلمة الكذاب. وارتدت كندة ورأسوا عليهم الأشعث بن قيس. وارتدت بنو بكر بن وائل بأرض البحرين وكفى اللَّه المسلمين أمر هؤلاء المرتدين ونصر دينه على يد أبي بكر رضي اللَّه عنه. وأخبار أهل الردة طويلة مشهورة فلا نطول بذكرها في هذا الكتاب.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال علي والحسن وقتادة: هم أبو بكر وأصحابه. وقال مجاهد: هم أهل اليمن[1]. وقال عياض بن

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 220 فقد ذكر هذه الأقوال.

غنم[1]: لما نزلت هذه الآية أومىء إلى أبي موسى الأشعري فقال: هم قوم هذا[2]. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**أتاكم أهل اليمن ألين قلوباً وأرق أفئدة، الإيمان يمان والحكمة يمانية**»[3]. وقال الكلبي: هم أحياء من أهل اليمن: ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وبجيلة وثلاثة آلاف من أفناء الناس، فقاتلوا الذين ارتدوا عن الإسلام وهم الذين أثنى اللّه عليهم[4] بقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يلينون لهم جانبهم، ليس هذا من الهوان إنما هو من اللين والرفق، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾[5].

قوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أشداء على الكافرين أقوياء غلظاء على الكافرين يغازون الكفار ويغالبونهم. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[6] قال عطاء: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كانوا كالوالد لولده وكالعبد لسيده ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كالسبع على الفريسة. وقال السيد: معنى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ يعني الأنصار. وروي أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سئل عن هذه الآية فضرب يده على عاتق سلمان وقال: «**هذا وذووه**». ثم قال: «**لو كان الدين معلقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس**»[7].

قوله تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ أي يقاتلون العدو في طاعة اللّه، ولا يخافون ملامة اللائمين ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك التمكين

---

(1) عياض بن غنم بن زهير الأشعري. أسلم قديماً وشهد صلح الحديبية مع النبي صلى اللّه عليه وسلم، وكان مع أبي عبيدة بالشام وتولى مكانه بعد وفاته، وأقره عمر بن الخطاب على ذلك، وبقي والياً إلى أن مات بالشام سنة عشرين هجرية.
الطبقات الكبرى: 7/ 279.

(2) تفسير البغوي: 2/ 270.

(3) رواه الصنعاني في مصنفه: 11/ 52 ـ وأحمد في مسنده: 4/ 118.

(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 26.

(5) سورة الإسراء (17)، الآية: 24.

(6) سورة الفتح (48)، الآية: 29.

(7) تفسير الثعلبي، ورقة: 26.

والتوفيق فضل من اللَّه يكرم به من يشاء ممن كان أهلاً لذلك. واللَّه واسع الفضل والرحمة عليم بمن يصلح للهدى.

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿55﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿56﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿57﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿58﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿55﴾﴾. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في مسلمي أهل الكتاب: عبد اللَّه بن سلام وأصحابه قالوا: يا رسول اللَّه بيوتنا قاصية ولا نجد متحدثاً دون هذا المسجد وإن قومنا من بني قريظة والنضير لما رأونا قد آمنا باللَّه ورسوله وتركناهم ودينهم أظهروا لنا العداوة وأقسموا أن لا يناكحونا ولا يؤاكلونا ولا يخالطونا ولا نستطيع أن نجالس أصحابك لبعد الموضع. فبينما هم يشكون على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم والناس في المسجد يصلون بين قائم وراكع وساجد، إذ بمسكين يطوف يسأل الناس، فدعاه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فأتاه فقال له: «**هل أعطاك أحد شيئاً؟**» قال: نعم. قال: «**ماذا؟**» قال: خاتم فضة. قال: «**من أعطاكه؟**» قال: ذاك. فإذا هو علي رضي اللَّه عنه. قال: على أي حال أعطاكه؟ قال: «**أعطانيه وهو راكع**». فقرأ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم هذه الآية على عبد اللَّه بن سلام وأصحابه وأنبأهم بما أبدلهم اللَّه به من ولايته وولاية رسوله وولاية المؤمنين[1]. ومعنى الآية: إنما حافظكم وناصركم اللَّه ورسوله والمؤمنون الذين يقيمون الصلاة بحقوقها ويؤتون الزكاة في حال ركوعهم. وفي الآية دليل على إباحة العمل

(1) الواحدي، أسباب النزول: 162 ـ الثعلبي في تفسيره، ورقة: 26.

اليسير في الصلاة. فلما قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عليهم الآية قال عبد اللّه بن سلام وأصحابه: رضينا باللّه وبرسوله وبالمؤمنين أولياء. وروي أن عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنهما كان ذات يوم جالساً على شفير زمزم يقول: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، إذ أقبل رجل متعمم بعمامة، فجعل ابن عباس لا يقول قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلا قال ذلك الرجل قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فقال ابن عباس: سألتك باللّه من أنت؟ فكشف العمامة عن وجهه وقال: أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدري، أنا أبو ذر الغفاري سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بهاتين وإلا فصمّتا، ورأيته بهاتين وإلا فعميتا يقول: «**عليّ قائد البررة، وقاتل الكفرة، منصور من نصره، مخذول من خذله**». أما أني صليت مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوماً من الأيام صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل رأسه وقال: اللّهم اشهد أني سألت في مسجد رسولك صلى اللّه عليه وسلم يوماً من الأيام فلم يعطني أحد. وكان علي راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وكان فيها خاتم فأخذ السائل الخاتم من خنصره، وذلك بحضرة النبي صلى اللّه عليه وسلم فلما فرغ من صلاته رفع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رأسه إلى السماء وقال: «**اللّهم إن أخي موسى سألك فقال**: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿25﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿26﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿27﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿28﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿29﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿30﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿31﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿32﴾﴾[1]، فأنزلت عليه: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾[2]، اللّهم وأنا محمد نبيك وصفيك، اللّهم فاشرح لي صدري ويسّر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري». قال أبو ذر: فما اختتم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الكلام حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية[3]: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿55﴾﴾.

---

(1) سورة طه (20)، الآيات: 25 ـ 32.
(2) سورة القصص (28)، الآية: 35.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 26.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي من يختر طاعة اللَّه ورسوله ومحبة المؤمنين ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وذلك أن اليهود كانوا إذا قام بلال للآذان يضحكون ويستهزئون ويقولون: قام الغراب لا قام، وإذا قام المؤمنون إلى الصلاة قالوا: قد قاموا لا قاموا، وإذا رأوهم ركعاً سجداً استهزأوا بهم وتغامزوا فيما بينهم تنفيراً للناس عن الصلاة وعن الدعاء إليها. ومعنى الآية: لا تتخذوا اليهود والنصارى الذين يتخذون دينكم هزؤاً ولعباً، أي استهزاء وسخرية يسخرون منكم إذا أذن مؤذنكم ويضحكون من صلاتكم إذا صليتم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ فيه قراءتان: النصب والخفض. فمن نصبه فمعناه: لا تتخذوا الكفار أولياء وأراد بهم مشركي العرب، ومن خفضه فمعناه: من الذين أوتوا الكتاب ومن الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي اخشوا ولاية الكافرين إن كنتم مؤمنين باللَّه ورسوله.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أي إذا ناديتم الناس إلى الصلاة بالأذان والإقامة اتخذوها سخرية واستهزاء مضحكة وباطلاً ذلك الاستهزاء واللعب ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿58﴾﴾ ثواب اللَّه تعالى في إقامة الصلاة ولا عقابه في إضاعتها. وروي أن يهودياً كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول اللَّه. قال: أحرق اللَّه الكاذب. فدخل خادمه البيت بنار فوقعت شرارة منها في البيت فالتهب البيت واحترق اليهودي هو وأهله واستجيب دعاؤه على نفسه[1]. وفي الآية دليل أن للصلاة آذاناً يدعى به الناس إليها. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾[2]. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**ثلاثة لا يكترثون من الحساب ولا تفزعهم الصيحة، ولا يحزنهم الفزع الأكبر: حامل القرآن العامل بما فيه يقدم على اللَّه سيداً**

---

(1) نسبه الواحدي في: أسباب النزول: 163 إلى السدي.
(2) سورة الجمعة (62)، الآية: 9.

شريفاً، ومؤذن أذن سبع سنين لا يأخذ على أذانه طعماً، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه وأدى حق مولاه»(1). وعن أنس رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «من أذن سنة من نية صادقة أجلس يوم القيامة على باب الجنة فقيل له: اشفع لمن شئت»(2). وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «من أذَّن خمس صلوات إيماناً واحتساباً غفر اللَّه له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر»(3). وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «المؤذن المحتسب كالشهيد المتشحط بدمه ما دام في أذانه وشهد له كل رطب ويابس، فإذا مات لم يدود في قبره»(4). وقال ابن مسعود رضي اللَّه عنه: ليتني كنت مؤذناً لما باليت أن لا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد. وقال عمر رضي اللَّه عنه: لو كنت مؤذناً لكل امرىء وما باليت أن لا أنتصب لقيام ولا لصيام. سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول: «اللَّهم اغفر للمؤذنين، اللَّهم اغفر للمؤذنين».

قال اللَّه تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ (59) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ
(60) وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ
(61) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
(62) لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (63)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا

(1) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 27. ورواه البيهقي في شعب الإيمان: 2/ 555، رقم: 2702، باب في تعظيم القرآن.
(2) رواه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: 2/ 243، رقم: 848.
(3) نفسه: 2/ 245، رقم: 851.
(4) نفسه: 2/ 246، رقم: 853.

وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي قل لهم يا محمد يا أهل الكتاب هل تطعنون علينا إلا لإيماننا باللّٰه تعالى والقرآن ولأن أكثركم فاسقون، أي إنما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون أننا على حق لأنكم فسقتم بأن أقمتم على دينكم لمحبتكم الرياسة واكتسبتم بها الأموال، فهل تدرون شيئاً يعاب به علينا إلا هذا، فلماذا تطعنون؟ وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ قال بعضهم: أراد بالأكثر كلهم. وأكثر الشيء يقوم مقام الكل. وقيل: إنما ذكر بلفظ الأكثر لأن الآية خرجت مخرج التلطف للدعاء إلى الإيمان، وكان في سابق علم اللّٰه تعالى أن فيهم من يسلم، وكان في القوم من لا يطعن بنفسه في دين الإسلام، وإنما كان يسكت عن طعن الطاعنين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ وذلك أن اليهود قالوا للمسلمين: ما نعلم أهل دين أقل حظاً منكم في الدنيا، ونرجو أن تكونوا في الآخرة كذلك. فأنزل اللّٰه هذه الآية[1]، أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود: هل أخبركم بأسوأ من الذين قلتم جزاء عند اللّٰه؟ هو ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعده من رحمته وسخط عليه وهم اليهود، فيكون موضع ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ رفعاً على معنى هو، ويجوز أن يكون خفضاً بدلاً من شر على معنى هل أنبئكم بمن لعنه اللّٰه؟

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ بعضهم قردة في زمن داود عليه السلام بدعائه عليهم حين اعتدوا في السبت واستحلوه، ومسخ بعضهم الخنازير في زمن عيسى عليه السلام بعد أكلهم من المائدة حين كفروا بعدما رأوا الآيات البينات. وروي أنه لما نزلت هذه الآية قال المسلمون لليهود: يا إخوة القردة والخنازير، فنكسوا رؤوسهم وفضحهم اللّٰه تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ فيه عشر قراءات: قراءة العامة: وعبد الطاغوت ـ بفتح العين والباء ـ والدال على الفعل، وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي بالغ في طاعة الشيطان والكهان ورؤساء المعصية؛ وقرأ ابن

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 163 ـ 164 ـ البغوي، معالم التنزيل: 2/ 274.

مسعود: وعبدوا الطاغوت؛ وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة بفتح العين وضم الباء وكسر التاء من الطاغوت وهو لغة في «عبد» مثل: سبع وسبع؛ وقرأ أبو جعفر والفراء: وعبد الطاغوت على الفعل المجهول؛ وقرأ الحسن وعبد الطاغوت على الواحد؛ وقرأ بريدة الأسلمي: وعابد الطاغوت بالألف؛ وقرأ ابن عباس: وعبيد الطاغوت ـ بالجمع ـ؛ وقرأ أبو واقد الليثي[1]: وعباد الطاغوت مثل كفار؛ وقرأ عون العقيلي[2] وأبان بن تغلب[3]: وعبد الطاغوت مثل راكع وركع، وقرأ عبيد بن عمير وأعبد الطاغوت مثل كلب وأكلب؛ وقرأ الأعمش: وعبد الطاغوت ـ بضم العين والباء وكسر التاء ـ من الطاغوت[4]. قال الشاعر:

أنسب العبد إلى آبائه ∴ أسود الجلدة من قوم عبد[5]

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فإن قيل: كيف معنى هذا وليس في الإيمان شر وضلال؟ قيل: تسمية المشركين شر مكاناً لا يوجب أن يكون في الإيمان شر، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿24﴾﴾[6] ومعلوم أنه لا خير في مستقر الكفار ومنقلبهم. فلما نزلت الآية قال المسلمون لليهود: يا إخوة القردة والخنازير. فسكتوا وفحموا وفيهم

---

(1) أبو واقد الحارث بن مالك الليثي، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر، وعنه ابناه عبد الملك وواقد وعطاء بن يسار، وشهد بدراً، وتوفي سنة ثمان وستين. الطبقات الكبرى: 8/ 199 ـ تهذيب التهذيب: 12/ 270.

(2) عون العقيلي، له اختيار في القراءة، أخذ القراءة عرضاً عن نصر بن عاصم، وروى القراءة عنه المعلى بن عيسى ـ غاية النهاية: 1/ 606، رقم 2479.

(3) أبو سعيد أبان بن تغلب الكوفي قرأ على عاصم وطلحة بن مصرف وغيرهما أخذ عنه محمد بن صالح وغيره. توفي سنة إحدى وأربعين ومائة هـ. غاية النهاية: 1/ 4.

(4) تراجع هذه القراءات في إعراب القراءات السبع: 1/ 147 ـ المحتسب 1/ 215 ـ البحر المحيط: 3/ 519.

(5) الأخفش، معاني القرآن: 1/ 226 ـ شرح نهج البلاغة: 9/ 292 ـ ابن منظور، لسان العرب: (عبد).

(6) سورة الفرقان (25)، الآية: 24.

يقول الشاعر:

فلعنة اللّه على اليهود ∴ إن اليهود إخوة القرود

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ ومعناه: وإذا جاءكم المنافقون من أهل الكتاب قالوا آمنا بك ونحن نعرف نعتك وصفتك، يقول اللّه: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي دخلوا عليكم وخرجوا من عندكم كافرين في السر كما دخلوا خرجوا. وقوله: ﴿وَهُمْ﴾ للصلة والتأكيد ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ أي بما كانوا يضمرون في قلوبهم من الكفر والنفاق فأعلمكم به وأطلعكم عليه.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي وترى يا محمد كثيراً من اليهود والمنافقين يبادرون في المعصية والاعتداء والظلم وأكل الرشوة والحرام في تسيير الأحكام ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من المعصية ومجاوزة الحد.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿63﴾﴾ معناه: هل ينهاهم العاملون بالعلم والعلماء الذين هم دونهم عن قول الشرك والكذب على اللّه وأكل الحرام والرشوة في الحكم؟ قال الحسن: الربانيون: علماء النصارى، والأحبار: علماء اليهود. ويقال: هو كله في اليهود. وقرأ أبو واقد الليثي: لولا ينهاهم الربيون(1)، كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾(2). وقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ أي بئس ما يصنع علماؤهم من كتمانهم الحق وتركهم النهي عن المعصية. قال ابن عباس والضحاك: إن هذه الآية أشد الآيات في تخويف من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم:

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 28.

(2) سورة آل عمران (3)، الآية: 146.

(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 6/ 82، رقم: 7550، باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«ما من رجل يجاور قوماً فيعمل بالمعاصي من بين أظهرهم فلا يأخذون على يديه إلاّ يوشك أن اللّه يعمهم منه بعقاب»[3].

قال اللّه تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (64) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (65) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ (66)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في فنحاص بن عازوراء اليهودي وأصحابه، كان اللّه تعالى قد بسط لهم في الرزق فكانوا من أخصب الناس وأكثرهم خيراً وأموالاً، فلما عصوا اللّه تعالى في محمد صلى اللّه عليه وسلم وبالغوا في تكذيبه كفَّ اللّه عنهم بعض الذي كان بسط عليهم، فعند ذلك قالوا ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي قالوا على سبيل الهزء أن إلّه محمد الذي أرسله ممسكة يده عنا في الرزق لا تنبسط علينا كما كان ينبسط. وهذا اللفظ في كلام العرب عبارة عن البخل كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾[1] أي لا تمسكها عن الإنفاق. وقال بعضهم: إنما قال هذه المقالة فنحاص فلم ينهه الآخرون ورضوا بقوله فأشركهم اللّه فيها[2]. وأرادوا باليد العطاء، لأن عطاء الناس وبذلهم في الغالب بأيديهم، فاستعمل الناس اليد في وصف الناس بالجود والبخل. ويقال للبخيل: جعد الأنامل، مقبوض الكف، مكفوف الأصابع، مغلول اليدين. قال الشاعر:

---

(1) سورة الإسراء (17)، الآية: 29.

(2) تفسير القرطبي: 6/ 238 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 28.

كانت خراسان أرضاً إذ يزيد بها ∴ وكل باب من الخيرات مفتوح
فاستبدلت بعده جعداً أنامله ∴ كأنما وجهه بالخل منضوح

قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ جواب عن كلامهم على طريق المقابلة والازدواج، أي أمسكت أيديهم عن الإنفاق في الخير وجعلوا بخلاء، واليهود أبخل الناس، ولا أمة أبخل منهم. ويقال معنى غلت أيديهم: أي ضمت إلى أعناقهم في نار جهنم. ويقال: لا يخرج يهودي من الدنيا إلا وتصير يده مغلولة إلى عنقه.

قوله تعالى: ﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ أي عذبوا بالجزية وطردوا من رحمة اللّه لقولهم: يد اللّه مغلولة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ عبارة عن الجود وكثرة العطية لمن يشاء كما يقال: فلان بسيط اليدين وباسط اليدين: إذا كان جواداً يعطي يمنة ويسرة. وعن ابن عباس أن معناه: بل نعمتاه مبسوطتان. وأراد نعمة الدين والدنيا. وقيل: نعمته الظاهرة ونعمته الباطنة. وقيل: أراد بالتثنية في هذا للمبالغة في صفة النعمة. قال: الأعشى:

يداك يدا مجد فكف مفيدة ∴ وكف إذا ما ضن بالمال تنفق[1]

وهذا كله لأن اليهود قصدوا تبخيل اللّه فأجيبوا على قدر كلامهم.

قوله تعالى: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ وليس على أن المراد بجواب اليهود بيان بسط النعمة، وأن اللّه يرزق كيف يشاء بحسب المصالح، فربما كان الصلاح في أن تقترون بما كان في أن يوسع، ولا يخلو حكمه عن الحكمة. واعلم أن اليد في اللغة تنصرف على وجوه: منها الجارحة وهي معروفة، ومنها النعمة،

---

(1) هذا البيت من الطويل من قصيدة تشتمل على اثنين وستين بيتاً، مدح بها الأعشى المحلق بن حنتم بن شداد بن ربيعة لحسن ضيافته وإكرامه. ويروى في الديوان: 33:
يداك يدا صدق فكف مفيدة ∴ وأخرى إذا ما ضن بالزاد تنفق
(2) سورة ص (48)، الآية: 45.
(3) سورة الذاريات (51)، الآية: 47.

كما يقال: لفلان علي يد، أي نعمة، ومنها القوة كما قال اللَّه تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾[3]، ومنها الملك كما قال تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾[1] أي يملك، ومنها القدرة كقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[2] أي بقدرته، ومنها الاختصاص بالفعل كقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[3] أي توليت خلقه، وفائدته التشريف، ومنها التصرف كما يقال: هذه الدار في يد فلان، أي هو يتصرف فيها بالسكنى والإسكان، وقد يقال: أسلم فلان على يدي فلان، أي كان سبباً في إسلامه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ معناه: ليزيدن القرآن الذي أنزل إليك وما فيه من حكم الإسلام وحكم الرجم كثير من اليهود طغياناً وكفراً، أي كلما أنزل عليك شيء من القرآن كفروا به، فيزيد كفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي جعلناهم مختلفين في دينهم متباغضين كما قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[4].

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ أي كلما اجتمعوا على قتالكم وأعدوا للحرب فرق اللَّه جمعهم وأطفأ نار مكرهم وخالف بين كلمتهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يجتهدون في دفع الإسلام ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي لا يرضى عمل أهل الفساد.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ معناه: لو أن اليهود والنصارى صدقوا باللَّه وبالقرآن وتابوا من اليهودية والنصرانية لعفونا عنهم وسترنا عليهم ذنوبهم وأدخلناهم في الآخرة جنات النعيم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي لو أنهم عملوا بما في التوراة والإنجيل ولم يكتموا ما علموا من ذكر محمد صلى

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 237.
(2) سورة الملك (67)، الآية الآولى.
(3) سورة ص (38)، الآية: 75.
(4) سورة الحشر (59)، الآية: 14.

اللَّه عليه وسلم فيهما وعملوا بما أنزل إليهم من ربهم، يعني القرآن الذي أنزل على كافة الناس لوسعنا عليهم الرزق بإنزال المطر من السماء وإخراج النبات من الأرض والشجر والثمار. وفي الآية بيان أن التقى سبب لتوسعة الرزق واستقامة الأمر في الدنيا والآخرة. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿2﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي من أهل الكتاب أمة عادلة، يعني جماعة عادلة في القول، وهم الذين أسلموا منهم وهم ثمانية وأربعون رجلاً: النجاشي وأصحابه من النصارى، وبحيراء الراهب وأصحابه، وسلمان الفارسي وأصحابه، وعبد اللَّه بن سلام وأصحابه، وجبر مولى قريش[3].

قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي كثير من أهل الكتاب بئسما يعملون من كتمان نعت محمد صلى اللَّه عليه وسلم وتكذيبه وهم: كعب بن الأشرف وأصحابه تسوءهم أعمالهم يوم القيامة إذا رأوا وبالها.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿67﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿68﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿69﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿70﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿71﴾﴾.

---

(1) سورة الأعراف (7)، الآية: 96.
(2) سورة الطلاق (65)، الآية: 2 ـ 3.
(3) تفسير القرطبي: 6/ 241.

قال أبو بكر: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ خطاب للنبي صلى اللّه عليه وسلم، وأمر له أن يبلغ الناس جميع ما أنزل إليه من ربه من القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ معناه: إن لم تبلغ آية مما أنزل إليك أو حكماً أمرت بتبليغه إليهم فكأنك لم تبلغ شيئاً من الرسالة، أي لا يحصل لك الثواب الموعود على تبليغ الرسالة من قبل أن كتمان آية واحدة يحيط ثواب ما بلغ من الرسالة. ويقال: إن في هذه الآية دليلاً أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان أمر بشيء خاص تأنى قليلاً عن تبليغه حذراً أو خوفاً أن يبتليه اللّه بمثل ما ابتلى قبله إبراهيم بالنار، وإسماعيل بالذبح، وزكرياء ويحيى بالقتل. وكان صلى اللّه عليه وسلم عازماً على فعل ما أمر به مع خوفه، فقيل له إن لم تفعل ما أمرت به من دعوتهم إلى الإسلام وعبت دينهم فقد بطل جميع ما فعلت من قبل من التبليغ كأنك لم تبلغ شيئاً من الرسالة: ولهذا قرأ نافع وابن عامر وعاصم رسالاته ـ بلفظ الجمع[1] ـ. وقد يذكر الواحد ويراد به الجماعة.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أمان من اللّه تعالى للنبي صلى اللّه عليه وسلم كيلا يخاف ولا يحذر، كما روي في الخبر أن النبي صلى اللّه عليه وسلم لما دخل المدينة قالوا: يا محمد إنا ذوو كرم وبأس فإن لم ترجع قاتلنا دونك وزودناك وأكرمناك. فكان عليه السلام يحرسه شباب من المهاجرين والأنصار يبيتون عنده ويخرجون معه خوفاً من اليهود. فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ علم أن اللّه يحفظه من كيد اليهود وغيرهم، فقال للمهاجرين والأنصار: «**انصرفوا إلى رحالكم فإن اللّه قد عصمني من اليهود**»[2]. وكان صلى اللّه عليه وسلم بعد ذلك يخرج وحده في أول الليل وعند السحر إلى أودية المدينة وحيثما شاء فعصمه اللّه مع كثرة أعدائه وقلة

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 415.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 164 ـ تفسير القرطبي: 6/ 244.

أعوانه، فعاش حميداً ومات سعيداً صلى اللّه عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي لا يرشدهم إلى دينه وحجته ولا يهديهم إلى طريق الجنة في الآخرة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ أي لستم على شيء من الدين والثواب إلا أن تقروا بما في التوراة والإنجيل من نعت محمد صلى اللّه عليه وسلم ومبعثه ونبوته وسائر الأحكام التي فيها، وتقروا بالقرآن الذي أنزل على كافة الناس من ربهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ﴾ قد ذكرنا تفسيره. ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ الرسالة فلا تحزن عليهم إن كذبوك، أي لا تحزن على هلاكهم إذا أهلكناهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ معنى الآية: إن الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، والذين مالوا عن الإسلام وتسموا باليهودية والذين صبت قلوبهم وهم صنف من النصارى يقال لهم السائحون يحلقون أوساط رؤوسهم. ويقال: الصابىء هو الخارج من ملة فيها أمة عظيمة إلى أمة فيها شرذمة قليلة. وقوله تعالى: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أي من آمن من هذه الفرق باللّه وبجميع ما أنزل اللّه وبالبعث بعد الموت وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه فلا خوف عليهم حيث يخاف أهل النار ولا هم يحزنون حيث يحزن أهل النار. وأما الرفع في قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ قال الكسائي: هو نسق على مضمر في ﴿هَادُواْ﴾ تقديره: هادوا هم والصابون. وقال الخليل وسيبويه والبصريون: إن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ مرفوع بالابتداء تقديره: إن الذين آمنوا ومن آمن من الذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن باللّه واليوم الآخر[1]. وقيل: إنما رفع لأنه عطف على الذين قبل دخول إن، لأنه لا يحدث معنى كما تقول: زيد قائم، وإن زيداً قائم معناهما واحد. وقرأ الحسن:

(1) ذكره القرطبي في تفسيره: 6/ 246.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ برفع التاء. وأما نفي الحزن عن المؤمنين ههنا فقد ذهب بعض المفسرين إلى أنه لا يكون عليهم حزن في الآخرة ولا خوف، ونظيره قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾(1)، وقال بعضهم: إن المؤمنين يخافون ويحزنون لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾(2) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾(3)، وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة**». قالت عائشة: واسوءتاه! فقال صلى اللّه عليه وسلم(4): «**أما سمعت قوله تعالى**: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾»(5). قالوا: وإنما نفى اللّه تعالى في هذه الآية الحزن عن المؤمنين لأن حزنهم لما كان يرجى الزوال ولم يكن له بقاء معهم لم يعتد بذلك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أخذنا عهد بني إسرائيل على أن يعملوا بما في التوراة والإنجيل وكل نبي بعثه اللّه إلى قومه فيؤمنوا به فذلك أخذ ميثاقهم ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ أي كلما جاءهم رسول بما لا يوافق هواهم والذي هم عليه ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي كذبوا جماعة من الرسل مثل عيسى ومحمد عليهما السلام، وفريقاً يقتلون مثل زكرياء ويحيى عليهما السلام.

قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي ظنوا ألا يكون عذاب وعقوبة، وقيل ابتلاء بسبب قتلهم الأنبياء وتكذيبهم الرسل. من قرأ يكون بالنصب فبمعنى أن يكون، ومن قرأ بالرفع(6) فمعناه: أنه لا يكون، أي حسبوا أن فعلهم غير فاتن لهم فعموا عن الهدى وصموا عن الحق، أي عملوا معاملة الأعمى الذي

---

(1) سورة فصلت (41)، الآية: 30.
(2) سورة الحج (22)، الآية: 2.
(3) سورة عبس (80)، الآية: 34 ـ 35.
(4) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 13/ 187، رقم: 6587، كتاب الرقاق ـ والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 7/ 107، رقم: 2539.
(5) سورة عبس (80)، الآية: 37.
(6) قال القرطبي في تفسيره: 6/ 247. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: «تكون» بالرفع.

لا يبصر والأصم الذي لا يسمع فصاروا كالعمي والصم، ثم تاب اللَّه عليهم، أي تجاوز عنهم بأن أرسل إليهم محمداً صلى اللَّه عليه وسلم يعلمهم أن اللَّه تعالى قد تاب عليهم إن آمنوا وصدقوا فلم يؤمن أكثرهم. ويقال: دانوا بعد ذلك وتابوا من الكفر فقبل اللَّه توبتهم. فلما بعث اللَّه محمداً صلى اللَّه عليه وسلم وجاءهم بما عرفوا كفروا به، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ أي عموا عن الهدى وصموا عن الحق بعد أن ازداد لهم الأمر وضوحاً بالنبي صلى اللَّه عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ﴾ بدل من الواو في قوله: ﴿عَمُواْ﴾ كأنه قال: عمي وصم كثير منهم، وهذا كما يقال: جاءني قومك أكثرهم. وقوله: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ﴾ يقتضي في المرة الثانية أنهم لم يكفروا كلهم وإنما كفر أكثرهم كما قال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾[2] ويحكى عن بعض أهل اللغة: جواز جمع الفعل متقدماً على الاسم كما يقال: أكلوني البراغيث. ويجوز أن يكون كثير خبر مبتدأ محذوف معناه: العمي والصم كثير منهم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بما يعملون من التكذيب ونقض الميثاق وتصريف الكلم يجازيهم على عملهم.

قال اللَّه تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (72) لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (74) مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ

---

(1) سورة آل عمران (3)، الآية: 113.

(2) سورة المائدة (5)، الآية: 66.

﴿ 75 قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ 76 ﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ نزلت في نصارى نجران السيد والعاقب ومن معهما من اليعقوبية قالوا: إن اللّٰه هو المسيح بن مريم[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ إعلام من اللّٰه تعالى أن المسيح دعاهم إلى توحيد اللّٰه، وأعلمهم أن حاله في أنه مربوب كحالهم، وأعلمهم أن من أشرك مع اللّٰه شيئاً غيره فهو كافر من أهل النار، فذلك قوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ أي وحّدوه فهو خالقي وخالقكم، ورازقي ورازقكم. إنه من يشرك باللّٰه غيره فقد حرم اللّٰه عليه الجنة أن يدخلها ومصيره في الآخرة النار ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي ما للمشركين من مانع يمنعهم من عذاب اللّٰه. ثم بيّن اللّٰه الفريق الآخر من النصارى وهم النسطورية فقال عزّ وجلّ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ أي أحد ثلاثة: ابن وأب وروح قدس. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وإن لم ينته النصارى عن مقالتهم الأولى والثانية ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي ليصيبن الذين أقاموا على مقالة الكفر منهم عذاب وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ أول هذه الآية استفهام ومعناها: الأمر، أي توبوا إلى اللّٰه عن النصرانية واستغفروه من هذه المقالة الشنيعة، واللّٰه غفور لمن تاب وآمن رحيم بمن مات على التوبة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي ما المسيح إلا رسول من رسل اللّٰه. فإن إبراءه الأكمه والأبرص وإتيانه بالمعجزات كما أتى موسى بالمعجزات أي الآيات، وكما أتى إبراهيم عليه السلام وغيرهما من الأنبياء، فلو وجبت عبادة الأنبياء لظهور المعجزات على

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 31.

أيديهم لوجبت عبادة سائر الأنبياء واتخاذهم آلهة بسبب المعجزات.

قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ﴾ أي كثيرة الصدق والتصديق، وذلك أن جبريل عليه السلام أتاها فقال: إنما أنا رسول ربك فصدقته، كما قال تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾(1).

قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ بيان أنهما محدثان محتاجان وهذا احتجاج بيِّن على القوم في أنه لم يكن إلّهاً، لأن اللّه تعالى وصفه في الآية بصفات تنافي الإلّهية منها أنه رسول كان بعد أن لم يكن، ومنها أنه كباقي(2) الرسل فيما ظهر منه وعليه، ومنها أنه مولود من أم، ومنها أنهما كانا يعيشان بالغذاء كما يعيش سائر الآدميين. وكيف يكون إلّهاً من تكون حياته بالحيلة ولا يقيمه إلا أكل الطعام، ومنها ما قالوا: إن أكل الطعام في الآية كناية عن قضاء الحاجة، لأن الذي يأكل الطعام لا بد له من قضاء الحاجة، فكل هذه الصفات دالّة على كونه عبداً مخلوقاً مربوباً مستحيلاً أن يكون إلّهاً قديماً.

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي انظر يا محمد كيف نبيِّن لهم العلامات الواضحة في أمر عيسى أنه لم يكن إلّهاً ولا ابناً له ولا ثالث ثلاثة، ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿75﴾﴾، أي من أين يصرفون عن الحق الواضح إلى الباطل؟ والإفك هو الصرف، وكل شيء صرفته عن شيء فهو مأفوك، تقول: آفكته عنه أفكه إفكاً، ويسمى الكذب إفكاً لأنه يصرف عن الحق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء النصارى ومن سلك طريقتهم في اتخاذ غير اللّه إلّهاً، أتعبدون من دون اللّه ما لا يقدر على دفع ضر عنكم ولا جر نفع إليكم، واللّه هو السميع لمقالتكم في عيسى عليه السلام وأمه، العليم بكم وبعقوبتكم.

قال اللّه تعالى:

---

(1) سورة التحريم (66)، الآية: 12.
(2) في النسخة (ف): كسائر.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ
ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿77﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟
يَعْتَدُونَ ﴿78﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ
﴿79﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن
سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿80﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿81﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي قل لهم يا محمد لا تتجاوزوا الحد في دينكم إلى غير الحق فتقولوا هل فعل أحد مثل ما فعل عيسى؟ فتجعلوا للَّه ولداً فإنه ليس بحق. ويقال: هذا خطاب لليهود والنصارى، أي لا ترفعوا عيسى عليه السلام عن درجة النبوة إلى درجة الربوبية، ولا تحطوه عن درجته فتقولوا إنه مولود على غير رشدة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي لا تتبعوا شهوات أوائلكم ورؤسائكم ولا تؤثروا الهوى على البيان والبرهان ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ من السفلة الذين أطاعوهم وأصروا على ضلالتهم ممن قصد الطريق.

قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي طرد الذين كفروا من بني إسرائيل وتوعدوا من رحمة اللَّه على لسان داود، أي بدعائه عليهم حين اعتدوا في السبت فمسخهم اللَّه قردة، ولعنوا بدعاء عيسى حين كفروا بعد ذلك بالمائدة، فمسخهم اللَّه خنازير وذلك اللعن والتعذيب بعصيانهم واستحلالهم المعاصي وقتلهم الأنبياء عليهم السلام بغير حق[1]. ثم بيَّن اللَّه تعالى سبب المعصية والكفر فقال تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن قبيح يعملونه واصطلحوا عن الكف عن نهي المنكر ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ دخول

(1) تفسير القرطبي: 6/ 252.

اللام في «لبئس» للقسم والتوكيد.

قوله عزّ وجلّ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ترى يا محمد كثيراً من اليهود يوالون مشركي العرب على معاداتك ومحاربتك، يعني كعب بن الأشرف وأصحابه من اليهود. وقيل: معناه ترى كثيراً من المنافقين يتولون اليهود، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم، أي بئس ما عملوا لأنفسهم حين سخط اللّه عليهم. وموضع «أن سخط» نصب على تأويل بئس الشيء، ذلك لأنه أكسبهم السخط، فانتصب «أن» بلام «كي»، ويجوز أن يكون موضعه رفعاً على إضمار هو تقديره: هو أن سخط اللّه عليهم ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ﴾ أي مقيمون دائمون.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ معناه: لو كان اليهود يصدقون بوحدانية اللّه ومحمد صلى اللّه عليه وسلم والقرآن الذي أنزل عليه ما اتخذوا كفار قريش وسائر عبدة الأوثان أحباء في العون والنصرة على حرب النبي صلى اللّه عليه وسلم، ولكن كثيراً من اليهود خارجون عن الطاعة ناقضو العهد.

قال اللّه تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ (83) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ (84) فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ (85) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ (86)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ

﴿أَشْرَكُوا۟﴾ أي لتجدن يا محمد أشد الناس عداوة لك وللذين آمنوا اليهود وهم يهود بني قريظة والنضير وفدك وخيبر، كانوا أشد اليهود عداوة للنبي صلى اللَّه عليه وسلم والمؤمنين. وروي عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: **«ما خلا يهوديان بمسلم إلا همَّا بقتله»**[1]. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ يعني مشركي العرب كانوا في العداوة مثل اليهود.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾ لم يرد به جميع النصارى مع ما فيهم من عداوة المسلمين وتخريب بلادهم وهدم مساجدهم وقتلهم وأسرهم وإحراق مصاحفهم، وإنما نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه. قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي: نزلت هذه في النجاشي وأصحابه، وكان النجاشي ملك الحبشة ورئيسها قبل ظهور الإسلام ثم أسلم هو وأصحابه. قال المفسرون: ائتمرت قريش أن يفتنوا المسلمين عن دينهم، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يؤذونهم ويعذبونهم، فافتتن من افتتن، وعصم اللَّه منهم من شاء، ومنع اللَّه النبي صلى اللَّه عليه وسلم بعمه أبي طالب. فلما رأى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ما بأصحابه ولم يقدر على منعهم ولم يؤمر بالجهاد، أمرهم بالخروج إلى أرض الحبشة وقال: **«إن لها ملكاً صالحاً لا يظلم ولا يظلم عنده أحد، فاخرجوا إليه حتى يجعل اللَّه للمسلمين فرجاً»**[2]. وأراد به النجاشي واسمه: أصحمة وهو بالحبشية عطية، وإنما النجاشي اسم الملك كقوله: كسرى وقيصر. فخرج إليه سراً أحد عشر رجلاً وأربع نسوة وهم: عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول اللَّه

---

(1) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 31.

(2) تفسير البغوي: 2/ 288 ـ السيرة النبوية، لابن هشام: 1/ 321 ـ ابن سعد، الطبقات الكبرى: 1/ 159.

(3) أبو حذيفة، هشيم بن عتبة بن ربيعة: صحابي جليل، هاجر الهجرتين وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها، واستشهد يوم اليمامة في السنة الثانية عشرة.
الاستيعاب: 4/ 1631 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 84.

(4) سهلة بنت سهيل بن عمرو: أسملت قديماً بمكة وبايعت وهاجرت الهجرتين وهي التي تبنت سالم مولى أبي حذيفة فرخص لها الرسول صلى اللَّه عليه وسلم أن ترضعه خمس رضعات وهو كبير حتى يدخل عليها ـ الطبقات الكبرى: 8: 211.

صلى اللَّه عليه وسلم والزبير وعبد اللَّه بن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وأبو حذيفة بن عتبة[3] وامرأته سهلة بنت سهيل[4] ومصعب بن عمير وأبو سلمة وامرأته أم سلمة وعثمان بن مظعون[1] وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبي حيثمة[2] وحاطب بن عمرو[3] وسهيل بن بيضاء[4]، فخرجوا إلى البحر وأخذوا سفينة بنصف مثقال إلى الحبشة وذلك في رجب في السنة الخامسة من عهد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وهذه الهجرة الأولى. ثم خرج جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون، وكان جميع من هاجر إلى الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان. فلما علمت قريش بذلك وجهت عمرو بن العاص وصاحبه بالهدايا إلى النجاشي وإلى بطارقته ليردوهم إليهم، فعصمهم اللَّه، وقد ذكرنا هذه القصة في سورة آل عمران. فلما انصرفوا خائبين قام المسلمون هناك بخير دار وأحسن جوار إلى أن هاجر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وعلا أمره وذلك في سنة ست من الهجرة، كتب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى النجاشي على يد عمرو بن أمية الضمري[5] ليزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت هاجرت إليه مع زوجها فمات زوجها، فأرسل النجاشي إلى

---

(1) أبو السائب، عثمان بن مظعون الجمحي: صحابي جليل، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، أراد التبتل والسياحة فمنعه الرسول صلى اللَّه عليه وسلم، هاجر الهجرتين، وأول من توفي بالمدينة من المهاجرين وأول من دفن بالبقيع.
الاستيعاب: 3/ 1053 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 393.

(2) ليلى بنت أبي حيثمة، أسلمت قديماً وهاجرت الهجرتين.
الطبقات الكبرى: 8/ 210.

(3) حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن لؤي، أسلم قبل دخول الرسول صلى اللَّه عليه وسلم دار الأرقم وهاجر الهجرتين وشهد بدراً.
الاستيعاب: 2/ 311.

(4) سهيل بن بيضاء، والبيضاء اسم أمه، وأبوه: وهب بن ربيعة بن هلال بن فهر بن مالك، أسلم بمكة، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً مع الرسول صلى اللَّه عليه وسلم.
الطبقات الكبرى: 4/ 161.

(5) عمرو بن أمية بن خويلد الضمري: أول مشاهده مع الرسول صلى اللَّه عليه وسلم بئر معونة فأسر بها، ثم أطلق سراحه بعد جزّ ناصيته. توفي في خلافة معاوية.
الطبقات الكبرى: 4/ 187.

أم حبيبة جارية له يقال لها أبرهة فأخبرتها بخطبة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إياها فأعطتها أوضاحاً لها سروراً بذلك، وأمرها أن توكل من يزوجها فوكلت خالد بن سعيد بن العاص[1] فأنكحها على صداق أربعمائة مثقال، وكان الخاطب لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم النجاشي، وأنقد الصداق إلى أم حبيبة على يدي أبرهة، فلما جاءتها بذلك أعطتها خمسين مثقالاً. فقالت أبرهة: إن الملك أمرني أن لا آخذ منك شيئاً. فردته إليها ولم تأخذه، ثم قالت لها أبرهة: أنا صاحبة دهن الملك وثيابه وقد صدقت بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم وآمنت به، فحاجتي إليك أن تقرئيه مني السلام. ثم أمر الملك نساءه أن يبعثن إلى أم حبيبة بما عندهن من عود وعنبر، فكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يراه عليها ولا ينكره. قالت أم حبيبة: فخرجنا في سفينتين وبعث معنا النجاشي الملاحين فلما خرجنا من البحر ركبنا الظهر إلى المدينة ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بخيبر، فخرج من قدم معي إليه وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فدخلت عليه، فكان يسألني عن النجاشي فبلغته سلام أبرهة فردّ عليها السلام، فأنزل اللَّه تعالى[2]: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾[3] يعني أبا سفيان، ومودة بتزويج أم حبيبة. ثم قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**لا أدري أبفتح خيبر أسر أم بقدوم جعفر؟**» وبعث النجاشي بعد أن قدم جعفر المدينة ابنه أزهى بن أصحمة في ستين راكباً من الحبشة، وكتب إليه: يا رسول اللَّه إني أشهد أنك رسول اللَّه صادقاً مصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت للَّه رب العالمين، وقد بعثت إليك ابني وإن شئت آتيك بنفسي فعلت والسلام عليك يا رسول اللَّه. فركبوا سفينة في أثر جعفر وأصحابه، فلما بلغوا وسط البحر غرقوا. وكان جعفر يوم وصل المدينة

---

(1) خالد بن سعيد بن العاص بن أمية: من السابقين الأولين في الإسلام هاجر إلى الحبشة، وبعد رجوعه أقام بالمدينة يكتب للرسول صلى اللَّه عليه وسلم، وولاه على صدقات اليمن. استشهد في وقعة مرج الصفر في المحرم سنة أربع عشرة.
الطبقات الكبرى: 4/ 70.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 32.

(3) سورة الممتحنة (60)، الآية: 7.

إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وصل في سبعين رجلاً، منهم اثنان وستون رجلاً من الحبشة وثمانية من أهل الشام منهم بحيراء الراهب، قرأ عليهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم سورة ياسين إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام. فأنزل اللَّه فيهم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ يعني وفد النجاشي الذين قدموا مع جعفر وهم سبعون. وقال مقاتل والكلبي: كانوا أربعين رجلاً: اثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من أهل الشام. وقال عطاء: ثمانون رجلاً: أربعون من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الروم من أهل الشام. وقال قتادة: أنزل هذا في النصارى الذين هم متسمكون بشريعة عيسى يعني أن النصارى كانوا أقل مظاهرة للمشركين من اليهود[1]. فقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ﴾ على هذا التأويل معناه: وإن منهم من إذا سمعوا أو: ومنهم قوم إذا سمعوا. وفي الآية ما يشهد لهذا القول أيضاً، لأن اللَّه تعالى وصفهم بقرب مودتهم للمسلمين ولم يصفهم بأنهم يوادون المسلمين، ولا يجوز أن يعتقد أحد أن في الآية مدحاً للنصارى وإخباراً بأنهم خير من اليهود إلا في معنى شدة العداوة، لأن من أمعن النظر في مقالتي اليهود والنصارى علم أن مقالة النصارى أظهر فساداً من مقالة اليهود، لأن اليهود تقر بالتوحيد في الجملة وإن كانت فيهم مشبهة، تنقض القول بالتوحيد بالتشبيه، والنصارى لا يكونوا مقرين بالتوحيد بوجه من الوجوه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا﴾ معناه: أي قرب مودة النصارى للمسلمين وقلة مظاهرتهم للمشركين بأن من النصارى قسيسين، أي علماء وعباداً أصحاب الصوامع ﴿وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عن اتباع الحق إذا تبيَّن لهم. والقسيسون في اللغة: مأخوذ من القس وهو السر، يقال: قس فلان الأذى إذا تتبعه. والقس النميمة أيضاً. والرهبان: العباد أصحاب الصوامع.

(1) ذكره البغوي في تفسيره: معالم التنزيل: 2/ 289 ـ 290 ـ والواحدي، أسباب النزول: 165 ـ 166.

وقال قطرب: القسيس العالم بلغة الروم. والرهبان جمع راهب مثل فارس وفرسان وراكب وركبان. وقد يكون رهبان واحداً وجمعه رهابين مثل قربان وقرابين وهو من قول القائل: رهب اللَّه، أي خافه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ قال ابن عباس: هم أربعون رجلاً قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة: اثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام، فلما قرأ عليهم النبي صلى اللَّه عليه وسلم القرآن عرفوه فرقُّوا له، ففاضت أعينهم ولم يستكبروا أن يدخلوا في دينه[1]. ومعنى الآية: وإذا سمعوا القرآن ترى الدمع يسيل من أعينهم تعرف منهم الحق من صفة محمد صلى اللَّه عليه وسلم ونعته في كتابهم، يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي صدقنا بوحدانيتك وكتابك ورسولك ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي مع من شهد من أنبيائك ومؤمني عبادك بأنك واحد لا إلّه غيرك، أي اجعلنا في جملتهم. قال ابن عباس: فلما رجعوا إلى قومهم لاموهم على الإيمان بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم والقرآن وقالوا لهم: تركتم ملة عيسى عليه السلام ودين آبائكم. فردوا عليهم كما قال اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي ما لنا لا نؤمن بوحدانية اللَّه وما تبيَّن لنا من الكتاب والرسول ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ونحن نرجوا أن يدخلنا ربنا في الآخرة الجنة مع صالحي أمة محمد صلى اللَّه عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ﴾ أي جازاهم اللَّه بأن أوجب لهم الجنة في الآخرة لقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ وقولهم: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾. جنات، أي بساتين تجري من تحت شجرها ومساكنها وغرفها أنهار الماء والعسل والخمر واللبن ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ذلك الثواب جزاء الموحدين المخلصين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي والذين جحدوا وكذبوا بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم والقرآن فماتوا على ذلك فهم أهل النار الشديدة

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 32.

الوقود.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ قال المفسرون: جلس رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يوماً فذكر النار ووصف القيامة، فرق الناس وبكوا، فاجتمع جماعة من أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وهم: أبو بكر وعمر وعلي وعبد اللَّه بن مسعود وعثمان بن مظعون الجمحي والمقداد وعبد اللَّه بن عمر وأبو ذر وسالم مولى أبي حذيفة وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر ومعقل بن مقرن[1] رضي اللَّه عنهم، وتواثقوا في دار عثمان بن مظعون أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ويرفضوا الدنيا، ويسيحوا في الأرض، ويجبوا مذاكيرهم، ويعتزلوا النساء، ولا يأكلوا لحماً ولا دسماً، ويلبسوا المسوح. فبلغ ذلك رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فأنزل اللَّه فيهم هذه الآية[2]، ومعناها: لا تحرموا على أنفسكم طيبات ما أحل اللَّه لكم من الطعام والشراب، واللباس، والجماع، ولا تظلموا أنفسكم بقطع المذاكير ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي لا تتجاوزوا حدود اللَّه بتحريم حلاله، فإن محرم ما أحلَّ اللَّه كمحل ما حرَّم اللَّه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي لا يرضى عمل المعتدين

---

(1) أبو عبد اللَّه ابن مقرن: صحابي من الذين حرموا الشهوات على أنفسهم. الطبقات الكبرى: 6/ 97 ـ تاريخ الطبري: 3/ 350.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 166 ـ تفسير القرطبي: 6/ 260.

على أنفسهم المتجاوزين حدود اللَّه.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا مما رزقكم اللَّه من الطعام والشراب حلالاً أحلّه اللَّه لكم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾. وقيل: إنه لما بلغ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم خبرهم أتى على دار عثمان بن مظعون فلم يجده فقال لامرأة عثمان بن مظعون ـ خولة بنت حكيم بن أمية[1] وكانت عطارة ـ: «**أحق ما بلغني عن زوجك وأصحابه؟** »فكرهت أن تكذب على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وكرهت أن تبدي خبر زوجها فقالت: يا رسول اللَّه إن كان أخبرك عثمان فقد صدق[2]. فرجع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فلما جاء عثمان أخبرته زوجته بذلك فمضى إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فسأله النبي صلى اللَّه عليه وسلم عن ذلك فقال: نعم. قال عليه السلام: «**أما إني لم أؤمر بذلك لأن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا، وأفطروا وقوموا وناموا فأنا أقوم، وأنام، وأصوم، وأفطر، وآكل اللحم، والدسم، وآتي النساء، ومن رغب عن سنتي فليس مني**». ثم جمع الناس وخطبهم وقال: «**ما بال قوم حرموا الطعام والنساء والطيب والنوم، أما إني لا آمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهباناً فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء واتخاذ الصوامع، وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتهم الجهاد، فاعبدوا اللَّه ولا تشركوا به شيئاً وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم فشدد اللَّه عليهم**»[3]. وعن سعيد بن المسيب قال: جاء عثمان بن مظعون إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللَّه إن نفسي تحدثني بأن أختصي قال: «**مهلاً يا عثمان فإن اختصاء أمتي الصيام**». قال: يا رسول اللَّه إن نفسي تحدثني أن أترهب في رؤوس

---

(1) خولة بنت حكيم بن أمية بن حارثة، وأمها ضعيفة بنت العاص، أسلمت خولة وأرادت أن تهب نفسها للنبي صلى اللَّه عليه وسلم فأرجأها، ثم تزوجها عثمان بن مظعون فكانت مثالاً للزوجة الصالحة.
الطبقات الكبرى: 8/ 124 ـ تهذيب التهذيب: 12/ 415.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 32.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 167 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 32.

الجبال. قال: «**مهلاً يا عثمان فإن ترهب أمتي الجلوس في المساجد لانتظار الصلاة**». قال: يا رسول اللَّه إن نفسي تحدثني أن أخرج من مالي كله. قال: «**مهلاً يا عثمان فإن صدقتكم يوماً بيوم وتعف نفسك وعيالك وترحم المساكين واليتيم فتعطيهم أفضل من ذلك**». قال: يا رسول اللَّه إن نفسي تحدثني أن أطلِّق امرأتي. قال: «**مهلاً يا عثمان فإن الهجرة في أمتي من هجر ما حرَّم اللَّه عليه أو هاجر لي في حياتي أو زار قبري بعد وفاتي أو مات وله امرأة أو امرأتان أو ثلاث أو أربع**». قال: يا رسول اللَّه فإن نهيتني أن أطلقها فإن نفسي تحدثني أن لا أغشاها قال: «**مهلاً يا عثمان فإن المسلم إذا غشي امرأته أو ما ملكت يمينه فلم يكن له من وقعته تلك ولد كان له وصيفاً في الجنة. وإن كان له من وقعته تلك ولد فمات قبله كان له فرطاً وشفيعاً يوم القيامة، وإن مات بعده كان له نوراً يوم القيامة**». قال: يا رسول اللَّه إن نفسي تحدثني أن لا آكل اللحم. قال: «**مهلاً يا عثمان فإني أحب اللحم وآكله إذا وجدته، ولو سألت ربي أن يطعمنيه في كل يوم لأطعمنيه**». قال: يا رسول اللَّه فإن نفسي تحدثني أن لا أمس الطيب. قال: «**مهلاً يا عثمان فإن جبريل أمرني بالطيب غباً**». وقال: «**يوم الجمعة لا ترك له. يا عثمان لا ترغب عن سنتي فإن من رغب عن سنتي ثم مات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي يوم القيامة**»[1]. وعن أبي موسى الأشعري رضي اللَّه عنه قال: رأيت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يأكل لحم الدجاج[2]، ورأيته يأكل الرطب والبطيخ. وعن ابن عباس أنه قال: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك ثنتان سرف ومخيلة. وعن عائشة رضي اللَّه عنها أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم كان يأكل الدجاج والفالوذج، وكان يعجبه الحلوى والعسل[3]. قال: «**إن المؤمن حلو يحب الحلاوة**». وقال: «**إن في بطن قلب المؤمن زاوية لا**

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 293.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 5/ 93، رقم: 5905، باب في المطاعم والمشارب.

(3) وفي البخاري عن عائشة: كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يحب الحلوى والعسل. (فتح الباري: 10: 698، رقم: 5431، كتاب الأطعمة).

(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 33.

(5) أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخي. توفي بالبصرة سنة إحدى وثلاثين ومائة. الطبقات الكبرى: 7/ 180.

يملؤها إلا الحلو»[4]. وروي أن الحسن كان يأكل الفالوذج فدخل عليه فرقد السبخي[5] فقال: يا فرقد ما تقول في هذا؟ قال: لا آكله ولا أحب آكله. فأقبل الحسن على من عنده كالمتعجب فقال: لعاب النحل ولباب البر مع سمن البقر أهل يعيبه مسلم؟ وجاء رجل إلى الحسن فقال له: إن لي جاراً لا يأكل الفالوذج. قال: ولم؟ قال: لا يؤدي شكره. قال: أفيشرب الماء البارد؟ قال: نعم. قال: إن جارك هذا جاهل، إن نعمة اللَّه عليه في الماء البارد أكثر من نعمته في الفالوذج[1].

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ قال ابن عباس: هو أن تحلف للرجل باللَّه في الشيء ترى أنه كذلك. وقالت عائشة: هو قول الرجل: لا واللَّه وبلى واللَّه يصل به كلامه ولا يعقد عليه قلبه. واللغو في اللغة: هو الكلام الساقط الذي لا يعتد به.

قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ أي بما وكدتم الأيمان. قرأ أهل الحجاز وحفص وأبو عمرو: عقدتم ـ بالتشديد ـ بمعنى وكدتم وقرأ أهل الكوفة إلا حفصاً: عقدتم ـ بالتخفيف[2] ـ ومعناه: أن يحلف الرجل على أمر في المستقبل ليفعله ثم لا يفعله فمن قرأ: عقدتم ـ بالتشديد ـ فمعناه: المبالغة والتأكيد، وفائدته أن يعقدها في قلبه ولفظه، ولو عقد عليها في أحدهما دون الآخر لم يكن معتقداً وهو كالتعظيم. وكان أبو الحسن الكرخي[3] رحمه اللَّه يقول: قراءة التشديد لا تحتمل إلا العقد بالقول، وقراءة التخفيف تحتمل عقد القلب وهو العزيمة والقصد إلى القول، ويحتمل عقد اليمين قولاً يقال: عقدت على أمر كذا إذا عزمت عليه. وقيل: إن الأصح أن المراد بالعقد القول، لأنه لا خلاف بين الأئمة أن القصد إلى اليمين لا يتعلق به وجوب الكفارة، فإن

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 262.
(2) مكي، الكشف: 1/ 417.
(3) أبو الحسن، عبيد اللَّه بن الحسن بن دلال الكرخي، ولد بكرخ جدان سنة ستين ومائتين هجرية، وعاش ببغداد حيث تعلم هناك الفقه الحنفي، حتى أصبح بعد مدة شيخاً للحنفية، وكان تقياً ورعاً يعيش في فقر مدقع. توفي سنة أربعين وثلاثمائة هجرية.
تاريخ بغداد: 10/ 353 ـ تاريخ التراث العربي: 2/ 94.

وجوبها متعلق باللفظ دون القصد، ويحتمل أن يكون معنى التشديد إلى أنه معنى متى أعاد اليمين على وجه التكرار وهو يريد التكرار لا يلزمه إلا كفارة واحدة وقرأ أهل الشام: عاقدتم ـ بألف ـ وهو من المعاقدة، وهو أن يحلف الرجل لصاحبه على مسألته أو يحلف كل واحد منهما لصاحبه.

قوله تعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾ أي كفارة ما عقدتم من الأيمان عند الحنث إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم غداء وعشاء لاوكس ولا شطط وقيل: معناه من أوسطه في الشبع لا تفريط في الأكل ولا يكون دون المغني عن الجوع، فإذا أراد أن يطعمهم الطعام تمليكاً أعطى لكل مسكين نصف صاع من حنطة عند أصحابنا. هكذا روي عن عمر وعلي وعائشة وابن عباس وابن عمر رضي اللَّه عنهم أجمعين. وقال الشافعي ومالك: مد بمد النبي صلى اللَّه عليه وسلم. والمد: رطل وثلث. وهكذا روي عن زيد بن ثابت رضي اللَّه عنه[1]. وأما غداؤهم وعشاؤهم فلا عبرة بمقدار الطعام إلا أن يكون فيهم صبي صغير لا يستوفي إلا شيئاً يسيراً فلا يعتد به حينئذ. وإنما قالوا يغديهم ويعشيهم لأن ذلك أوسط طعام الأهل، لأن أكثر الأكل ثلاث مرات وأقله وجبة، والأوسط الغالب مرتان. وقال سعيد بن جبير: يعطي لكل مسكين مدين: مداً لطعامه ومداً لأدامه. وسئل شريح عن الكفارة فقال: الخبز والزيت. فقال له السائل: أرأيت إن أطعمت الخبز واللحم؟ قال ذاك أرفع طعام أهلك وطعام الناس. وعن ابن مسعود وابن عمر: أن أعلى ما يطعم الأهل الخبز اللحم والأدون: الخبز البحت بغير الأدام، والأوسط الخبز مع السمن ونحوه. وظاهر الآية يقتضي: أنه إذا أعطى مسكيناً واحداً طعام العشرة لا يقع إلا عن الواحد. إلا أن أصحابنا إنما اختاروا دفع ذلك إلى الواحد في عشرة أيام على اعتبار المعنى، لأن المأخوذ حال الحنث سد عشر خلات. ولا فرق بين سد خلة الواحد في عشرة أيام وسد خلة العشرة في يوم واحد[2].

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 276 ـ 277.
(2) نفسه: 6/ 278.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 33.

قوله تعالى: ﴿أَو كِسْوَتُهُمْ﴾ قرأ السلمي: أو كسوتهم ـ بضم الكاف ـ وهما لغتان[3]. ومعنى الآية: أو كسوة عشرة مساكين. وأدنى ما يجوز في الكسوة ثوب واحد رداء أو قميص أو إزار أو قباء أو كساء، وأما القلنسوة والخمار والعمامة والسراويل فلا تجزىء عن الكسوة في ظاهر الرواية. وروي عن محمد أن السراويل تجزىء لجواز الصلاة فيها للرجل. وعند الشافعي: تجزىء السراويل والعمامة. وعن سعيد بن المسيب والضحاك: يجب لكل مسكين ثوبان[1].

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ معناه: أو اعتاق مملوك يستوي فيه الذكر والأنثى والصغير والكبير. وظاهر اللفظ يقتضي رقبة سليمة من العاهات، لأنه اسم للشخص بكماله إلا أن الفقهاء اتفقوا أن النقص اليسير لا يمنع جوازها، ولا يجوز عتق أم الولد والمعتق بعضه بالإجماع. وأما المدبر فالخلاف فيه كالخلاف في المعتق إلى أجل. وأما المكاتب فيجوز عتقه عن الكفارة إذا لم تؤد شيئاً من الكتابة عندنا. وقال الشافعي: لا يجوز، ويجوز عندنا عتق الرقبة الكافرة والمؤمنة في كفارة اليمين والظهار، لأن الرقبة مبهمة فيهما إلا العبد المرتد فإنه لا يجوز، لأنه غير محقون بالدم. وقال الشافعي: لا يجوز قياساً على كفارة القتل.

قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ معناه: إذا لم يكن له فضل عن مسكنه وثياب بدنه وما يتأثث به في منزلة مقدار ما يطعم عشرة مساكين أو يكسوهم أو يعتق رقبة فعليه صيام ثلاثة أيام. وظاهر الآية يقتضي أنه يجزىء في الصيام التفريق، وهو قول مالك والشافعي. وفي قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب: فصيام ثلاثة أيام متتابعات. وعن ابن عباس ومجاهد وإبراهيم وقتادة وطاوس أنهم قالوا: هي متتابعات[2].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي ذلك الذي ذكرت لكم

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 295 ـ 296.
(2) تفسير القرطبي: 6/ 283 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 34.

وأمرتكم به كفارة أيمانكم إذا حلفتم وحنثتم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ أي احفظوها من الحنث، وهذا إذا لم تقع اليمين على منع واجب أو فعل معصية. أما إذا كانت اليمين على منع واجب أو فعل معصية فعلى الحالف أن يحنث نفسه ويكفر عن يمينه، ويقال معناه: احفظوا أيمانكم، أي راعوا ألفاظ أيمانكم ليعلم الرجل ما حلف عليه فيكفر إذا حنث. ويقال معناه: لا تحلفوا. كما قال الشاعر(1):

قليل الألايا حافظ ليمينه ∴ إذا سبقت منه الأليَّة برَّت(2)

والتأويل الأول أقرب إلى ظاهر الآية، لأن الإنسان لا يؤمر بحفظ الشيء المعدوم. لا يقال لمن لا مال له: احفظ مالك.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي هكذا يبين اللَّه لكم أمره ونهيه كما بيَّن كفارة اليمين لكي تشكروا إنعامه وبيانه.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ (91) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (92) لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (93)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾. الميسر: هو القمار كله. وعبادة الأنصاب، وهي الأحجار،

---

(1) كثير عزة. تقدمت ترجمته.

(2) في النسخة (س): إذا بدت، وكذا في النسخة (ف).
(ابن منظور، اللسان: ألا ـ ديوان كثير: 2/ 220: وإن سبقت).

كانوا ينصبونها فيعبدونها. والأزلام التي كانوا يجيلونها عند العزم على المسير. نهى اللَّه عن هذه الأشياء وحرمها بأبلغ أسباب التحريم، لأنه تعالى سماها كلها رجساً. والرجس: هو الشيء المتقذر النجس الذي يرتفع ذكره في القبح. يقال: رجس الرجل يرجس، ورجس يرجس. والرجس ـ بفتح الراء ـ شدة الصوت، ورعد رجاس: إذا كان شديد الصوت. وسميت هذه المعاصي رجساً لوجوب اجتنابها، كما يجب اجتناب الشيء المستقذر.

قوله تعالى: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ من تزيينه لأنه هو الداعي إليه والمرغب فيه والمزين له في قلوب فاعليه.

قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أمرنا بالاجتناب وهو تركه جانباً وظاهر الأمر على الوجوب.. وروي عن عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه أنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**إن اللَّه تعالى لا يجمع الخمر والإيمان في قلب مؤمن أبداً**»[1]. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**مدمن الخمر كعابد الوثن**»[2]. «ومن **شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة**»[3]. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من شرب الخمر في الدنيا سقاه اللَّه من سم الأساود وسم العقارب إذا شربه تساقط لحم وجهه في الإناء قبل أن يشربها، فإذا شربها يفسخ لحمه كالجيفة يتأذى به أهل الموقف**»[4]. و«**من مات قبل أن يتوب من شرب الخمر كان حقاً على اللَّه أن يسقيه بكل جرعة شربها في الدنيا شربة من صديد أهل جهنم**». وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**لعن اللَّه الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها**»[5].

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 5/ 10، رقم: 5586، باب في المطاعم والمشارب.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 5/ 13، رقم: 5597، باب في المطاعم والمشارب.

(3) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 11/ 149، رقم: 5575، كتاب الأشربة ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 13/ 172، بيان أن كل مسكر خمر.

(4) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 34 ـ روى البيهقي في شعب الإيمان أوله: 5/ 243، رقم: 6529.

(5) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 10/ 112، رقم: 3657، باب العصر للخمر ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 1122، رقم: 3381، لعنت الخمر على عشرة أوجه.

(6) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 5/ 10، رقم: 5588، باب في المطاعم والمشارب.

وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر**»[6]. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من شرب الخمر بعد إذ حرَّمها اللَّه على لساني فليس له أن يزوج إذا خطب، ولا يصدق إذا حدث، ولا يشفع إذا شفع، ولا يؤتمن على أمانة، فمن ائتمنه على أمانة فاستهلكها فحق على اللَّه أن لا يخلف عليه**»[1].

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ وذلك أن من شرب الخمر وسكر زال عقله وارتكب القبائح. وربما عربد على جلسائه فيؤدي ذلك إلى العداوة والبغضاء. وكذلك القمار يؤدي إلى ذلك. قال قتادة: كان الرجل يقامر غيره على ماله وأهله فيقمر ويبقى حزيناً سليباً فيكسبه العداوة والبغضاء لذهاب ماله عنه بغير عوض ولا منة[2].

قوله تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي يريد الشيطان أن يصرفكم عن طاعة اللَّه وعن الصلوات الخمس على ما هو معلوم في العادة من أحوال أهل الشراب والقمار.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ معناه: انتهوا عنهما. وهذا نهي بألطف الوجوه ليكون أدعى إلى الانتهاء كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ معناه: أسلموا. فلما نزلت هذه الآية قالوا: انتهينا يا رب. فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾ أي أطيعوا اللَّه والرسول في ترك جميع المعاصي عموماً، واحذروا شرب الخمر وتحليلها وسائر المعاصي ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم عن طاعة اللَّه وطاعة الرسول فإنما على رسولنا تبليغ الرسالة عن اللَّه بأوامره ونواهيه بلغة يعرفونها. وأما التوفيق والخذلان والثواب والعقاب فإلى اللَّه عز وجل. فلما نزل تحريم الخمر والميسر قال الصحابة: يا رسول اللَّه كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر حتى قال المهاجرون: يا رسول اللَّه قتل أصحابنا يوم بدر وماتوا فيما بين بدر وأحد وهم يشربون فما حال من مات منهم؟ فأنزل اللَّه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ أي فيما شربوا من الخمر إذا ما اتقوا الشرك وآمنوا وعملوا

(1) ذكره الثعلبي بسنده في تفسيره من حديث علي بن أبي طالب، ورقة: 34.
(2) ذكره البغوي في معالم التنزيل: 2/ 298.

الصالحات، ثم اتقوا الخمر والميسر بعد تحريمهما، ثم اتقوا ما حرَّم اللّه كله وأحسنوا. وقيل: ليس على الذين آمنوا باللّه ورسوله وعملوا الصالحات، يعني الطاعات، جناح أي جرم ومأثم فيما طعموا من الحلال وشربوا من الخمر قبل تحريمها[1]. وقيل: العلم بتحريمها إذا اجتنبوا الكفر والشرك وسائر المعاصي فيما مضى وآمنوا، أي وصدقوا بمحمد صلى اللّه عليه وسلم والقرآن وعملوا الطاعات، ثم اتقوا الخمر بعد التحريم وآمنوا، أي وأقروا بتحريمها ثم داموا على الاتقاء وضموا إلى ذلك الإحسان في العمل. وقيل: أراد بالاتقاء الأول اتقاء جميع المعاصي فيما مضى، وأراد بالثاني اتقاء المعاصي في المستقبل، وأراد بالثالث اتقاء ظلم العباد في المعاملات. وقيل: أراد بقوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾ إذا ما اجتنبوا شرب الخمر بعد تحريمها وصدقوا بتحريمها، ثم اتقوا سائر المعاصي وأقروا بتحريم كل ما يحدث تحريمه من بعد مع مجانبته، ثم جمعوا بين اتقاء المعاصي وإحسان العمل والإحسان إلى الناس.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي يرضى عمل الذين يفعلون الأفعال الحسنة ويجتنبون قبائحها. وروي عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: شرب نفر من أهل الشام الخمر وعليهم يومئذ يزيد بن أبي سفيان[2]. وقالوا: هي لنا حلال. وتأولوا قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ إلى آخر الآية. فكتب يزيد بذلك إلى عمر رضي اللّه عنه، فكتب إليه عمر أن ابعثهم إليّ من قبل أن يفسدوا من معك. فبعثهم إليه، فلما قدموا جمع عمر رضي اللّه عنه جماعة فقال لهم: ما ترون فيهم؟ قالوا: إنهم افتروا على اللّه

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 169 ـ 170 ـ تفسير القرطبي: 6/ 293.

(2) يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية: أسلم يوم فتح مكة، وشهد حنيناً، وأعطاه الرسول صلى اللّه عليه وسلم غنائم حنين، وولاه أبو بكر الشام، كما ولاه عمر دمشق، فلم يزل بها إلى أن توفي سنة ثماني عشرة هجرية.
الطبقات الكبرى: 7/ 284.

(3) تفسير القرطبي: 6/ 299.

(4) قدامة بن مظعون الجمحي: صحابي، هاجر إلى الحبشة ثم المدينة، وشهد بدراً وأحداً والخندق وسائر المشاهد، واستعمله عمر على البحرين، ثم عزل لشربه الخمر وحده بالمدينة. توفي سنة ست وثلاثين هجرية.
الاستيعاب: 3/ 1277 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 401 ـ الأعلام: 5/ 191.

الكذب وشرعوا في دينه ما لم يأذن فاضرب أعناقهم. وكان في القوم علي كرَّم اللَّه وجهه وهو ساكت، فقال له عمر: ما ترى؟ قال: أرى أن تستتيبهم فإن تابوا فاضربهم ثمانين وأرسلهم[3]. وروي أن قوماً شهدوا عند عمر رضي اللَّه عنه على قدامة بن مظعون[4] أنه شرب الخمر، فأراد عمر أن يجلده فقال قدامة: ليس لك ذلك لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ وقرأ الآية، فقال عمر رضي اللَّه عنه: إنك أخطأت التأويل يا قدامة، ولو اتقيت اللَّه تعالى ما شربت. وفي بعض الروايات: لو اتقيت اللَّه لاجتنبت ما حرَّم عليك. ثم أمر بإقامة الحد عليه[1]. وإنما لم يحكموا بكفر قدامة ولم يستتيبوه لأنه كان يتأوّل الآية على أن الحال التي هو فيها تتفق مع التي ذكر اللَّه تعالى في هذه الآية مكفرة لذنوبه، وأنه لا يستحق العقوبة على شربها مع اعتقاده لتحريمها، وأن إحسانه كفر سيئاته، فردّت الصحابة عليه هذا التأويل وأقيم عليه الحد.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ (94) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (95) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي ليعاملنكم اللَّه تعالى معاملة المختبر ليجازيكم على ما يظهر

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 297 ـ 298.
(2) في النسخة (ف): للتجنس.
(3) سورة الحج (22)، الآية: 30.

منكم. وقوله تعالى: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ اختلفوا فيه، قال بعضهم: «من» ههنا للتبعيض وأراد بذلك صيد البر دون البحر، وصيد الإحرام دون الإحلال. وقال بعضهم: «من» ههنا للجنس[2] كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾[3] معناه: الرجس الذي هو وثن. وقال بعضهم: أراد بقوله: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ بما يكون من أجزاء الصيد وإن لم يكن صيداً كالبيض والفرخ والريش. والآية شاملة لجميع هذه المعاني. قوله تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي تأخذونه بأيديكم من أفراخ الطير وصغار الوحش والبيض وما تصيبه رماحكم من كبار الصيد التي لا تصاد باليد.

وقوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي ليميز من يخافه ممن لا يخافه في السر بينه وبين اللّه تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي من تجاوز الحد في أخذ صيد البر مع الإحرام وأخذ الصيد في الحرم بعد بيان اللّه والنهي عنه ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني التعزير والكفارة في الدنيا يفرق الضرب على أعضائه كلها ما خلا الوجه والرأس والفرج، فيضرب ضرباً وجيعاً ويؤمر بالكفارة، ويكون هذا المتعدي مأخوذاً بعذاب الآخرة إن مات قبل التوبة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ روي أن هاتين الآيتين نزلتا بالحديبية وكان أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم محرمين، وكان الصيد من الوحش والطير يغشى رحالهم[1]. وفي قوله: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ وجهان: أحدهما: وأنتم محرمون بحج أو عمرة، والثاني: وأنتم داخلون في الحرم. وقوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ﴾ دليل أن كل ما يقتله المحرم من الصيد لا يكون مذكى، لأن اللّه تعالى سمى ذلك قتلاً، فلا يجوز أكل المقتول، وإنما يجوز أكل المذبوح على شرط الذكاة. والصيد في اللغة: اسم لكل ممتنع

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 302.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 4/ 506، رقم: 1828، كتاب جزاء الصيد ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 8/ 113، كتاب الحج ـ ومالك في الموطأ: المنتقى: 2/ 260، ما يقتل المحرم من الدواب.

متوحش، فلا يفترق الحكم في وجوب الجزاء بين المأكول منه وبين غيره. إلا أنه روي عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والعقرب والغراب والفأرة والكلب العقور**»[2]. وأراد بالكلب العقور الذئب على ما ورد في بعض الروايات.

قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ روي أنه نزل في كعب بن عمرو[1] عرض له حمار وحش فطعنه برمح فقتله ولم يكن علم بنزول آية التحريم[2]. واختلفوا في صفة العمد الموجب للجزاء والكفارة في آية الصيد فقال الأكثرون من أهل العلم: سواء قتل المحرم الصيد عمداً أو خطأ فعليه الجزاء. وجعلوا فائدة تخصيص العمد بالذكر في هذه الآية ما في نسقها بقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ لأن المخطىء لا يجوز أن يلحقه الوعيد، والقول الثاني ما روي عن قتادة وطاوس وعطاء أنهم قالوا: لا شيء على الخاطىء. وهو رواية عن ابن عباس، والقول الثالث: وهو قول مجاهد والحسن: أراد به إذا قتله ناسياً لإحرامه وحصل القتل عمداً. وهذا القول يقتضي أن غير العامد لقتله الذاكر لإحرامه لا يؤمر بالكفارة، ولكن اللَّه يعاقبه في الآخرة على فعله. وعلى هذا التأويل قالوا: إن معنى قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ أي عاد إلى هذا الفعل من بعد العلم بالنهي كان عقوبته النقمة ينتقم اللَّه منه. وقال آخرون: هو القتل عمداً وهو ذاكر لإحرامه، فيحكم عليه في العمد والخطأ بالكفارة والجزاء، وهو اختيار الشافعي. وقال الزهري: نزل القرآن بالعمد، وجاءت السنة بالخطأ. وقال ابن عباس: إن قتله عمداً سئل هل قتلت قبله شيئاً من الصيد؟ فإن قال: نعم. لم يحكم عليه ويقال له: اذهب فينتقم اللَّه منك، وإن قال: لم أقتل قبله شيئاً حكم عليه بالجزاء، فإن قتل الصيد ثانياً وهو محرم بعد ما حكم عليه حكم عليه ثانياً ويملأ بطنه وظهره

---

(1) أبو اليسر، كعب بن عمرو الأنصاري الأسلمي، شهد العقبة وبدراً روى عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وعنه ابنه عمار وابن طلحة توفي بالمدينة سنة خمس وخمسين هجرية.
الطبقات الكبرى: 3/ 436 ـ تهذيب التهذيب: 8/ 437.

(2) تفسير البغوي: 2/ 302.

(3) ذكر الثعلبي هذا الخلاف في تفسيره، ورقة: 35.

ضرباً وجيعاً، وإذا عاد حكم عليه ثانياً، وعليه الجمهور. وقال بعضهم: إذا قتله عمداً وهو ذاكر لإحرامه فلا حكم عليه بالجزاء لأنه أعظم من أن يكون له كفارة. والقول الأول أصح هذه الأقاويل كلها لأن سائر جنايات الإحرام لا تختلف بين المعذور وغير المعذور، وأن اللّه أحل للمحرم المريض حلق الرأس على الأذى وأوجب عليه الفدية[3].

قوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ نونه أهل الكوفة ورفعوا المثل على البدل من الجزاء كأنه فسر الجزاء، أي فعليه جزاء مثل الصيد المقتول من النعم. وقرأ الباقون بالإضافة[1]، ومعناه: عليه أن يجزىء بمثل المقتول، أي يشتري بقيمته من النعم فيذبح وقد تجوز إضافة الشيء إلى نفسه كما يقال: ثوب خز، وباب حديد، ويوم الجمعة، ويحتمل أن يكون معناه: عليه جزاء مثل النعم المقتول ومثل النعم المقتول قيمته من جهة الحكم.

وقوله: ﴿هَدْيًا﴾ منصوب على الحال، أي يحكمان به مقدران بهدي.

وقوله: ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ لفظه لفظ المعرفة، ومعناه: النكرة كأنه قال: بالغاً الكعبة. إلا أن التنوين حذف استخفافاً. وكنى بالكعبة عن الحرم، لأن حرمته لأجل الكعبة. وفي ذكر بلوغ الكعبة بيان اختصاص هدي الجزاء بالحرم وأنه لا يجوز ذبحه إلا فيه. ومعنى قوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي فعلى القاتل الفداء مثل المقتول من النعم. والنعم في اللغة: من الإبل والبقر والغنم، فإذا انفردت الإبل قيل إنها نعم، وإذا انفردت البقر والغنم لم تسمَّ نعماً. واختلف أهل العلم في كيفية الجزاء[2]، فقال أبو حنيفة وأبو يوسف: ينظر الحكمان العدلان من أهل المعرفة إلى الصيد المقتول فيقومانه حياً في ذلك المكان وذلك الزمان، إذا عرفت القيمة خير القاتل، فإن شاء اشترى بتلك القيمة هدياً من النعم وذبحه في الحرم، وإن شاء اشترى بها طعاماً فأطعمه مساكين الحرم وغيرهم، كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من تمر أو

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 418.

(2) أخذ أبو حنيفة وأبو يوسف بقراءة إضافة الجزاء إلى المثل، وأخذ الشافعي ومحمد الشيباني بقراءة تنوين الجزاء ورفع المثل.

شعير كما في الكفارات، وإن شاء صام مكان كل نصف صاع من بر يوماً، وإن لم يبلغ قيمة الصيد إطعام مسكين صام يوماً كاملاً إذا اختار الصوم، لأن الصوم ما لا يتبعض. وقال محمد والشافعي: إن كان للصيد المقتول مثلاً من جهة الخلقة كان على القاتل النظير في الخلقة، فيجب عليه في النعامة: بدنة، وفي بقرة الوحش: بقرة، وفي الظبي: شاة، وفي الغزال: عنز، وفي الأرنب: عناق، وفي اليربوع: جفرة[1]. وإن لم يكن للصيد مثل من النعم من جهة الخلقة كان عليه قيمته. وعن محمد أن الخيار في هذا إلى الحكمين دون المصيب. وهو قول مالك[2].

قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي يحكم بالجزاء فقيهان عدلان فينظران إلى أشبه الأشياء فيحكمان به. وروي عن قبيصة بن جابر[3] قال: خرجنا حجاجاً وكنا إذا صلينا الغداة[4] اقتدنا رواحلنا نتمشى ونتحدث، فبينما نحن ذات غداة إذ سنح[5] لنا ظبي فابتدرته ورميته بحجر فأصبت خشاءه[6] فركب ردعه[7] فمات، فلما قدمنا مكة سألنا عمر رضي اللّه عنه، وكان حاجاً وكان عبد الرحمن بن عوف جالساً عنده، فسألته عن ذلك فقال لعبد الرحمن: ما ترى؟ قال: عليه شاة. قال: وأنا أرى ذلك. قال: فاذهب فأهد شاة. قال: فخرجت إلى صاحبي فقلت: إن أمير المؤمنين لم يدر ما يقول حتى سأل غيره.

---

(1) الجفرة: من أولاد الشاة: ما بلغ أربعة أشهر، وبعضهم يقول: ما أكل ورعى.

(2) ذكر القرطبي في تفسيره: 6/ 310 ـ 311 هذه الأقوال بشيء من التفصيل.

(3) قبيصة بن جابر بن وهب بن مالك بن خزيمة ثقة وله أحاديث روى عن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف. توفي قبل الجماجم.
الطبقات الكبرى: 6/ 194.

(4) صلاة الغداة: هي صلاة الفجر.

(5) سنح الظبي: أتاك عن يسارك، وبرح: أتاك عن يمينك.

(6) خشاءه ـ بضم الخاء وتشديد الشين المفتوحة ـ وهو العظم الدقيق العاري من الشعر، الناتىء خلف الأذن.

(7) فركب ردعه فمات: إذا خر لوجهه على دمه.

(8) تغمص الفتوى: تحتقرها وتستهين بها وتزدريها.

(9) رواه البيهقي في السنن الكبرى: 5/ 181.
ذكره الطبري في تفسيره: 11/ 16.

قال: فلم يفاجئنا إلا عمر ومعه الدرة، فعلاني بالدرة وقال: أتقتل في الحرم وتغمص الفتوى[8]، قال اللَّه تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فأنا عمر وهذا عبد الرحمن[9].

قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ﴾ فيه قراءتان إحداهما الرفع والتنوين في كفارة، والرفع في طعام من غير تنوين، والأخرى الرفع في كفارة بغير تنوين، والخفض في طعام على الإضافة[1].

قوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي ليذوق عقوبة صنعه. والوبال: ثقل الشيء في المكروه، مأخوذ من الوبيل. يقال: طعام وبيل وماء وبيل إذا كانا ثقيلين، قال اللَّه تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[2] أي ثقيلاً شديداً.

قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي تجاوز اللَّه عن ما مضى من قتل الصيد قبل التحريم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ أي من عاد إلى قتل الصيد بعد العلم بالتحريم متعمداً لقتله يعذبه اللَّه في الآخرة ويعاقبه على فعله. وأصل الانتقام الانتصار والإنصاف، وإذا أضيف إلى اللَّه أريد به المعاقبة والمجازاة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي منيع بالنقمة ينتقم ممن عصاه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ أي أحلّ لكم اصطياد ما في البحر وطعامه، أي ما لفظه البحر وحسر عنه الماء. وهذا قول أبي بكر وعمر وأبي هريرة. وقال بعضهم: طعامه هو الملح وهو قول سعيد بن جبير وعكرمة والنخعي وقتادة.

وقوله تعالى: ﴿مَتَـٰعًا لَّكُمْ﴾ أي منفعة لكم، وهو مصدر مؤكد لكلام، أي تمتعوا متاعاً لكم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي ومنفعة للمارة في السفر. قال ابن عباس: نزلت

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 418.
(2) سورة المزمل (73)، الآية: 16.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 35.

هذه الآية في قوم من بني مدلج كانوا أهل صيد البحر، أتوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالوا: إنا نصطاد من البحر وربما مد البحر فيعلو الماء كل شيء ثم يرجع ويبقى السمك بالأرض ويذهب الماء عنه فنصيبه ميتاً، فحلال لنا أكله أم لا؟ فأنزل اللّه هذه الآية[3].

قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًاۗ﴾ أي وحرم عليكم اصطياد ما في البر، ويقال: عين صيد البر ما دمتم محرمين. ولا خلاف في الاصطياد أنه حرام على المحرم في البر. فأما عين الصيد فإن صاده حلال، فإن كان صاده بأمر المحرم أو بإعانته أو دلالته أو إشارته حرم على المحرم تناوله، وإن صاده الحلال بغير أمر المحرم حلّ للمحرم تناوله. كما روي في حديث أبي قتادة أنه قال: كنت في رهط من المحرمين وأنا حلال، فبصرت بحمار وحش فقلت: ناولوني الرمح. فأبوا، فأخذته وأثبت الصيد، فسألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن أكله فقال: «**هل أعنتم؟ هل أثرتم؟ هل دللتم؟**» فقالوا: لا. قال: «**إذاً فكلوا**»[1].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي اتقوا اللّه في أخذ الصيد في الإحرام الذي إلى موضع جزائه تبعثون.

قال اللّه تعالى:

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿97﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿98﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿99﴾ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿100﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ أي

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره: 6/ 322.
(2) سميت الكعبة لأنها مربعة. (تفسير الطبري: 11/ 90).

جعل اللَّه الكعبة[2] أمناً للناس بها يقومون ويأمنون، وذلك أن الرجل كان إذا أصاب ذنباً في الجاهلية والإسلام أو قتل قتيلاً لجأ إلى الحرم فأمن بذلك. وكانت الكعبة قواماً لمعايشهم وعماداً لهم في أمر دينهم ودنياهم لما يحصل في ذلك من الحج والعمرة والتجارة وما يجيء إلى الحرم من ثمرات كل شيء. وقيل: معنى قوله: ﴿قِيَمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي قبلة لهم أمروا أن يقوموا في الصلاة متوجهين إليها. قوله تعالى: ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي وجعل الشهر الحرام أمناً أيضاً، كانوا إذا دخل الشهر الحرام لم يقتلوا فيه أحداً حتى يمضي.

قوله تعالى: ﴿وَالْهَدْيَ﴾ أي جعل الهدي الذي يهدى إلى البيت أمناً للرفقة، وجعل القلائد أمناً، والقلائد للبدن من البقر والإبل كانوا يقلدونها بنعل أو خف، وربما كانوا يقلدون رواحلهم إذا رجعوا من مكة من لحاء[1] شجر الحرم فيأمنون بذلك، وكان أهل الجاهلية يأكل الواحد منهم القضيب والشجر من الجوع وهو يرى الهدي والقلائد فلا يتعرّض تعظيماً له.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: ذلك الأمر في الجاهلية دليل أنه تعالى يعلم ما في السموات وما في الأرض وما فيه صلاح الخلق، إذ جعل في أعظم الأوقات فساداً ما يؤمن به، وشرع الحج وفيه مصالح الخلق على نحو ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن استحل ما حرّم اللَّه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب.

قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ﴾ أي ما على محمد صلى اللَّه عليه وسلم إلا تبليغ الرسالة في أمر العقاب والثواب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي ما تظهرون من القول والعمل ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وليس على محمد طلب سرائركم، ولا يعلم السرائر إلا اللَّه عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ أي قل يا محمد لا يستوي الحلال والحرام ولو أعجبك كثرة الحرام فيقال: حبة من حلال أرجح عند اللَّه

---

(1) اللحاء: قشر الشجر.

من جبال الدنيا من حرام. وقيل: معناه: لا يستوي الكافر والمؤمن ولو أعجبك كثرة الكافر، ولا العدل والفاسق وإن كان في الفساق كثرة، ولا يبارك في الحرام وإنما يبارك في الحلال ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي اخشوا عذاب اللَّه في أخذ الحرام يا ذوي العقول لكي تفوزوا بالنجاة والسعادة في الآخرة.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿101﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿102﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿103﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿104﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿105﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[1] قام رجل من بني أسد[2] فقال: يا رسول اللَّه أفي كل عام؟ فوجد من قول ذلك الرجل وجداً شديداً ثم قال له: «**ما كان يؤمنك أن أقول نعم فيجب عليكم في كل عام فلا تطيقونه، فإن لم تفعلوه كفرتم، ذروني ما تركتكم**». وفي بعض الروايات: أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قام خطيباً فسأله الناس عن أشياء فقال: «**لا تسألوني عن شيء إلا حدثتكم به**». فأكثروا عليه السؤال حتى سأله رجل عن الحج أفي كل عام؟ فسكت النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فأعاد الرجل عليه ثلاثاً، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**لو قلت لكم نعم لوجبت ولما استطعتم**»[3]. فقام رجل آخر فقال: أفي الجنة أنا أم في النار؟

---

(1) سورة آل عمران (3)، الآية: 97.

(2) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 36 بأنه عكاشة بن محيصن.

(3) رواه النسائي في سننه: 5/ 83، كتاب مناسك الحج.

(4) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 310.

قال: «**في النار**». فاشتدّ ذلك على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى تغيّر لونه، فقال عمر: رضينا باللَّه رباً، وبالإسلام ديناً، وبك نبياً، نعوذ باللَّه من غضب اللَّه وغضب رسوله صلى اللَّه عليه وسلم. فسري عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم الغضب[4]. وروي أن رجلاً قال: يا رسول اللَّه أين أبي؟ قال: في النار. فقام عمر رضي اللَّه عنه وقال: رضينا باللَّه رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن إماماً، إنّا يا رسول اللَّه عليك حديثو عهد بجاهلية فاعف عنا عفا اللَّه عنك. فسكن غضبه[1]. وروي أن رجلاً من قريش يقال له عبد اللَّه بن حذافة[2] وكان يطعن في نسبه إذا لاحى، أي يدعى لغير أبيه، فقال: يا رسول اللَّه من أبي؟ قال: «**أبوك حذافة**». قال الزهري: فقالت أمه: ما رأيت ولداً أعق منك قط، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رؤوس الناس[3]؟ وفي رواية أخرى أنه لما قال له: أبوك حذافة، قال: يا رسول اللَّه إني فلان. قال: إنك ولد زانية، وإن الذي ولدت على فراشه كان كثير المال فتعرّضت لحذافة فجامعها فاشتملت بك. فأنزل اللَّه هذه الآية ومعناها: يا أيها الذين آمنوا باللَّه ورسوله لا تسألوا عن أشياء إن أظهر لكم جوابها ساءكم ذلك، وإن تسألوا عنها عند نزول القرآن أظهر لكم جوابها ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ أي عن مسألتكم، لم يؤاخذكم بالبحث عنها. ويقال: أراد بالعفو الستر عليهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي متجاوز عن العباد حليم عن الجهال لا يعجل عليهم بالعقوبة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٌ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢﴾ أي قد سأل نحو هذه المسائل قوم من قبلكم. قال ابن عباس: كانت بنو إسرائيل يسألون أنبياءهم عن أشياء لم تكتب عليهم ولم يؤمروا بها، فإذا بيّنوا

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 36.

(2) عبد اللَّه بن حذافة بن قيس بن عدي، وأمه: تميمة بنت حرثان من بني الحارث، أسلم قديماً وهاجر إلى أرض الحبشة، وشهد بدراً، وأرسله الرسول صلى اللَّه عليه وسلم بكتاب إلى كسرى توفي في خلافة عثمان بن عفان.
الاستيعاب: 3/ 888 ـ أسد الغابة: 3/ 142 ـ الطبقات: 4/ 143.

(3) تفسير القرطبي: 6/ 330.

(4) تفسير القرطبي: 6/ 334.

لهم حكمها لم يفعلوا، فعذّبهم اللّه وأهلكهم بسبب ذلك، كما سأل قوم عيسى المائدة ثم كفروا، وسأل قوم صالح الناقة ثم عقروها وكفروا(4).

قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ أي لم يجعل اللّه ما يقوله كفار قريش من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، ولكنهم هم الذين جعلوا من ذات أنفسهم، واختلفوا على اللّه بأنه حرّم هذه الأشياء ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وهم السفلة والعوام لا يعقلون، بل يقلدون رؤساءهم فيها يقولون. وأما تفسير البحيرة فقد كانت الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن نظروا فإن كان البطن الخامس ذكراً ذبحوه لآلهتهم وكان لحمه للرجال من سدنة آلهتهم ومن أبناء السبيل دون النساء، وإن مات قبل الذبح أكله الرجال والنساء، وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنها، أي شقوها شقاً واسعاً، وهي البحيرة لا تركب ولا تذبح ولا تطرد من ماء ولا كلأ، وألبانها ومنافعها للرجال من السدنة وأبناء السبيل دون النساء حتى تموت فإذا ماتت اشترك فيها الرجال والنساء. وأما السائبة: فكان إذا قدم الرجل من سفر أو برىء من مرض أو بنى بناء سيب شيئاً من إناث الأنعام وسلمها إلى سدنة آلهتهم فيطعمون منه أبناء السبيل من ألبانها وأسمانها إلا النساء فإنهم كانوا لا يطعمونهن منها شيئاً حتى تموت، فإذا ماتت أكلها الرجال والنساء جميعاً. وأما الوصيلة: فهي من الغنم كانت الشاة إذا أنتجت سبعة أبطن فإن كان البطن السابع ذكراً ذبحوه لآلهتهم، وإن كان أنثى صنعوا بها ما يصنعون بالأنثى من البحيرة، وإن كان ذكراً وأنثى قالوا إنها وصلت أخاها فلم يذبح الذكر لمكانه منها، وكان منافعها للرجال دون النساء من السدنة وأبناء السبيل إلى أن يموت واحد منها فيشترك فيها الرجال والنساء. وأما الحامي فهو الفحل إذا ركب ولد ولده قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى حتى يموت فيأكله الرجال

---

(1) سيرة ابن هشام: 1/ 89 ـ 90 ـ تفسير القرطبي: 6/ 335 ـ 336.

(2) أبو ثمامة، عمرو بن لحي بن عامر الأزدي: أول من جلب الأصنام إلى أرض العرب ودعاهم لتقديسها.
الأعلام: 5/ 84.

(3) القصب: الأمعاء.

والنساء[1]. وقد روي عن زيد بن أسلم عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**إني لأعرف أول من سيب السوائب وأول من غير عهد إبراهيم خليل اللَّه**». قالوا: من هو يا رسول اللَّه؟ قال: «**عمرو بن لحي**[2]**، ولقد رأيته يجر قصبه**[3] **في النار يؤذي أهل النار بريح قصبه، وإني لأعرف أول من بحر البحائر**» قالوا: من هو يا رسول اللَّه؟ قال: «**رجل من بني مدلج كانت له ناقتان فجدع أذنيهما وحرم ألبانهما ثم شربه بعد ذلك، ولقد رأيته في النار يعضانه بأفواههما ويخبطانه بأخفافهما**». وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لأكثم الخزاعي[1]: «**رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار، فما رأيت من رجل أشبه برجل منه بك ولا بك منه، وهو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام، ونصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي. ولقد رأيته في النار يؤذي أهل النار بريح قصبه**». قال أكثم: يا رسول اللَّه أيضر بي شبهه؟ فقال: «**إنك مؤمن وهو كافر**»[2].

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ معناه: وإذا قيل لأهل مكة هلموا إلى تحليل وتحريم ما أنزل اللَّه في كتابه وبيَّنه الرسول في سنته، قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا من الدين والسنة. يقول اللَّه تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ من الدين والسنّة ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الطريق المستقيم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ أي الزموا أنفسكم واحفظوها، كما يقال: عليك زيداً، فنصبت زيداً على الإغراء بمعنى: الزم زيداً، كأنه تعالى قال: عليكم أيها المؤمنون بإصلاح أنفسكم ومتابعة سنة نبيكم فإنكم إذا فعلتم ذلك لا يضركم ضلالة من ضل من أهل مكة إذا اهتديتم أنتم إلى اللَّه مرجعكم في الآخرة جميعاً، البر والفاجر والمؤمن والكافر، يجزيكم بما كنتم تعملون من خير أو شر. وقد روي عن

---

(1) أكثم بن أبي الجون الخزاعي: صحابي جليل، شبهه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم (عند ابن سعد) بالدجال.
طبقات ابن سعد: 4/ 219.

(2) رواه الحاكم في المستدرك: 4/ 605 من طريق أبي حاتم الرازي.

السلف في تأويل هذه الآية أحاديث مختلفة المضامن وهي متفقة في المعنى، فمنها ما روي عن أبي بكر رضي اللّه أنه قال على المنبر: أيها الناس إني أراكم تتأولون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ وإني سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «**ما من قوم يعمل بين ظهرانيهم بالمعاصي فلم يغيروها إلا يوشك أن يعمهم اللّه بعقابه**»[1]. [وعن أبي أمية[2] الشعباني[3]] قال: سألت أبا ثعلبة الخشني[4] عن هذه الآية فقال: لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال لي: «**يا أبا ثعلبة ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيت دنيا مؤثرة، وشحاً مطاعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك فإن من بعدكم أيام الصبر، والصبر فيها كالقبض على الجمر والمتمسك فيها بمثل الذي أنتم عليه كأجر خمسين عاملاً منكم**»[5]. ففي هذه الأخبار دليل على أن فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يسقط إلا عند العجز عن ذلك، كما روي عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**إذا رأى أحدكم منكراً فاستطاع أن يغيره فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»[6]. وحكي أنه لما مات الحجاج قال الحسن رضي اللّه عنه: اللّهم أنت أمته فاقطع عنا سنته

---

(1) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 11/ 512، رقم: 4338 ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 1327، رقم: 4005 ـ والبيهقي في شعب الإيمان: 6/ 82، رقم: 7550.

(2) ما بين المعقوفين ساقط من النسخة (ك).

(3) أبو أمية الشعباني الدمشقي، اسمه يحمد بضم الياء وكسر الميم روى عن معاذ بن جبل وأبي ثعلبة الخشني وكعب الأحبار، وعنه عمرو بن جارية اللخمي وغيره، ذكره ابن حبان في الثقات.
تهذيب التهذيب: 12/ 15.

(4) أبو ثعلبة، جرهم بن فاش الخشني: صحابي شهد مع النبي صلى اللّه عليه وسلم خيبر. توفي بالشام سنة خمس وسبعين.
الطبقات الكبرى: 7/ 291.

(5) رواه ابن ماجه في سننه: 2/ 1330، رقم: 4014، والبيهقي في شعب الإيمان: 6/ 83، رقم: 7553.

(6) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 2/ 21، باب وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ والترمذي في سننه: العارضة: 9/ 18.

فإنه أتانا أخيفش أعيمش، ابتدأ بيد قصيرة البنان والله ما عرق فيها في سبيل الله عنان، يرجل جمته، ويتبختر في مشيته، ويصعد المنبر فيهدر حتى تفوته الصلاة لا أمر الله يتقي ولا من الناس يستحيي، فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون ألا يقول له قائل الصلاة الصلاة أيها الرجل. ثم جعل الحسن يقول: هيهات! والله حال دون ذلك السيف والسوط. وفي هذا الخبر دليل على أن السلف كانوا معذورين في ذلك الوقت في ترك الإنكار باليد واللسان.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ (106) فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (107) ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (108)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في ثلاثة نفر خرجوا من المدينة إلى الشام للتجارة، أحدهم: عدي بن بداء، والآخر: تميم بن أوس الداري[1] وهما نصرانيان والثالث: بديل بن ورقاء[2] مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً مهاجراً، فحضرت بديل بن ورقاء الوفاة وكان مسلماً، فأوصى إلى صاحبيه وأمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله إذا رجعا، فمات بديل فعبثا بمتاعه

(1) أبو رقية، تميم بن أوس الداري، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أخوه نعيم فأسلما، صحب تميم الرسول وغزا معه ثم تحوّل إلى الشام بعد قتل عثمان بن عفان.
الطبقات الكبرى: 7/ 286.

(2) بديل بن ورقاء بن عبد العزى بن ربيعة، أسلم وشهد حنيناً وتبوك وحجة الوداع مع الرسول صلى الله عليه وسلم.
الطبقات الكبرى: 4/ 220.

وأخذا منه إناء من فضة منقوشاً بالذهب كان فيه ثلاثمائة مثقال فلما قدما المدينة وسلما المتاع إلى أهله وجد أهله كتاباً في درج الثياب فيه أسماء الأمتعة فقالوا لهما: هل باع صاحبنا شيئاً من متاعه؟ قالا: لا. قالوا: فهل طال مرضه فأنفق شيئاً على نفسه؟ قالا: لا، إنما مرض حين قدم البلد فلم يلبث أن مات. فقال لهما عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة[1]: فإنا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية متاعه، وفيها إناء منقوش مموَّه بالذهب فيه ثلاثمائة مثقال. قالا: ما ندري إنما أوصى إلينا بشيء وأمرنا أن ندفعه إليكم فدفعناه، فرفعوهما إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وذكروا ذلك له، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية[2]، ومعناها: يا أيها الذين آمنوا شهادة الحال التي بينكم إذا حضر أحدكم الموت فأراد الوصية شهادة اثنين ذوي عدل منكم، أي من أهل دينكم، وهذه جملة تامة تتناول حكم الشهادة على الوصية في الحضر والسفر.

قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ مقيد بالسفر خاصة، معناه: أو آخرون من غير أهل دينكم إن أنتم سافرتم في الأرض فأصابتكم في السفر مصيبة الموت ولم يكن بحضرتكم مسلمون.

قوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي تقفونهما وهما النصرانيان. والمراد بقوله: ﴿بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ صلاة العصر، كان النبي صلى اللَّه عليه وسلم يقضي بعد صلاة العصر وهو وقت اجتماع الناس وأهل الكتاب يعظمونه ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أي الشاهدان النصرانيان يحلفان باللَّه إذا ادعى عليهما ورثة الميت بسبب شكهم في جنايتهما ويقولان في اليمين ﴿لَا نَشْتَرِى﴾ بهذا القول الذي نقوله بأنا دفعنا المال جميعه إليكم عرضاً يسيراً من الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي ولو كان الميت ذا قرابة منا في الرحم، أي لم نخن في التركة لقرابته منا روي أنه كان بين الميت المسلم وبين هذين النصرانيين قرابة في الرحم

---

(1) المطلب بن أبي وداعة، واسمه الحارث بن ضبيرة.
الطبقات الكبرى: 6/ 9.
(2) الواحدي، أسباب النزول: 172 ـ تفسير القرطبي: 6/ 346 ـ 347.
(3) سورة البقرة (2)، الآية: 283.

ومعنى قوله: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي إن شككتم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي ويقولان في اليمين: ولا نكتم شهادة اللّه ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ أي العاصين لو كتمناها كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾[3] وإنما أضاف الشهادة إلى اللّه تعظيماً لها وتهويلاً لأمرها. وقرأ بعضهم شهادة اللّه ـ بتنوين شهادة ـ ونصب اسم اللّه على معنى: لا نكتم اللّه شهادة. وقرأ الشعبي: شهادة اللّه ـ بتنوين شهادة وخفض الهاء ـ من اسم اللّه موصولاً على القسم تقديره: أي واللّه. وقرأ أبو جعفر: شهادة ـ بالتنوين اللّه بقطع الألف وكسر الهاء ـ على معنى ولا نكتم شهادة وتمّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: اللّه على القسم وقرأ يعقوب: شهادة ـ بالتنوين آاللّه بالاستفهام وكسر الهاء ـ فجعل الاستفهام عوضاً عن حرف القسم[1]. وقال ابن عباس: فلما نزلت هذه الآية صلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم صلاة العصر وحلفهما بعد الصلاة عند المنبر باللّه الذي لا إلّه إلا هو أنهما لم يختانا شيئاً مما دفع بديل إليهما، فحلفا فخلى عليه الصلاة والسلام سبيلهما، فمكثا بعد ذلك ما شاء اللّه ثم ظهر الإناء، فبلغ الورثة ذلك فسألوا الذي بيده الإناء فقال: اشتريته من تميم وعدي[2]. وقيل: إنه لما مكث المدة أظهرا الإناء ولم يبيعاه، فقال لهما الورثة: أنتما حلفتما فما بال الإناء معكما؟ فقالا: إنا اشتريناه منه ولم يكن لنا بينة فكرهنا أن نقر به لكم فتأخذوه فاختصموا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فأنزل اللّه هذه الآية[3].

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ معناه: فإن اطلع على أن الوصيين استوجبا ذنباً بالخيانة واليمين الفاجرة حيث قالا إن الميت لم يبع شيئاً من متاعه، ثم قالا بعد ظهور الإناء في أيديهما إنهما ابتاعاه منه، فآخران من أولياء الميت وهما: عمرو بن العاص، والمطلب بن أبي وداعة يقومان مقام النصرانيين الحانثين في اليمين

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 38.
(2) تفسير البغوي، معالم التنزيل: 2/ 318.
(3) الواحدي، أسباب النزول: 172 ـ والبغوي في المصدر السابق.
(4) في النسخة (ف): في حيرته.

فيحلفان ﴿بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ﴾ بأن الإناء لصاحبنا وأنهما لا يعلمان بأن الميت باعه في حياته[4] ﴿أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي أعدل وأحق بالقبول من شهادة النصرانيين، وما اعتدينا فيما ادعينا وحلفنا ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنفسنا لو اعتدينا. فقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ راجع إلى قوله: (فآخران، والأولين) بدل من آخران، كأنه قال: وآخران من الذين استحق عليهم الوصية وهم ورثة الميت وأولياؤه، وهما الأوليان بالميت. ويقال: الأوليان باليمين يقومان مقام النصرانيين في اليمين. ويقال: معنى استحق عليهم، أي استحق فيهم الإثم وهم الورثة استحق النصرانيان الإثم بسببهم وقد يقام «على» مقام «في» كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[1]. وواحد الأوليان: الأولى، والجمع: الأولون، والأنثى: الوليا، والجمع: الوليات والولي. وقرأ الحسن وحفص: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ بفتح التاء والحاء[2]، أي وجب عليهم الإثم. ثم قال: الأوليان راجع إلى قوله: وآخران الأوليان، ولم ترتفع بالاستحقاق. وقرأ الباقون: استحق ـ بضم التاء وكسر الحاء ـ على المجهول، يعني الذين استحق فيهم ولأجلهم الإثم، وهم ورثة الميت استحق الحالفان بسببهم وفيهم. وقرأ الحسن: من الذين استحق عليهم الأولان[3]. وقوله تعالى: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أي يميننا أحق من يمينهما. ونظيره ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ﴾[4] أراد الإيمان. فلما نزلت هذه الآية حلف رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عمرو بن العاص، والمطلب بن أبي وداعة، فحلفا، فدفع المتاع إلى أولياء الميت[5]. قال ابن عباس: فذكرت هذه الآية لتميم بعدما أسلم فقال: صدق اللَّه وبلغ رسوله، أنا أخذت الإناء، فأتوب إلى اللَّه وأستغفره. وإنما انتقلت اليمين إلى الأولياء لأن الوصيين صح عليهما الإناء ثم ادعيا أنهما ابتاعاه، وكذلك إذا ادعى سلعة في يد رجل فاعترف بذلك ثم

---

(1) سورة طه (20)، الآية: 71.
(2) مكي، الكشف عن وجوه القراءات السبع: 1/ 420.
(3) تفسير القرطبي: 6/ 359.
(4) سورة النور (24)، الآية: 6.
(5) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 320.

ادعى أنه اشتراها من المدعي أو وهبها منه المدعي. وعن ابن عباس رضي اللَّه عنهما عن تميم الداري قال: بعنا الإناء بألف درهم فاقتسمناها أنا وعدي، فلما أسلمت تأثمت من ذلك بعدما حلفت كاذباً، فأتيت أولياء الميت فأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فأتوا به إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم فسألهم البينة، فلم يكن لهم بينة، فأمر الأولياء أن يحلفوا فحلفوا، فأخذت الخمسمائة من عدي ورددت أنا الخمسمائة. فذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي ذلك الذي ذكرت لكم أقرب إلى أن يقوم شهود الوصية الشهادة على وجهها وأقرب إلى أن يخافوا أن ترد عليهم أيمانهم بعد أيمان المسلمين[1]. ويقال: أن ترد الأيمان على المدعين المسلمين بعد أيمان المدعى عليهم الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي اخشوه أن تحلفوا أيماناً كاذبة أو تخونوا أمانة. واسمعوا، أي اقبلوا الموعظة. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لا يصلح أمر الخائنين الخارجين عن طاعة اللَّه. روي عن مجاهد أنه أخذ بظاهر الآية وقال: إذا مات المؤمن في السفر ولا يحضره إلا كافران أشهدهما على ذلك فإن رضي ورثته بذلك وإلا حلف الشاهدان أنهما صادقان، فإن ظهر أنهما خانا حلف اثنان من الورثة وبطلت أيمان الشاهدين. وعن هذا قال شريح: لا يجوز شهادة اليهودي والنصراني على المسلم إلا في السفر، ولا تجوز في السفر إلا على الوصية. وذهب أكثر الفقهاء إلى أن شهادة الكافر لا تقبل على المسلم بوجه من الوجوه، لأنه روي أن آية الدين من آخر ما نزل من القرآن، وتلك الآية تقتضي جواز نسخ شهادة الكفار على المسلمين لا محالة، لأن قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾[2] يتناول المؤمنين، لأن الخطاب في تلك الآية يوجه إليهم باسم الإيمان، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

قال اللَّه تعالى:

---

(1) المصدر السابق.
(2) سورة البقرة (2)، الآية: 282.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ
(109) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ
الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ
وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ
الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ
إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (110) وَإِذْ أَوْحَيْتُ
إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111) إِذْ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ
اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن
قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) ﴾.

قال أبو بكر:

قوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ يعني يوم القيامة. ونصب «يوم» على إضمار: اذكروا أو احذروا، ويحتمل أنه انتصب بقوله: واتقوا اللّه. والسؤال للرسل توبيخ للذين أرسلوا إليهم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8)﴾[1] إنما سأل الموؤدة لتوبيخ قاتلها. وأما قول الرسل: «لا علم لنا» فقال ابن عباس والحسن والسدي ومجاهد: إن هذا الجواب إنما يكون في بعض مواطن القيامة[2]، وذلك عند زفرة جهنم وجثو الأمم على الركب لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا قال: نفسي نفسي، فعند ذلك تطير القلوب من أماكنها فتقول الرسل من شدّة هول المسألة وهول الموطن: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ وترجع إليهم عقولهم فيشهدون على قومهم أنهم بلغوهم الرسالة وأن قومهم كيف ردوا عليهم. فإن قيل: كيف يصح ذهول العقل مع قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾[3] قيل: إن الفزع الأكبر دخول جهنم وعن ابن عباس: إن معنى الآية: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ أي

(1) سورة التكوير (81)، الآية: 8.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 39.
(3) سورة الأنبياء (21)، الآية: 103.

لا علم لنا إلا ما علمتنا، فحذف الاستثناء. وقيل: لا علم لنا بتفصيل الأمور.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ معناه: واذكروا أيها المؤمنون إذ قال اللّه يا عيسى، ويجوز أن يكون عطفاً على قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ تقديره. إذ يقول اللّه يا عيسى ابن مريم إلا أنه ذكره بلفظ الماضي لتقديم ذكر الوقت. ومعنى الآية: أظهر منتي عليك بالنبوة وعلى أمك بأن طهرتها واصطفيتها على نساء العالمين ليكون حجة على من كفر وادعاك إلَهاً فتكون حسرة وندامة عليهم يومئذ. والفائدة في ذكر أمه أن الناس تكلموا فيها كما تكلموا فيه، ثم عدّ اللّه نعمه نعمة نعمة فقال: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي أعنتك وقويتك بجبريل الطاهر حين حاولت بنو إسرائيل قتلك. ويقال: أيدتك به في كل أحوالك. وقوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ انتصب ابن مريم لأنه منادى مضاف، أي يا عيسى يا ابن مريم وقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى﴾ معناه: اذكر نعمي. لفظه واحد ومعناه الجمع كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1] أي أنعم اللّه، لأن العدد لا يقع على الواحد.

قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ أي تكلم الناس في حجر أمك في حال صغرك، وتخاطبهم كهلاً بعد ثلاثين سنة على صفة واحدة وحد واحد وذلك من أعظم الآيات. ويقال: أراد بالمهد الذي يربى فيه الطفل حين قال لهم وهو في المهد ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ قال الكلبي: مكث في رسالته بعد ثلاثين سنة ثلاثين شهراً ثم رفعه اللّه إليه. وقيل: ثلاث سنين ثم رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة[2].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي علمتك كتب الأنبياء قبلك والفقه والفهم. ويقال: أراد بالكتاب الخط بالقلم، وأراد بالحكمة كل صواب منهن من قول أو فعل.

---

(1) سورة إبراهيم (14)، الآية: 34.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 39.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ معناه: وإذا تصور من الطين كشبه الخفاش بأمري فتنفخ فيها، أي في الهيئة فتصير طيراً يطير بين السماء والأرض بأمر اللّه، ويكون النفخ كنفخ الراقي.

وقوله تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾. الأكمه: الذي ولد أعمى. والأبرص: الذي لا يعالجه الأطباء، وهو الذي إذا غرز بالإبرة لا يخرج منه الدم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي تحيي الموتى وتخرجهم من قبورهم أحياء بإرادتي. والمراد بالإذن: أن اللّه تعالى كان يأذن له في المسألة والدعاء فيقع ذلك عن اللّه تعالى.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ معناه: وإذ منعت أولاد يعقوب عنك حين هموا بقتلك إذ جئتهم بالبينات، أي المعجزات الدالّة على رسالتك، فقال الذين كفروا من بني إسرائيل ما هذا الذي يرينا عيسى إلا سحر ظاهر. ومن قرأ: ساحر مبين، أراد به عيسى عليه السلام.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾ معناه: وإذا ألهمت الحواريين، وهم خواص عيسى، وألقيت في قلوبهم أن صدقوا بتوحيدي وبرسولي. قالوا: أقررنا وصدقنا واشهد يا عيسى بأننا مسلمون، أي مخلصون بالعبادة والتوحيد.

قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كأنه قال: واذكر نعمتي عليك إذ قال الحواريون. وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قرأ الكسائي: هل تستطيع ربك ـ بالتاء بالإدغام ونصب الباء ـ من ربك، أي هل تقدر أن تسأل ربك[1]. وقد روي عن عائشة رضي اللّه عنها أنها قالت: كان الحواريون أعلم باللّه تعالى من أن يقولوا: هل يستطيع ربك فإنهم أصفياء مؤمنون[2]. وقرأ

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 422.
(2) تفسير القرطبي: 6/ 365.

الباقون: هل يستطيع ربك وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أن هذا السؤال كان في ابتداء أمرهم قبل أن تستحكم معرفتهم باللّه، وكذلك أنكر عليهم عيسى عليه السلام فقال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ لأنه لم يستكمل إيمانهم في ذلك الوقت. والقول الثاني: أن معناه: هل يفعل ذلك؟ كما يقول الرجل لآخر: هل تستطيع أن تقوم معي في أمر كذا؟ أي هل أنت فاعله. والقول الثالث: أن معناه: هل يستجيب لك ربك؟ وهل يعطيك إن سألته؟ كما يقال: استجاب بمعنى أجاب. والحواريون: خواص أصحاب عيسى عليه السلام. قال الحسن: كانوا قصارين. وقال مجاهد: كانوا صيادين. وقيل: كانوا ملاحين. وقال قتادة: الحواريون: الوزراء. وقال عكرمة: هم الأصفياء. وكانوا اثني عشر رجلاً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي قال الحواريون: نريد بما سألناك أن نأكل من المائدة وتسكن قلوبنا بما جئتنا به من المعجزات، ونعلم أن قد صدقتنا بأنك رسول اللّه. وقيل: صدقتنا في دعائك وفيما وعدتنا من كفاية اللّه تعالى إيانا، ونكون على المائدة من الشاهدين إذا رجعنا إلى قومنا.

قال اللّه تعالى:

﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (114) قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ (115)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي قال عيسى: يا اللّه. إلا أنه أقيم الميم في آخره مقام النداء في أوله. وقوله: ﴿أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي طعاماً، ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي نتخذ اليوم الذي

---

(1) في النسخة (س): لأوائلنا وأواخرنا. وفي النسخة (ف): لأولنا وآخرنا.
تفسير القرطبي: 6/ 268.

نزلت فيه المائدة يوم سرور لأهل زماننا ولن يكون خلفنا. وروي أن نزول المائدة كان في يوم الأحد، فاتخذت النصارى ذلك اليوم عيداً. وقرأ زيد بن ثابت: لأولانا وأخرانا[1].

وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾ أي وتكون المائدة دلالة وحجة لمن آمن وعلى من كفر.

وقوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي اجعل ذلك رزقاً لنا. وقيل: ارزقنا الشكر عليها وأنت أفضل المعطين والموفقين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي قال اللّه يا عيسى إني منزل المائدة عليهم. قرأ أهل المدينة والشام وقتادة وعاصم منزلها ـ بالتشديد ـ لأنها نزلت مرات[1]. والتفعيل يدل على التكثير مرة بعد مرة كقوله: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾[2]، وقرأ الباقون: بالتخفيف لقوله: ﴿أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي فمن يكفر بعد نزول المائدة، وقيل: بعدما أكل من المائدة فإني أعذبه بجنس من العذاب لا أعذب به أحداً من عالمي زمانهم بذلك العذاب وهو أن جعل من كفر منهم بعد نزول المائدة خنازير. ويقال: أراد بهذا عذاب الآخرة، كما روي عن ابن عمر أنه قال: أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون. روي عن ابن عباس في سبب نزول المائدة أن عيسى كان إذا خرج اتبعه خمسة آلاف رجل أو أكثر من أصحابه الذين يقتدون به وأهل الزمانة والمرضى والنظارة فسلك بهم ذات يوم القفار ففني طعامهم وجاعوا جوعاً شديداً، فأعلم الناس تلاميذه الحواريين، وقالوا: إن كان صاحبكم حقاً فليدع ربه أن ينزل علينا مائدة من السماء. فكلّمه في ذلك رجل من الحواريين يقال له: شمعون الصفار فقال له: قل لهم: اتقوا اللّه ولا يسألوا لأنفسهم البلاء فإنهم إن كفروا بعد نزولها عاقبهم اللّه. فأخبرهم

---

(1) الداني، التيسير في القراءات السبع: 101.
(2) سورة الإسراء (17)، الآية: 106.

شمعون بذلك فقالوا ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ فقام عيسى عليه السلام فصلى ركعتين، فأوحى اللّه إليه ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم أنزل اللّه مائدة من السماء فوقها منديل والناس ينظرون إليها وعيسى يبكي حتى استقرت بين يدي عيسى وهو يقول: اللهم اجعلها رحمة ثم كشف المنديل وقال: بسم اللّه. فإذا على المائدة سمكة مشوية لا شوك فيها والودك يسيل منها، والخل عند رأسها، والملح عند ذنبها، وعليها أربعة أرغفة، وعليها ألوان البقول إلا الكراث[1]. قال عطية: كان في السمكة طعم كل شيء. فقال لهم عيسى: كلوا من رزق ربكم. فأكلوا منها، ورجعت المائدة كما كانت. فلما رجع القوم إلى قرارهم ونشروا هذا الحديث لسائر الناس ضحك منهم من لم يشهد وقال: ويحكم إنه قد سحر أعينكم وأخذ بقلوبكم، فمن أراد اللّه به الخير ثبته على البصيرة، ومن أراد فتنته رجع إلى كفره. فلعنهم عيسى فباتوا ليلتهم ثم أصبحوا خنازير ينظر الناس إليهم الذكر ذكراً والأنثى أنثى ويلعنونهم، فمكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولا طعموا ولا شربوا. وقال بعضهم: لما دعا عيسى ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، أقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعوها بين أيديهم، فأكل منها آخرهم كما أكل منها أولهم. وقال الكلبي: دعا عيسى عليه السلام شمعون الصفار وكان أفضل الحواريين فقال: هل معك طعام؟ قال: نعم، معي سمكتان وسبعة أرغفة. قال: عليّ بها. فقطعها عيسى قطعاً صغاراً ثم قال: اقعدوا وترفقوا رفقة رفقة كل رفقة عشرة. ثم قام عيسى فدعا اللّه فاستجاب له وأنزل فيها البركة فصار خبزاً صحاحاً وسمكاً صحاحاً، ثم قال: كلوا بسم اللّه. فجعل الطعام يكثر حتى بلغ ركبهم فأكلوا كلهم وفضل شيء كثير، وكان الناس يومئذ خمسة آلاف ونيفاً، فقال الناس جميعاً: نشهد أنك عبد اللّه ورسوله. ثم سألوه مرة أخرى، فدعا عيسى، فأنزل اللّه خبزاً، وسمكاً خمسة أرغفة وسمكتين، فصنع بها ما صنع في المرة الأولى، فلما رجعوا إلى بيوتهم ونشروا هذا

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 41.

(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 327.

الحديث، ضحك منهم من لم يعاين ذلك وقالوا لهم: إنما سحر أعينكم فمنهم من ثبته اللَّه على بصيرته، ومنهم من رجع إلى كفره، فمسخوا خنازير[2]. وعن سلمان الفارسي رضي اللَّه عنه قال: لما سأل الحواريون عيسى أن ينزل عليهم مائدة، لبس صوفاً وبكى وقال: اللهم أنزل علينا مائدة من السماء وارزقنا عليها طعاماً نأكله وأنت خير الرازقين. فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين: غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها منقضة تهوي حتى نزلت بين أيديهم فبكى عيسى وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين. واليهود ينظرون إليها لم يروا مثلها ولم يجدوا ريحاً أطيب من ريحها. فقام عيسى فتوضأ وصلى صلاة طويلة فبكى كثيراً وكشف المنديل عنها وقال: بسم اللَّه خير الرازقين. فإذا هي سمكة مشوية ليس عليها فلوسها ولا شوك فيها تسيل سيلاً من الدسم وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على كل واحد منها زيتون وعلى الآخر عسل، وعلى الثالث بيض، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد. فقال شمعون: يا روح اللَّه أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة؟ فقال: لا من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ولكنه شيء أنشأه اللَّه بقدرته الغالبة، فكلوا مما سألتم يمددكم ربكم ويزدكم من فضله[1]. فقالوا: يا رسول اللَّه لو أريتنا آية أخرى؟ فقال عيسى عليه السلام: يا سمكة احيي بإذن اللَّه. فاضطربت السمكة وعاد عليها فلوسها وشوكها، ففزعوا من ذلك فقال: ما لكم تسألون أشياء فإذا أعطيتموها كرهتموها، ما أخوفني عليكم أن تعذبوا؟! يا سمكة عودي كما كنت بإذن اللَّه تعالى. فعادت مشوية كما كانت، فقالوا: يا روح اللَّه كن أنت أول من يأكل منها ثم نأكل نحن. فقال: معاذ اللَّه أن آكل منها ولكن يأكل منها من سألها. فخافوا أن يأكلوا منها. فدعا عيسى أهل الفاقة، والزمنى، وأهل البرص، والجذام، والمقعدين، والمبتلين فقال لهم: كلوا من رزق اللَّه ولكم الهناء ولغيركم البلاء. فأكلوا منها فصدر عنها ألف وثلاثمائة من رجل وامرأة، وفقير، وزمن، وأبرص، ومبتلى كلهم شبعان يتجشى[2]. ثم نظر عيسى إلى السمكة فإذا هي كهيئتها وطارت الملائكة

---

(1) البغوي، في المرجع نفسه.

(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 327 ـ 328.

بالمائدة صعداً وهم ينظرون إليها حتى توارت عنهم فلم يأكل يومئذ منهم زمن إلاّ صح ولا مريض إلا برىء ولا مبتلى إلا عوفي ولا فقير إلا استغنى، ولم يزل غنياً حتى يموت. وندم من لم يأكل منها من الحواريين، وكانت إذا ولت اجتمع الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء يزدحمون عليها، فلما رأى ذلك عيسى جعلها نوبة بينهم، فلبثت أربعين صباحاً تنزل صبحاً، فلا تزال منصوبة يأكلون منها حتى إذا قام الفيء طارت صعداً وهم ينظرون، وكانت تنزل يوماً، ولا تنزل يوماً يعني كانت تنزل غبا كناقة صالح عليه السلام، فأوحى اللّه إلى عيسى عليه السلام اجعل مائدتي ورزقي للفقراء دون الأغنياء. فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا، وشك الناس فيها وقالوا: ترون المائدة حقاً نزلت من السماء؟ فقال لهم عيسى: هلكتم بعذاب اللّه تعالى. فأوحى اللّه إليه إني شرطت على المكذبين شرطاً أن من كفر بعد نزولها عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين[1]. فقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿118﴾﴾ فمسخ اللّه منهم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين رجلاً باتوا من ليلتهم على فرشهم مع نسائهم في ديارهم فأصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكناسات ويأكلون العذرة. فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى، وبكى على الممسوخين أهلوهم، فلما أبصرت الخنازير عيسى بكت وجعلت تطيف بعيسى وجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم واحداً واحداً فيقبلون ويشيرون برؤوسهم ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيام وهلكوا.

قال اللّه تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿116﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿117﴾﴾.

(1) المصدر السابق.

قال أبو بكر الحداد:

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أول هذه الآية معطوف على قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى﴾ ويجوز أن يكون عائداً على ما تقدم من قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ كأنه قال: إذ يقول اللَّه يوم القيامة. وفي آخر السورة ما يدل على هذا وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وذكر اللفظ على صيغة الماضي لتحقق أمره كأنه قد وقع وشوهد، ونظيره: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[1]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾[2] أي سيقول. قال السدي وقطرب: إن اللَّه تعالى قال لعيسى عليه السلام هذا القول حين رفعه[3]، واحتج بقوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ولا خلاف أن اللَّه لا يغفر لمشرك مات على شركه، وإنما معنى الآية: وإن تغفر لهم بتوبتهم، وقال أكثر المفسرين: إنما يقول هذه المقالة يوم القيامة بدليل ما ذكرنا من قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ و﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. فإن قالوا إن «إذ» للماضي، قلنا: وقد يكون بمعنى «إذا» كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾[4] أي إذا فزعوا. قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ يعني أنت قلت لهم في الدنيا ﴿ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ . فإن قيل: ما وجه سؤال اللَّه لعيسى مع علمه بأنه لم يقل؟ قيل: ذلك توبيخ لقوم عيسى وتحذير لهم من هذه المقالة. وقيل: أراد بذلك أن يقر عيسى بالعبودية على نفسه فيظهر منه تكذيبهم، وأنه لم يأمرهم بذلك فيكون حجة عليهم. وقال أبو روق وميسرة[5]: إذ قال اللَّه لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ارتعدت مفاصله

(1) سورة الأعراف (7)، الآية: 44.
(2) سورة إبراهيم (14)، الآية: 22.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 329 ـ تفسير القرطبي: 6/ 374.
(4) سورة سبأ (34)، الآية: 51.
(5) ميسرة بن حبيب النهدي: روى عن علي بن أبي طالب، وعنه روى سفيان الثوري. الطبقات الكبرى: 6/ 246.

وانفجرت من [أصل] كل شعرة من جسده عين من الدم. يقول عيسى عليه السلام مجيباً للَّه عزّ وجلّ: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ أي تنزيهاً لك يا رب ما ينبغي لي أن أدعي شيئاً ليس بجدير لها ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ﴾ ما عندي وما في ضميري وما كان مني في الدنيا ولا أعلم ما في غيبك، ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ لا يعلم الغيب أحد غيرك. وقيل: معناه تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد إنك أنت علام الغيوب، أي ما كان وما يكون[1]. وأما ذكر النفس في قوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ فعلى مزاوجة الكلام، لأن الغيب من اللَّه في حكم الضمير من الآدميين. والنفس في كلام العرب على ضروب تذكر ويراد بها ذات الشيء، كما يقال: جاءني زيد نفسه، أي ذاته، وقتل فلان نفسه، وأهلك فلان نفسه، ويراد بذلك الذات لكمالها، وتذكر ويراد بها الروح كما يقال: خرجت نفس فلان، أي روحه، وتذكر ويراد بها القلب، كما يقال: أضمر فلان في نفسه كذا وكذا، فإذا احتمل اللفظ هذه الوجوه كلها وجب حمل الآية على أصح الوجوه لقيام الدلالة على وجوب تنزيه صفات اللَّه تعالى عن ما لا يجوز، ولو كانت النفس لا تستعمل إلا في أمر كائن في غيره لوجب في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[2] أن يقال: إن للنفس نفساً، فإذا بطل ذلك صح أن المراد به الجملة والذات كأنه قال: يوم يأتي كل أحد يجادل عن نفسه، فكان المراد بقوله: ولا أعلم ما في نفسك جملة الأمر وحقيقة ما عند اللَّه تعالى. فإن قيل: ليس في النصارى من اتخذ مريم إلّهاً، فما معنى هذا القول: قيل: إن لم يكن فيهم من يقول هذا القول فلا بد أن يكون فيهم من قال ذلك لأن هذه الآية تدل على أنهم قد قالوا ذلك، والتصديق بكتاب اللَّه تعالى أوجب من التصديق لنقل ناقل.

قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ أي ما قلت لهم شيئاً إلا القول الذي أمرتني به ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ﴾ أي وحّدوه وبايعوه، وكنت

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 41.
(2) سورة النحل (16)، الآية: 111.

عليهم شهيداً بالبلاغ ما دمت فيهم مقيماً بين أظهرهم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ معناه: فلما قبضتني إليك من بينهم ورفعتني إلى السماء كنت أنت الحفيظ عليهم، وأنت على كل شيء من مقالتي ومقالتهم مطلع عالم مشاهد. وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أمتني. وقالوا: إن عيسى ليس بحي في السماء. إلا أن القول الأول أشهر، ويحتمل أن اللّه أماته ثم أحياه ورفعه إلى السماء. وقال الحسن: الوفاة في كتاب اللّه على ثلاثة أوجه: وفاة الموت، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[1]، ووفاة النوم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[2] أي يميتكم، ووفاة الرفع، كقوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾[3].

قال اللّه تعالى:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (118) قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (119) لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ (120)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ قرأ الحسن: عبدك[4]. قيل: معناه التبعيض، أي إن تعذب الذين أقاموا على الكفر فإنهم عبادك، وإن تغفر للذين أسلموا وتابوا فإنك أنت العزيز الحكيم لأنه قال: أنت قلت للناس، وما قلت لهم وفيهم المسلمون والمشركون، فقوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ راجع إلى الكافرين.

وقوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ راجع إلى المؤمنين. وعن ابن عباس رضي اللّه

---

(1) سورة الزمر (39)، الآية: 42.
(2) سورة الأنعام (6)، الآية: 60.
(3) سورة آل عمران (3)، الآية: 55.
(4) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 42 قراءة الحسن.

عنهما في معنى هذه الآية: إن تعذبهم على هذه المقالة التي اقترفوها فإنهم عبادك، وإن يتوبوا فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم أي المنيع في مغفرتك لهم لا يمنعك أحد مما تريد، الحكيم في أمرك. فإن قيل: ظاهر الآية يقتضي سؤال المغفرة للكفار، والله لا يغفر أن يشرك به، فما معنى هذا السؤال؟ قيل: يحتمل أن لم يكن في كتابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾[1] ويحتمل أن يكون معناه: إن تغفر لهم كذبهم الذي قالوا عليّ. وقيل: إن عيسى علم أن منهم من آمن ومنهم من أقام على الكفر، فكأنه قال: إن تعذب الكفار منهم فإنهم عبادك وأنت القادر عليهم، وإن تغفر لمن آمن منهم فذلك فضل منك، لأنه كان لك أن لا تفعل ذلك بهم بعد عظيم فريتهم عليك. وكان هذا القول من عيسى عليه السلام على وجه الخضوع والانقياد والاستسلام، على معنى إنك أنت المالك والقادر على كل شيء، فلذلك قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ولو قال فإنك أنت الغفور الرحيم لأوهم الدعاء بطلب المغفرة والرحمة. وروي أنه لما نزلت هذه الآية أحيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلته بها، وكان بها يقوم وبها يقعد وبها يسجد، ثم قال: «**أمتي أمتي يا رب**». فنزل عليه جبريل فقال: إن الله تعالى يقرئك السلام ويقول لك: لا نسوءك على أمتك[2].

قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ من قرأ «يوم» بالرفع فمعناه: قال الله تعالى لعيسى عليه السلام: هذا يوم ينفع النبيين صدقهم بتبليغ الرسالات، والمؤمنين إيمانهم الذي هو صدق في الدنيا والآخرة، ولا ينفع الكفار صدقهم في الآخرة. ومن قرأ «يوم» بالنصب فعلى الظرف على معنى: قال الله لعيسى هذا القول الذي تقدّم ذكره في يوم ينفع الصادقين صدقهم[3]. وقال الكلبي: معنى الآية: قال الله: هذا يوم ينفع المؤمنين إيمانهم. وقيل: ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم في الآخرة. وقرأ الأعمش: هذا يوم ـ بالتنوين[4] ـ.

---

(1) سورة النساء (4)، الآية: 48، 116.
(2) تفسير القرطبي: 6/ 379.
(3) مكي، الكشف: 1/ 423.
(4) ذكر قراءة الأعمش الثعلبي في تفسيره، ورقة: 42.